يوسف النبهاني

الشاعر الفلسطيني الرائد

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٧٦٠

رسالة مقدمة من الطالب

عيسى محمد علي منصور ماضي

للحصول على درجة العالمية «الدكتوراه» من كلية اللغة العربية

بجامعة الأزهر الشريف

١٠٠٢٧٤٥

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور عبد السلام هرّاس

جامعة أم القرى
عمادة شؤون المكتبات
قسم الإعارة
UMM AL QURA UNIVERSITY MAKKAH

الجزء الثالث

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

القاهرة

الباب الرابع

مدائحه النبوية

الفصل الأول

نشأة المدائح النبوية وأطوارها

مقدمة

وجد المديح منذ أن شعر الانسان بالتميز بينه وبين الآخرين • وقد حدثنا القرآن الكريم عن أقدم صور المديح فى قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام واهتدائه الى الخالق ، قال تعالى : " واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى — هذا أكبر — فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين (١)" •

تضمنت هذه الآيات عدة صور من صور المديح منها صورة مدحه الاله الحق واستنكاره أن يكون صنما ومدحه الكوكب بأنه ربه وكذلك القمر والشمس وأخيرا من فطر السماوات والأرض •

والآيات بجملتها مدح للذات الالهية التى نزهها عن الأفول والمغيب •

---

(١) سورة الانعام آيات (٧٤—٧٩) •

وقد خلق الله البشر وجعلهم متساوين فى آدميتهم لا فرق بين أسودهم وأبيضهم من جهة الخلقة ، ولكنه تعالى لحكمته جعل هناك فوارق شخصية فى كل انسان ، هذه الفوارق منها العام مثل الكرم والشجاعة وغيرهما من الفضائل ، ومثل البخل والجبن وغيرهما من الرذائل ، ومنها الخاص وهو ما يسمى بالفوارق الشخصية ، ونظرا لهذا التفاوت أو ذاك ظهر المديح شعورا من الانسان بهذه الفوارق وقد ترجم هذا الشعور شعرا ونثرا .

وقد وصل الينا شىء من هذا المديح اكتشف على جدران المعابد والقبور والأهرام والقصور وغيرها من الآثار .

فعلى جدران المعابد فى مصر اكتشف العلماء " كتاب الموتى " وقرأوا فيه ... " السلام عليك أيها الاله العظيم جئتك يا الهى متحليا بالحق متخليا عن الباطل فلم اظلم أحدا ولم أسلك سبيل الضالين ولم أحنث فى يمين ، ولم تضلنى الشهوة فتمتد عينى لزوجة أحد من رحمى ، ولم تمتد يدى لمال غيرى ، ولم أقل كذبا ، ولم أكن لله عاصيا ولم أسع فى الايقاع بعبد عند سيده " .

وفى مزامير داود " انت مالك كل أمرى لأنك واضعى بيدك فى بطن أمى ، أحمدك وأشكرك فقد أتيت بالأعاجيب فى خلقى ـ كونت عظامى فى الخفاء وسمتنى على عينك وقدرت أمورى فى كتابك أنا لا أحصى نعمك فهى أكثر عددا من الرمل " (١) .

ومن هذا نلاحظ أن أقدم نصوص المدح التى وصلتنا كانت صيغ ثناء ومدح لله خالق الكون كأن هذا المدح كان الأجدر بالبقاء على الدوام .

ولم يكن حظ العرب فى المديح أقل من حظ الأمم الأخرى فقد توافرت لديهم دواعيه حيث كانت لهم أصنام يعبدونها وكان منهم الموحدون لابد أن يكونوا قد عبروا عن عاطفتهم الدينية هذه نظما أو نثرا ـ وهم أصحاب فصاحة ولكن الاسلام فيما يبدو ـ أنساهم كل معالم الجاهلية وبدل لهم حياة جديدة نقية ، ولذلك لم يصلنا مما قالوه الا النزر اليسير وللسبب ذاته انطمس ما قاله شعراء قريش فى محاربة الاسلام ولم يبق منه الا القليل فى حين وصلنا كل ما ما قاله شعراء المسلمين فى هجاء قريش لكفرها ..

---

(١) لاستكمال نصوص المديح فى مختلف الآداب العالمية فى أقدم عصور التاريخ .. راجع "المديح" للدكتور سامى الدهان ص ٧ ـ ١١ .

ولم تكن الدواعي الدينية هي الباعث الوحيد لدى العرب فقد كان لطبيعة بلادهم الصحراوية ونشوء الحروب بينهم التي أشهرها حرب داحس والغبراء وحرب البسوس فكانوا يمدحون الشجاعة والكرم والمحافظة على الجار ولما رحلوا الى الشام والعراق ورأوا ما كان عند الملوك من ترف ونعيم مدحوا الملوك وحظوا بجوائزهم مثل النابغة الذبياني ولما جاء مطلع الرسالة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة والسلام دخلت الجزيرة العربية في عهد جديد من الحضارة وتغيرت بعض المفاهيم وأصبحت ممنوعة وبعضها بقي على حاله حيث أكده الاسلام ودعا اليه وقد بقيت دواعي المديح في العصر الاسلامي كما كانت في العصر الجاهلي الا ما اتصل منها بالنواحي الدينية التي ابدلت بمفاهيم اسلامية جديدة وقد شغل شعراء قريش وشعراء المسلمين بالدفاع عن دينهم وفي عصر الخلفاء الراشدين على المسلمون في الفتوحات والحروب وكانت تعاليم الاسلام لا تزال تأخذ بمجامع قلوبهم فكبحت شيئا ما من دوافع المدح والثناء التي لم يحبذها الاسلام نوعا ما حتى جاء العصر الأموي الذي مهد له بحروب وانقسامات بين المسلمين .

وقد كان لطبيعة الحياة الاجتماعية القائمة في العصر الأموي أثر بالغ في عودة الأغراض الشعرية الجاهلية كما كانت ما عدا الأغراض الدينية حيث ظهرت العصبيات والمفاخرات حتى جاء العصر العباسي الذي دخل فيه الأدب مرحلة جديدة لازدهار الثقافة والعلوم ، وبروز جنسيات مختلفة في الحياة العامة . فشغل الشاعر عن المفاخرة والمديح وتفتحت أمامه أغراض أخرى .

المديح النبوي في العصر المكي :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم لينقذ البشرية من الظلمات ويدعوها الى عبادة الله وحده لا شريك له وشرف الله تعالى العرب بأن جعل الرسول صلى الله عليه وسلم منهم وقد مكث عليه السلام ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو قريشا فما آمن منهم الا نفر قليل بالنسبة للجهد والاذى الذي بذله وتحمله عليه السلام في هذه الفترة ولم يكن في هؤلاء النفر شاعر كما أنهم كانوا مستضعفين ومستترين ، ولهذا لا نجد في هذه الفترة من بين المسلمين من قال شعراً في مدح الرسول . ولكن الرسول عليه السلام قد واكبه المدح والثناء من يوم ولادته .

يقول ابن هشام " ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول من عام الفيل " (١) ثم يقول : حدثني من شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت قال : والله اني لغلام يفع ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت ... اذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر اليهود ... حتى اذا اجتمعوا اليه قالوا له : ويلك مالك قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به " (٢) وذكر ابن هشام أيضا قال : " ويزعمون ـ فيما يتحدث الناس والله اعلم ـ أن آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة فاذا وقع الى الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سمية محمدا " (٣) .

من هذا نعلم أن الحمد والثناء قد واكب الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن حملت به أمه وفي ولادته ثم شب هذا الوليد وترعرع بعناية الله وحفظه وكانت بركاته وعبره لا تنقطع . وعرف هذا الغلام في قريش بالأمين وعلى يديه أطفأ الله فتنة كادت تحدث في قريش لاختلافهم على وضع الحجر الأسود في مكانه بعد بناء الكعبة يقول ابن هشام " ... فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد ، فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلم الى ثوبا فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة ناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه " (٤) .

من هذا وغيره نعلم أن مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محفوظة ومهيبة في قريش وهو الذي لم يكن يجلس في مجالس لهوهم المعروفة . ولعل الصحابة رضي الله عنهم تفاضوا عن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر لأنهم في مدحهم اياه في ذلك الحين قد يسببون ضررا بالغا للمسلمين اذ أن الشعر كان سريع السريان

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٤٦ .

(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

فى قريش والقبائل • وقد كان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يعنى اثارة قريش لتزيد من التنبه لخطر هذه الدعوة الجديدة ـ الاسلام ـ وبالتالى زيادة أضطهاد المسلمين وتعذيبهم وما ورد من شعر فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كان من غير المسلمين مثل أبى طالب الذى يقول فى قصيدته :

لعمرى لقد كلفت وجدا بأحمد * * واخوته دأب المحب الواصل
فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها * * وزينا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل * * اذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش * * يوالى الها ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجىء بسبة * * تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة * * من الدهر جدا غير قول التهازل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة * * تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته * * ودافعت عنه بالذرا والكلاكل (١)
فأيده رب العباد بنصره * * وأظهر دينا حقه غير باطل (٢)

والقصيدة بلغت أربعة وتسعين بيتا كما أوردها ابن هشام الذى يقول : ••
" هذا ما صح لى من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها " أما الشيخ النبهانى فقد أورد منها أبياتا غير موجودة فى سيرة أبن هشام وهى :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * * ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطيف به الهلاك من آل هاشم * * فهم عنده فى نعمة وفواضل
كذبتم وبيت الله نسبزى محمدا * * ولما نطاعن حوله ونناضل (٣)
ونسلمه حتى نصرع حوله * * ونذهل عن أبنائنا والحلائل (٤)

فيصبح مجموع أبيات القصيدة ثمانية وتسعين بيتا •
يقول الشيخ النبهانى " وهى مع طولها من أفصح الشعر وأبلغه وأحمسه (٥)

---

(١) حدبت : عطفت • الذرا جمع ذروة أعلى ظهر البعير • الكلاكل عظام الصدر •
(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٥١ •
(٣) المطاعنة بالرماح والمناضلة بالسهام •
(٤) المجموعة النبهانية حـ ١ ص ٤٥ ـ ٤٦ •
(٥) المصدر السابق •

ولأبي طالب قصائد أخرى ذكر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء والمدح والتأييد مفاخرا بابن اخيه قريشا وبقية القبائل .

وقد أورد الشيخ النبهاني قصيدة لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه قالها حين أسلم وهي :

حمدت الله حين هدى فؤادي * * الى الاسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز * * خبير بالعباد بهم لطيف
اذا تليت رسائله علينا * * تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد في هواها * * بآيات مبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع * * فلا تغشوه بالقول المنيف
فلا والله نسلمه لقوم * * ولما نقض فيهم بالسيوف (١)

وممن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا العصر الأعشى ميمون بن قيس ابن ثعلبة يقول ابن هشام : خرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يمدح :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * * وبت كما بات السليم مسهدا (٢)
وما ذاك من عشق النساء وانما * * تناسيت قبل اليوم خلة مهددا (٣)
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن * * اذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
كهولا وشبانا نقدت وثروة * * فلله هذا الدهر كيف تردد
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع * * وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

الى أن يقول :

فآليت لا أرثي لها من كلالة * * ولا من حفى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم * * تراحي وتلقي من فواضله ندى
نبي يرى مالا ترون وذكره * * أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل * * وليس عطاء اليوم ما نعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد * * نبي الاله حيث أوصى وأشهدا (٤)

---

(١) المجموعة النبهانية حـ ١ ص ٤٨ .
(٢) الارمد من يشتكي الرمد . السليم : الملدوغ . المسهد الذي منع من النوم .
(٣) مهددا أسم امرأة
(٤) سيرة ابن هاشم حـ ٢ ص ٢٦ ديوان الاعشى ص ٩ .

والقصيدة بلغت ثلاثة وعشرين بيتا :

وقد عاد الأعشى ولم يقابل الرسول صلى الله عليه وسلم حيث منعته قريش وأصبحت نهمه بابل جمعتها له ومات مشركا .

هذا أهم ما قيل فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى الفترة المكية وقد كان مدح أبى طالب وحمزة أقرب الى الفخر بابن أخيهم من المدح المعروف حيث ان أبا طالب ناصر الرسول وحماه لقرابته منه وقصيدة حمزة أقرب للمدح من قصيدة أبى طالب حيث ان حمزة قالها بعد الاسلام فهو يحمد الله أن هداه للاسلام ويعترف لابن أخيه بالفضل فى ذلك لأنه صاحب الرسالة ، أما قصيدة الاعشى فهى تمثل المدح أكثر من غيرها ، وذلك أن غرض الأعشى الأول من قصيدته هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لنيل رفده ونواله فقد جعل لقصيدته مقدمه ذكر فيها متاعبه وهمومه هو وناقته ثم خلص الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وجعل لها خاتمة ببعض النصائح والتعاليم التى كان يسمعها عن الاسلام وأنا أخالف الدكتور زكى مبارك فى قوله بعد أن أورد أبياتا من القصيدة ولكن هذا ليس من المدائح النبوية .... لأن الاعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية فى مدح الرسول وانما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبى الاسلام وآية ذلك أنه انصرف حين عرفته قريش ولو كان صادقا ما تحول "(١) وبعد أن أورد قصة أنصراف الأعشى عن مدح الرسول ورضاه بالابل التى جمعها أبو سفيان من قريش يقول الدكتور مبارك " وهذه القصة تدل على أن مدحه للرسول لم يكن الا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يتكسبون بالمديح وليس فى قصيدته أثر لعاطفة دينية قوية حتى تلحق بالمدائح النبوية "(٢) .

أخالف الدكتور زكى مبارك فيما ذهب اليه لان ابن هشام أورد فى سيرته عند ذكره القصيدة قوله " قال ابن هشام حدثنى خلاد بن قرة بن خالد السدوسى وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم : أن أعشى بنى قيس

---

(١) المدائح النبوية ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨ .

ابن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل خرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الاسلام فقال يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الخ"(١) اذن كان في قلب الاعشى شيء من الاسلام خالطه حب المال فتوجه الى الرسول يمدحه ليحقق الهدفين ولو لم يكن في قلبه شيء من الاسلام لما اختار الرسول وكان بامكانه أن يمدح غيره من ذوي الشرف والكرم وأما كونه عاد ورضي بالابل فذلك لأن أبا سفيان بدد بلوما سيته أجل قدومه على الرسول صلى الله عليه وسلم للعام القادم فقط ولربما حاول أبو سفيان أن يثنيه عن مدح الرسول الى هجائه فيما لو كان غرض الأعشى الحصول على المال فقط — كما صوره الدكتور زكي مبارك — لغير موقفه بقدر ما يعرض عليه . أقول لو أستطاع أبو سفيان أن يحصل على قصيدة واحدة في هجاء الرسول من الأعشى لزاده في الابل كثيرا لأن قريشا كانت تلتمس كل الأسباب التي تمنع لقاء الرسول بالقبائل العربية وليس أفضل في ذلك من قصيدة يقولها الأعشى في هجاء الرسول فتنتشر بين القبائل .

ولو نظرنا الى ما دار بين أبي سفيان والأعشى لوجدنا الأعشى متفهما لتعاليم الاسلام وكل ما فعله أن أجل اسلامه هذا العام طمعا في الابل وحبه الخمر التي سيروى منها هذا العام ليسلم في العام القادم . " فقد حدثوا أن قريشا رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد ؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ليسلم فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر . فقال لقد تركني الزنا وما تركته وأبدى زهده في القمار رجاء أن يصيب من النبي عوضا منه وقال عن الربا ما دنت ولا أدنت . وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال : أوه أرجع الى صبابة قد بقيت في المهراس فأشربها . فقال له أبو سفيان هل لك في خير مما هممت به قال وما هو ؟ قال نحن الان في هدنة فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير اليه أمرنا فان ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا وان ظهر هو علينا أتيته فقال ما أكره ذلك وجمع له أبو سفيان من حمر النياق مائة فأخذها وأنطلق الى بلده فلما كان بقناع منفوحة رمى به بعيره فقتله "(٢) .

في هذا النص يبدو الأعشى متهيئا لقبول الاسلام فهو يوافق على تحريم الزنا والقمار والربا ثم يقول الأعشى لأبي سفيان ان قدومه لأجل الاسلام وكونه قال قصيدة ليمدح الرسول قبل الاسلام فهذا لا ينقص من قيمة قصيدته لانه شاعر وهذه بضاعته

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) مهذب الاغاني حـ ١ ص ١٦٣ .

بين يديه • ثم لو اشترطنا الصدق والاخلاص في المديح لأسقطنا معظم شعر المديح الذى قيل فى مدح الملوك والأمراء والقواد وقد أثار الدكتور محمد حسين شارح ديوان الاعشى [١] • بعض الشبهات حول قصيدة الاعشى التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصا فى نصفها الاخير زاعما أن أبياته فى منتهى الركاكة والتفاهة وأنه متأثر ببعض آيات القرآن الكريم وأنه يصور الأعشى ملما بتعاليم الاسلام الماما حسنا وأن ذلك يتنافى مع ما زعمه السواة من أن الاعشى عاد حين علم أن الاسلام يحرم الخمر وقد رد عليه الدكتور عبد السلام سرحان [٢] ، مفندا هذه الاتهامات التي قالها أيضا الدكتور ، طه حسين وأيده بروكلمان [٣] وأفرام البستاني [٤] •

المدائح النبوية في العصر المدني :

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة فشرفت بمقدمه ولاقاه أهلها بالبشاشة والترحيب وعزف قيثار السرور والفرح والاستبشار بمقدمه ثم أحلوه فى قلوبهم وكانوا أطوع له من بنانه • وبهجرة الرسول الى المدينة دخلت الدعوة الاسلامية طورا جديدا اذ أصبحت قادرة على اقامة المجتمع الاسلامى الذى تدعو اليه مع تطبيق الاحكام والمثل التى جاءت بها وأصبحت الكلمة العليا فى المدينة المنورة لله ولرسوله ولكن لم ينته أعداء الدعوة الاسلامية فقد بقيت قريش هى العدو الأول للمسلمين وهى التى تقف حائلا بين الاسلام والقبائل العربية الاخرى لما لها من مكانة دينية وتجارية لدى القبائل • وقد تحول عداء قريش وأذيتها للرسول صلى الله عليه وسلم من الفعل الى القول وبرز شعراؤها لهجاء الرسول والاسلام مثل عبد الله بن الزبعرى ، وهبيرة بن أبي وهب ، وعمرو بن العاص ، وأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، والحارث بن هشام ، وضرار بن الخطاب ، وأمية ابن أبي الصلت وغيرهم فرد عليهم شعراء المسلمين من الأنصار وعلى رأسهم حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه رضى الله عنهم • وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبارك لهؤلاء الشعراء ردهم على شعراء قريش ويقول " والله لهن

---

(١) رقم ١٧ فى الديوان ص ١٣٥ •
(٢) الاعشى صناجة العرب ـ مخطوط ـ للدكتور عبد السلام سرحان ص ٦٠ـ٦٢
(٣) تاريخ الادب العربى (١ : ٤٨) •
(٤) مجلة المشرق (٣٠ : ٧٦٣ ـ ٧٧٠) •

اشد عليهم من نضح النبل ويقول لحسان " أهجهم وروح القدس معك (١) ".

وقد كان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يتخلل هذه الردود ، مع اطراء الاسلام واشادة به .

ويمكننا أن نصنف المدائح النبوية من حيث الشكل فى هذا العصر الى ثلاثة أساليب .

الأسلوب الأول المدح التقليدى . وهو أن يبدأ الشاعر قصيدته على النمط الجاهلى حيث يفتتحها بالنسيب أو ذكر الاطلال ووصف الناقة ثم يخلص الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

من هذا الأسلوب قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

عفت ذات الأصابع فالجواء ** الى عذراء منزلها خلاء (٢)
ديار من بنى الحسحاس قفر ** تعفيها الروامس والسماء (٣)
وكانت لا يزال بها أنيس ** خلال مروجها نعم وشاء (٤)
فدع هذا ولكن من لطيف ** يؤرقنى اذا ذهب العشاء (٥)

الى أن يصل الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

هجوت محمدا فأجبت عنه ** وعند الله فى ذاك الجزاء
اتهجوه ولست له بكفء ** فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا ** امين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ** ويمدحه وينصره سواء
فان أبى ووالده وعرضى ** لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لا عيب فيه ** وبحرى لا تكدره الدلاء (٦)

---

(١) راجع الاغانى جـ٤ ص٨ .
(٢) عفا المنزل درس ذات الاصابع والجواء موضعان . الخلاء الذى لا شىء فيه .
(٣) تعفيها تدرس فلا يبقى لها أثر . الروامس الرياح الدوافن للاثار . السماء المطر .
(٤) المرج الموضع ترعى فيه الدواب والنعم الابل .
(٥) الطيف الخيال فى النوم ويؤرقنى يسهرنى .
(٦) ديوان حسان بن ثابت ص٩ـ١٠ .

والقصيدة بلغت واحد وثلاثين بيتا .

ومن يمثلون هذا الأسلوب فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير وكانت بداية أمره كما جاء فى شرح ديوانه للسكرى " أن أسلم بجير بن زهير بن أبى سلمى المزنى فاشتد عليه أهله وكان كعب بن زهير وهو أخوه لأبيه وأمه شديدا عليه فلقى بجير النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرا فأرسل اليه كعب بن زهير:

الا أبلغا عنى بجيرا رسالة ** فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا ؟
شربت مع المأمون كأسا رويه ** فأنهلك المأمون منها وعلكا

قال وكانت قريش تسمى النبى صلى الله عليه وسلم المأمون والأمين :

وخالفت أسباب الهدى وتبعته ** على أى شىء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف اما ولا أبا ** عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

فلما بلغت هذه الأبيات بجيرا أنشدها النبى صلى الله عليه وسلم فقال صدق أنا المأمون وانه لكاذب . قال أجل لم يلف أباه ولا أمه على الاسلام ثم أجابه بجير بقوله :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى ** تلوم عليها باطلا وهى أحزم
الى الله لا العزى ولا اللات وحده ** فتنجو اذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ** من النار الا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شىء باطل ** ودين أبى سلمى على محرم

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة منصرفه من الطائف كتب بجير الى أخيه " ان النبى صلى الله عليه وسلم يهم بقتل كل من يؤذيه من شعراء المشركين وان ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربا . فان كان لك فى نفسك حاجة فأقدم على رسول الله فانه لا يقتل أحدا جاءه تائبا وان أنت لم تفعل فانج الى نجائك من الأرض . فلما أتاه كتاب بجير ضاقت به الارض واشفق على نفسه وأرجف من كان حاضره وقالوا هو مقتول وأبت مزينة أن تؤويه فقدم المدينة فنزل على رجل بينه وبينه معرفة[1] ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النبى عليه السلام لا يعرفه

---

(١) زاد ابن هشام — من جهينه — راجع السيرة النبوية جـ٤ ص١٠٩ . وقد ذكرها صاحب الاغانى برواية أخرى فيها اختلاف جـ١ ص٣٤٣ — ٣٤٦ .

فجلس بين يديه ثم قال يارسول الله أن كعب بن زهير أتاك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه أن أنا جئتك به قال نعم قال فأنا كعب فوثب رجل من الأنصار فقال دعنى أضرب عنقه فكفه النبى عليه السلام عنه فقال كعب يمدح النبى صلى الله عليه وسلم وخص المهاجرين من قريش بالمدح * مع مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول * * متيم اثرها لم يجز مكبول (١)
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا * * الا أغن غضيض الطرف مكحول (٢)
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة * * لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت * * كأنه منهل بالراح معلول (٣)
يسعى الوشاة جنابيها وقولهم * * أنك يا ابن ابى سلمى لمقتول (٤)
وقال كل خليل كنت آمله * * لا الفينك أنى عنك مشغول (٥)
فقلت خلوا طريقى لا أبا لكم * * فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن انثى وأن طالت سلامته * * يوما على آلة حدباء محمول
انبئت أن رسول الله أوعدنى * * والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ * * ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٦)
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم * * أذنب ولو كثرت فى الاقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به * * أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل (٧)
لظل يرعد الا أن يكون له * * من الرسول باذن الله تنويل (٨)
حتى وضعت يمينى لا أنازعه * * فى كف ذى نقمات قيله القيل

---

(١) بانت : انفصلت * وتبله الحب اسقمه * وتيمة الحب استعبده ومكبول : مقيد *
(٢) الاغن الذى فى صوته غنة وهو صوت لذيذ * وغضيض الطرف الذى فى طرفه كسر وفتور *
(٣) العوارض الانسان * الظلم الريق * المنهل محل النهل وأصله الشرب الاول * الراح الخمر والعلل الشرب الثانى *
(٤) الوشاة الذين يشون الكذب ويزينونه (٥) لا الفينك : لا أنفعك فأعمل لنفسك
(٦) النافلة العطية وفيها شارة الى ان الله تعالى أنعم على رسوله بعلوم كثيرة علمه اياها وجعل الكتاب زيادة *
(٧) ولما كان الفيل عنده ضخما توهم أنه اسمع الاشياء

(٨) تنويل من النائل وهو العطاء وهنا الامان والعفو *

الى أن يقول :

ان الرسول لنور يستضاء به ** مهند من سيوف الله مسلول (١)
فى عصبة من قريش قال قائلهم ** ببطن مكة لما أسلموا زولوا (٢)
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ** عند اللقاء ولا ميل معازيل (٣)
شم العرانين أبطال لبوسهم ** من نسج داود فى الهيجا سرابيل (٤)
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ** ضرب اذا عرد السود التنابيل (٥)
لا يفرحون اذا نالت رماحهم ** قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا
لا يقع الطعن الا فى نحورهم ** ما ان لهم عن حياض الموت تهليل (٦)

قال فلما سمعت الأنصار هذه القصيدة شق عليهم حيث لم يذكرهم مع اخوانهم من المهاجرين فتعطفت عليه وأهدت اليه وكلموا النبى صلى الله عليه وسلم فأمنه وقالوا الا ذكرتنا مع اخواننا من قريش فقال كعب يذكر الانصار :

= هذه الصياغة للبيت لانها تعطى معنى خاطئا وأعاد صياغة البيت هكذا :
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ** يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل
وهو نقد قوى صحيح — راجع تفاصيله من ثمار الأدب (٢ : ٢٤٥) .

(١) الضمير فى به " عائد على الرسول " .
(٢) زولوا اى انتقلوا من مكة الى المدينة بالهجرة .
(٣) معازيل جمع معزل وهو الذى لا سلاح معه — الكشف الذين ينهزمون ولا يثبتون الكشف الذى لا ترى معه فى الحرب الميل جمع اميل وهو الذى يثبت على السرج .
(٤) العرانين واحدها عرنين هو طرف الانف . الشم : حدة طرف الانف مع تشمير .
(٥) التنابيل جمع تنبال وهو القصير . عرد : قربت . يعصمهم يمنعهم . الزهر البيض ويقال انه عرض بالانصار فى هذا البيت .
(٦) تهليل : تكذيب .

من سره كرم الحياة فلا يـــــزل ** فى مقنب من صالحى الأنصـــار (١)
تزن الجبال رزانة أحلامهـــــم ** وأكفهم خلف من الأمطـــــار
المكرهين السمهرى بـــــاذرع ** كصواقل الهندى غير قصـــار (٢)
والزائدين الناس عن أديانهـــــم ** بالمشرفى وبالقنا الخطـــار (٣)
والباذلين نفوسهم لنبيهـــــم ** يوم الهياج وقبة الجبـــار (٤)
وهم اذا خوت النجـــوم فانهـــم ** للطائفين السائلين مقـــارى (٥)
والمطعمون الضيف حين ينوبهـــم ** من لحم كوم كالهضاب عشـــار (٦)

الأسلوب الثانى : المدح النبوى المباشـــر :

وهو ما قيل فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة دون مقدمات وهـــذا النوع من الشعر معظمه أبيات ومقطوعات منها قول عبد الله بن رواحة يمدح الرســـول صلى الله عليه وسلم :

انى تفرست فيك الخـــير أعرفـــه ** والله يعلم أن ما خاننى بصـــر
أنت النبى ومن يحرم شفاعتـــه ** يوم الحساب فقد أزرى به القـــدر
فثبت الله ما آتاك من حســـن ** تثبيت موسى ونصرا كالذى نصـــروا (٧)

---

(١) المقنب الجماعة من الفوارس نحو الثلاثين اكثر أو اقل .
(٢) السمهرى الشديد .
(٣) المشرفى السيف .
(٤) قبة الجبار اراد بيت الله الحرام .
(٥) شرح ديوان كعب بن زهير ٦ـ٢٥ .
(٦) يقال خوت النجوم واخوت اذا لم يكن لها مطر . مقارى فى القرى وهو اكرام الضيف .
(٧) اسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٥٧ .

ويقول حسان بن ثابت يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أغر عليه للنبوة خاتم ** من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الاله اسم النبى الى اسمه ** اذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ** فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتانا بعد يأس وفترة ** من الرسل والاوثان فى الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ** يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشر جنة ** وعلمنا الاسلام فالله نحمد
وأنت اله الخلق ربى وخالقى ** بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ** سواك الها أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله ** فاياك نستهدى واياك نعبد (١)

وقال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

منع الرقاد بلابل وهموم ** والليل معتلج الرواق بهيم (٢)
مما أتانى أن أحمد لامنى ** فيه فبت كأننى محموم
يا خير من حملت على أوصالها ** عيرانة سرح اليدين غشوم (٣)
انى لمعتذر اليك من الذى ** اسديت اذ أنا فى الضلال اهيم (٤)
أيام تأمرنى بأغوى خطة ** سهم وتأمرنى بها مخزوم (٥)
وأمد أسباب الردى ويقودنى ** أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد ** قلبى ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ** وأتت أواصر بيننا وحلوم (٦)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت .
(٢) اعتلجت الارض طال نباتها والرواق الستر . البهيم الاسود .
(٣) العيرانة من الابل الناجية فى نشاط والسرح السريعة . الغشوم الذى يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه .
(٤) اسداء اهمله — ورجل هائم متحير .
(٥) سهم أى بنو سهم .
(٦) اواصر جمع اصرة وهى القرابة وحلوم عقول .

فاغفر فدى لك والذى كلاهما ** زللى فانك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة ** نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ** شرفا وبرهان الاله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ** حق وأنك فى العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ** متقبل فى الصالحين كريم
قسم علا بنيانه من هاشم ** فرع تمكن فى الذرا وأروم (١)

ومعظم مدائح الصحابة جاء على هذا الأسلوب غير ما قيل فى الرد على شعراء المشركين أصلا ثم يأتى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الرد وقد جمع الشيخ النبهانى فى المجموعة النبهانية معظم ما قاله الصحابة من هذه المدائح ٠ (٢)

ونحن نلاحظ أن هذا النوع من المديح قد خرج على منهاج الجاهليين اذ لم يقدم المادحون بين يدى وصفهم للنبى واطرائهم له أى شىء مما تعود شعراء الجاهلية أن يقدموا به قصائدهم سواء منها ما كان فى المديح أو فى الوصف أو فى الحماسة والفخر اذ كان أولئك الجاهليون يستهلون قصائدهم بديباجة من النسيب والتشبيب (٣) ، وهذا اللون من الشعر وليد البيئة الاسلامية الجديدة ولم يكن له قبل هجرة الرسول فى الشعر العربى وجود ٠

ذلك أن الظروف السياسية والاجتماعية التى كان المسلمون يعيشونها فى مكة لم تكن تسمح لهم بالتغنى بمآثر الرسول وفضائله بالاضافة الى أن الاسلام فى المدينة المنورة أخذ مكانه الصحيح بدلا من الدعوة الى التطبيق وظهرت أحكامه ناصعة جميلة

---

(١) القرم السيد الذرى جمع ذروة وهى أعلى الشىء وأروم جمع أرومة وهى الاصل ٠ سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٥ـ٤٦ ٠ أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٦٠ ٠
(٢) المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية جـ ١ ص ٥٦ـ٧٦ ٠
(٣) المديح النبوى فى القرن الاول الهجرى ص ٢٤ـ٢٣ ٠

فزادت محبتهم وفهمهم لحقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والذى نلاحظه فى هذا الأسلوب من المديح أنه طرق موضوعا واحدا وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فعدد فضائله ومآثره كما تصور الشاعر ، ويعد هذا اللون من المديح فتحا جديدا فى الأدب العربى حيث خرج عن النسق المألوف الذى يسترفى قصيدة المديح عدة أغراض أخرى .

ونلاحظ فى هذا الطرز من المديح أيضا أن القصيدة أو الأبيات تعد وحدة مترابطة متماسكة غير ماهو موجود فى قصائد المديح الأخرى مثل قصيدة كعب بن زهير فيمكن أن نفصل المقدمة بأبياتها الغزلية عن القصيدة ثم نفصل الأبيات التى قالها فى مدح الرسول ثم الأبيات التى قالها فى مدح المهاجرين وهكذا نبدو القصيدة عدة حلقات يجمعها مكان واحد ويمكن فصل كل حلقة عن غيرها .

الأسلوب الثالث : الرثـــاء :

وهى الأبيات والمقطعات التى فاضت بها قرائح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تعبيرا عما اعتراهم من حزن اثر وفاته وهو على نوعين .

النوع الأول : ما جرى مجرى الرثاء التقليدى حيث يجعل الشاعر للقصيدة مقدمة فى ذكر الأطلال أو يقدمها بالبكاء والأسف والحزن مثل قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

بطيبة رسم للرسول ومعهد ** منير وقد تعفو الرسوم وتهمد (١)
ولا تمحى الآيات من دار حرمة ** بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضح آثار وباقى معالم ** وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ** من الله نور يستضاء ويوقد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ** وقبرا بها واراه فى الترب ملحد

---

(١) الرسم ما بقى من آثار الديار ، تعفو : تدرس ، تهمد تبلى .

وأضحت أرضنا مما عراها * * تكاد بنا جوانبها تميل

الى أن يقول :

أصبنا بالنبي وقد رزانا * * بما يوحى اليه وما يقول[1]

يخبرنا بظهر الغيب عما * * يكون فلا يخون ولا يحول

أفاطم ان جزعت فذاك عذر * * وأن لم تجزعي فهو السبيل

فصوذي بالعزاء فان فيه * * ثواب الله والفضل الجزيل

وقولي في أبيك ولا تملي * * وهل يجزي بفعل أبيك قيل

فقبر أبيك سيد كل قبر * * وفيه سيد الناس الرسول

صلاة الله من رب رحيم * * عليه لا تحول ولا تزول[2]

أما الاسلوب الثاني من المراثي فهو يصل للموضوع مباشرة دون حاجة لمقدمات وهو كثير فان معظم الصحابة رضى الله عنهم قالوا شعرا في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم أو تمثلوا به ولو كان بيننا واحدا .

تقول صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها عمة النبي صلى الله عليه وسلم :

الا يارسول الله كنت رجاءنا * * وكنت بنا برا ولم تك جافيا

وكنت بنا رؤفا رحيما نبينا * * ليبك عليك اليوم من كان باكيا[3]

افاطم صلى الله رب محمد * * على جدث أمسى بيثرب ثاويا

أرى حسنا أبتمته وتركته * * يبكي ويدعو جده اليوم نائيا

فدى لرسول الله أمي وخالتي * * وعمي ونفسي قصرة ثم خاليا[4]

---

(١) رزانا : أصابنا .

(٢) المجموعة النبهانية حـ ١ ص ٤٩ ـ ٥١ .

(٣) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٤٩ .

(٤) النبهاني ذكر أنه نقلها من المواهب اللدنية للقسطلاني .

الى أن يقول :

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ** بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ** عليه بناء من صفيح منضد

الى أن يقول :

فبكى رسول الله يا عين عبرة ** ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى ** على الناس منها سابغ يتفمد
فجودى عليه بالدموع وأعولى ** لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد

ويختمها بقوله :

وليس هواى نازعا عن ثنائه ** لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره ** وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد (١)

والقصيدة طويلة حيث بلغت سبعة وأربعين بيتا ..

وفى هذا النوع من الرثاء أيضا قصيدة أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم :

أرقت وبات ليلى لا يزول ** وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء وذاك فيما ** أصيب المسلمون به قليل
فقد عظمت مصيبتنا وجلت ** عشية قيل قد قبض الرسول
فظل الناس منقطعين فيها ** كأن الناس ليس لهم حويل (٢)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٢ـ٢٣٤ . الديوان ص ٥٤ـ٥٧ .

(٢) الحويل القدرة على التصرف .

صبرت وبلغت الرسالة صادقـــــا ** وقدمت صلب الدين أبلج صافيـــا
فلو أن رب العرش أبقاك بيننـــا ** سعدنا ولكن أمره كان ماضيـــا
عليك من الله السلام تحيـــــة ** وأدخلت جنات من العدن راضيـــا (١)

وقال كعب بن مالك الأنصارى :

ألا عين فابكى بدمـــــع ذرى ** لخير البرية والمصطفـــــى
وبكى الرسول وحق البكـــــاء ** عليه لدى الحرب عند اللقـــا
على خير من حملت ناقـــــة ** وأتقى البرية عند التقـــى
على سيد ماجد جحفـــــل ** وخير الأنام وخير اللهـــا (٢)
له حسب فوق كـــل الأنـــا ** م من هاشم ذلك المرتجـــى
نخص بما كان من فضلـــه ** وكان سراجا لنا فى الدجـــى
وكان بشيرا لنا منـــذرا ** ونورا لنا ضوءه قد أضـــا (٣)

وقالت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها :

ماذا على من شم تربة أحمـــد ** ألا يشم مدى الزمان غواليـــا
صبت على مصائب لـــو أنهـــا ** صبت على الأيام عدن لياليـــا (٤)

ويقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

تب المساكين أن الخير فارقهـــم ** مع النبى تولى عنهم سحـــرا (٥)
من ذا الذى عنده رحلى وراحلتـــى ** ورزق أهلى اذا لم يؤنسوا المطـــرا

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٤٩ .
(٢) اللها جمع الهو وهى العطية او افضلها .
(٣) ديوان كعب بن مالك ص ٥٧ .
(٤) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٤٩ ذكر الشيخ النبهانى انه نقلها من كتاب سلوة الكئيب بوفاة الحبيب للحافظ شمس الدين بن ناصر الدمشقى .
(٥) تب : هلك .

الى أن يقول :

فليتنا يوم واروه بملحـــــــده ** وغيبوه والقوا فوقه المـــــــدرا (١)
لم يترك الله منا بعده أحـــــــدا ** ولم نفش بعده أنثى ولا ذكـــــرا (٢)
ذلت رقاب بنى النجار كلهـــــم ** وكان أمرا من امر الله قد قـــــدرا (٣)

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

أجود بالعينك لا تنـــــــــام ** كأن جفونها فيهـــــا كـــــلام (٤)

وقال عمر بن الخطاب رضى اللـه عنه :

مازلت مذو وضعوا فراش محمـــــد ** كيما يمرض خائفا أتوجـــــح (٥)

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه :

فياعينى أبكى ولا تسأمـــــــى ** وحق البكاء على السـيد (٦)

وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه :

ألا طرق الناعى بليل فراعـــــنى ** وأرقنى لما استقر منادبـــــا (٧)

---

(١) المدر قطع الطين اليابس .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ .
(٣) المجموعة النبهانية ج ١ ص ٤٨ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق .
(٧) طرقه دخل عليه ليلا الناعى المخبر بالموت وراعه اخافه وارقه اسهده ... المصدر السابق .

هذه أهم معالم المدائح النبوية التى قيلت فى الرسول صلى الله عليه وسلم فى عصره وبعد موته ثم جاء عصر الخلفاء الراشدين وقد خمد الشعراء اجمالا حيث ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه شغل فى حروب الردة وفى تسيير غزوة أسامة ابن زيد وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه شغل المسلمون فى الفتوحات وفى خلافة عثمان بن عفان شغل المسلمون — مع الفتوحات — بالفتنة وفى خلافة على ابن أبى طالب رضى الله عنه استوعبت الفتنة كل أيام خلافته ولم يظهر شىء من المدائح النبوية .

وفى العصر الاموى نجد نهضة شعرية زاهرة حيث خرج المسلمون من المعارك والفتن فمالوا الى الاستقرار وحب السلام ولكن عادت كثير من النعرات العصبية التى وجد الشعر فيها غذاء فسادت أغراض الشعر الجاهلى وعادت الى الظهور . من خلال تيارات سياسية مختلفة من خوارج وشيعة وزبيرية وأموية وكان لكل هؤلاء شعراؤهم الذين يدعون لسياستهم ونحن لا نجد من الأشعار التى قيلت تحت ظلال هذه الأحزاب السياسية ما له صلة أو قرابة بمدح الرسول أو ذكره والاشادة به الا ما قيل انتصارا لآل البيت النبوى من أبناء على بن أبى طالب . رضى الله عنه ، اذ كان الشاعر يتخذ من صلتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة للمطالبة بحقوقهم السياسية والعطف عليهم ومن هنا قد تعد الأشعار التى قيلت فى آل البيت من جملة المدائح النبوية . حيث ان آل البيت كانوا يستمدون قدسيتهم من صلتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كان المسلمون جميعا يحفظون لهم هذه الحرمة حتى من رجال بنى أمية الحزب الحاكم . وقد كان لمقتل الامام على وخذلان جنده له فى صفين الأثر الأول فى بداية التشيع ثم استشهد الامام الحسين فى كربلاء فعمق حب آل البيت فى قلوب المسلمين وأصبح ذكرهم يثير معانى الشفقة والرحمة ويبرز معالم الضياع والالام التى لحقت بأسرة الحسين بعد استشهاده .

وتصادفنا فى هذه الفترة قصيدة للفرزدق قالها يمدح آل البيت والشاعر لم يشتهر بكونه شاعر آل البيت ولكن حب آل البيت كان كامنا فى قلبه وسرعان ما أظهره عندما وجد من يثيره ، فقد روى أنه حج بعدما بلغ سبعين سنة وكان هشام بن عبد الملك يحج فى ذلك العام فرأى على بن الحسين رضى الله عنهما يطوف

بالبيت والناس يوسعون له الطريق فقال من هذا الشاب الذى تبرق اسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى وجوهها ؟ فقالوا هذا على بن الحسين ، ويبدو أن تساؤل هشام بن عبد الملك أثار الفرزدق وكشف عن تشيعه الخفى فأنشد هذه القصيدة التى يقول فيها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ** والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ** هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله ** بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره ** العرب تعرف من أنكرت والعجم
اذا رأته قريش قال قائلها ** الى مكارم هذا ينتهى الكرم
يغضى حياء ويغضى من مهابته ** فما يكلم الا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحه عبق ** من كف أروع فى عرنينه شمم
يكاد يمسكه عرفان راحته ** ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم (١)
الله شرفه قدما وعظمه ** جرى بذاك له فى لوحه القلم
أى الخلائق ليست فى رقابهم ** لأولية هذا أوله نعم
من يشكر الله يشكر أولية ذا ** فالدين من بيت هذا ناله الأمم

الى أن يقول :

ينمى الى ذروة الدين التى قصرت ** عنها الأكف وعن ادراكها القدم
من جده دان فضل الأنبياء له ** وفضل أمته دانت له الأمم
مشتقة من رسول الله نبعته ** طابت مغارسه والخيم والشيم (٢)

---

(١) الحطيم : حجر الكعبة أو جداره أو ما بين الركن وزمزم .
(٢) الخيم : لغة فى خيمة وهى كناية عن مجمع الفضل .

من معشر حبهم دين وبغضهم ** كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ** فى كل بدء ومختوم به الكلم
ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم ** أو قيل من خير أهل الأرض قيل : هم
يستدفع الشر والبلوى بحبهم ** ويسترب به الاحسان والنعم (١)

هذه بعض أبيات مختارة من هذه القصيدة التى بلغت شهرة واسعة وليست كل ما قيل فى أهل البيت ، ونحن نلاحظ أن الفرزدق كان يمدح على بن الحسين رضى الله عنهما لصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم ويظهر هذا المعنى فى الأبيات التالية :

هذا ابن خير عباد الله كلهم ** هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله ** بجده أنبياء الله قد ختموا
أى الخلائق ليست فى رقابهم ** لأولية هذا أوله نعم
من يشكر الله يشكر أولية ذا ** فالدين من بيت هذا ناله الامم
ينمى الى ذروة الدين التى قصرت ** عنها الأكف وعن ادراكها القدم
من جده دان فضل الأنبياء له ** وفضل أمته دانت له الأمم
مشتقة من رسول الله نبعته ** طابت مغارسه والخيم والشيم
من معشر حبهم دين وبغضهم ** كفر وقربهم منجى ومعتصم (٢)
ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم ** أو قيل من غير أهل الأرض؟ قيل : وهم

ويصادفنا فى العصر الأموى أيضا شاعر عرف بهاشمياته وهو الكميت بن زيد الأسدى الذى يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى عن قصائده : "الهاشميات أشهر شعر الكميت وأروعه ، بل أروع الشعر العربى فى عصرها ، وقد كان للكميت شعر كثير بلغ الى موته خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتا (٣) ، وهذه الهاشميات هى الباقية منه وكذلك عدد قليل من أبيات شعره فى غيرها ولعل شهرة الهاشميات

---

(١) يسترب : استرب جمع وزاد ولزم واقام .
(٢) رواها صاحب الأغانى عشرين بيتا فقط راجع جـ ١٩ ص ٧٨ـ٨٠ .
(٣) هذا التعبير خطأ ، والصواب "تسعة وثمانين ومائتين وخمسة آلاف بيت" حيث يجب البدء بالآحاد ثم العشرات ثم المئات ثم الآلاف وهكذا . د . سرحان

هى التى غطت على ذلك الشعر الكثير فشغل الناس بها عن غيره من شعره حتى ضاع منه ذلك الكثير وخصوصا تلك النزاريات التى كان فيها كثير من علم العرب وأخبارها وأيامها " (١) .

هاشميات :

وللكميت عدة قصائد قالها فى آل البيت أشهرها اللامية التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ؟ ** وهل مدبر بعد الاساءة مقبل ؟

وقد أرسل فيها (٢) ذلك المطلع صرخة قوية فى آذان أولئك الغافلين لينتقل بأهل عصره من الهزل الى الجد ومن الغفلة الى اليقظة ... وهو يضرب مثلا جديدا فى المطالع الشعرية يليق بشاعر مسلم نربى على ايثار مصلحة الشعب على هوى النفس وايثار الجد فى الحياة على العبث ، وقد كان الشعراء فى عصره لايزالون سادرين فيه ولم يصرفهم عنه ما تغير من حياة العرب بالاسلام وما صاروا فيه من حياة الجد والعمل " (٣) ثم يمضى الشاعر فيقول :

وهل أمة مستيقظون لرشدهم ** فيكشف عنه النعسة المترمل ؟
فقد طال هذا النوم واسنخرج الكرى ** مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ** على ملة غير التى نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ** وأفعال أهل الجاهلية نفعل

---

(١) الكميت بن زيد الأسدى ص ٦٥ .
(٢) أى القصيدة .
(٣) المرجع السابق .

الى أن يقول :

فياساسة هانوا لنا من حديثكم ** ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ** على الحق نقضى بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى اذا نحن خلفة ** فريقان شتى تسمنون ونهزل (١)
برينا كبرى القدح أوهن متنه ** من القوم لاشار ولا متنبل

الى أن يقول :

فيارب هل الابك النصر يرتجى ** ويارب هل الا عليك المعول

ثم يذكر مقتل الحسين رضى الله عنه :

كأن حسينا والبها ليل حوله ** لاسيافهم ما يخلى المنبقل (٢)
فلم أر مخذولا لأجل مصيبة ** وأوجب منه نصرة حين يخذل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ** فيا آخرا أسدى له الغى أول (٣)

ويقول فى ختامها :

فدونكموها يال أحمد انها ** مقللة لم يأل فيها المقلل (٤)
مهذبة غراء فى غب قولها ** غداة غد تفسير ما قال مجمل
أتتكم على هول الجنان ولم تطع ** لنا ناهيا مما يئن ويرحل

---

(١) الخلفة المختلفون .
(٢) المنبقل : الذى يأخذ البقل .
(٣) يعنى بغيرهم من أمرهم بقتل الحسين وهو يزيد .
(٤) المقللة القليلة . لم يأل لم يقصر .

وما ضرها ان كان فى الترب ثاويـــا ** زهير وأودى ذو القروح وجـــرول

الميميـــة : ومطلعهـــا :

من لقـــب متـــيم مستهـــام ** غير ما صبـــوة ولا أحـــلام (١)

يقول فيهـــا :

فهم الأقربون فى كل خـــير ** وهم الأبعدون من كـــل ذام
أسرة الصادق الحديث أبى القـــا ** سم فرع القدامس القـــدام (٢)
خير حى ومیت مـــن بـــنى آ ** دم طرا مأمومهم والامـــام
أبطحى بمكـــة استشقب اللـــ ** ـــه ضياء العمى به والظـــلام
والى يثرب التحـــول عنهـــا ** لمقام فى غير دار مقـــام

ثم يستمر فى ذكر الأوس والخزرج وأعمام الرسول حمزة والعباس وأبناء عمـــه على وعبد الله .

بائيته الأولـــى :

يقول أبو الفرج الأصفهانى " جاء الكميت الى الفرزدق ولما قدم الكوفـــة قال له : انى قلت شيئا فاسمعه منى يا أبا فراس قال هاته : فأنشده قوله :

طربت وما شوقا الى البيض أطـــرب ** ولا لعبا منى وذو الشوق يلعـــب
ولم يلهـــنى دار ولا رسم مـــنزل ** ولم يتطربنى بنان مخضـــب
ولكن الى أهل الفضائل والنقـــى ** وخير بنى حواء والخير يطلـــب

فقال له طربت الى شيء ما طرب اليه أحد قبلك فأما نحن فما انطرب ولا طـرب من كان قبلنا الا الى ما تركت أنت الطرب اليه .

---

(١) المتيم الذى استولى الحب عليه فهو متيم اى مذلل والمستهام الذى يذهب علـــى وجهه الصبوة جهلة الفتوة .

(٢) القدامس السيد الشريف القدام المتقدم .

" ومن هذا يتبين لنا أن النسيب والأطلال ووصف الناقة وهو ما يعرف بالمقدمة التقليدية للقصيدة العربية كان تقليدا متبعا لجميع الشعراء وهناك رواية أخرى للأغانى أقرب وأكثر وضوحا لما نقصده وهى : " لما قال الكميت بن زيد الشعر ، كان أول ما قاله الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له : يا أبا فراس انك شيخ مضر وشاعرها وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى قال له : صدقت أنت ابن أخى فما حاجتك ؟ قال نفث على لساني فقلت شعرا فأحببت أن أعرضه عليك فان كان حسنا أمرتنى باذاعته وان كان قبيحا أمرتنى بستره وكنت أولى من ستره على ، فقال الفرزدق أما عقلك فحسن وانى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدنى ما قلته فأنشده :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب

قال فقال لى : فيم طربت يا ابن أخى ؟ فقال

ولا لعبا منى وذو الشوق يلعب

فقال بلى يابن أخى فالعب فانك فى أوان اللعب فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ** ولم يتطربنى بنان مخضب

فقال وما يطربك يا ابن أخى فقال :

ولا السانحات البارحات عشية ** أمر سليم القرن أم مر أعضب (١)

---

(١) السانح الذى يجىء من يسارك فيوليك ميامنه والبارح الذى يجىء من يمينك فيوليك مياسره وأهل الحجاز يتشاءمون بالسانح وأهل نجد يتشاءمون بالبارح وكانوا يتيمون بسليم القرن ويتشاءمون بالأغضب المسكور احد القرنين .

فقال أجل لا تتطير .. فقال :

ولكن الى أهل الفضائل والتقـــــى ** وخير بنى حواء والخير يطلـــب

فقال : ومن هؤلاء ويحك ؟ فقال :

الى النفر البيض الذين يحبهـــم ** الى الله فيما نابنى أتقـــرب

قال أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ فقال:

بنى هاشم رهط النبى فاننـــى ** بهم ولهم أرضى مرارا وأغضـــب
خفضت لهم منى جناحى مـــودة ** الى كنف عطفاه أهل ومرحـــب (١)
وكنت لهم من هؤلاء وهـــولا ** مجنا على أنسى اذم وأقصـــب (٢)
وأرمى وأرمى بالعداوة أهلهـــا ** وانى لأوذى فيهـــم وأوثـــب

فقال له الفرزدق : يا ابن أخى أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضـــى وأشعر من بقى ". (٣)

نستفيد من هذه الرواية أن بائية الكميت هذه هى أول هاشمياته وأول قولـــه للشعر وأن بدء القصيدة بغير المقدمة التقليدية كان أمرا غير مألوف فى ذلك الوقت وقول الفرزدق الأخير ــ اذا أخذ على حقيقته ــ يدل على أن الشعر الجيد الـــذى يقال فى أغراض دينية هو أعلى قمم الشعر وبه يبرز الشاعر على غيره من الشعـــراء، وكأن الفرزدق بهذا القول يحدد معالم الشعر الجدير بالتقدير ، الذى يرفع مـــن منزلة صاحبه : هو الشعر والذى يخدم الأفكار ويكون ناطقا بلسان حال الأمـــة وشبيها بما قاله الفرزدق رواية أخرى لصاحب الأغانى يقول فيها " سئل معاذ الهراء من أشعر الناس قال أمن الجاهليين ؟ ام من الاسلاميين ؟ قال بل من الجاهليين قال أمرؤ القيس وزهير وعبيد بن الابرص قال : فمن الاسلاميين ؟ قال الفرزدق وجرير والأخطـــل والراعي قال فقيل له: يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت قال ذاك فـــى شعر الأولين والآخرين الاغانى(٣) .

---

(١) اغصب اشتم .
(٢) الاغانى جـ ١٥ ص ٢٨٤ــ٢٨٥ دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٦ .
(٣) الاغانى جـ ١٥ ص ٢٩١ .

ومما قاله فى بائيته هذه :

خفضت لهم منى جناحى مـــــودة ** الى كنف عطفاه أهل ومرحـــب
وقالوا ترابى هواه ورأيـــــه ** بذلك أدعى فيهم والقـــب (١)
على ذاك اجريای وهى ضريبـــتى ** ولو جمعوا طرا على واجلبـــوا (٢)
وأحمل أحقاد الأقـــارب فيكـــم ** وينصب لى فى الابعدين فانصـــب

الى أن يقول فى مدح بنى هاشم :

فيا موقدا نارا لغيرك ضوؤهـــا ** ويا حاطبا فى غير حبلك تحطـــب
ألم ترنى من حب آل محمـــد ** أروح وأغدو خائفا أترقـــب
أناس بهم عزت قريش فأصبحـــوا ** وفيهم خباء المكرمات المطنـــب (٣)
محضون فى الأحساب محضون نجرهـــم ** هم المحض منا والصريح المهـــذب (٤)
خضمون أشراف لهـا ميم ســـادة ** مطاعيم أيسار اذا الناس أجدبـــوا (٥)

ويقول فى مقتل الحسين :

ومن أكبر الأحداث كانت مصيبـــة ** علينا قتيل الأدعياء الملحـــب (٦)
قتيل بجنب الطف من آل هاشـــم ** فيالك لحما ليس عنه مذبـــب
ومنصفر الخدين فى آل هاشـــم ** ألا جبذا ذاك الجبين المـــترب

---

(١) الترابى نسبة الى ابى تراب وهو على بن أبى طالب لأنه نام فى غزوة مـــن التعب فسفت الريح عليه فناداه النبى صلى الله عليه وسلم يا ابا تراب ليوقظـــه من نومه .

(٢) الاجريای . الا جريا : المادة الغريبة والطبيعـــة .

(٣) المطنب : المردود الطنب وهى حبال الخيمة .

(٤) الخضمون الكرماء . اللهاميم السادة الايسار جميع يسر وهو الذى يضرب بالقداح .

(٥) النجر الاصل . المحض الخالص مثل الصريح .

(٦) الادعياء يقصد عبد الله بن زياد وجماعته

قتيل كأن الوله العفر حولـــــه ** يطفن به شم العرانين ربـــرب (١)
ولن أعذل العباس صنو نبيئـــــا ** وصنوانه ممن أعد وأنـــــدب
ولا ابنيه عبد الله والفضل اننـــى ** جنيب بحب الهاشميين مصحـــب (٢)
مضوا سلفا لابد أن مصيرئـــــا ** اليهم ففاد نحوهم منـــــأوب
كذاك المنايا لا وضيما رأينهـــا ** تخطى ولا ذاهيبة تتهيـــب
وقد عاد روا فينا مصابيح أنجمـــا ** لنا ثقة أيان تخشى وترهـــب (٣)
أولئك ان شطت بهم غربة النـــوى ** أمانى نفسى والهوى حيث يسقـــب

بائيته الثانيـــة :

وتبلغ أبياتها سبعة وستين بيتا ومطلعها :

أنى ومن أين آبك الطـــــرب ؟ من حيث لا صفوة ولا ريـــــب (٤)

الى أن يقول فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

الى السراج المنير أحمـــــد لا ** يعدلنى رغبة ولا رهـــــب
عنه الى غيره ولو رفـــــح النـــا ** س الى السيون وارتقبـــــوا
وقيل أفرطت بل قصدت ولـــــو ** عنفنى القائلون أو ثلبـــــوا
اليك يا خير من تضمنـــــت الأر ** ض وان عاب قولى العيـــــب
لسبح بتفضيلك اللسان ولـــــو ** أكثر فيك الضجاج واللجـــــب
اكرم عيد انتا وأطيبهـــــا ** عودك عود النضار لا الخشـــرب
والحاشر الآخر المصـــدق لـــلأو ** ل فيما تناســـخ الكتـــب

---

(١) الوله : جمع واله وهى الحزينة والربرب القطيع من بقر الوحش ويعنى بذلك نساء بنى هاشم على سبيل التشبيه .

(٢) جنيب : معتقد .

(٣) شطت بعدت . يسقب يقرب .

(٤) ايك رجع اليك .

مبشرا منذرا ضياء به ** أنكر فينا الدوار والنصب (١)
مهاجرا سائلا وقد شالت الحر ** ب لقاحا لغبرها الكثب (٢)
فى طلق ميح للأوس والخزر ** ج مالا تضمن القلب (٣)
مجد حياة ومجد آخرة ** سجلان لا ينزحان ما شربوا
لا من تلاد ولا تراث آب ** الا عطاء الذى له غضبوا (٤)

ويقول فى مدح بنى هاشم :

يا صاحبى الحوض يوم لا شرب لد ** وراد الا ما كان يضطرب
أجرك عندى فى الوداد لقربا ** ك سجيات نفسى الوصب (٥)
قوم اذا املوح الرجال على ** أفواه من ذاق طعمهم عذبوا (٦)
زهر أصاء لا حديثهم ** واه ولا قديمهم عطب
والعارفو الحق للمدل به ** والمنلفون كثير ما وهبوا (٧)

الى أن يقول :

يا خير من ذلت المطى لهم ** أنتم فروع العضاه لا الشذب (٨)
وفى السنين الفيوث باكرة ** اذ لا يدر العصوب معتصب (٩)

---

(١) الدوار اسم صنم وحجر يدورون حوله والنصب حجارة تنصب ويطوفون حولها .
(٢) شالت ارتفعت وتسعر نارها والغبرة بقية كل شىء وقد غلب على بقية اللبن فى الضرع والكثب جمع كثبة وهو القليل من اللبن .
(٣) الطلق القصد . ميح القلب : جمع قلب وهو البئر يعنى ما نالهم بهجرته من خير كثير .
(٤) التلاد المال القديم .
(٥) الوصب : الدوام الأكثر ودا .
(٦) أملوح . من الملح أى اصبح مالحا .
(٧) المدل به أى المصرح به وهو صاحبه .
(٨) العضاه أعظم الشجر وفروعها واعلاها والشذب القشر .
(٩) العصوب الناقة التى لا تدر حتى يعصب فخذاها اى يشدا بحبل يعنى أنهم لا يمنعهم من الكرم جفاف الضروع . المعتصب الذى يقوم بعملية شد رجل الناقة .

بائيته الثالثـــة :

وعدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتا : ومطلعها :

طربت وما بـك من مطـــــــرب ** ولم تتصاب ولم تلعـــــــب
ولست تصب الى الظاعنيـــــــ ** ـين اذا ما خليلك لم يصـــــبب
فدع ذكـر من لست من شأنـــــه ** ولا هو من شأنك المنصـــــب (١)
وهات الثناء لأهـــل الثنـــــاء ** بأصوب قولك فالأصـــــوب
بنى هاشم فهم الأكرمـــــون ** بنو الباذخ الأفضـــل الأطيـــب

وللكميت مقطوعة شعرية يعلن فيها الحرب على بنى أمية والولاء لبنى هاشـــم وهى تمثل قمة الجرأة يقول الكميت فيها :

فقل لبنى أمية حيث حلـــــوا ** وان خفت المهند والقطيعـــا (٢)
ألا أف لدهر كنت فيـــــــه ** هدانا طائعا لكـــم مطيعـــا (٣)
أجاع الله من أشبعتمـــــوه ** وأشبع من بجوركم أجيعـــا
ويلعن فذ أمتـــــه جهـــــارا ** اذا ساس البريـــة والخليعـــا (٤)
بمرضى السياســـة هاشمـــــى ** يكون حيا لأمتـــه ربيعـــا (٥)
وليشا فى المشاهد غير نكـــس ** لتقويم البريـــة مستطيعـــا (٦)
يقيم أمورها ويـــذب عنهـــــا ** ويترك جدبها أبدا مريعـــا (٧)

---

(١) المنصب المنصب من النصب .
(٢) المهند السيف . القطيع السوط .
(٣) الهدان الجبان .
(٤) الفذ اول القداح يعنى به قاتل على والخليع الوليد بن عبد الملك .
(٥) الحيا الخصب .
(٦) النكس الدنىء المقصر .
(٧) المريع الخصب .

ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى " .... وقد أجاد فيها [1] حقا مدح بنى هاشم وكان أكثر الصفات التى مدحهم بها من صفات النفس لا الجسم وهذا هو خير ما يمدح به ولهذا عاب عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيات قوله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه ** على جبين كأنه الذهب

حيث قال له : أما لمصعب فنقول :

انما مصعب شهاب من الله ** تجلت عن وجهه الظلماء

وأمالى فنقول : " على جبين كأنه الذهب " .

فأكثر ما وصف الكميت به بنى هاشم أنهم بررة أتقياء شرفاء ، علماء ، كرماء ، شجعان كفاة ، ساسة يأخذون بالرفق ويراعون الحق فصحاء لا يكثرون فى هذر ولا يصمتون مفحمين الى غير ذلك مما وصفهم به " [2] .

دعبل بن على الخزاعى :

اسمه محمد — وقيل الحسن ، وقيل : عبد الرحمن — بن على الخزاعى وكنيته أبو جعفر ، ودعبل لقب لقب به ومعناه البعير المسن [3] .

وبعد على رأس من تألقوا بمدائحهم لآل البيت فى العصر العباسى ، يقول صاحب الأغانى فى ترجمته " شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن اليه أو لم يحسن " [4]

---

(١) اى هاشميات .

(٢) الكميت بن زيد ص ٨٠ .

(٣) الأغانى جـ ١٨ ص ٢٩ ، طبع ساسى .

(٤) الأغانى جـ ١٨ ص ٧٠ ، طبع ساسى .

ولد عبل فلسفة فى حياته تستدعى النظر وتستوجب التأمل • فهو على الرغم مما أثر عنه من محبة أهل البيت ومدحهم ابتغاء لوجه الله واليوم الآخر معروف ـ أيضا ـ بحبه لهجاء الناس والانتقام منهم •

وقد أوضح لنا صاحب الأغانى شيئا من فلسفة دعبل الاجتماعية بذكر ما حدث به أبو خالد الخزاعى اذ قال : قلت لدعبل : ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعا فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك فقال دعبل : ويحك انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم الا على الرهبة ولا يبالى أحد بالشاعر ـ وان كان مجيدا ـ اذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ـ ولم يكن ذلك فيه ـ انتفع بقولك فاذا رآك قد أوجعت غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ويحك يا أبا خالد ان الهجاء المقذع أخذ بطبع الشاعر من المديح المفرع" (١) •

ويبدو لنا من هذا الكلام أنه كان ذا فلسفة واقعية عميقة وهو ينظر الى حقائق الأشياء بعيدا عن مظاهرها ، يصل الى النتيجة دون الرجوع الى أسبابها ولعل سخطه على الناس وامعانه فى هجائهم لسبب وبلا سبب راجع الى ما كان عليه المجتمع آنذاك من مفاسد اجتماعية وخلقية ولم تستطع شخصية دعبل وعقليته تجاوز هذه النواقص واسبابها فوقف عندها دائم التصور لها وكأنه لا يرى فى الناس غيرها فهو ربما يقول شعرا فى الهجاء ولا يقصد به أحدا فاذا سئل عن صاحبه يقول ما استحقه أحد بعينه بعد وليس له صاحب فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشر فيه وذكر اسمه (٢) وربما تطلق قريحته العدوانية تبغى فريستها حتى يصادفها أحدهم فتتشبث به وتنفث عليه سمها فقد هجا أحمد بن أبى دواد لأنه تزوج امرأتين من بنى عجل فى سنة واحدة فقال :

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٨٢ـ٨٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ جـ ١٠ دار الفكر بيروت ١٩٥٦ •

غصبت عجلا على فرجين فى سنة ** أفسدتهم ثم ما أصلحت من نسبك
ولو خطبت الى طوق وأسرته ** فزوجوك لما زادوك فى حسبك
ان كان قوم أراد الله خزيهم ** فزوجوك ارتغابا كان فى ذهبك
ولو سكت ولم تخطب الى عرب ** لما نبشت الذى تطويه من سببك
عد البيوت التى ترضاك خاطبها ** تجد فزارة العكلى من عربك

فلقيه فزارة العكلى فقال له : يا أبا على ما حملك على ذكرى حتى فضحتنى وأنا صديقك ؟ فقال يا أخى والله ما اعتمدت بمكروه ولكن كذا جاءنى الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك " .

وأثر عنه أنه كان يقول : ما كانت لأحد قط عندى منة الا تمنيت موته " (١) .

وقد ذكر صاحب الأغانى أن دعبلا كان يخرج فيغيب سنين يدور بالدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى وكانت الشراة والصاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه ، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلامية ثقيف وشغف — وكانا مغنيين — فأقعدهما يغنيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم وبذلك عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره وكانوا يواصلونه ويصلونه " (٢) .

تائيته فى مدح أهل البيت :

مثل دعبل بين يدى الامام على بن موسى الرضا فى طوس سنة ١٩٨ هـ بعد أن تم اختياره لولاية العهد وضربت باسمه الدراهم وكان دعبل هيأ فى نفسه قصيدته النائية الكبيرة ونذر ألا يسمعها أحدا قبل الامام فلما وقف بين يديه قال له يا بن رسول الله انى قد قلت فيك قصيدة وآليت على نفسى ألا أنشدها أحدا قبلك ووقف فأنشده أروع ما قال فى آل البيت حياته كلها . (٣)

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٨٢ـ٨٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٨٤ .
(٣) عيون اخبار الرضا ص ٣٦٨ .

وهذه القصيدة هي :

مدارس آيات خلت من تلاوة ** ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ** وبالركن والتعريف والجمرات (١)
ديار علي والحسين وجعفر ** وحمزة والسجاد ذي الثفنات (٢)
قفا نسأل الدار التي خف أهلها ** متى عهدها بالصوم والصلوات (٣)
وأين الألى شطت بهم غربة النوى ** أقانين في الآفاق مفترقات (٤)
هم أهل ميراث النبي اذا اعتزوا ** وهم خير قواد وخير حماة
وما الناس الا حاسد ومكذب ** ومضطغن ذو احنة وترات (٥)
اذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ** ويوم حنين أسبلوا العبرات
وكيف يحبون النبي وأهله ** وقد تركوا أحشاءهم وغرات (٦)
لقد لا ينوء في المقال وأضمروا ** قلوبا على الأحقاد منطويات

الى أن يقول :

ملامك في آل النبي فانهم ** أحباي ماعاشوا وأهل ثقاتي
تخيرتهم رشدا لأمري فانهم ** على كل حال خيرة الخيرات
نبذت اليهم بالمودة جاهدا ** وسلمت نفسي طائعا لولاتي (٧)

---

(١) الخيف : مسجد في منى والركن من اركان الكعبة التعريف والجمرات مواضع في منى ترمى فيها الجمار .

(٢) جعفر يقصد جعفر الصادق الذي دفن بالبقيع أو جعفر بن أبي طالب شهيد مؤتة . السجاد ذي الثفنات هو علي بن الحسين زين العابدين دفن بالبقيع أيضا .

(٣) خف القوم ارتحلوا .

(٤) غربة النوى بعدها .

(٥) ذواحنة : الاحن الحقد والغضب الترة ردة قبيحة في اللسان من السب أو من الوتر اى الظلم والموتور الذي لم يأخذ بثأر قتيله .

(٦) الوغر : التوقد من الغيظ .

(٧) نبذ المودة طرحها .

فيارب زدنى من يقينى بصيرة ** وزد حبهم يا رب فى حسناتى
بنفسى أنتم من كهول وفتية ** لفك عناة أو لحمل دياتِ (١)
أحب قصى الرحم من أجل حبكم ** وأهجر فيكم أسرتى وبناتى
لقد حفت الأيام حولى بشرها ** وانى لأرجو الأمن بعد وفاتى
الم تر أنى مذ ثلاثين حجة ** أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما ** وأيديهم من فيئهم صفرات (٢)
فال رسول الله نحف جسومهم ** وآل زياد غلظ القصرات (٣)
اذا ونروا مدوا الى واتريهم ** أكفا عن الأوتار منقبضات (٤)
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد ** تقطع قلبى اثرهم حسرات
خروج امام لا محالة خارج ** يقوم على اسم اللهِ والبركات (٥)
يميز فينا كل حق وباطل ** ويجزى على النعماء والنقمات
سأقصر نفسى جاهدا عن جدالهم ** كفانى ما ألقى من العبرات
فيا نفس طيبى ثم يا نفس ابشرى ** فغير بعيد كل ماهو آتى
ولا تجزعى من مدة الجور اننى ** كأنى بها قد آذنت ببتلت (٦)

الى أن يقول :

أحاول نقل الشمس من مستقرها ** واسماع أحجار من الصلوات
فمن عارف لم ينتفع ومعاند ** يميل مع الأهواء والشهوات
قصارى منهم أن أؤوب بغصة ** تردد بين الصدر واللهوات (٧)

---

(١) العانى الأسير .
(٢) الفىء ما أخذ من الكفار فى غير قتال يريد حقوق ، آل البيت . صفر افتقر .
(٣) زياد هو عبد الله بن زياد بن أبيه الذى وجه حملة كربلاء . القصرة أصل العنق أو العنق كله .
(٤) ونروا ظلموا .
(٥) يبدو انه يؤمن برجعة الامام المنتظر . فى الكلام على الرجعة راجع تاريخ الشيعة ص ٧٠ وعقائد الامامية ص ٦٧ـ٧١ حركات الشيعة ٥٦ .
(٦) البتات : الانقطاع الذى لا رجعة فيه .
(٧) قصارى قصارى جهدى وغايتى اللهاة قطعة اللحم المطبقة فى أقصى سقف الحلق .

اذا قلت عرفا أنكروه بمنكـــــــــــر ** وغطوا على التحقيق بالشبهـــــات[1]

ويختم القصيدة بقوله :

كأنك بالأضلاع قد ضاق رحبهـــــــا ** لما ضمنت من شدة الزفـــــرات[2]

وقد أعجب الامام الرضا بالقصيدة ومنح الشاعر مائة دينار من الدنانـــــير التي ضربت باسمه بعد توليه عهد المأمون وجبة من الخز الأصفر .[3]

ويروى أن أهل قم سألوه أن يبيعها منهم بألف دينار فامتنع عن ذلك فقالـــوا له فبعنا شيئا منها بألف دينار فأبى عليهم وسار عن قم فلما خرج من رستاق[4] البلـد لحق به قوم من أحداث العرب وأخذوا الجبة منه فرجع دعبل الى قم وسألهم رد الجبة فامتنع الأحداث من ذلك وعصوا المشايخ في أمرها فقالوا لدعبل : لا سبيـــــل لك الى الجبة فخذ ثمنها ألف دينار فأبى عليهم فلما يئس من ردهم الجبة سألهـــم أن يدفعوا اليه شيئا منها فأجابوه الى ذلك وأعطوه بعضها ودفعوا اليه ثمن باقيهـــا ألف دينار[5] ومن هاشميات دعبل ما قاله في رثاء الامام الرضا سنة ٢٠٣ هجريـــة وقد علم أن المأمون دفنه الى جانب أبيه الرشيد في طوس .

يقول الدكتور عبد الكريم الاشتر . وشاع في موت الامام مثل ما كان يشيع في مصارع الأئمة من آل البيت على أيدي بني العباس فتداعت الى نفس دعبل صورة حزينـــة مما كان غض عنه عينيه أيام الرشيد من مصارع آل البيت وتحركت المرارة التي يجتمع عليها قلبه وثار في نفسه احساس قاتم عميق بالموت والغربة فنظم قصيدته الرائعة التي تشف

---

(١) التحقيق التصديق .

(٢) الرحب : السعة .

(٣) عيون اخبار الرضا ص ٣٦٨ .

(٤) الرستاق القرى وما يحيط بها ـ فارسية .

(٥) عيون اخبار الرضا لابن بويه ص ٣٦٨ .

في جلال عن الأم ووحه الكبيرة ، وقد بدأها بما ينبغي من الأدب في مطالع القصائد في مثل هذا المقام باعلان المزوف عن لهو الصبا بعد أن طوق الشيب رأسه[1]

يقول في قصيدته :

لو كنت أركن للدنيا وزينتها ** اذن بكيت على الماضين من نفري

ثم يصل الى ذكر أهل البيت :

لولا تشاغل نفسي بالألى سلفوا ** من أهل بيت رسول الله لم أقر
كم من ذراع لهم بالطف بائنة ** وعارض من صعيد الترب منعفر[2]
انس الحسين وسراهم لمقتله ** وهم يقولون : هذا سيد البشر
يا أمة السوء ما جازيت أحمد عن ** حسن البلاء على التنزيل والسور
خلفتموه على الأبناء حين مضى ** خلافة الذئب في أبقار ذي بقر
وليس حي من الأحياء نعلمه ** من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم ** كما تشارك أيسار على جزر[3]
قتلا وأسرا وتحريقا ومنهبة ** فعل الغزاة بأرض الروم والخزر[4]
أرى أمية معذورين ان قتلوا ** ولا أرى لبني العباس من عذر
اربع بطوس على قبر الزكي بها ** ان كنت تربع من دين على وطر[5]
قبران في طوس خير الخلق كلهم ** وقبر شرهم هذا من العبر[6]
ما ينفع الرجس من قرب الزكي وما ** على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت ** له يداه فخذ ما شئت أو فذر

ويبدو لنا من الأبيات الأخيرة هجاؤه للعباسيين الهجاء المر الذي ينم عن كراهية قائلة لهم لأنهم ينازعون العلويين الخلافة .

هذا الاندفاع وهذه الشجاعة تفرد بهما دعبل دون غيره من شعراء آل البيت وهو الذي يقول " أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحدا يصلبني عليها " [7] .

---

(١) دعبل بن علي الخزاعي ص ٨٣ـ٨٤ .
(٢) بائنة منفصلة . العارض / صفحة الخد أو العنق . الصعيد التراب .
(٣) اليسار الذي يلي قمة الجزور جمعها : يسار . الجزور ما يجز من النوق والغنم .
(٤) الخزر : الصقالبة والروس . (٥) ربع بالمكان اطمأن . الوطر البغية .
(٦) يقصد قبر الامام الرضا وقبر هارون الرشيد .
(٧) الأغاني جـ ١١ ص ٦٨ دار الفكر بيروت ١٩٥٦ .

ولدعبل الخزاعي قصيدة أخرى قالها يرثي ولده أحمد الذي توفي في بغداد فذهب الشاعر لزيارة قبر الرضا في طوس وكأنه يعزي نفسه به •

يقول في قصيدته هذه :

على الكره ما فارقت أحمد وانطوى ** عليه بناء جندل ورزين (١)

الى أن يقول :

ولولا التأسي بالنبي وأهله ** لأسبل من عيني عليه شؤون (٢)

هو النفس إلا أن آل محمد ** لهم دون نفسي في الفؤاد كمين

أصابهم ارث النبي فأصبحوا ** يساهم فيهم ميتة ومنون (٣)

دهتهم ذئاب من أمية وانتحت ** عليهم دراكا أزمة وسنون (٤)

وعاثت بنو العباس في الدين عيثة ** تحكم فيها ظالم وظنين (٥)

وسموا رشيدا ليس فيهم لرشده ** وها ذاك مأمون وذاك أمين

رشيدهم غاو وطفلاه بعده ** لهذا رزايا دون ذاك مجون

ألا أيها القبر الغريب محله ** بطوس عليك السابريات هتون (٦)

الى أن يقول :

أيا عجبا منهم : يسمونك الرضا ** وتلقاك منهم كلحة وغضون (٧)

أتعجب للأجلاف أن يتخيفوا ** معالم دين الله وهو مبين (٨)

لقد سبقت فيهم بفضلك آية ** لدى ولكن ما هناك يقين (٩)

---

(١) الجندل : الحجارة • الرزين الثقيل وما مصدرية •
(٢) الشؤون : مجاري الدمع •
(٣) ساهم : قارع من القرعة • وأراد بالمنون : الاغتيال •
(٤) الدراك : المداركة الملاحقة : السنة : اللازمة والقحط •
(٥) الظنين المتهم •
(٦) السابريات : السحابات الانية ليلا هتن المطر : انصب وتتابع •
(٧) الغضون مكاسر الجلد في الجبين يكن بذلك عن التهجم • الكلحة : تكشر وعبوس •
(٨) تخيف تنقص •
(٩) لعله يقصد قوله تعالى " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " الاحزاب ٣٣ " •

وهذه القصيدة أيضا تحمل فى ثناياها الحب لال البيت والتأسى للغدر بهم من الامويين والعباسيين ثم الهجاء المقذع للرشيد وولديه الامين والمأمون وتصل هذه الابيات الى المأمون فيشتد فى طلب دعبل " فيطير على وجهه [1] " ويغادر طوس متنقلا فى خراسان .

نكتفى بما ذكرنا عن المدائح النبوية المبكرة فى العصور الاسلامى والأموى والعباسى ونخلص بملاحظ أن هذه المدائح لم تكن مستقلة ولم تأت وحدها بل كانت تظهر ضمن أغراض أدبية أخرى .. كما لم نجد لشعراء الاسلام الثلاثة الاول قصائد مستقلة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بل كانوا يمدحونه ضمن ردهم على شعراء قريش . وقد كان حسان بن ثابت أجودهم شعرا فى الرد على شعر المشركين كما روى الاغانى عن الشعبى قال " لما كان عام الاحزاب وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا قال النبى صلى الله عليه وسلم من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب أنا يارسول الله وقال عبد الله بن رواحة .. أنا يا رسول الله وقال حسان بن ثابت أنا يا رسول الله فقال : نعم أهجهم أنت فانه يميننك عليهم روح القدس [2] .

وقد أحصيت عدد الأبيات التى ذكر فيها حسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض القصائد بالنسبة لباقى الأبيات فوجدت أنه ذكر الرسول فى أثنين وستين بيتا من عدة قصائد مجموع أبياتها تسعة وستون ومائتا بيت أى : ان نسبة أبيات المدح الى غيرها تبلغ ٢٣ ٪ .

وأما كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه فيأتى بعد حسان بن ثابت فى شعره الاسلامى ولكنه فى ذكره للرسول صلى الله عليه وسلم فى شعره أقل من حسان ففى قصيدته التى قالها حين أزمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير الى الطائف بعد ما فرغ من حنين والتى مطلعها :

قضينا من تهامة كل ريب * * وخيبر ثم أجممنا السيوفا [3]
نخيرها ولو نطقت لقالت * * قواطعهن دوسا أو ثقيفا [4]

---

(١) الاغانى حـ ٢٠ ـ ١٣٨ طبعة بيروت دار الثقافة ١٩٦٠ .
(٢) الاغانى حـ ٤ ص ١٣ طبعة بيروت دار الثقافة ١٩٦٠ .
(٣) اتمامه مكه المكرمه " الريب الحاجة أجممنا السيوف تركناها تستريح " .
(٤) (سيرة) ابن هشام . حـ ٤ ص ٩١ـ٩٢ .

والقصيدة بلغت خمسة وعشرين بيتا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أبيات منها • أما عبد الله بن رواحة فهو أقلهم شعرا • وله أبيات ومقطوعات يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع أبياتها : مثل قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * * اذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * * به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * * اذا استثقلت بالمشركين المضاجع (١)

وقال أيضا :

روحى الفداء لمن أخلاقه شهدت * * بأنه خير مولود من البشر
عمت فضائله كل العباد كما * * عم البرية ضوء الشمس والقمر
لو لم يكن فيه آيات مبينة * * كانت بديهته تغنى عن الخبر (٢)

من هذا نلاحظ أن شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمدحوه بقصائد كما يمدح الملوك أو كما شاع فى العصر الأموى • ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يرغب فى المديح الشخصى خوفا من المغالاة حيث يقول " لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " (٣) •

يقول الدكتور سامى مكى العانى " ••••• فالنبى عليه السلام لم يكن راغبا فى أن يمتدحه الشعراء بما كان يمتدح به الملوك بل كان همه أن ينصرف الشعراء الى التأكيد على أمور الدين الجديد والعمل على نشره بين الناس والتمكين له فى الارض ، وكذلك كان موقف من جاء بعده من الخلفاء الراشدين فلم يعرف عن أحد منهم أنه كان يتخذ مجلسه ندوة للشعراء حيث يتبارون فى مدحه استزادة فى عطائه — كما حصل فيما بعد — لذلك كان أغلب ما جاء من مديح كعب سياسيا فهو الى جانب العاطفة الدينية التى تسيطر عليه كانت له أهداف سياسية أمن بها الشاعر ويريد لمبادئها الانتشار بين الناس ومن هذه المبادئ الايمان بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ٣ ص ١٥٨ •
(٢) البديهة أول كل شئ المجموعة النبهانية فى المدايح النبوية حـ ١ ص١٦٤ •
(٣) رواه البخارى راجع منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين للنبهانى ص ٤٣٩ وقد اتخذ الصوفية هذا الحديث سندا لهم فى مدائحهم للرسول •

الحكيمة والانقياد لها وتأكيد فضلها على الأمة اذ جمع أمرها بعد تفرق وأصلحه بعد خلل ... " (١) .

وما يصدق على كعب بن مالك يصدق على حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة رضى الله عنهم جميعا .

ولعل الصحابة كانوا يتهيبون مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بقصائد منفردة لعدم تشجيع الاسلام للمدح وكراهية الرسول لصلى الله عليه وسلم له بما ورد عنه من أخبار منها قوله صلى الله عليه وسلم " لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " (٢) .

وعن مجاهد بن أبى معمر قال : قام رجل يثنى على أمير من الأمراء فجعل المقداد يحثو فى وجهه التراب وقال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو فى وجوه المداحين التراب " (٣) .

وعن عطاء بن أبى رباح أن رجلا كان يمدح رجلا عند ابن عمر فجعل ابن عمر يحثو التراب نحو فيه ، وقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب " (٤) .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن الاسود بن سريع قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله قد حمدت الله بمحامد ومحمده اياك فقال : أما أن ربك يحب الحمد ، فجعلت أنشده فاستأذن رجل طوال أصلع فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم اسكت فدخل فتكلم ساعة ثم خرج فأنشدته ثم جاء فأسكتنى ثم خرج ـ فعل ذلك مرتين أو ثلاثا ـ فقلت من هذا الذى أسكتنى له ؟ قال هذا رجل لا يحب الباطل . (٥) وعن يعمر الرواة قال : حدثنى أبو نجيد أن شاعرا جاء الى

---

(١) ديوان كعب بن مالك تحقيق الدكتور سامى مكى العانى ص ٩٣ .

(٢) رواه البخارى ونقله منتخب الصحيحين من كلام سيد المرسلين للنبهانى ص ٤٣٩

(٣) الادب المفرد للحافظ محمد بن اسماعيل البخارى ص ٥٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٥) المصدر السابق ص ٩١ .

عمران بن حصين فأعطاه فقيل له تعطى شاعرا ؟ فقال أبقى على عرضى " (١) .

وعن أبى موسى الأشعرى قال سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدحة فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل " ويعقب القسطلانى على الحديث بقوله " حين وصفتموه بما ليس فيه فربما حمله ذلك على العجب والكبر وتضييع العمل " (٢) .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة أن رجلا ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا ، فقال النبى ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مرارا - أن كان احدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا ان كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكى على الله أحد أحدا " (٣) .

لهذا نجد أن فن المديح قد خمل ذكره وليست هناك قصائد جملت موضوعها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة العصرين الاسلامى النبوى والراشدى .

ولعل شعراء المسلمين لم يمدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم لانهم لم يجدوا منه تقبلا للمديح ، ويقول ابن قتيبة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الثناء الا من مكافىء (٤) .

وجاء فى لسان العرب مادة " كفأ " بعد أن أورد الحديث " قال القتيبى معناه اذا أنعم على رجل نعمة فكافأه بالثناء عليه قبل ثناءه واذا أثنى قبل أن ينعم عليه لم يقبلها . قال ابن الاثير : وقال ابن الأنبارى : هذا غلط اذ كان أحد لا ينفك من انعام النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله بعثه رحمة للناس كافة فلا يخرج منها مكافىء ولا غير مكافىء ، والثناء عليه فرض لا يتم الاسلام الا به وانما المعنى أنه لا يقبل الثناء عليه الا من رجل يعرف حقيقة اسلامه ولا يدخل عنده فى جملة المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قال ، وقال الازهرى وفيه قول ثالث : الا من مكافىء .. أى : مقارب غير مجاوز حد مثله ولا مقصر عما رفعه الله اليه " (٥) .

---

(١) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) ارشاد الساري شرح صحيح البخارى - حـ ٩ ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عيون الاخبار حـ ص ٢٧٧ .

(٥) لسان العرب مادة كفأ .

وأكثر الشعراء الذين يمثل شعرهم المديح هو عبد الله بن الزبعـــرى بعد أن أسلم فقد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وجاء مدحه أشبه بالاعتـــذار والتوبة والندم ، لأنه من الشعراء الذين أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمهـــم بعد فتح مكة فلما عفا عنه الرسول عليه السلام قال قصيدته التي ذكرتها سابقا • والتي بلغت أربعة عشر بيتا ذكر الرسول منها في أثنى عشر بيتا ويقول فيها •

اني لمعتذر اليك من الـذي * * اسديت اذ أنا في الضلال أهـــيم

وسبب أمتياز هذه القصيدة بالمديح النبوى أكثر من غيرها هو أن الاسلام قد ظهر بعد فتح مكة وأصبح من يمدح الرسول لا يجد أمامه من الاغراض غير مدح الرسـول نفسه • ثم الاساءة البالغة التي أساء بها ابن الزبعرى للرسول بهجائه قبل اسلامه جعله يركز على الرسول صلى الله عليه وسلم المدح والثناء •

وفي مقطوعة أخرى لابن الزبعرى قالها بعد اسلامه تحمل المعاني الـتي حملتها قصيدته السابقة نفسها ، والمقطوعة •

يا رسول الله ان لساني * * راتج ما فتقت أذ أنا بـــور
اذ أباري الشيطان في سنن الغي * * ومن مال ميله مثبـــور (١)
آمن اللحم والعظام لربـــي * * ثم قلبي الشهيد أنك النذيـــر
انني عنك زاجر ثم حيـــا * * من لؤى وكلهم مغـــرور (٢)

ولم يذكر صاحب " أسد الغابة " البيت الأخير وأضاف ثلاثة أبيـــات أخرى هـــي :

ان ما جئتنا به حق صـــدق * * ساطع نوره مضيء منـــير
جئتنا باليقين والبر والصـــدق * * وفي الصدق واليقين سـرور
أذهب الله ضلة الجهل عنـــا * * وأتانا الرخاء والميســـور (٣)

---

(١) ابارى اجارى مثبور هالك •
(٢) سيرة ابن هشـام ج ٤ ص ٤٥ •
(٣) اسـد الغابـة •

هذه المقطوعة تؤكد ما ذهبنا اليه من أن غرض ابن الزبعرى الأول من قصيدته التي امتاز بها عن غيره من شعراء الرسول هو مدحه صلى الله عليه وسلم وكذلك كان كعب بن زهير وتعد قصيدة ابن الزبعرى أكثر مديحا من قصيدة كعب ابن زهير ربما لان ابن الزبعرى كانت عباراته العدائية مع الرسول صلى الله عليه وسلم أقسى وأشد فأراد بقصيدته هذه أن يكفر عما قاله في هجاء الاسلام بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم مظهرا الندم والتوبة أما كعب بن زهير فلم تكن أهاجيه بهذا اللذع والفحش الذى بدا من زميله .

وقد كان لموقف الاسلام من الشعر والشعراء أثره الكبير في احجام شعراء المسلمين عن التغني في أشعارهم بتعاليم الاسلام الا بعد أن أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرد على شعراء قريش في هجائهم الاسلام ونبيه ، وقد عناهم الكتاب الكريم في قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون (١) .

فالله سبحانه وتعالى الصق بشعراء المشركين من الصفات الغير الحميدة ثم أستثنى منهم شعراء الجماعة الاسلامية ووضع لهم صفات أربع يجب أتصافهم بها وهى الايمان وعمل الصالحات وذكر الله كثيرا والدفاع عن الاسلام معن ظلمهم بتهجمه على دينهم .

والمعروف أنه كان للشعر أحترام خاص في قلوب العرب ووجدانهم وهم الذين كانوا يحتفلون بميلاد أى شاعر في أية قبيلة وهم الذين كانوا يقدمون المال والارواح تأثرا بقصيدة شاعر .

ويكفى للا ستدلال على هذا الموقف ثلاث روايات أوردها صاحب الاغانى عن الفرزدق ..

الأولى قوله :

" أخبرنا أبوخليفة عن ابن سلام عن أبى بكر عن ابن واسع وعبد القاهر

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

(٢) الاغانى حـ ١٩ ص ١٠٠ .

قالا : كان فتى فى بنى حرام ابن سماك شويعر قد هجا الفرزدق فأخذناه فأتينا به الفرزدق وقلنا له هو بين يديك فان شئت فاضرب وان شئت فاحلق لا عدوى عليك ولا قصاص فخلى عنه وقال :

فمن يك خائفا لأذاة قولى * فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم قادوا سفيههم وخافوا * قلائد مثل أطواق الحمام

والرواية الثانية هى : أن الفرزدق قدم المدينة فى سنة مجدبة فمشى أهل المدينة الى عمر بن عبد العزيز فقالوا له أيها الأمير ان الفرزدق قدم مدينتنا هذه فى هذه السنة الجدبة التى قد أهلكت عامة الأموال التى لأهل المدينة وليس عند أحد منهم ما يعطيه شاعرا فلو أن الأمير بعث اليه فأرضاه ويقدم اليه ان لا يعرض لاحد بمدح أو هجاء فبعث اليه عمر : انك يا فرزدق قدمت مدينتنا هذه فى هذه السنة الجدبة وليس عند أحد ما يعطيه شاعرا وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء فأخذها الفرزدق ، ثم مر بعبد الله ابن عمرو بن عثمان وهو جالس فى سقيفة داره عليه مطرف خز أحمر وجبة خز أحمر فوقف عليه وقال :

أعبد الله أنت أحق مالى * وساع بالجماهير الكبار
نما الفاروق أمك ابن أروى * أبوك وأنت منصدع النهار
هما قمرا السماء وأنت نجم * به فى الليل يدلج كل سارى

فخلع عليه الجبة والعمامة والمطرف وأمر له بعشرة الاف درهم فخرج رجل ، كان حاضرا لدى عبد الله والفرزدق عنده ورأى ما أعطاه أياه وسمع بما أمره عمر به من ألا يعرض لأحد فدخل الى عمر بن عبد العزيز فأخبره فبعث اليه عمر ألم أتقدم اليك يا فرزدق ألا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء ؟ أخرج فان وجدتك بعد ثلاث فقد نكلت بك فخرج وهو يقول :

فأجلنى وواعدنى ثلاثا * كما وعدت لمهلكها ثمود (١)

---

(١) الاغانى حـ ١٩ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

والرواية الثالثة عن ابراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال :

" قدم الفرزدق المدينة في امارة أبان بن عثمان فأتى الفرزدق وكثير عزة فبينما هما يتناشدان الأشعار اذ طلع عليهما غلام شخت رقيق الأدمة في ثوبين ممصرين [1] فقصد نحونا فلم يسلم وقال أيكم الفرزدق ؟ فقلت مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها فقال : لو كان كذلك لم أقل هذا فقال له الفرزدق من أنت لا أم لك قال رجل من الأنصار ثم من بني النجار ثم أنا ابن بكر بن حزم .. بلغني أنك تزعم أنك أشعر العرب وتزعمه مضر ، وقد قال شاعرنا حسان ابن ثابت شعرا فأردت أن أعرضه عليك وأو جلك سنة فان قلت مثله فأنت أشعر العرب كما قيل والا فأنت منتحل كذاب ثم أنشده .

"ألم تسأل الربع الجديد التكلما "

حتى بلغ الى قوله .

" وأبقى لنا مر الحروب ورزؤها * * سيوفا وأدراعا وجما عرمرما

متى ما تردنا من معد عصابة * * وغسان نمنع حوضنا أن يهدما

الى أن يقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى * * وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فأنشده القصيدة وهي نيف وثلاثون بيتا وقال له : قد أجلتك في جوابها حولا فأنصرف الفرزدق مغضبا يسحب رداءه وما يدري أنه طرفه حتى خرج من المسجد فأقبل على كثير فقال له قاتل الله الأنصاري ، ما أفصح لهجتهم وأوضح حجتهم وأجود شعرهم ، فلم نزل في حديث الأنصاري والفرزدق بقية يومنا حتى اذا كان من الغد خرجت من منزلي الى المسجد الذي كنت فيه بالأمس . فأتى كثير فجلس معي وانا لنتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شعري ما صنع اذ طلع علينا في حلة أعواف قد أرخى غديرته حتى جلس في مجلسه بالأمس ثم قال ما فعل الأنصاري ؟ فقلنا منه وشتمناه فقال قاتله الله ما منيت بمثله ولا سمعت بمثل شعره فأرقته وأتيت منزلي

---

(١) الشخت ـ سكون الخاء وفتحها ـ : الدقيق الضامر بغير هزال ، والممصر : المصبوغ بالمصر ، وهو نوع من الأصباغ د / سرحان .

وأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من الشعر فكأنى مفحم لم أقل شعرا قط حتى اذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتى وأخذت بزمامها حتى أتيت ريان وهو جبل بالمدينة ثم ناديت بأعلى صوتى أخاكم أخاكم - يعنى شيطانه - فجاش صدرى كما يجيش المرجل فمقلت ناقتى وتوسدت ذراعها وقلت حتى قلت مائة بيت من الشعر وثلاثة عشر بيتا فبينا هو ينشد اذ طلع الأنصارى حتى اذا انتهى الينا سلم علينا ثم قال انى لم آتك لاعجلك الذى وقيته لك ولكنى أحببت ألا أراك الا سألتك أيش صنعت فقال اجلس وأنشده :

عزفت بأعشاش وما كنت تعزف * * وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف
ولبح بك الهجران حتى كأنما * * ترى الموت فى البيت الذى كنت تألف

حتى بلغ الى قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا * * وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وأنشدها الفرزدق حتى بلغ الى آخرها فقام الأنصارى كئيبا فلما توارى طلع أبوه أبو بكر بن حزم فى مشيخة من الأنصار فسلموا عليه وقالوا : يا أبا فراس قد عرفت حالنا ومكاننا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغنا أن سفيها من سفهائنا ربما تعرض لك فنسألك بحق الله وحق رسوله لما حفظت فينا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووهبتنا له ولم تفضحنا قال محمد بن ابراهيم فاقبلت عليه أكلمه فلما أكثرنا عليه قال : أذهبوا فقد وهبتكم لهذا القرشى "[1] وأورد صاحب العقد الفريد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما مدحه عباس بن مرداس : أقطعوا عنى لسانه : قالوا بماذا يا رسول الله فأمر له بحلة قطع بها لسانه[2] " .

فهذه الروايات تبين مدى اعزازهم للشعر وتقديرهم له لنفاذه وسرعة أنتشاره ولما نزل القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته التجأ بعض بلغائهم للحكم على براعة القرآن واعجازه بأنه شعر وأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر وهم لا يقصدون أن ينزلوا من بلاغته واعجازه بمقدار ما يقصدون اظهار معرفتهم وعلمهم بهذا النوع من الكلام البليغ الفصيح ولكن الله سبحانه وتعالى أكد لهم أن القرآن ليس شعرا

---

(١) الاغانى حـ ٩ ص ٧٤ـ٧٦ طبعة ساسى .
(٢) العقد الفريد حـ ٥ ص ٣٠٥ .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر كما فى قوله تعالى " وما علمناه الشعر وما ينبغى له أن هو الا ذكر وقرآن مبين " (١) وقال تعالى " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون " (٢) وقال تعالى : (ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين (٣) وقال أيضا " أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون " (٤) وقال أيضا " وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون " (٥) .

كل هذه الآيات تؤكد أن القرآن ليس بشعر وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر فأصبح الشعر فى المرتبة الثانية لدى فصحاء العرب وجاء قوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون " (٦) .. " لتكمل الصورة وليس غريبا أن تجد أحد شعراء المعلقات ينقطع عن قول الشعر لأنه اكتفى عنه بالقرآن الكريم .

يقول صاحب الأغانى " كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الاسلام ، فأرسل الى الأغلب العجلى الراجز فقال له : أنشدنى فقال " .

أرجزا تريد أو قصيدا * * لقد طلبت هينا موجودا

ثم أرسل الى لبيد فقال : أنشدنى فقال : ان شئت ما عفى عنه ـ يعنى الجاهلية فقال : لا ـ أنشدنى ما قلت فى الاسلام . فانطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها وقال : أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر ـ فكتب بذلك المغيرة الى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فى عطاء لبيد ، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين أتنقص عطائى أن أطمعتك فرد عليه خمسمائة وأقر عطاء لبيد على ألفين وخمسمائة . " (٧) .

---

(١) سورة يس آية ٦٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٥ .
(٣) سورة الصافات آية ٣٦ ـ ٣٧
(٤) سورة الطور آية ٣٦ .
(٥) سورة الحاقة آية ٤١ .
(٦) سورة الحاقة آية ٤١ .
(٧) الاغانى جـ ١٤ ص ٢١٩ طبع ساسى .

والاسلام فى تضييقه لأغراض الشعر القديمة أراد أن يطهر المسلمين من أدرانها ، ويبتعد بذلك الفن الجميل عن كل ما هو قبيح ، وربما هدف بغير مباشرة الى شغل المسلمين أولا بالقرآن وأداء الرسالة .. لان الموقف كان جادا ، وجديته كانت صارمة .. ، والا فالاسلام لم يعاد الشعر عامة بل شجع شعراءه على استعمال ذلك الفن الجميل فى الدفاع عنه وتقبل أن يسمع لكثير من الشعراء المؤمنين .

ولو رجعنا الى تفسير قوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون .. الآيات فلابد أن نربط هذه الايات بما قبلها وهو قوله تعالى " هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون " [1] يقول الامام الرازى فى تفسير هذه الايلة " والمراد أنهم كانوا يقيسون حال النبى على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم ان كان الامر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أيضا فلما لم يظهر فى اخبار الرسول عن المغيبات الا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة " .

ثم ان المفسرين ذكروا فى الآية وجوها .

أحدها : أنهم الشياطين روى أنهم كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون الى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما أطلعوا عليه من الغيب ثم يوحون به الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يزعمون أنه يوحى به اليهم لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا .

وثانيها : يلقون الى أوليائهم السمع أى ـ المسموع من الملائكة .

وثالثها : الأفاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم .

ورابعا : يلقون المسموع من الشياطين الى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوه اليهم " [2] .

---

(١) الشعراء آية ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(٢) التفسير الكبير للامام الفخر الرازى حـ٢٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ الطبعة الاولى المطبعة البهية المصرية .

ويقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية " وكان في العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل اليهم الأخبار وكان الناس يلجأون اليهم ويركنون الى نبوآتهم وأكثرهم كاذبون ، والتصديق بهم جرى وراء الأوهام والأكاذيب وهم على آية حال لا يدعون الى هدى ولا يأمرون بتقوى ولا يقودون الى ايمان ، وما هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الناس بهذا القرآن الى منهج قويم ، ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحيانا : انه شعر ويقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم : انه شاعر ، وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا يعرفون له نظيرا . والذي ، يدخل الى قلوب الناس ويهز مشاعرهم ويغلب على ارادتهم من حيث لا يملكون له ردا " (١) .

بعد أن أوضح المولى سبحانه وتعالى حال الكهنة الذين يتلقون بعض الاخبار من الشياطين ويزيدون عليها من عند أنفسهم وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يختلف عن هؤلاء لصدقه في كل ما أخبر به من علوم الغيب : أنتقل الى ذكر الشبيه أو المجانس للكهنة من وجه التلقي من الشياطين وهم الشعراء .

يقول الامام الرازي رحمه الله : " أعلم أن الكفار لما قالوا : لم لا يجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ؟ ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء " (٢) وبما تقدم نعلم أنه ، سبحانه وتعالى أبطل ادعاء من يشبهون الرسل بالكهنة من حيث التلقي عن الغيب . وأورد صنفا آخر ممن يتلقون عن الغيب تلقيا باطلا لا صحة له وهم الشعراء بقوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون .... الايات " .

وقد اتفقت كلمة المفسرين (٣) لقوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون .. الاية " على أن المراد الشعراء الذين كانوا يقولون في الأغراض الجاهلية والمشركون الذين

---

(١) في ظلال القرآن حـ ٥ ص ٢٦٢٠ ـ ٢٦٢١ .

(٢) تفسير الرازي حـ ٢٣ ص ١٧٥ .

(٣) روح المعاني للآلوسي حـ ١٩ ص ١٤٥ ، وما بعدها . الكشاف للزمخشري حـ ٣ ص ١٠٣ وما بعدها . جامع البيان في تفسير القرآن حـ ١٩ ص ٧٨ وما بعدها لباب التأويل في معاني التنزيل حـ ٣ ص ٣٧٣ السراج المنير للخطيب حـ ٣ ص ٣٢ .

الذين كانوا يؤذون رسول الله ويهجونه • ويجتمع اليهم في باطلهم وكذبهم • وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الاعراض والقدح في الأنساب — الغواة والسفهاء والاعراب فيستمعون لهم ويتبعونهم ويطرقون كل سبيل من القول لا يبالون بالغلو ومجاوزة الحد ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم ، وقد يمدحون الشيء بعد أن ذموه ، ويعظمونه بعد أن استحقروه ، فهم لا يطلبون بشعرهم الحق والصدق [1] • لذلك استثنى الله الشعراء المؤمنين الصالحين الذين لا يصرفهم الشعر عن ذكر الله والذين اذا قالوا شعرا قالوه فيما يليق أن يقال فيه من غير مأثم والذين انتصروا بشعرهم ممن هجاهم وظلمهم ونال من دينهم وكتابهم ورسولهم وان هجوه وآذوه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة •

يقول الامام الرازي [2] رحمه الله وغيره من المفسرين : ان الرسول حين تحدى العرب بالقرآن فأعجزهم وهم أهل الفصاحة والالسن زعموا أنه شاعر وأن القرآن من قبيل الشعر وأن اعجازه قد جاء من هذه الناحية مع أن القرآن واضح المباينة للشعر لفظا ومعنى لخلوه من الوزن والتقفية ومغايرته لنظم الشعر وأسلوبه وبعده عن الكذب ، والتخييل وتزويق القول ، أما الشعر فأعذبه أكذبه على ما قالوا وكيف يكون القرآن شعرا وما كان محمد شاعرا فما علمه الله الشعر وما ينبغي له ولا يليق بجليل شأنه وعالي قدره أن يكون من الشعراء مداحا أو هجاء أو خائضا فيما يخوضون •

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستحسنه ويستنشده أصحابه ، ويمدح به ويثيب عليه ويقول " هو ديوان العرب " [3] وهو القائل " الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في نواديها وتعمل به الضغائن بينها " [4] وروى عن عائشة رضي الله

---

(١) هذا النوع من الشعر الذي تبرأ منه الشيخ النبهاني وأمر باتلافه وأعتذر عن نظمه بقوله " الشعر وسيلة لاظهار الحذق لا للاخبار بالحق والصدق " •

(٢) تفسير الرازي حـ ٢٣ ص ١٧٦ •

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ١٤ •

(٤) العمدة حـ ١ ص ١٠

عنها قالت " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] " وروى مسلم عن عائشة قالت " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " هجاهم حسان فشفى واشتفى " [٢] يعنى المشركين وشعراءهم بل أنه دعا حسان الى هجائهم ودعا له بالتأييد فقال له " أهجهم وروح القدس معك " [٣] وروى عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت وراء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء " قلت : نعم قال هيه فأنشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت فقال لقد كاد يسلم فى شعره " [٤] .

وجاء ولد يشكو أباه فى مال له الى رسول الله فأنشده الوالد أبياتا قالها فى أبنه وهى :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا ✻ ✻ تعل بما أحنو عليك وتنهل
اذا ليلة نابتك بالسقم لم أبت ✻ ✻ لسقمك الا ساهرا أتململ
تخاف الردى نفسى عليك وانها ✻ ✻ لتعلم أن الموت حتم موكل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ✻ ✻ طرقت به دونى فعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى ✻ ✻ اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ✻ ✻ كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى ✻ ✻ فعلت كما الجار المجاور يفعل

فبكى رسول الله ثم أخذ بتلابيب أبنه وقال له " انهب أنت ومالك لأبيك " [٥]

وعرضت قتيلة بنت النضر للنبى وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى أنكشف منكبه وقالت تبكى أباها النضر بن الحارث الذى قتل بعد أن أخذ أسيرا يوم بدر .

أمحمد يا خير ضنء كريمة ✻ ✻ فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ✻ ✻ من الفتى وهو المغيظ المحنق

---

(١) ابجد العلوم ص ٢٠٣ (٢) المرجع السابق
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ١٤ (٤) ابجد العلوم ص ٢٠٧ .
(٥) ابجد العلوم ص ٥٠٤ .

أو كنت قابل فدية فلينفقـــــــن * * بأعز ما يغلو به مـــن ينفـــق
فالنضر أقرب من أسرت قرابـــــة * * وأحقهم ان كان عتق يعتـــق

فقال رسول الله • لو سمعت شعرها هذا قبل قتله لمننت عليـــه (١) •

وهذا كعب بن زهير يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم فيهدر دمه فيقبـــل على الرسول مسلما ويمدحه بقصيدته المعروفة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبـــول ...

فيعفو عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ويخلع عليه بردته •

* * * *

كل هذا يدلنا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى في الشعـــر حكمة وجمالا ويستعذبه ويستنشده أصحابه وكان يراه سلاحا بتارا فعالا في محاربـــة المشركيـــن ونوعا من أنواع الجهاد في سبيل الله فأستخدمه أداة من أدوات الاسلام السياسية في حربه مع أعدائه فأجدى كما أجدى السيف وكان موقفه هذا من الشعـــر سببا في حفظه وروايته والعناية بآثـــاره بعد الاسلام •

ولكن هناك موقف آخر من الشعر يمثله قوله صلى الله عليه وسلم "لأن يمتلئ جوف رجل قيحـــا يريه خـــير من أن يمتلئ شعرا " (٢) هـــذا الحديـــث • رواه — البخاري ومسلم • ويقول الامام النووي " قال أهل اللغة والغريب : يريـــه من الـــرى وهو داء يفسد الجوف ومعناه : قيحا يأكل جوفه ويفسده ، قالوا : ان المراد أن — يكون الشعر غالبا عليه مستوليا عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعيـــة وذكر الله وهذا مذموم في أي باب من أبواب الشعر فأما اذا كان القرآن والحديـــث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا يضـــر حفظ اليسير من الشعر مع هـــذا لان جوفه ليس ممتلئا شعرا والله أعلم " (٣) •

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٨٥ •
(٢) ورد في كل من كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق الشيخان حـ ٣ ص ١٠١ وكتـــاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم حـ ٥ ص ٣٥١ •
(٣) اللؤلؤ والمرجان حـ ٣ ص ١٠١

أما صاحب "زاد المسلم" فقد كان تفسيره أوفى وأشمل اذ يقول " واستدل بعض العلماء بهذا الحديث على كراهة الشعر مطلقا قليله وكثيره وان كان لا فحش فيه بقوله صلى الله عليه وسلم : " خذوا الشيطان " .

وقال العلماء كافة : هو مباح مالم يكن فيه فحش ونحوه ، وقالوا : هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وهذا هو الصواب فقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم الشعر واستنشده وأمر به حسان في هجاء المشركين وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على اطلاقه وانما أنكروا المذموم منه وهو ما فيه الفحش وأما تسمية هذا الرجل الذي سمعه ينشد الشعر شيطانا فلعله كان كافرا أو كان الشعر لاهيا له غالبا عليه أو كان شعره هذا من المذموم وبالجملة فتسميته شيطانا انما هو في قضية تتطرق اليها الاحتمالات المذكورة وغيرها ولا عموم لها فلا يحتج بها والله أعلم " (١) .

وبعد أن أورد الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي صاحب " زاد المسلم " قول الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت " أهج قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل " وقوله أيضا " أهج المشركين فان روح القدس معك " برواية الصحيحين قال : لهذا أكرمت عائشة حسان بن ثابت بعد أن كف بصره ولما استأذن عليها حسان أذنت له فلما خرج قيل لها هذا من القوم .. أي : الذين خاضوا في الافك فقالت الذي يقول :

فان أبي ووالده وعرضي * * .....الخ البيت

يغفر له كل ذنب قال ابن حجر وفي الحديث حل انشاد الشعر بالمسجد بل ندبه اذا اشتمل على مدح الاسلام وأهله أو هجاء الكفار وتحقيرهم والتحريض على قتالهم ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة " .. أي : قولا صادقا مطابقا للحق ، قال الطبري وبه يرد على من كره الشعر مطلقا ولا حجة له في قول ابن مسعود " الشعر مزامير الشيطان " لأنه محمول على الافراط فيه " والاكثار منه أو على شعر فيه سخف أو هجو لمسلم أو نحوهما مما غلب على الشعراء وقد قال تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون " وهو محمول على الشعراء المذمومين شرعا لأن الشعر لا يخلو غالبا من تزوير وذكر أمور لا تليق لكن ذلك محمول على من أفرط فيه " (٢) .

---

(١) زاد المسلم ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ حـ ٥ . (٢) زاد المسلم حـ ٥ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣

بعد كل هذا أؤكد ما قلته سابقا من أن القرآن باتصافه بأعلى درجات البلاغة والفصاحة التى بهرت قريشا وأعجزتهم وهم أرباب البلاغة والفصاحة وبمغايرة القرآن للشعر فى معناه ومبناه وبهجائه للشعراء والغض من مكانتهم بشكل عام واستثنائه للشعراء المسلمين الذين يقولون فى الأغراض الاسلامية التى تكبح من خيال الشاعر وتهويماته التى بها يبحث فى شعره الحيوية والجودة • كل هذا يدلنا على أن الاسلام لم يقبل الشعر تقبلا مرضيا دائما لانه من أبواب المدح والقدح والغزل وهذا ما حرص الاسلام على أبطاله وازالته من مجتمعه (١) وربما كان ذلك لحرصه على أن ينزع مكانة الشعر الكبيرة من قلوبهم ليصنع حيزا كبيرا يستوعب تعاليم الاسلام الجديدة ولو رجعنا نحن الى فهم الصحابة لموقف الاسلام من الشعر لوجدنا صحة ما ذهبنا اليه ، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثانى أعظم رجال الاسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع عبد الله بن رواحة يمشى بين يدى الرسول فى مكة فى عمرة القضاء وهو ينشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله * * اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * * ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر " يا ابن رواحة " بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله " خل عنه يا عمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل " (٢) •

وهناك موقف آخر لعمر بن الخطاب أيضا حيث مر فى المسجد بعد وفاة الرسول وحسان ينشد فيه فأنكر عليه عمر فقال حسان : لقد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ثم التفت الى أبى هريرة فقال : أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أجب عنى اللهم أيده بروح القدس " ؟ قال : نعم (٣) •

والرواية الأولى تدل على انكار عمر بن الخطاب على ابن رواحة انشاده الشعر امام الرسول صلى الله عليه وسلم وفى الحرم تعظيما لهما • هذا ما كان يفهمه عمر بن الخطاب

---

(١) من باب القاعدة الشرعية " سد الذرائع " •
(٢) ابجد العلوم ص ٥١٩ •
(٣) المرجع السابق ص ٢١٧ •

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم سمح لابن رواحة بانشاد الشعر وشجعه لأن هذا من دواعي النصر الذى تقتضيه الظروف الحاضرة فى وقته ، ولأن الشعر سلاح لا يستعمل الا وقت المعركة وها هو ذا وقتها . فالآن يكون استعماله ، أما عمر بن الخطاب فقد كان يفهم باسلامه ان الشعر ممنوع مطلقا ، ووجه استعمال الشعر كالسلاح فى وقت المعركة فقط هو أنه عاود الانكار مرة ثانية على حسان بن ثابت لانشاده فى مسجد رسول الله . فلو كان عمر قد فهم من انكار الرسول عليه لاعتراضه على ابن رواحه انكارا مطلقا لما أعاد الاعتراض على حسان ولكان انكار الرسول له فى المرة الأولى كافيا لتغيير مفهومه عن الشعر مطلقا . وكون حسان يستشهد بأبى هريرة على انشاده الشعر فى المسجد النبوى أمام الرسول عليه الصلاة والسلام وشهادة أبى هريرة بذلك هى شهادة بما وقع فعلا وعمر يعرف ذلك ويعرف مناسبة الانشاد . ولكن الذى رسخ فى عقل ابن الخطاب أن لا داعي لانشاد الشعر وقد زالت دواعيه وهو مع هذا لم يردع حسان عن الاستمرار فى الانشاد لأنه لم يستطع أن ينكر ما أحتج به حسان وشهد به أبو هريرة وكون حسان قد استمر فى الانشاد لا يستدل به على موقف الاسلام من الشعر بمقدار ما يستدل به من انكار عمر خصوصا أنه هو المعروف بفهمه لروح الاسلام ومقاصده ، وهو الذى منع المؤلفة قلوبهم من أخذ نصيبهم من الزكاة كما نص عليها القرآن الكريم بقوله " انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم " (١) .

قال عمر : لقد جعل لكم نصيب وقد كان الاسلام ضعيفا واليوم قد قوى الاسلام فأجهدوا ما استطعتم . فلا يستبعد أن يكون فهم عمر بن الخطاب لموقف الاسلام من الشعر عموما نابعا من فهمه لموقف الاسلام العام من كل ما فى المجتمع ، خصوصا أن بعض الصحابة من الشعراء ترك قول الشعر مثل لبيد بن ربيعة وهو من شعراء المعلقات ومشهور بقوة صياغته وحكمة ومثل كعب بن مالك ـ وهو من شعراء الدعوة الاسلامية ـ الذى لم يعرف أنه قال بيتا واحدا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة خلافة ابى بكر وعمر وفى خلافة عثمان وقف الى جانب عثمان فى الفتنة وحمل سلاحه ليدافع عنه ولم يضعه الا بعد أن طلب عثمان من جميع مؤيديه باسم

---

(١) التوبة آية ٦٠ .

ولا يته عليهم أن يضعوا السلاح ، ولما قتل عثمان قال قصيدة يلوم فيها الانصار على تقاعسهم عن نصرتهم لخليفة رسول الله كما نصروا رسول الله : حيث يقول فيها :

من مبلغ الأنصار عني آيـــــــة * * رسلا تقـص عليهـم التبيانـا
أن قد فعلتم فعلة منكـــــورة * * كست الفضوح وأبدت الشنآنـا
بقعودكم في داركم وأميركـــم * * تغشى ضواحي داره النسيانـا

الى أن يقـــول :

يا لهف نفسي اذ يقـــول الا أرى * * نفرا من الانصار لي أعوانـا
فلو آنكم مع نصركم لبنيكـــم * * يوم اللقـاء نصرتم عثمانا ؟؟
أنسيتم عهـد النبي اليكـــم * * زلقد ألظ ووكـد الايمانـا (١)

وقد كان هذا هو المفهوم للشعر عند الأتقياء والصلحاء من المسلمين ، فهذا أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام يستأذن الكميت ليدخل عليه أيام التشريق فيأذن له فيقول الكميت جعلت فداك .. قلت فيكم شعرا أحب أن أنشده فقال يا كميت أذكر الله في هذه الايام المعلومات وفي هذه الايام المعدودات فأعاد عليه الكميت القول فرق له أبو جعفر عليه السلام فقال : هات فأنشده قصيدته حتى بلغ الى قوله :

يصيب له الرامون عن قوس غيرهـــم * * فيا آخرا أسدى له الغي أول

فرفع أبو جعفر يديه الى السماء وقال اللهم أغفر للكميـــت (٢) .

وهذا الامام الشافعي " كان من أشعر أهل زمانه وجل شعره في الحكـــم النافعة وسبب معرفته الشعر أنه طلبه في أول أمره وكان سبب التفاتة عنه الى الفقه أنه كان يسير على دابة له فتمثل بيت شعر فقال له أحد الكتاب مثلك يذهب بمروءتـــه في هذا ؟ أين انت من الفقه ؟ قال فهزني ذلك ، وقصد الى مسلم بن خالـــد

---

(١) الاغاني حـ ١٥ ص ٢٦ ــ ٢٧ مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصـــر
الظ : لازم ودارم وأقام ــ القاموس المحيط .
(٢) الاغاني حـ ١٥ ص ٢٨٦ .

مفتى مكة فلازمه ثم قدم المدينة على مالك وهكذا حتى أصبح صاحب مذهب فى الفقه" (١) وأبياته التى أولها ٠

ولولا الشعر بالعلماء يــــزرى * * لكنت اليوم أشعــــر من لبيــــد

مشهورة ٠ هذا هو الموقف الاخير للاسلام من الشعر والشعراء ٠ وقد كــان قوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغــاوون ٠٠٠٠ الآيات " ضربة قاصمة للشعــــر والشعراء اذ أن الصفات التى ذكرت فيمن أستثناهم الله تعالى منهم بقوله " الا الذين آمنوا وعملــوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذيــــن ظلموا أى منقلب ينقلبون " : قلما تتوفر فى مسلم يتصف بهذه الصفات وعنده استعداد لقول الشعر اذ تراه يشغل فكره فى خير لا شبهة فيه كالامام الشافعى الذى أشتغل بالفقه ، والقرآن ٠

بهذا يكون الاسلام قد حدد أغراض الشعر وهى أغراض الخير والحــــق والصدق وهذه ــ فيما يزعمون ــ ليست من بواعث الشعر الذى يقوى فى الشر ويستلهم من الشياطين ــ كما يروون وكما يروى فى قصة الفرزدق مع الانصارى الذى تحــــداه ــ ولما عجز الفرزدق خرج الى البرية وأستغاث بشيطانه اذ قال أخاكم أخاكــم :

أما رأيى الشخصى فهو يوافق ما ذهب اليه سيد قطب رحمه الله اذ يقــول : " ٠٠٠٠٠ ومع هذا فالاسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته ٠٠٠ انما يحــارب الذى سار عليه الشعر ، والفن منهج الاهواء والانفعالات التى لا ضابط لها ومنهج الاحلام الواهمــة التى تشغل أصحابها عن تحقيقها فأما حين تستقر الروح علــى منهج الاسلام وتتضح بتأثراتها الاسلاميــة شعرا وفنا وتعمل فى الوقت ذاته علــى تحقيق هذه المشاعر النبيلــة فى دنيا الواقع ولا تكتفى بخلق عوالم وهمية تعيــش فيها وتدع واقع الحياة ــ كما هو ــ مشوها متخلفا قبيحا ، فأما عند ذلــك فالاسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن كما قد يفهم من ظاهر الالفــاظ " (٢) ٠

---

(١) زاد المسلم ص ٣٦٠ ٠

(٢) فى ظلال القرآن حـ ٥ ص ٢٦٢٢ ٠

ويقول سيد قطب رحمه الله أيضا " والصور التي يتحقق بها الشعر الاسلامي والفن الاسلامي كثيرة غير هذه الصور التي وجدت وفق مقتضياتها ، وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور اسلامي للحياة في جانب من جوانبها ليكون شعرا أو فنا يرضاه الاسلام وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا أن يكون دعوة مباشرة للاسلام أو تمجيدا له ..... انه نظرة الى سريان الليل وتنفس الصبح ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد بالله في حسه ليتكون على هديها الشعر الاسلامي في صميمه ، وان لحظة اشراق واتصال بالله أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله لكفيلة بأن تنشئ شعرا يرضاه الاسلام ، ومفرق الطريق أن للاسلام تصورا خاصا للحياة كلها وللعلاقات والروابط فيها فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الاسلام (١) .

وقريب من هذا المعنى ما قاله الاستاذ محمد قطب بعد ايراد قوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون .... الآيات " ، " صحيح أن سياق الايات يوحي بأن الشعراء الملعونين هم الاصل والمستثنون هم القلة ولكن ذلك من ناحية كانت تصدق على الشعراء الموجودين في الجزيرة العربية يومئذ ، وقد تصدق على كثير من الشعراء في كل وقت ولكنه من ناحية أخرى لا يلعن الشعر من حيث هو شعر (٢) . ولا يطلق اللعنة على الشعراء عامة وانما يصم سلوكا نفسيا معينا يتبعه أولئك الشعراء فمن خلص منه فلا تثريب عليه ولا على فنه الذي يعبر فيه عن مفاهيمه الايمانية — فالملعون اذن هو الكفر ، والمطلوب هو الايمان ولا على المؤمنين حين يكونون شعراء — أن يقولوا الشعر في حدود تصورهم الايماني ومفاهيمهم الايمانية وهم آمنون من اللعنة بل مثابون على قولهم بما ينال المؤمنون من الثواب (٣) .

هذا هو الوضع العام للشعر والوضع الخاص للمدائح النبوية في العصرين النبوي والراشدي ، أما في العصر الأموي فقد وجدنا الشعر ينهض من جديد بأغراضه الجاهلية القديمة ووجدنا شعراء أهل البيت هم الذين تأثروا بالاسلام في أشعارهم تأثرا واضحا ، وقد كان الولاء لأهل البيت يمثل الجانب الاخر من الولاء للأمويين

---

(١) المصدر السابق حـ ٣ ص ٢٦٢٣ .

(٢) في الاصل : لا يلعن الشعر كشعر وهو تعبير خاطئ وشائع صوابه ما أثبتناه د / سرحان .

(٣) منهج الفن الاسلامي ص ٢٠٨ .

حتى وجدنا أن كل من أراد النجاح لدعوته دعا لها باسم أهل البيت كالمختار الثقفى مثلا ، وكان الكميت بن زيد يمثل قمة الاولاء والاخلاص لآل البيت ولم نجد مدائح نبوية مستقلة فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر على ألسنة الشعراء لبيان موضع الشقه والولاء لاهل البيت لصلتهم بالرسول عليه السلام حتى اذا جاء العصر العباسى اقتصر مصطلح اهل البيت " على العلويين فقط وكثير من الشعراء الذين يمدحون العلويين كانو يعرضون بالعباسيين وهذا يدل على أن الولاء لاهل البيت معناه الولاء لهم هم ضد الطرف الحاكم سواء أكانوا هاشميين كما فى العصر الأموى أو للعلويين كما فى العصر العباسى .

وفى العصر العباسى أيضا لا نجد مدائح نبوية بمفهومها الفنى ولكن هناك شعراء مدحوا أهل البيت وانتصروا لهم فذكروا الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدائحهم عرضا وقد كانت مدائحهم لال البيت تمثل موقفا سياسيا وعصبيا أكثر منها خالصة لمحبة آل البيت (١) هذا ولما أشتدت الأزمات بالمسلمين وظهر تجافى المسلمين لتعاليم دينهم كان لا بد أن يظهر من يخلص للدين ويدعو للتمسك بالاسلام متخذا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أنشودة يتغنون بها ويذكرون بها .

هذا ونحن لا نستطيع أن نحصى من مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأن كل مسلم لا بد أن يكون قد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم نظما أو نثرا .

يقول الشيخ يوسف النبهانى " اعلم أن مداح النبى صلى الله عليه وسلم هم فى كل عصر ومصر كثيرون لا يحصيهم عد ولا يحيط بهم حد ، ولو جمعت مدائح أهل عصر واحد منهم لبلغت عدة مجلدات وكثير منهم نظموا فى ذلك دواوين على أنحاء مختلفة " (٢) .

فاذا تنقلنا عبر الزمن وتخطينا ميادين الأدب وساحاته من القرن الثالث حيث كان يشدو دعبل ويصرخ فى أسى وحسرة الى القرن السابع وجدنا فى مصر شاعرا يمدح ويمجد ويتبتل فى حبه أمام انوار الحضرة المحمدية مناجيا ضارعا فى نجواه متفانيا

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع دعبل الخزاعى ص ١٧٨ وما بعدها .

(٢) المجموعة النبهانية حـ ١ ص ١٥ .

في عشقه مؤمنا أعمق الايمان أن عشقه كان دواء له من آلامه وأن مديحه شفاء لهمومه وأسقامه ذلك هو البوصيري ٦٠٨ ـ ٦٩٧ محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الصنهاجي • الدلاصي المولد المغربي الأصل المصري المنشأ • وكان أبوه من ناحية بوصير وأمه من ناحية دلاص أما بوصيري فهي بوصير قويدس أو بوصير الملق وتقع بين الفيوم وبني سويف وفيها قتل مروان الثاني آخر خلفاء بني أميه (١) •

كان البوصيري يقول الشعر في أغراض متنوعه ولكن القارئ لشعره والمتتبع لقصائده يجد أن هذا الشعر يمثل عصر الضعف والركود الذي وجد فيه فهو صورة هزيله هزال العصر فاتر فتور الادب في زمانه ومكانه • وما كانت ثقافة البوصيري وأدبه يرفعانه الى أكثر مما وصل اليه من أشعاره التي جادت بها شاعريته • ولكن في حبه للرسول صلى الله عليه وسلم واضطرام عشقه وتفانيه في ولائه له استطاع أن يرتفع ويحلق حتى يبلغ الذروة في مدح الرسول والتوسل اليه فجاءت هذه المدائح نفحات علوية من نفحات ذي الجلال تتسم بصفاء الروحانية وعمق الاخلاص وغزارة المشاعر وقوة العاطفة ثم هي من حيث الموضوع لا تجنح الى حزب من الاحزاب ولا تميل الى طائفة من الطوائف وانما تهدف الى الاصل الذي ينبع منه النور والهداية من حيث سمو التعبير وروعة الاساليب واشراق المعاني في ذروة البلاغة وقمة البيان •

مدائحه النبوية :

للبوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أشعار كثيرة منها البردة التي تعد أروعها وأقواها وأنضرها وأسناها وقد سماها البردة تشبيها لها ببردة كعب بن زهير • ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم * * مزجت دمعا جرى من مقلة بدم (١)
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة * * وأومض البرق في الظلماء من أضم (٢)

---

(١) أعتمدت في ضبط أشعار البوصيري على ما هو موجود في المجموعة النبهانية ذلك لان صاحب الديوان أتخذ من المجموعة النبهانية مصدرا لديوانه ويبدو لي أيضا أنه لم يكن دقيقا في تحقيقه ذلك أنه نسب تأليف المجموعة النبهانية لاسماعيل النبهاني مع أن مؤلفها يوسف النبهاني يراجع الديوان ذي سلم موضع بين مكة والمدينة المقلة شحمة العين •

(٢) تلقاء حذاء كاظمة موضع أو مسيل لمع واضم واد دون المدينة •

واذا كانت القصيدة التي تسكن في نفس المرء وتهجس في أعماقه ذات أثر بالغ فيما يصدر عنه من فعل أو عمل . فان عقيدة البوصيري قد أدت دورها في احكام هذه القصيدة واتقان أدائها .

وقد تحدث عن سبب نظمه البردة فقال " كنت نظمت قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه على الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبني فالبح أبطل نصفي . ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى في أن يعافيني . وكررت أنشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح وجهي بيده المباركة .

وليس هذا بعجيب ولا غريب فان المرء قد يتعرض لحالة نفسية تتغلغل في أعماقه وتستولي على تفكيره فتستجيب لها مشاعره وتسبح في أجوائها روحه وترتاح لها حواسه فاذا بها تنتشله من كآبته . وتنزعه من همومه وتقشع عن آفاقه ما تراكم عليها من غيوم وظلمات واذا بها كذلك تفجر بيانه وتفتق خياله وتهذب قوله وترهف منطقة فيقول وكأنه يلقى اليه القول ويغرد وكأنه يلهم الشدو والتغريد ولو أراد نفسه أن تنصرف عن التعبير وأراد خياله على البعد عن الوصف والتصوير لما تهيأ له ذلك . وكذلك كان البوصيري في حالته النفسية التي عاشها متبتلا في حبه مستغرقا في عشقه وهيامه والتي الهم فيها تلك القريدة العصماء ولعل هذه الحالة النفسية هي التي جعلت البوصيري يسن للشعراء في غزله طريقة محببة لا تهيج شهوة ولا تثير نزوة ولا تعمد الى أوصاف حسية تمجها الاذواق وتصدف عنها النفوس .

لقد أتبع البوصيري مناهج المتقدمين في قصيدته . فهو قد بدأها بالغزل وذكر الديار وألم بالمواطن والأماكن التي يكن لها في القلب جميل الذكريات . وتحدث عن لواعج الفؤاد وانفعال النفس من اشتعال وقدة الهوى في حنايا الضلوع . لكن هناك فرقا واضحا ملموسا بين الطريقتين طريقة الاقدمين وطريقة البوصيري فالاقدمون قد يغريهم الحديث عن الفرعاء المصقولة العوارض والهيفاء مقبلة والعجزاء مدبرة وهكذا يكلفون بتلك الأوصاف الحسية التي يتمنى ذو الدين والعقيدة أن يمر بها مر الكرام ليصل الى الهدف الذي يشغل قلبه ويملك لبه وهو موضوع

القصيدة •

أما البوصيري فقد تابعهم فقط في الطريقة وابتدأ مديحه بالغزل ولكن غزله لم يكن الحاحا على أوصاف حسية أو الماما بمفاتن جسدية مما يغرى بعض الاسماع أو يطرب بعض النفوس ولكن غزله كان دموعا وأحزانا وآهات تشتعل وتضطرم وذكريات تثير كامن الوجد ووقفات في مواطن وأماكن تهيج الحنين وتبعث اللوعة وتذكي موجع الانين •

نعم كان غزله اعتذارا عن الحب الذى جلب له السقم والهوى الذى أرق جفنه وتسويغا لشيوعه وظهوره بين الناس مع حرصه على الكتمان وايثاره للستر والاستخفاء فانه مثل الاريج الفواح والشذى المطر الذى لا يستطاع له جمع أو اخفاء ••• انه يصور انهمار الدمع بسبب الهوى الذى يتمكن من النفس ويعترض اللذات الألم فيقول •

فما لعينيك ان قلت أكفا همتا * * وما لقلبك ان قلت أستفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم * * ما بين منسجم منه ومضطرم (١)
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل * * ولا أرقت لذكر البان والعلم (٢)
فكيف تنكر حبا بعدما شهدت * * به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى * * مثل البهار على خديك والعنم (٣)
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى * * والحب يعترض اللذات بالألم

ويستمر البوصيري في هذا النسيب الجميل المؤثر مرتديا برد الواعظ الناصح متشحا بثوب الحكمة التى تنبئ عن عقل راجح ورأى سديد وقلب مدرك عرف الايام وغدرها والدنيا وخستها وتقلباتها والحياة وسرابها الخادع فيقول :

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة * * منى اليك ولو أنصفت لم تلم

وهو فى هذا البيت أرق وجدانا واحساسا وبيانا وألين منطقيا من زميله ابن الفارض الذى يقول :

---

(١) المنسجم الدمع السائل والمضطرم القلب المستعل بالحب •
(٢) ارقت سهدت • ابان شجر • العلم جبل •
(٣) البهار ورد اصفر • العنم ورد احمر •

يا لائما لا من في حبهم سفهـــا * * كف الملام فلو أحببت لـم تلـم

فابن الفارض كان عنيفا حين وصف اللائم بالسفه واتجه في خطابه الى الأمـر الواضح الصريح بقوله (كف الملام) أما البوصيري فانه يصف هواه بالعذرية ويعلـن للعاتب الزاري واللائم المؤنب أعتذاره كخضوع العاشق المدله ومسكنة المتيم الولهـان ثم يلتفت اليه في رفق ولين قائلا (ولو أنصفت لم تلـم) ولقد كان شوقي رحمـه الله الطف الجميع وأرقهم وأعذبهم بيانا وأسمحهم في تصوير هذا المعنى حين قال :

يا لائمي في هواه والهوى قـــدر * * لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلـم

فالهوى قدر متاح لا يستطاع رده بفكر ذي فكرا وحيلة ذي مكر . واللائـم لو شفه الوجد وطاف به الحب لما رضي بعذل ولا جنح الى ملام ثم يقول البوصيري :

عذلتك حالي لا سوى بمستـــتر * * عن الوشاة ولا دائي بمنحسـم
محضتني النصح لكن لست أسمعـه * * ان المحب عن العذال في صمـم
اني اتهمت نصيح الشيب في عـذل * * والشيب أبعد في نصح عن التهـم
فان أمارتي بالسوء ما أتعظـت * * من جهلها بنذير الشيب والهـرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قـرى * * ضيف ألم برأسي غير محتشـم

ويبدو حسن الاقتباس من القرآن الكريم في قوله (فان أمارتي بالسوء ما اتعظت) فأنه مأخوذ من قوله تعالى : " وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسـوء) (١) .

كما يبدو كذلك حسن الاقتباس وجمال الأخذ من المتنبي في قوله : " ضيف ألم برأسي .. " فهو من بيت المتنبـي :

ضيف ألم برأسي غير محتشـم * * والسيف أحسن فعلا منه باللمـم

ويظل البوصيري مؤثرا جانب الحكمة فيقـول :

والنفس كالطفل أن تهمله شب علـى * * حب الرضاع وان تفطمه ينفطـم (٢)

---

(١) سورة يوسـف آية ٤٦ .

(٢) هذا البيت مأخوذ من قول أبي فراس الحمداني :
والنفس راغبة اذا رغبتهـا * * واذا ترد الى قليل تقنـع

فاصرف هواها وحاذر أن توليه * * ان الهوى ما تولى يصم أو يعم (١)
كم حسنت لذة للمرء قاتلة * * من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع * * فرب مخمصة شر من التخم (٢)
وخالف النفس والشيطان واعصهما * * وان هما محضاك النصح فاتهم

ثم يخلص بعد ثمانية وعشرين بيتا من الغزل الذى يصور ضنى النفس ويحكى لوعة القلب واستعار الشوق ويشمل الحكم الرصينة الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

ظلمت سنة من أحيا الظلام الى * * أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى * * تحت الحجارة كشحا مترف الادم
وراودته الجبال الشم من ذهب * * عن نفسه فأراها ايما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته * * ان الضرورة لا تعدو على العصم (٣)

ويظل فى بيانه الاسر ومنطقة الساحر يصور صفاته الطيبة ومناقبه العالية وخلائقه الكريمة الى أمه جد بعيد ويبدو أنه يدعو الى وصفه بأجل الصفات وأسمى النعوت ما عدا ما الصقه النصارى بالمسيح عليه السلام حيث يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم * * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف * * وانسب الى قدره ما شئت من عظم
فان فضل رسول الله ليس له * * حد فيعرب عنه ناطق بفم

وفى مولده الذى كان نورا يبدد ظلمات الدنيا وبسمة فى عبوس الزمن يقول :

أبان مولده عن طيب عنصره * * يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم * * قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع * * كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

---

(١) يصمى يقتل ، يصم يعيب .
(٢) المخمصة الجوع ، التخمة فساد الطعام فى المعدة من كثرة الاكل .
(٣) العصم : جمع عصمة .

ويفيض فى شرح معجزاته وما تنبىء عنه من رعاية الله له وتأييده أياه متحدثا عن اختفائه فى الغار وقد صرف الله عنه الانظار وأعمى عيون الكفار ويقول :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة * * من الدروع وعن مال من الأطم

ويتجه بكل قلبه وبما فيه من عاطفة حب صادق مصورا نفحات حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وألطافه التى يلمس آثارها ويستمتع بخيراتها وبركاتها بقوله :

ما سامنى الدهر ضيما واستجرت به * * الا ونلت جوارا منه لم يضم
ولا التمست غنى الدارين من يده * * الا استلمت الندى من خير مستلم

ويصرخ فى وجوه الجاحدين المنكرين الذين تعاموا عن آياته وتعاروا حسدا من عنده أنفسهم فى وجهه ومعجزاته .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * * وينكر الفم طعم الماء من سقم

وما أروعه وأبدعه حين يتجه بخطابه منادبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذكرى اسرائه من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى :

يا خير من يمم العافون ساحته * * سعيا وفوق متون الأينق الرسم (١)
ومن هو الاية الكبرى لمعتبر * * ومن هو النعمة العظمى لمغتنم
سريت من حرم ليلا الى حرم * * كما سرى البدر فى داج من الظلم

والبوصيرى يرنو فى سرور واعجاب الى هذه البطولة النادرة التى مزقت الاعداء وصرعت خصوم الحق بعد أن صموا اذانهم وأعموا عيونهم واستسلموا لعصبية الجاهلية وجموح الكفر وظلمة الضلال فيقول .

راعت قلوب العدا أنباء بعثته * * كتيأة أجفلت غفلا من الغنم (٢)
ما زال يلقاهم فى كل معترك * * حتى حكوا بالقنا لحما على وضم (٣)
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به * * أشلاء شالت مع العقبان والرخم (٤)

---

(١) العافون طلاب الرزق . الرسم التى ترسم الارض اى تعلمها باخفافها .
(٢) النيأة الصرخة .
(٣) حكوا شابهوا . الوضم الخشبة التى يضع عليها الجزار اللحم .
(٤) الاشلاء جمع شلو وهو العضو والجسد بلا روح . العقبان من كواسر الطير .

تمضى الليالى ولا يدرون عدتهـــــا * * مالم تكن من ليالى الاشهر الحرم(١)
كأنما الدين ضيف حل ساحتهـــــم * * بكل قرم الى لحم العدا قـــرم

ثم يصف هؤلاء المحاربين الأبطال والمؤمنين الذين وصفهم الله بأنهـــم أشداء على الكفار رحماء بينهم فيقول :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهـــم * * ماذا رأى منهم فى كل مصطـدم
كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربـــا * * من شدة الحزم لامن شدة الحزم(٢)
ومن تكن برسول الله نصرتـــــه * * ان تلقه الاسد فى آجامها تجـم

وفى ختام القصيدة يتوجه الشاعر الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى ضراعة ويتوسل صارخا من أعماقـــه :

يا أكرم الخلق مالى من ألـوذ بـــه * * سواك عند حلول الحادث العمم(٣)
ولن يضيق رسول الله جاهـك بـــى * * اذا الكريم تحلى باسم منتقـــم(٤)
يا نفسُ لا تقنطى من زلة عظمـــت * * ان الكبائر فى الغفران كاللمـــم
لعل رحمة ربى حين يقسمهـــا * * تأتى على حسب العصيان فى القسم(٥)

وهكذا لا ينتهى الانسان من تلك المدحة الكبرى حتى يلمس فيها وجـــد المحب وشوق المتيم وتصوير حياة القائد الاعظم والرسول الاكرم بما عبرت به هـــذه الحياة من خوارق ومعجزات ومن جهاد متواصل فى تثبيت دعوته ونشر رسالته وما كابـد من أعدائه ولاقى من خصومه حتى أظهره الله عليهم ونصره نصرا مؤزرا فكانت كلمـــة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلـــى .

---

(١) القرم السيد . القرم شديد الشهوة الى اللحم .
(٢) الربا : الاماكن المرتفعة .
(٣) الحادث العمم يوم القيامة لانه يعم الجميع .
(٤) المنتقم : من أسماء الله تعالى .
(٥) الديوان ص ٢٣٨ ــ ٢٤٩ وقد ضبطها وشرحها الشيخ النهبانى حـ ٤ ص٢ــ١٥

همزيـــة البوصـــيرى :

على أنه لا يفوتنا — ونحن فى نشوة الاعجاب ببردة البوصيرى وغرة السرور بما نال من سداد وما أصاب من توفيق — أن نلم بقصيدته البارعة وهـــى الهمزية التى سماها "(أم القرى فى مدح خير الورى) ولعله كان يعدها فـــى شعره بمثابة أم القرى مما حولها ويحيط بها لأنه أطال فيها وجمع مالم يجمـــع فى غيرها حتى بلغت أبياتها ستة وخمسين وأربعمائة بيت كما أن له ثلاث قصائـــد بائيـــة مجموع أبياتها أربع وتسعون ومائتا بيت أما الأولى فأولهـــا :

وأفـــاك بالذنب العظيم المذنـــب * * خجـلا يعنـــف نفسه ويؤنـــب

والثانية أولهـــا :

بمدح المصطفى تحيا القلـــوب * * وتغتفـــر الخطايا والذنـــوب

والثالثـــة أولهـــا :

أوهـــوا البين وشدوا الركابـــا * * فاطلب الصبر وخل العتابـــا

وله قصيدة حائيـــة أولهـــا :

أمدائح لى فيك أم تسبيـــح ؟ * * فلولاك ما عفر الذنوب مديـــح
حدّثت أن مدائحى فى المصطفـــى * * كفارة لـــى والحديث صحيـــح

وله قصيدة دالية يمدح بها النبى صلى الله عليـــه وسلم ويذكر نار الحجـــاز التى ظهرت قرب المدينة المنورة ويحذر من النار التى احترق بها الحـــرم الشريف وسماها (تقديس الحرم من تدنيس الضرم) وأولهـــا .

الهى على كل الأمور لك الحمـــد * * فليس لما أوليت من نعمك حـــد
لك الأمـــر من قبـــل الزمان وبعـــده * * ومالك قبل كالزمان ولا بعـــد

وله قصيدة لامية عارض فيها "بانت سعاد" سماها " ذخر المعـــاد " فى معارضـــة بانت سعـــاد " وأولهـــا :

الى متى أنت بالذات مشغـــــول * * * وأنت عن كل ما قدمت مسـئول
فى كل يوم تُرَجِّى أن تتـــوب فـــد ا * * * وعقد عزمك بالتسويف محلـــو لى

وله لاميـة أخرى وأولهـــا :

جاء المسيح من الالـه وســـــولا * * * فأبى أقل العالمين عقـــــولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعـــــوا * * * من جهلهـم لله فيه حلـــــولا

وأخيرا نذكر له قصيدة نونيـة أولهـــا :

سارت العيس يرجعن الحنينـــــا * * * ويجاذبن من الشوق البرينـــا (١)
دامياتٍ من حفى أخفافهـــــا * * * تقطع البيد سهولا وحزونـــا

هذا وقد كانت قصيدته الهمزية أطولها جميعا فهى جديرة حقا بأن تسمى " أم القرى " لما ارتسمت به من طول وما تهيأ لها من أستيعاب ، وأولهـــا :

كيف ترقى رقيك الأنبيـــــاء ؟ * * * يا سماء ما طاولتها سمـــاء
لم يساووك فى علاك وقـد حـــا * * * ل سنا منك دونهم وسنـــاء
انما مثلوا صفاتـــك للنـــا * * * س كما مثل النجـــوم المـــاء
أنت مصبـــاح كل فضل فما تصـــ * * * در الا من ضوئـــك الأضـــواء

وقد أستهلها بالمـدح المباشر والقصد الى الهدف من غير مقدمات ترتبـط بغزل أو تلتزم بنسيب وفيها يتحدث عن مولده الذى كان للدين سرور يومه وازدهـــاء مولـد كان منه فى طالع الكفر ويال عليهم ووباء وكيف تداعى ايوان كسرى وخمدت نيرانهم وغاضت عيونهم وكيف تهيأ له من عنايـة الله فى أرضاعه وتربيته ما حفظه ورعاه وأسعـــد من كان له فى ذلك شرف ونصيـــب .

---

(١) العيس الابل البيض يخالط بياضها شقرة . يرجعن يرددن — الحنـــين الصوت الناشىء عن الشوق . البرين جمع برة وهى حلقة توضع فى أنـــف البعير وشد بها اللجـــام .

وبدت فى رضاعه معجزات * * ليس فيها عن العيون خفاء
اذ أبته ليتمه مرضعات * * قلن ما فى اليتيم عنا غناء
فأتته من آل سعد فتاة * * قد أبتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها * * وبنيها البانها من الشاء
أخصب العيش عندها بعد محل * * اذ غدا للنبى منها غذاء
يا لها منة لقد ضوعف الأجر عليها من جنسها والجزاء
واذا سخر الاله اناسا * * لسعيد فانهم سعداء

تصور هذه القصيدة حياته صلى الله عليه وسلم ولادته ورضاعه وتربيته ونشأته وزواجه وعبادته وهى تصور الحنيفية السمحاء وما تحوى من آداب وتجادل اليهود والنصارى فيما أندفعوا اليه من الشذوذ فى الرأى والانحراف فى العقيدة والضلال فى المذهب وتتكلم عن انتصاره على أعدائه وعفوه عنهم :

ناشدوه القربى التى من قريش * * قطعتها التيرات والشحناء
فعفا عفو قادر لم ينغصه عليهم بما مضى اغراء
واذا كان القطع والوصل للنبى تساوى التقريب والاقصاء

ويقول فى آل البيت :

آل بيت النبى طبتم فطاب المدح لى فيكم وطاب الثناء
انا حسان مدحكم فاذا نحـ * * ـت عليكم فانى الخنساء
سدتم الناس بالتقى وسواكم * * سودته البيضاء والصفراء

وبعد هذا يعود مقرا بالعجز عن المدح معترفا بالقصور فى تصوير عظمة النبى ومعجزاته فيقول :

ان من معجزاتك العجز عن وصـ * * ـفك اذ لا يحده الاحصاء
كيف يستوعب الكلام سجاياك وهل تنزح البحار الركاء (١)

هذا وقد حظيت الهمزية باهتمام الشعراء ومن عارضها الشيخ النبهانى بقصيدته التى أولها :

---

(١) تنزح من بابى منع وضرب ، والركاء : جمع ركوة .. وهى الزورق الصغير .

نور الكل والورى اجـــــزاء * * يا نبيا من جنسه الأنبـــــاء
علة الكون أنت ولولـــــك لا * * كنت لم تلمست في غيبها الاشيـــاء

وعارضها شوقي بقصيدته التي أولها :

ولد الهـدى فالكائنات ضيـــاء * * وفم الزمـــان تبسم وثنـــاء
الروح والملأ الملائـــك حولـــه * * للدين والدنيا به بشـــراء

أما قصيدة البردة فقد حظيت باهتمام أكثر العلماء والدارسين والشعـــراء على مدى العصور وامتداد الحقب . فقد عكف كثير من العلماء على شرحهـــا منهم ابن الصانع المتوفى سنة ٧٧٦ وابن العماد المتوفى سنة ٨٠٨ هـ والمرزوقي المتوفـــى سنة ٨٨١ هـ وغيرهم ، كما عارضها البارودي وشوقي أيضا . ولو أتسع المجـــال للموازنة بين البوصيري وغيره من الشعراء الذين عارضوا قصيدته لتبين لنا أن أولئـــك الشعراء على ما أتيح لبعضهم من قوة البيان سمو الأداء لم يبلغ واحد منهـــم مبلغ البوصيري في روحانيته وعلوه وتحليقـــه .

المدائح النبوية في العصر الحديث :

لننظر نظرة مجملة للحالة الاجتماعية منذ القرن التاسع عشر وما كان عليـــه المسلمون من جهل وفقر من خلال ما سجله الكتاب والمؤلفون في وصف هذه الحالـــة .

يقول الاستاذ أحمد أمين " هذا هو الشرق بصره لا تعرف أن تصلح ساعـــة وجيوشه تعبا على طريقة الحروب الصليبية وأسلحته هي ما كانت عليه منذ خمسة قرون ومشايخه يبحثون في الكتب ليستخرجوا فتوى لحل تعلم الحساب أو حرمته (مساكـــن) شعوبه أكواخ حقيرة فقيرة قذرة كمساكن الناس وقصور فخمة ضخمة ملئت بالجواري الحسان وكل أسباب الترف والنعيم لعدد محدود من الـــولاة والأمـــراء (١) .

---

(١) فيض الخاطر حـ ٥ ص ١٩١ ، ويتضح أن هذا الكلام صادر عن جهالة ، والا فما رأي احمد أمين في جيش محمد علي الذي قهر دول الشرق جميعا واحتـــل قبرص واليونان وتركية وكان عدده (١٥٠) الفا فقط ؟ . د . سرحان

ويقول عبد الرحمن الكواكبي : وفيما أتصور أن يلاحظ من تأصل الجهل في غالب امرائنا المترفين والاخسرين أعمالا الذين ضلوا وأضلوا سواء السبيل *

ويقول أيضا : ومن أعظم أسباب فقر الأمة أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقا معلوما للبائس والمحروم فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء ، وهذه الحكومات الاسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجبي الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للاغنياء وتحابي بها المسرفين والسفهاء (١) *

ومن المؤكد أن الانتكاس العلمي والحربي والمادي للمسلمين في عصورهم المتأخرة دفعهم دفعا الى الوقوف أمام مرآة التاريخ ليروا ماضيهم المشرق ، وتاريخهم المجيد ، ويتمثلوا العظمة والقوة والغنى والثراء في التزام المنهج التأسيسي لدولة الاسلام الاولى ، والاقتداء بالرائد الاول للمسلمين صلوات الله وسلامه عليه ، فتمتلأت المشاعر بذكره ، ونهضت الاحاسيس برسمه ، واتجه الشعراء والادباء الى الحديث عنه ، وعرض سماته وصفاته وطرائقه في معالجة شؤون الحياة على ضوء ما حباه الله به من ادراكات ، وما وهبه من معجزات ، وما خصه به من سمات وصفات ثم عزفوها على قيثار الشعر الذي تحول الى موسيقى أدبية سجلت تاريخ الرسول وأعماله وأشادت بحياته وأطرت تصرفاته فنثرت المدائح النبوية ، وكثرت القصائد التي تحدثت عنه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن المؤكد أن هدف الشعراء من ذلك الاتجاه كان ايقاظ الامة من غفلتها وتنبيهها من هفوتها ، ودعوتها الى العودة الى تاريخها العريق وكثير من الناس شغفه حب الرسول ، ورآه قمة وضيئة مضيئة تستطيع أن تنير للمسلمين من جديد معالم الطريق ، ولكن فن المديح النبوي لم يقف في العصر الحديث عند ما وقف عنده في القرن السابع الهجري ، ولكنه تحول تحولا ملموسا ، واتخذت قصائده شكلا جديدا فيما نقرؤه لاكثر شعراء القرن الحالي من قصائد طويلة أو قصيرة *

فأنت حين تقرأ احدى قصائد المديح النبوي في هذا العصر ترى أفكارا جديدة وصورا فريدة وأساليب عالية لأن الشعراء لم يجعلوا قصيدة المديح تقف عند مدح الرسول

---

(١) ام القرى ص ١٨ ، ٣٥ وواضح أن هذا تصويرا أسود ، ومحاولة للظهور على سفح الشهرة .. عن طريق المبالغة الشديدة .. مع الغفلة عما فعل الاستعمار النصراني بالمسلمين في هذا الشأن .. د/ سرحان *

فقط ولكنهم اتخذوا من مدح الرسول وسيلة لاذاعة بطولته وجهاده ونشر مزايا الاسلام واستنهاض همم المسلمين ورسم المثل العليا لهم وتبصيرهم بالسياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها اقتداء بما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لتعود اليهم عزتهم وتعلو كلمتهم ، ثم الرد على أعداء المسلمين وأتهامهم للاسلام ورسوله .

والشعراء الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ مطلع النهضة كثيرون وقد كانت الحالة الاجتماعية والسياسية للمسلمين تضغط على الشعراء حتى لا تكاد نرى شاعرا مسلما في هذه الفترة لم يقل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أو يتطرق اليه ، ومنهم شعراء مسيحيون أيضا .

ومن مدح الرسول في هذه الحقبة رفاعة الطهطاوي وعبد المطلب وأحمد ابن محمد الحملاوي وعلي الجارم واسماعيل صبري ومحمد الاسمر ومحمد غنيم ومحمد بك العظم وأحمد محرم ومحمود جبر وغيرهم كثير وقد سرت عدوى مدح الرسول نتيجة للمؤثرات الاجتماعية والسياسية في دم الشعراء جميعا الى درجة أن أقدم شعراء مسيحيون على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم ميشيل الله ويردي فقد تعلق قلبه بحب الرسول صلى الله عليه وسلم فهتف يثني على من بعث للناس رحمة وللانسانية هاديا حيث يقول في قصيدة طويلة سماها "وحي البردة"

أنوار هادي الورى في دارة العلم * * رفعت علي ذكر جيران بذي سلم
وأرسلت نغم التوحيد عن ملك * * كالنور منطلق كالزهر مبتسم

الى أن يقول:

وأجعل هواك رسول الله تلق به * * يوم الحساب شفيعا فائق الكرم
هذا رسول الهدى فأرشف على ظمأ * * من بيده العذب عطفا شاق كل ظمي

الى أن يقول :

يا نعمة من جنان الخلد سارية * * كالورد يلثم في الاسمار من أمم
اني محب وحبوب ولو زعموا * * أن المحبة بالأنساب والرحم
فالناس من آدم بالمصطفى اجتمعوا * * وشرعة الحب أم الناس فأتمم
يا أجمل الخلق سيماء وأظرفهم * * طبعا وأوفاهم بالعهد والذمم

عشقت منك صفات جل مبدعها * * كالغيد تفتن لب الشاعر الهيم
وحسن شعري بكم من شيمكم قبس * * والنبع ما سال لولا صوب الديم

الى أن يقول :

حياك ربي بآيات مفصلة * * والناس أعجز عن ادراك مبهم
لكنها صورة بالشعر أرسمها * * لأستجير بها ان بت كالحلم
يا هادي الفكر اهداه الاله الى * * عباده منة من فضله العمم

الى أن يقول — مظهرا تمسكه بمسيحيته وأن الله لا يريد له أتباع الاسلام والرسول

تبارك الله لو شاءت مراحمه * * لشع نورك بين الناس كلهم
ان لم تكن بوكيل فاشفعن لنا * * بحق تردبدنا التوحيد في الحرم
صلى الاله على ذكراك ممتدحا * * حتى تؤم صلاة البعث بالأمم (١)

هذه القصيدة من شاعر مسيحي تدل على أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم شاع وعم لدى الشعراء حتى أصبح تقليدا لم يجد الشاعر المسيحي منه مناصا . واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قال عندما سمع شعر أمية بن أبي الصلت : " أسلم لسانه ولم يسلم قلبه " فانه ينطبق على الشاعر ميشيل الله ويردي فهو يصرح بمعاني اسلامية الرسول طالبا منه الشفاعة معتذرا عن مسيحيته لان الله الذي يوزع الهداية لم يهده حيث يقول :

تبارك الله لو شاءت مراحمه * * لشع نورك بين الناس كلهم

أي أن بقاءه على مسيحيته هي من ارادة الله التي لا جهد له فيها :

ومن أشهر الشعراء الذين أشتهرت مدائحهم النبوية محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وسوف أكتفي بهما تمثيلا لشعراء المدائح النبوية في العصر الحديث .

محمود سامي البارودي : (١٨٣٨ — ١٩٠٤) للبارودي قصيدة مطولة بلغت ٤٤٧ بيتا على نهج بردة البوصيري سماها " كشف الغمة في مدح سيد الأمة " وقد

---

(١) مجلة الرسالة عدد ١٠٠٥ / ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ .

قدم القصيدة بقوله (هذه القصيدة ضمنتها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم الى يوم انتقاله الى جوار ربه وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها " كشف الغمة في مدح سيد الأمة " ورغبتي الى الله أن تكون لي ذريعة أمت بها يوم الميعاد وسلما الى النجاة من هول الحشر — اللهم فحقق رغبتي واكسها بفضلك ورقق القبول — آمين " .

لقد سار البارودي على نهج البوصيري وغيره من الشعراء التقليديين في افتتاح القصيدة بالغزل وقد أطال فيه كما أطال البوصيري حتى بلغ ثلاثة وعشرين بيتا يقول فيها :

يارائد البرق يمم دارة العلم * * واحْدُ الغمامَ الى حيٍّ بذي سَلَمِ
وان مررت على الروحاء فامر لها * * أخلاف سارية هتانة الديم

فكان بدويا في خياله ومتع تصويره من معين القدماء ونزع عن آفاق الصحراء وقد كان من آثار ترتيب مدحته على سيرة ابن هشام أن قيد أفكاره وعواطفه ومنعها أن تأخذ حريتها في التصوير والمواتاة .

يقول الدكتور الحديدي " والترتيب الذي سار عليه البارودي ليس ميزة فنية فقد قيد انطلاق عواطفه وحدد فنيته في اطار مرسوم ففترت العاطفة الشعرية في أكثر القصيدة وأصبحت منظومة تاريخية كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون (١) .

وحين يصف البارودي غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم يصفها وصفا حيا رائعا وذلك راجع لطبيعته العسكرية فحديثه عنها مجرب لها عالم بها . وقد نجد حرارة العاطفة تعود الى الشعر عندما يناديء وجدانه فيتشوق الى الرسول أو يصف ما أضناه من الخطوب وما منى به من النفي والاقامة في بلد بعيد أهله الصنم ولم يسمع غير أصداء نفسه كما قال :

تكاءدتني خطوب لو رميت بها * * ملاكب الارض لم تثبت على قدم (٢)
في بلدة مثل جوف الميرلست أرى * * فيها سوى أمم تحنو على صنم (٣)

---

(١) راجع الموازنة بين الشعراء للدكتور زكي مبارك ص ١٩١ راجع أيضا شوقي شعره الاسلامي الدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٠٦ .
(٢) تكاءدتني شقت علي وأضنتني .
(٣) جوف الميرأد خالي من السكان وذلك كناية عن خلو سرندب من أهله وأحبابه

لا أستقر بها الا على قلـــــق * * ولا ألذ بها الا على ألـــــم
اذا تلفت حولي لم أجد أثـــرا * * الا خيالي ولم أسمع سوى كلمـــي (١)

ولكن البارودي كان أحيانا يمدح ويحلـــق كقولـــه :

وجاء الاذن ايذانا بهجرتـــــه * * فيمم الغار بالصديق في الغـــم
فما استقر به حتى تبـــــوأه * * عن الحمائم زوج بارع الرنـــم
بنى به عشه واحتلـــه سكـــنا * * بأوي اليه غداة الريح والرهـــم (٢)
الفان ما جمع المقدور بينهمـــا * * الا لأمر بصدر الغار مكتـــتم
كلاهما ديدبان فوق مربئـــه * * يرعى المسالك من بعد ولم ينـــم (٣)
ان حن هذا غراما أودعا طربـــا * * باسم الهديل أجابت تلك بالنغـــم
يخالها من يراها وهي جاثمـــة * * في وكرها كرة ملساء من آدم

فهذا وصف بارع لغار ثور حين حله الرسول وصاحبه وقبض الله لهما ما يطمس آثار الاقدام ويصرف الاذهان عن الالتفات اليه والتفكير فيه من حمام بارع الترنم يبني به عشه ويحتله سكنا ويقف عليه كأنه ديدبـــان فوق مربأة يحرس المسالـــك ويرعى الطـرق .

على أن الاختلاف في نسج القصيدة وصياغتها صعوبة وسهولة يجعلنا نرجح أنه أنشأهـا في شيخوخته حين حلت به النكبات والحت عليه أحداث الزمن وتنكـــر له الاعداء وجفاه الاصدقاء مع أنه ليس هناك ما يشير الى تاريخها ولكن تسميتهـــا " كشف الغمة في مدح سيد الأمـة " كانت لتكشف غمته وتذهب كربتـه .... وهـو يتحدث عن الحساد وشماتة الأعداء فيقـــول :

كُلُّ امرئ واجدٌ ما قدَّمتْ يـــدُه * * اذا استوى قائما من هـــوة الأدم
والخير والشر في الدنيا مكافـــأة * * والنفس مسؤولة عن كل مُجْتَـــرِم
فلا يتم ظالم عما جنت يـــــده * * على العباد فعين الله لم تنـــمِ

---

(١) محمود سامي البارودي الدكتور علي محمد الحديدي ص ١٧٣ .
(٢) ديدبان حمـــار الوحش — مدربـة —
(٣) الرهم المطر الخفيف الدائـــم .

ان البارودى — وقد كان وزيرا أو رئيسا للوزارة — لا يشكو من ظلم الظالمين وجور الجائرين الا بعد أن تزايله سطوته وينحسر عنه سلطانه • ومن ثم يشكو كل باغ عتيد الجور وان كان لا يرهبه ولا يخافه لانه يحتمى برب منتقم يخافه كل جبار ومنتقم •

شكوت بثى الى ربى لينصفنى * * من كل باغ عتيد الجور أو حكم
وكيف أرهب حيفا وهو منتقم * * يخافه كل جبار ومنتقم
لا غرو أن نلت ما أملت منه فقد * * أنزلت معظم آمالى بذى كرم
يا مالك الملك هب لى منك مغفرة * * تمحو ذنوبى غداة الخوف والندم

ويقول أيضا :

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى * * ذنب ادان به ظلما واغترب؟
فلا يظن بى الحساد مندمة * * فانى صابر فى الله محتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية * * ولا يشيد بذكر الخامل النشب

ولهذا المعنى الذى يحسه ويحزن نفسه من تنكر الناس لكل ود وانتقاضهم على كل صداقة يقول البارودى بعد وصف ايذاء قريش للرسول صلى الله عليه وسلم وكيد أبى جهل له :

لا يسلم القلب من غل الم به * * ينقى الأديم ويبقى موضع الجلم (١)
والحقد كالنار ان أخفيته ظهرت * * منه علائم فوق الوجه كالحمم
لا يبصر الحق من جهل أحاط به * * وكيف يبصر نور الحق وهو عم؟

والبارودى على جلالة قدره فى الشعر وارتفاع منزلته فى الأدب وعلو طبقته فنيا وامتيازها عن طبقة اليوصيرى يقصر فى هذه القصيدة عن شعره العام تقصيرا كبيرا أو يتخلف تخلفا ملحوظا فبينما نجد اليوصيرى أقرب الى النفس وأدنى الى العاطفة وأشد مداخلة للاحساس نرى البارودى يتكلف ويتعسف حتى يكاد شعره يشبه المتون •

---

(١) الجلم شحم الشاة •

يقول البوصـــيرى مثلا :

سريت من حرم ليلا الى حـــــرم * * كما سرى البدر فى داج من الظلم

ويقول البارودى فى هذا المعنى :

وحيذا ليلة الاسراء حـين سـرى * * ليلا الى المسجـد الاقصى بلاأثم

ولكن أين هذا من ذاك ، وأين الثرى من الثريـــا ؟

وله قصيدة أخرى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم مطلعهـــا

يا صارمَ الحظِّ من أغراك بالمهـــج ؟ * * حتى فتكت بها ظلمـــا بلا حرج
ما زال يخدع نفسى وهى لاهيـــة * * حتى أصاب سوا والقلب بالدَّعَـج(١)

والبارودى يسلك فى هذه القصيدة المسلك التقليدى للقصيدة العربية فقد بدأها بالنسيب كما يبدو من مطلعها وقد أطال فى المقدمة إطالة شغلت أكثـــر من نصف القصيدة ، وصور فيها مفاتن الحبيب القاتلة وطول الليل الذى يبيته ساهرا ويصور الليل الحالك الظلمة والنجوم المضيئة تصويرا جميلا حيث يقول :

أبيت أرعى نجوم الليل فى ظُلَـــــم * * يخشى الضلالة فيها كُلُّ مُدلِّجِ(٢)
كأن أنجمه والجو معتكـــــر * * عيد بأخبية ينظرن من فُـــرُج(٣)

الى أن يخلص الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فيقـــول :

هيهات يسلك لوم العاذلين الـــى * * قلب يحـــب رسول الله معتـــزج
هو النبى الذى لولا هدايتـــــه * * لكان أعلم من فى الارض كالهمـــج(٤)
أنا الذى بت من وجدى بروضتـــه * * أحن شوقا كطير البانة الهـــزج(٥)

---

(١) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .
(٢) المدلج السائر فى الليـــل .
(٣) غيد جمع غيداء وهى المرأة المتثنية لينا . الاخبية جمع خباء وهو بناء يكـون من وبر أو صوف ويقوم على عمودين أو ثلاثة فمن جمع فرجه وهى الثغرة .
(٤) الهمج الحمقى وضعاف العقـول .
(٥) الروضة مكان ما بين قبر الرسول ومنبره .

هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولهـا * * وأى صب بذكـر الشوق لم يهج ؟
فما احتمالى ونفسى غير صابـرة * * على البعاد وهى غير منفـرج
لا أستطيع براحا ان هممـت ولا * * أقوى على دفع ما فى النفس من حوج
لو كان للمرء حكم فى تنقلـه * * ما كان الا الـى مغناه منعرجى (١)

مما تقدم نلاحظ تحسره وألمه على نفيه وتقييد حريته وأنه المانع الوحيـد الذى يحول بينه وبين زيارة الرسول عليه السلام ثم يتضرع الى الله بالمصطفى أن يفـرج كربه ويعفو عنه ويفك قيده فقد أنقطع أمله فى الاخرين ولم يبق له الا وجه الكريـم الرحيم حيث يقول :

يارب بالمصطفى هب لى — وان عظمت * * جرائمى — رحمة تغنى عن الحجج
ولا تكلنى الى نفسى فان يـدى * * مغلولة وصباحى غير منبلـج (٢)
مالى سواك وأنت المستعـان اذا * * ضاق الزحام غداة الموقف الحـرج (٣)
لم يبق لى أمل الا اليك فـلا * * تقطع رجائى فقد أشفقت من حرجى (٤)

أحمد شوقى : لأمير الشعراء عدد من القصائـد فى مدح الرسول صلى اللـه عليه وسلم . وهى : نهج البردة التى عارض بها بردة البوصيرى ومطلع قصيدته :

ريم على القاع بين البـان والعلـم * * أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وله فى مولد الرسول قصيـدة " ذكرى المولد " ومطلعهـا :

سلوا قلبى غداة سلا وتابـا * * لعل على الجمـال له عتابا

وله الهمزيـة النبوية التى مطلعهـا :

ولِدَ الهدى فالكائنات ضيـاء * * وفم الزمـان تبسم وثنـاء

نهج البردة : كان عباس حلمى خديوى مصر قد حج سنة ١٩٠٩ فنظم شوقى هـذه القصيدة وأهداها اليه بمناسبة حجه وقد جعلها خالصة فى مدح الرسول صلى اللـه

---

(١) البانة نوع من الشجر يطول ويرتفع مثل نبات الاثـل .
(٢) انبلج الصبح أضـاء .
(٣) الغداة ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس والمقصود هنا الوقت مطلقا .
(٤) الحرج الاثم الديـوان .

عليه وسلم ولم يتطرق الى مدح سواه بل التزم بموضوعهـــا ومطلعها — كما سبق —:

ريم على القاع بين البان والعلـــم * * أحل سفك دمى فى الأشهر الحُرُمِ
لما رنا حدثنى النفس قائلـــة * * ياويح جنبك بالسهم المصيب دمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبـــدى * * جرح الاحبة عندى غير ذى ألـــم
يالائمى فى هواه والهوى قـــدر * * لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلـــم
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبـــدا * * أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

وهى تقع فى تسعين ومائتى بيت بدأها بالغزل على عادة المداحين خاصـــة البوصيرى ، وقد أستغرق الغزل عند البوصيرى ثمانية وعشرين بيتا وعلـــد شوقـــى اثنين وأربعين بيتا ومع ذلك كان رائعا بارعا يتلاعب بالعقول ويستولى على مواطـــن الرضا والاعجاب من النفوس ، وكان كذلك رقيقا فى غزله وهو لا ينسى فى مقدماتـــه أن ينزع النفوس وينتشلهـــا مما يتملكها من غرور وخداع :

يا نفس دنياك تخفى كل مبكيـــة * * وان بدا لـــك منها حسن مبتســـم

ثم يتسلل فى براعة الى ما أراد من مدح فيقـــول :

صلاح أمرك للاخلاق مرجعـــهُ * * فقوِّم النفس بالاخـــلاق تستقـــم
والنفس من خيرها فى خير عافيـــة * * والنفس من شرها فى مرتع وخـــم
اذا خفضت جناح الذل أسألـــه * * عز الشفاعة لم أسأل سوى أمـــم
وان تقدم ذو تقوى بصالحـــة * * قدمت بين يديه عبرة الندم

واذا استعرضنا المعانى التى تناولها شعراء المديح النبوى فى التصوير وأفاضـــوا فى عرض اسرارها وجدناها واحـــدة ، فهم يتحدثـــون عن مولده ونشأته وما صحـــب ذلك من تصدع الشرك وتحكم الماجوسيـــة ويتحدثون عن الدعوة والهجرة والغزوات والاسراء وما أتى به من آداب وأخـــلاق وتشريع ولكنهم يختلفون فى مدى ما وفقـــوا اليه من عرض مادة الهموا مـــن تعبير وتصويـــر .

فاذا قال البوصيرى فى الابيات التى صحبت مولد الرسول صلى اللـــه عليه وسلـــم " :

وهات ايوان كسرى وهو منصـــدع * * كشمل أصحاب كسرى غير ملتئـــم

جاء شوقى فقـــال :

ربعت لها شرف الايوان فانصدعـــت * * من صدمة الحق لا من صدمة القدم

فقد صور قوة الحق وشدة وقعه على الايوان حتى أنصدع من جلاله وتداعـــى من قدسه دون أن تنال منه شدة المعاول أو وطأة القدم والآلات .

والبصيرى يفوقه فى النص على انصداع الايوان وتشتت شمل أصحابه واستسلامهم للفسرقة الممزقة والتشتت القاتل بمولد خير الانام ، وكان شوقى أكثر براعـــة ولباقة فى تصوير الاسراء والتقاء الرسول بالأنبياء حين قال :

أسرى بك الله ليلا اذ ملائكـــة * * والرسل فى المسجد الاقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهـــم * * كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطـــر * * ومن يفز بحبيب الله يأتمـــم
جبت السماوات أو ما فوقهن بهـــم * * على منوّرة درية اللجـــم
حتى بلغت سماء لا يطاولهـــا * * على جناح ولا يسعى على قـــدم
وقبل كل نبى عند رتبتـــه * * وبا محمد هذا : العرش فاستلـــم

ومع هذه البراعة يدفعه أدبه وعلمه الى أن يعترف بالفضل للمتقدم فيقول :

المادحون وأرباب الهوى تبـــع * * لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهـــوى * * وصادق الحب يملى صادق الكلـــم
الله يشهد أنى لا أعارضـــه * * من ذا يعارض صوب العارض العرم

تلك منقبة تذكر لشوقى بالاعجـــاب والفخـــر .

ثم يتحدث عن الدين الجديد والمعجـــزة التى تحققت على يد الرســـول صلى الله عليه وسلم بنشره وأخذ الناس بتعاليمه وحملهم عليها فيقول :

أخوك عيسى دعا ميتا فقـــام لـــه * * وأنت أحييت أجيالا من الـــرمم
والجهل موت فان اوتيت معجـــزة * * فأبعث من الجهل أو فابعث من الرجم

ولا ينسى أن يخز وخزات دامية هؤلاء الناعقين الذين يتصايحون جهـــلا وحسدا بان الاسلام قام بالسيف وأن الرسول قد حارب لحمل الناس على العقيدة —

الجديدة والدين الذى أتى به مع أن الله تعالى يقول " لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى "(١) .

ان الشاعر يلجمهم بأقوى الحجج وأسمى البراهين ويضرب لبعضهم الامثلة مما كابدته المسيحية التى تؤثر السلم وتدعو اليها ... من حرب ضالة وكيد آثم حتى قيض الله لها من أخذ بناصرها ورد عنها كيد أعدائها .

يقول شوقى :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	* *	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	* *	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب	* *	تكفّل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به	* *	ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغرّاء كم شربت	* *	بالصاب من شهوات الظالم الغلم(٢)
لولا حماه لها هبوا لنصرتها	* *	بالسيف ما انتشرت بالرفق والرحم

يقول الاستاذ عبد الوهاب حمودة بعد أن أورد الأبيات " يريد أن يقول(٣) ان كلام هؤلاء المعترضين سفسطة محضة لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن وان نبى الاسلام فى بدء دعوته لم يألُ جهدا فى الدعوى بالرفق والمقارعة بالبرهان وانه ما دفع الى الضرب والحرب الا بعد أن رأى عقم الوعظ والنصح(٤) واذا كان الامام البوصيرى رحمه الله قد صور فى بردته الغزوات والبطولة النادرة التى تمثلت فى خوضها واقتحام غمراتها فانه لم يتعرض لهذه الشبهات التى عرض لها شوقى وردها أعنف رد على مختلقيها ولعل السر فى ذلك أن حرب الكفر وصراع التحلل واصطلاع المثالب ونحل المعايب لم يكن قد وصل فى ذلك الزمن الى هذا الحد المزرى الذى نراه فى عصرنا من حقد المتمالين وسموم الضالين من أعداء الاسلام ومن شابههم من الأغرار والمفتونين .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) الغلم من غلبت شهوته .

(٣) أى شوقى .

(٤) التجديد فى الادب المصرى الحديث ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

ويختم شوقي قصيدته هذا الختام الرائع حيث يقول :

يارب هبت شعوب من منيتها * * واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا أي حكمته * * أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا * * ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب أحسنت بدء المسلمين به * * فتمم الفضل وامنح حسن مختتم (1)

أما الهمزية : فيقول في مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء * * وفم الزمان تبسم وثناء
والروح والملأ الملائك حوله * * للدين والدنيا به بشراء

وقد حذا فيها شوقي حذو البوصيري في همزيته :

" كيف ترقى رقيك الانبياء ؟ "

وكما عمد البوصيري الى هدفه دون مقدمات ، كذلك كان شوقي ، فلم يقف متغزلا ولا متحدثا عن قلبه الواهي الذي ثكله الشباب ولا عن ربعه الذي احتل سفك دمه في الأشهر الحرم ..... ولا أرى علة لذلك الا المتابعة والمحاكاة وأن كان حقا رائعا قد أسلس له البيان وانقاد له زمام الشعر فأعطاه ما شاء دون جهد أو عناء ، والقصيدة تقع في واحد وثلاثين ومائة بيت يتحدث فيها عن ميلاده وما أسبغه على العالم من نور وخير وما اكتسبته الانسانية من حسن الخلق والشيم وعظيم الآداب فهو سخي يبلغ الجود مداه وهو عفو اذا قدر وهو أب وأم اذا رحم ، واذا غضب فغضبه في الحق واذا رضي فرضاه في مرضاة ربه ، حيث يقول :

يامن له الاخلاق ما تهوى العلا * * منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل * * يغرى بهن ويولع الكرماء
فاذا سخوت بلغت بالجود المدى * * وفعلت ما لا تفعل الأنواء
واذا عفوت فقادراً ومقدراً * * لا يستهين بعفوك الجهلاء
واذا رحمت فأنت أم أو أب * * هذان في الدنيا هما الرحماء

---

(1) الشوقيات حـ ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٥٨ .

واذا غضبت فانما هى غضبـــــــة * * فى الحق لا ضغن ولا بغضـــاء

الى أن يقول :

لما دعوت الناس لبى عاقـــــل * * وأصم منك الجاهلين نـــداء
أبَو الخروجَ اليك من أوهامهـــم * * والناس فى أوهامهم سجنـــاء
ومن العقول جداول وجلامـــد * * ومن النفوس حرائر وامـــاء

ويتحدث الى اولئك الضالين المغالطين الذين يعيبون عليه الحرب وينتقدون الجهاد والغزو وما كانت حربه الا دفاعا عن عقيدة أو انتصارا لضعفاء أخرجوا من بلادهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، واذا جاء صاحب هوى مظلم القلب مطموس البصيرة يجادل فى حروب الرسول صلى الله عليه وسلم ويمارى فى جهاده رأينا شاعرنا الفذ يدحض باطله ويقول :

الحرب فى حق لديك شريعـــة * * ومن السموم الناقعات دواء
والبرّ عندك ذمّة وفريضـــة * * لا منّة مقرونة وجفـــاء

ويقول أيضا :

والحرب من شرف الشعوب فان يغـــوا * * فالمجد مما يدعّون بـــراء
والحرب يبعثها القوى تجبـــرا * * وينوء تحت بلائها الضعفـــاء
كم من غزاة للرسول كريمـــة * * فيها رضا للحق أو إعـــلاء
كانت لجند الله فيها شـــدة * * فى اثرها للعالمين رخـــاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بهـــا * * فعلى الجهالة والضلال غطـــاء
دعوا على الحرب السلام وطالمـــا * * حقنت دماء فى السلام دمـــاء

ويقف الشاعر موقفا حاسما من أولئك الذين يمارون فى الاسراء ويحاولون اخضاع المعجزة لعقولهم القاصرة وأفهامهم الكليلة ويجهدون أنفسهم فى البحث عن الاسراء هل كان بالروح فقط أم بالروح والجسد — يقول شوقى :

يا أيها السرى به شرفـــا الـــى * * ما لا تنال الشمس والجـــوزاء
يتساءلون وأنت أطهـــر هيـــكل * * بالروح أم بالهيكل الاســـراء

بهما سموت مطهرين كلاهما * * نور وباطنه وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنة * * والله يفعل ما يرى ويشاء

ثم يتجه الى الرسول فى خشوع واجلال طالبا شفاعته وسوق الى بابه عرائس المديح لا يبغى لهن مهرا سوى الشفاعة التى يطمح اليها ويدعوه عن قومه الضعاف ليلطف بهم فى المحنة وينقذهم من الفتنة .

يا من له عز الشفاعة وحده * * وهو المنزه ماله شفعاء
لى فى مديحك يا رسول عرائس * * يحتمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فان قبلت تكرما * * فهن رهن شفاعة حسناء
ما جئت بابك مادحا بل داعيا * * ومن المديح تضرع ودعاء

ثم يتضرع الى الرسول مما أصاب قومه من أمراض اجتماعية وخلقية استفحلت فيهم فيقول :

ادعوك عن قوم الضعاف لأزمة * * فى مثلها يلقى عليك رجاء
وقد وا وغرهم نعيم باطل * * ونعيم قوم فى القيود بلاء

ثم يختم قصيدته منكرا بعدالة الشريعة الاسلامية وأحكامها التى فاقت قوانين روما الشهيرة فيقول :

ظلموا شريعتك التى نلنا بها * * ما لم ينل فى (روما) الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها واهتدى * * فى الدين والدنيا بها السعداء
صلى عليك الله ما صحب الدجى * * حاد وحنت بالفلا وجناء
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم * * بجنان عدن آلك السمحاء
خير الوسائل من يقع منهم على * * سبب اليك فحسبى (الزهراء) (١)

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢١ ـ ٢٩ .

وأما ذكرى المولد : فمطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا ** لعل على الجمال له عتابا
ويسأل في الحوادث ذو صواب ** فهل ترك الجمال له صوابا ؟
وكنت اذا سألت القلب يوما ** تولى الدمع عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دم ولحم ** هما الواهي الذي ثكل الشبابا (١)
تسرب في الدموع فقلت ولى ** وصفق في الضلوع فقلت ثابا (٢)
ولو خلقت قلوب من حديد ** لما حملت كما حمل المذابا

والقصيدة تبلغ واحدا وسبعين بيتا منها في موضوع المولد خمسة وعشرون بيتا فقط وستة وأربعون بيتا في مقدمات وتأملات وسبحات في أسرار هذه الدنيا وما تنطوي عليه من تقلبات واحداث ولكنها لحلاوتها وروعتها وصدقها وسحرها وما تحفل به من حكم تمس الناس في صميم اخلاقهم وواقع حياتهم لا تجعل الانسان يحس فيها بخروج عن الموضوع فهو يتحدث عن فؤاده الملتاع وقلبه الوجع وما يصطرع فيه من عواطف مشبوبة وميول ملتهبة ثم يخلص الى عواقب صلاتنا ونهاية روابطنا من قرب أو بعد .

يقول المرحوم شوقي :

وأحباب سبقت بهم سلا فما ** وكان الوصل من قصر حبابا (٣)
وآدمنا الشباب على بساط ** من اللذات مختلف شرابا
وكل بساط عيش سوف يطوى ** وان طال الزمان به وطابا
كان القلب بعدهم غريب ** اذا عادته ذكرى الاهل ذابا

وتظهر براعة الشاعر واقتداره في تصوير الليالي وغدرها والدنيا وخداعها وغرورها ويجعلها في صرعها الاحياء وقتلها العشاق كالافعى التي تبدل كل آونة اهابا وتتشح في كل حين بسمت جديد ويعجب لانها تشيب العاشقين ولا تشيب وتفني المغرمين بها والمدلهين ولا يتسرب اليها الفناء . حيث يقول :

---

(١) تابا رجع .
(٢) الواهي الضعيف ثكل الشباب فقده والمقصود بالدم هنا القلب .
(٣) السلا في خالص الخمر الحباب فقاعات الماء .

ولا ينبيك عن خلق الليالي ** كمن فقد الاحبة والصحابا
أخا الدنيا أرى دنياك أفنى ** تبدّل كل آونة اهابا
وأنّ الرقط أيقظ هاجعات ** وأترع في ظلال السلم نابا (١)
ومن عجب تشيّب عاشقيها ** وتفنيهم وما برحت كعابا (٢)
فمن يغتر بالدنيا فاني ** لبست بها فابليت الثيابا
جنيت بروضها وردا وشوكا ** وذقت بكأسها شهدا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما ** ولم أر دون باب الله بابا

وهو لهذا يدعو الى ايثار الخير وعمل البر وبذل المعروف والبعد عن الشح والبخل وجمع المال :

ولم أر مثل جمع المال داء ** ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها ** كما تزن الطعام أو الشرابا
وخذ لبنيك والايام ذخرا ** واعط اللمحصته احتسابا

ثم ينحى باللائمة على صنف من الناس ظنوا الدين والتقى صوما وصلاة فحسب فكنزوا وقبضوا أيديهم عن البذل والانفاق والايثار لتلك الدنيا التي أظهرها للناس عارية من كل قناع :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ** ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المال صما ** اذا داعي الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه ** كأن الله لم يحص النصابا
ومن يبدل بحب الله شيئا ** كحب المال ضلّ هوى وخابا

ثم يأخذ العبرة من مولد الرسول صلوات الله عليه ومن الخير الذي اظل على الدنيا بوجوده مع أنه ذاق اليتم ومنى بفقد الأب والأم والجد فيقول :

---

(١) اترع : اسوغ
(٢) الكعاب : الجارية الناهد .

أراد اللهبالفقـــراء بـــــرا ** وبالايتام حبا وارتيابـــا (١)
فرب صغير قوم علـــــــوه ** سما وحمى المسومة العرابـــا (٢)
وكان لقومه نفعا وفخـــــــرا ** ولو تركوه كان اذى وعابـــا

ثم يسترسل الشاعر فى الحِكَم والتأملات العميقة فى الكون والحياة فهو يدعـــو الى نهضة التعليم وعدم تيئيس الشباب من المستقبل وأن لا فرق بين الكوخ والقصـــر فالشمس تشرق على كليهما والماء الذى يروى الاسود يروى الكلاب أيضا والمـــوت لا يميز بين أحد واحد ،والله ساوى عامة الناس بالرسل فكلاهما يوسد فى التراب ،واختيار اليتيم ـ محمد صلى الله عليه وسلم لملاقاة ربه فى السماء اكبر عبرة لمن اعتبر الى أن يصل الى أبياته الخالدة خلود المجد والسؤدد حيث يقول مذكرا بتعاليم الرسول :

وعلّمنا بناء المجـــد حتـــــى ** أخذنا امرة الأرض اغتصابـــا
وما نيل المطالب بالتمنـــــــى ** ولكن تؤخذ الدنيا غلابـــــا
وما استعصى على قوم منـــــال ** اذا الاقدام كان لهم ركابـــا

ثم يتناول مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ويقرنه بالبر الذى يعصم الانسانيـــة من الضياع ويحفظها من التردى وهو بهذا يصبح فى مجتمعه الذى فرّقتْه القســـوة وأفسده تعالى الاغنياء على الفقراء حتى يكون فيه شئ من التعاطف والتراحم .

والواقع ان المجتمع الذى كان الشاعر يعيش فيه كان فى أمس الحاجة الـــى هذه الصرخات فقد كان مجتمعا طبقيا بأعنف ما تكون الطبقية يتمثل فيه الفقر بجوعـــه وعرية وأمراضه الفتاكة عند طائفة كثيرة غالبة من الناس . وهذا ما حدا به أن يخاطـــب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله .

نبى البرّ بيّنه سبيـــــــلا ** وسن خلا له وهدى الشعابـــا (٣)
تجلى مولد الهادى وعمـــت ** بشائره البوادى والقصابـــا
وأسدت للبرية بنت وهـــب ** يدا بيضاء طوّقت الرّقابـــا

---

(١) ارتبابا ارتب الصبى ارتبابا رباه حتى أدرك .
(٢) الخيل المسومة والمرعية والعراب الكرائم .
(٣) الشعاب الطرق .

ثم يتجه الى الرسول عليه الصلاة والسلام بصفاء ونقاء كاملين فيقـــول :

أبا الزهـراء قد جاوزت قـــدري * * بمدحك بيد أن لى انتسابـــا
فما عرف البلاغة ذو بيـــان * * اذا لم يتخذك لـــه كتابـــا
سألت الله فى أبناء دينـــى * * فان تكن الوسيلـــة لى اجابـا
وما للمسلمين سواك حصـــن * * اذا ما الضر مسهمو ونابـــا (١)

هذا ولشوقي اتجاه اسلامي واضح وبين فى شعره أستلهمت منه مدائحه النبويـــة قوة وغزارة . فابداعه في مدائحه النبويـــة ليس ابداعا فنيا خالصا بل هناك عاطفتـه الاسلامية القوية وشعوره الديني الفياض الذي يتمثل فى قصائد كثيـرة من شعـــره شارك فيها الاحداث الاسلامية بأفراحها وأتراحهـــا .

والى هنا يبدو لى أن شوقيا كان الأول في شعراء عصره بمدائحـه النبويـــة الغزيـرة الابيات القوية العاطفة الواضحة السبيـــل .

---

(١) الشوقيات حـ ١ ص ٥٩ ــ ٦٣ .

الفصل الثانى

مدائح النبهانى وبواعثها

البواعث العامة :

هى الجو الاسلامى العام الذى كانت البلاد تعيشه فى الفترة التى عاشها الشيخ النبهانى وهى النصف الثانى من القرن التاسع ومنتصف العقد الرابع من القرن العشرين وقد كانت هذه الفترة مليئة بالحوادث حيث شهدت خلافة السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين قوة الحرب العالمية الأولى التى خسرت فيها تركية الى جانب ألمانيه الحرب ففقدت جميع ممالكها فى البلاد العربية وغيرها وقد تحدثنا عن هذه الفترة فى الفصل الرابع من الباب الأول " الحياة السياسية والاجتماعية" بعناوين بارزة أهمها " المسألة الشرقية" و " الجامعة الاسلامية " و "السلطان عبد الحميد " و "الخلافة الاسلامية" و " الحركة العربية الحديثة " و "ضياع فلسطين" .

وينبغى التنبيه هنا الى أن الشيخ النبهانى لم يؤرخ مدائحه النبوية لنرى مدى انبعاث الأحداث فيها ، وديوانه " العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية" المطبوع فى مطبعة صبرا ببيروت سنة ١٣٢٩ اهداه للخديوى عباس حلمى باشا بعد أن عزل النبهانى من وظيفته وخصص له معاش تقاعد لا يكفيه حيث انه كان ينفق الكثير من مرتبه المرتفع على طبع كتبه التى كان يدان ماليا لاجلها [1] كما أوضحنا ، وقد قابله الخديوى عباس حلمى باشا بكل ترحاب [2] وجعل له ألف قرش شهريا . هذا كل ما نعلمه من تاريخ ديوانه ، ويبدو أنه قد توقف عن نظم المدائح النبوية

---

(١) راجع الفصل الرابع من الباب الثانى شخصيته ومبادئه "حالته المالية" .

(٢) راجع تفاصيل المقابلة فى مقدمة العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية ص ٢ـ٧ .

حيث انى لم أجد له قصائد فى كتبه الأخرى لم يذكرها فى "العقود اللؤلؤية" ويبدو كذلك أنه انقطع عن التأليف مطلقا وانصرف الى العبادة فى المدينة المنورة حيث أقام فيها كعادة العلماء وما يمكننا أن نقوله هنا أن الروح الاسلامية كانت مسيطرة على شعراء الشام .

يقول الدكتور الحوفى " كانت السمة البارزة فى أدب الشام هى الاسلامية العثمانية عقيدة أو رغبة أو رهبة ، وتتجلى هذه السمة فى دواوين الشعراء مثل ناصيف اليازجى وبطرس كرامة وفارس الشدياق وابراهيم الأحدب وعبد الحميد الرافعى ولم تكن مسيحية بعضهم حائلا بينه وبين موالاته للعثمانيين لأنهم فى رأيه حكام وساسة لا ممثلو دين وعقيدة ، وهذا النزوع واضح فى شعر ناصيف اليازجى وبطرس كرامة وفارس الشدياق وابراهيم الأحدب وعبد الغفار الأخرس وعبد الحميد الرافعى . (١)

ويكفى أن نقرأ ما كتبه بروكلمان عن النبهانى لنعلم أن أدبه كان يمثل صورة عصره أصدق تمثيل يقول بروكلمان " ..... انما يتمثل الأدب العربى فى سورية فى ظل عبد الحميد بيوسف النبهانى رئيس محكمة الحقوق فى بيروت حتى عام ١٩٢٦ (٢). الذى كان صديقا لأبى الهدى أيام السلطان والذى تكشف عن نشاط أدبى خصب جدا صادر عن روح الاسلام القديم ابتغاء وقاينه من تيارات أوربة المسيحية (٣) ويقول بروكلمان عن الاسلام فى مصر : " ..... ومهما يكن من أمر فقد كان الاسلام ولايزال هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر وانما يرجع الفضل فى ذلك فى المحل الأول الى تأثير جمال الدين وهو فارسى آثر لأغراض سياسية أن ينتسب الى الأفغان حيث قضى سنى شبابه (٤) " .

---

(١) الاسلام فى شعر شوقى الحوفى ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٢) أخطأ بروكلمان فى هذا التاريخ اذ أن الشيخ النبهانى قد عزل عام ١٣٢٧ فى شهر رمضان ١٩٠٨ م راجع البشائر الايمانية فى المباشرات المنامية ص ١٤ .

( ) الاسلام فى القرن التاسع عشر ص ١٠٠ .

( ) المصدر السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

وبذلك تكتمل الصورة العامة للاسلام فى البلاد التى عاش فيها النبهانى متنقلا بين الشام ومصر والأثر الدينى يظهر واضحا جليا فى جميع أشعار النبهانى ومدائحة النبوية فهو يعزو تأخر المسلمين وتكالب الأمم عليهم لتركهم تعاليم دينهم ، ولذلك يستحث همهم مذكرا بماضى أجدادهم الذين فتحوا هذه البلاد ، وهو اذ يتكلم تشعر بالمرارة واللوعة تشتعل فى قلبه على المسلمين مثل قوله :

خليلى لا والله ما أنا واجد ** لمن خذل الاسلام من أهله عذرا
وكيف وهم فى كل أرض فخارها ** وأفضل أهليها وأشرفهم نجرا (١)
وأبطالهم لو حاربوا أسد السما ** لفروخلاها ومن برجه خسرا (٢)

الى أن يقول :

ونحن بنوهم كيف كنا فما لنا ** نحيد ولا نقفو لآبائنا اثرا
وما الفرق الا الدين قد كان عندهم ** قويا فنالوا منه من قوة شطرا
فلما بدا من بعضهم ضعف دينه ** ضعفنا فلم يشدد بنا ديننا ازرا
فيا عينى انهلى ويا قلبى اتقد ** ويانفسى ازفر من سعير الحشا زفرا
فقد اصبح الاسلام ما بين أهله ** غريبا وفى أوطانه لم يجد نصرا
وصال عليه الشرك صولة كاسر ** اذا هى لم تقتل فقد أوجدت كسرا
الى الله كم أمسى وأصبح داعيا ** فآونه نظما وآونة نثرا
انادى بأعلى الصوت فى الناس صارخا ** لشدة وجد أججت فى الحشا الجمرا
أحذر قومى من عداة تألبوا ** علينا وساموا ديننا الخسف والخسرا (٣)

---

(١) نجرا ؛ أصلا .
(٢) برج الأسد من بروج الشمس .
(٣) الديوان ص ٣٩٥ـ٣٩٦ .

وهكذا يستمر النبهانى مطلقا الصرخات المدوية كلما أحاط بالمسلمين خطر من أمم تكالبت عليهم ، وليس هذا الا تربص روسية وفرنسة وبريطانية بالدولة العثمانية ، لتتقاسمها الدول الثلاث .

وهذا خير شاهد على صدق ما قاله بروكلمان من أن الشيخ النبهانى يمثل عصر عبد الحميد خير تمثيل وأنه سخر أدبه الغزير جدا لمحاربة الحضارة الأوروبية التبشيرية .

ومن أهم البواعث العامة المؤثرة فى مدائح النبهانى الحالة الاجتماعية التى كان عليها المجتمع آنذاك فالشيخ النبهانى لم يترك مناسبة فى مدائحة النبوية للنشكى من زمانه وتغير الناس وتقلبهم الا وانتهزها لبث ما فى قلبه من آلام وأحزان فهو يشكو من بعد الناس عن دينهم وتكالبهم على الدنيا وانتشار الرياء والنفاق والمعاصى والمفاخرة بالمحرمات ومن تكالب الأمم الأخرى على الاسلام ونيلهم من المسلمين سواء بالحرب أم بالتبشير أو غيرهما .

ولعل ابراز الأمراض الاجتماعية للمسلمين فى مدائح النبهانى وتنبيهه عليها هو ما يقصده بروكلمان من قوله السابق .

وقد كانت هذه البواعث الاجتماعية تثير الشيخ النبهانى فى خنام مدائحه النبوية عندما يتوسل بالرسول ليكشف عن هذه الأمة غمها وكربها .

ولا شك أن الموازنة بين الحياة الاجتماعية التى كان الشيخ النبهانى يسلكها والنابعة من قريته " اجزم " وأستاذه الأول والده الشيخ اسماعيل النبهانى ودراسته الأزهرية الأصيلة على يد كبار الأساتذة الذين كانوا يحرصون على تلقين تلاميذهم التقوى قبل العلم — هذه المؤهلات والاستعدادات التى كان النبهانى يتصرف فى دائرتها وما كان يلاقيه فى عصره من جحود ونكران لأخلاق الاسلام بالاضافة الى كثرة أعدائه سواء من المسلمين أو المسيحيين تظهر أن هذه الأشياء كانت هى المؤجج لشكواه التى يستجير منها بالله والرسول والأنبياء والأولياء طالبا منهم الحماية والعون ومن أمثلة ذلك قوله فى خنام الهمزية الألفية المسماة " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " .

وأجرنى وعترتى من زمانـــــــى ** فدواهية كلها دهيـــــــاء
عاد فيه الدين المبين كمـــا قلـــ ** ـــت غريبا وأهله غربـــــاء
فتداركه قبل أن تخطر الأخـــــ ** ـــطار فاليوم مسه الاعيـــــاء
وتكرم بشده فقـــــــــواه ** نالها بالشدائد استرخـــــاء
صار للشرك فى أذاه اشـــــترا ك ** حين ما للنفاق عنـــه انتفـــاء
كم أبو جهل استطال على الديـــــ ** ـــن وكم ذا أزرت به الجهـــلاء
ولكم فى ثيابه ابن ســـلـــول ** شاكه من نفاقـــه سـلاء (١)
ما اغترارى بمن تلون منهـــــم ** والأفاعى أشرها الرقطـــــاء
ملء قلبى محبة لمحبيـــــــــ ** ـــك وان قل فى فؤادى الصفـــاء
وارتياحى فى بغض قـــوم لديهـــم ** لك يا سيد الورى بغضـــــاء
لا أواليهم الزمـان ولا هـــــم ** لى ما ذر شارق أوليـــــاء (٢)
لا يرانى الرحمـــن الا عـــــدوا ** لأعاديك أحسنوا أم أســـاؤا
رضى الله من رضيت ومن لـــــم ** ترض عنه فالله منـه بـــــراء (٣)

وفى الأبيات الستة الأخيرة تظهر عزيمة النبهانى القوية التى لا يثنيها عـــن مقصدها كثرة الأعداء ، وفى قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعـــاد " يشكو الزمان وأهله وتغير الأحوال فيقول :

يا سيد الرسل يا من لا يزال بـــــه ** لكل صعب باذن الله تسهيـــل
أشكو اليك زمانى شاكرا نعمـــــا ** ما عند مثلى لها لولاك تأهيـــل
فقد بليت بعصر كله فـــــتن ** فيه أخو الحق مغلوب ومخـــذول
عصر على الخير صال الشرفيـــــه ولا ** تهوين الا علاه فيه تهويـــل
هذا الزمان الذى بينت شدتـــــه ** فكل ما قلت فيه اليوم مفعـــول

---

(١) عبد الله بن سلول رأس المنافقين والسلاء شوك النخل الواحدة سلاءة .
(٢) ذر طلع الشارق الشمس .
(٣) الديوان ص ٨٨ ـ ٩٠ .

الدين فيه بحكم الجمر قابضه ** مناره دنياه بين الناس مشغول
أنت الحبيب اليك الأمر أجمعه ** من المهيمن فى الدارين موكول
فانظر لأمتك الغراء قد لعبت ** بها عراقيل تتلوها عراقيل
كم قابلتها بما تخشى فراعنة ** وكم لها من شرار الناس قابيل (١)
مهما أساءت فلن ترضى اساءتها ** حسب المسىء من الاحسان تقليل
عجل بقهر أعاديها فليس لها ** فى الخلق غيرك يا مأمون مأمول
وكن لها وزرا مما ألم بها ** فقد كفاها على الاوزار تنكيل (٢)
واعطف على فانى خائف وجل ** فى الخير لا عامل منى ومعمول

وفى كتابه "شواهد الحق فى الاستغاثه بسيد الخلق" (٣) ارجوزة فى الاستغاثة بالرسول ومدحه صلى الله عليه وسلم — جعلها فى ديوانه على شكل تخميس يقول فيه شاكيا الزمان والأحوال :

صرنا من المحنة فى غمار ** من كثرة المصائب الطوارى (٤)
فى زمن دبر بالأدبار ** الليث فيه انقاد للحمار
والخير مغلوبا غدا للشر

رمت لظى الالحاد بالشرار ** والدين ان يسلم من الكفار
تؤذه منا عصبة الأغمار ** فاحرسه يا رب من الاشرار (٥)
من أهل بدعة وأهل كفر

واحفظه بالانجاد والأغوار ** كما حفظت الكنز بالجدار
فانه أحيط بالأخطار ** يخشى الردى من قلة الأنصار
أبدل الهى عسره باليسر (٦)

---

(١) اى شبيه بقابيل قاتل اخيه هابيل .

(٢) الوزر الملجأ والاوزار الذنوب .

(٣) ص ٧٣ــ٧٥ .

(٤) غمار جمع غمر وهى الشدة غمرات الموت شدائده .

(٥) الاغمار الجهال .

(٦) الانجاد الاماكن المرتفعة جمع نجد والاغوار الاماكن المنخفضه جمع غور والجدار هو المذكور فى سورة الكهف الذى اقامه الخضر لحفظ كنز الغلامين اليتيمين .

فالنبهاني يشير في هذه التخميسة الى تغير الأحوال بانقلاب الموازين من كثرة المصائب واسناد الأمور الى غير أهلها كانقياد الليث للحمار ومن المصائب على هذا الدين هجمات الكفار والمبتدعين من المسلمين ويدعو الله أن يحفظ هذا الدين كما حفظ الكنز بالجدار •

وقال النبهاني في موشحة يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم معارضا الموشحات الأندلسية السينيات شكى فيها الزمان والأحوال مظهرا ضعفه وقوة أعدائه ملتمسا من الرسول نصرته فيقول :

يا أبا الزهراء كن لي مسعدا ** فلقد أوهى زماني جلدي
لست أبغي من سواك المددا ** انت من بين الورى معتمدي
انا ان اسلمتني لن اسلما ** فعداتي كل ذئب اطلس (١)
أدرك ادركني ما دام الذما ** لاندعني مضغة المفترس (٢)
انا والله ضعيف وفقير ** باحتياج زائد للمدد
أنا والله ذليل وحقير ** انما عزي أتى من سيدي
ليس لي غيرك في الناس مجير ** أنت بعد الله أقوى سندي
لا تدعني سيدي مهتضما ** ليس عندي من سهام أو قسي
كل من حاربني أو ظلما ** ما وفى حق الجناب الأقدس (٣)
يا عمادي أنت أدرى بالزمان ** ما لأهليه وفاء وعهود
كلما أخترت فتى للصدق مان ** قابلوا المعروف مني بالجحود
ضعف الايمان فيهم والأمان ** ودهم مذق وجدواهم (٤)

---

(١) اسلمه خذله الذئب الاطلس الاغبر وهو لون الذئاب •
(٢) الذماء بقية الروح •
(٣) الجناب الجانب والاقدس الاظهر والمراد به جانب النبي صلى الله عليه وسلم •
(٤) المذق الخلط • الجدوى العطية •

ليس يجديني جداهم انما ** أجتدي من جودك المنبجس (١)
فاجبني وأجرني كرما ** يا ملاذ البائس المبتئس (٢)

وفي موشح آخر مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

سيدي يا أيها المولى الملاذ ** يا حبيب الله يا خير رسول
كل جاه في البرايا ذي نفاذ ** فعليه جاهك الضافي يطول
ليس لي غيرك في الخلق معاذ ** ولحالي سيدي شرح يطول
ادرك أدركني فصبري قد عفا ** وغدا ربع الصفا كالدمن (٣)
عبدك الدهر بحقي أجحفا ** ونفى عني لذيذ الوسن (٤)
ولكم من حاجة في خلدي ** أنت تدريها وما عنك استتار (٥)
أنا في الدارين أبغي رشدي ** منك في الدنيا وفي دار القرار
لا تخصصني بخير سيدي ** عم أهلي واجبنا منك الجوار
وأبحنا من حماكم كنفا ** واقيا من شر كل الفتن
حسبنا الله الها وكفى ** بك للمحسوب أقوى ركن (٦)

---

(١) يجديني يفيدني الجدى العطية • أجتدي اطلب • انبجس الماء انفجر •
(٢) أجرني أمني ومن فهو بائس اذا نزل به الضر واشتدت حاجته من الفقر ونحوه • والمبتئس الكاره الحزين الديوان ص ٢٧٩ــ٢٨٠ •
(٣) عفت الدار محى اثرها • الربع المنزل الدمن آثار الديار جمع دمنة •
(٤) اجحف بعبده كلفه مالا يطيق الأجحاف النقص الفاحش • الوسن النعاس •
(٥) الخلد القلب •
(٦) ركن : قوة •

البواعث الخاصـــــة :

وهى ألصق بالشاعر وأكثر تأثيرا فيه وقد تكلمت فى الفصل الثانى من البـــاب الثانى عن مصادرة الفكرية وهى " اسرة النبهانى " و " والده الأزهرى " و " قريتـــه اجزم " و " تعلمه فى الأزهر " .

ويبدو لى أن الشيخ النبهانى كان متأثرا فى شعره ببواعثه الخاصة الى حـــد بعيد أكثر من تأثره بالبواعث العامة فى عصره فهو قد استفاد من كونه نبهانيـــا . الأصالة العربية بكل ما فيها من فصاحة لغوية ومقدرة بيانية . كما ملك ناصية الشعـــر فلا تحس فى شعره أى أثر لتعمل أو تصنع أو تكلف ، ولا يطلب منه شىء الا أن يطلـــق لشاعريته وقريحته العنان .

أما والده الشيخ اسماعيل النبهانى فقد كان أزهريا وله الأثر الكبير فـــى توجيه ولده والتأثير فى مسيرة حياته . فقد حدثنا الشيخ يوسف فى كتابه " هـــادى المريد " أنه لما خرج من قريته " اجزم " كان والده قد حفظه القرآن الكريم وبعـــض المتون ولهذه العبارة أكبر الأثر فى تطبع تفكيره بالقرآن والمتون فكان هذا هو المؤثـــر الأكبر فى محافظته على القديم وعدم قابليته للتبديل والتجديد حيث تمسك بالاســـلام تمسكا لا يحتاج لأن يناقش أو ينظر فى غيره من المبادىء فهو لا يقبل النقاش أو اعـادة النظر فيما ورد فى الكتاب والسنة . وقد جعل من الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحـه بابا لمدح الاسلام والدعوة للكتاب والسنة مثل قوله :

فيارب وفقنا بجاه محمـــــــد ** حبيبك للأولى من الخير والأخـــرى
وأيد به الاسلام والطف بأهلـــه ** ومن بعد هذا العسر يسر لهم يسرا
هو الشافى المقبول أفضل مرســـل ** لديك فجد وامنح لأمته النصـــرا
فوالله لو خيرت فى خير جنـــة ** على أن أرى من غير أمة الغـــرا
لما اخترت الا نسبتى لمحمـــد ** وان كنت فى الجنات أدنى الورى قدرا
كما اننى لو نلت خدمة نعلـــه ** وعند جميع الرسل سلطنة كـــبرى
لما اخترت الا خدمتى لنعالـــه ** وذلك فخر لا أرى مثله فخـــرا
رضيت به كل الرضا لست أبتغـــى ** بديلا به فى هذه الدار والأخـــرى

فلا شك أن هذه النبتل فى حب الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بواتيه لو لم يعشه النبهانى منذ طفولته متأثرا بوالده .

ومن شواهد تمسكه بالدين وعدم قبوله أى تغيير أو تجديد قوله " ..... ومن هؤلاء المجانين قسم يمتاز عن غيره بالرقاعة والسماجة وفساد الذوق وقلة العقل والدين وهم الذين يلهجون دائما بألسنتهم وأقلامهم بحسن أحوال هذا العصر وأنه عصر العلم والمعرفة والفضل والأدب والتهذيب وكل خير فتراهم يقولون : قد مضى عصر الجهل والنوحش والآن نحن فى عصر العلم والتمدن وينسبون كل شئ يستحسنونه ويريدون مدحه الى هذا العصر السعيد بزعمهم ، فيقولون : العلوم العصرية والأفكار العصرية والأخلاق العصرية ، وتارة يقولون ان الناس قد تمدنوا أو تنوروا وتفتحت عيونهم وزالت عنهم الجهالة والنوحش وما أشبه ذلك من العبارات الباردة الكاذبة التى هى من أعظم الأدلة على أن الناطق بها — ولا سيما اذا كان من المسلمين — من أثقل الثقلاء واجهل الجهلاء وليس له ذوق سليم ولا فكر مستقيم ولا يفهم الفرق بين الباطل والحق .

ووجه ذلك أن الحسن عندنا معاشر المسلمين ما وافق الشرع والقبيح ما خالف الشرع والعصر الذى يستحسنه الشرع هو الذى تجرى فيه أحكامه ويغلب على الناس فيه الدين واطاعة أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه [1] " وهو الذى يقول فى قصيدته الرائية الكبرى التى بلغت ٧٢٥ بيت مخاطبا الملة الاسلامية .

" ولو عنك عوضت الممالك كلها ** لكان بعينى كل اعدادها صفرا
عدوى من عاداك من كل ملة ** وان عمّر الاحسان منه لى العمرا
ومولاى من والاك من كل فرقة ** وان هو قد أولانى الضيم والضرا
وأحمل كل الهجر من كل هاجر ** سواك وانى منك لا أحمل الهجرا
وكل جمال أنت فى الكون أصله ** وأصل جميع القبح ضرانك الأخرى [2]

---

(١) شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق ص ٣٨ .
(٢) الديوان ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

ومن هذا نلاحظ أن الشيخ النبهانى كان متشبعا بالروح الاسلامية تشبعا نظريا كاملا وقد كان لوالده الذى عايشه الفضل الأكبر فى ذلك وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول " يولد الولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وفى قول النبهانى " وحفظنى بعض المتون " فهذه تدل على تأسيس النبهاني بالعلوم قبل أن يذهب الى الأزهر وقد بما قيل " من حفظ المتون حاز الفنون " والمتون هى الأساس الذى يبنى عليه الطالب علمه من توسع ولعل تمكن العلماء الأوائل فى علومهم وظهور النوابغ منهم كان لتمكنهم من العلوم بحفظهم المتون التى هى عبارة عن الصياغة القانونية لذلك العلم ، فالا جرومية هى متن النحو وجميع قواعد النحو الأساسية موجودة فيها وفى صياغتها القانونية البعيدة عن الاسهاب والمترادفات تصغيرا لحجمها لتيسير حفظها ونحن نجد متنا فى كل علم من علوم الشريعة والعربية وقد قامت على هذه المتون شروح ، وقام على بعض هذه الشروح حواشى ، وقام على بعض هذه الحواشى تقارير ، وبعض هذه المتون صيغ نظما لتسهيل حفظها ، ولا شك أن حفظه للقرآن الكريم والمتون بأسلوبهما الجزل اكسب أسلوب النبهانى فى المدائح قوة وجزالة فى الصياغة ،

و "قرية أجزم" تقع فى الجنوب الشرقى من حيفا وهى قريبة من البحر حيث ان النائم على تلة فيها تسمى " البطمة " يرى البحر والمراكب المتجهة الى مينا ، حيفا ، وقد كان لتأثير قريته عليه أثر كبير فى انتاجه الأدبى من المدائح النبوية فقد اكتسب من هذه القرية " صفة العناد " والالتزام بالمبادىء ، وهى القرية التى وقفت تقاوم حملة ابراهيم باشا المصرى وحدها وبامكاناتها المحدودة بعد أن تراجعت العساكر العثمانية ، وكانت نتيجة المعركة أن أحرقت القرية ودمرت وهرب قادة المقاومة ،

وعناد " الشيخ النبهانى والتزامه المبدئى يتجلى لنا فى خصوماته مع الاخرين الذين منعوا الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم فقد نظم فيهم " الرائية الصغرى فى ذم البدعة ومدح السنة الغراء " ويقصد بالبدعة أفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وانكارهم على زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به وغيرها وقد بلغت هذه القصيدة ٥٢٥ بيت هجاهم فيها هجاء مرا وقد قام انصار هذه المدرسة فهجوا الشيخ النبهانى بالذع وأقذع وأضعاف ما هجاهم

بـــه [1] ومع هذا لم يغير موقفه وبقى ثابتا ثم قاوم حركة التجديد دعاة التمـــدن والحضارة الاوروبية ولم تثنه كثرتهم ورواج مبادئهم .

وكثير ممن ترجموا له له كانوا يقولون عنه " لا تأخذه فى الحق لومة لائـــم " ولما خلع السلطان عبد الحميد بقى الشيخ النبهانى على ولائه له لأنه رأى أن خلفـــاءه حادوا عن خطته وفصل الشيخ أبو الهدى الصيادى صديق النبهانى ونصيره مـــن منصبه ومع هذا قال النبهانى قصيدة طويلة يمدح بها أبا الهدى الصيادى ويهجـــو الاتراك وسارت هذه القصيدة وانتشرت فى الآفاق كما يقول الأمير شكيب أرسلان ومـــن أبياتها النافذة فى هجاء الاتراك قوله :

ويمـــت دار الملك أحسب أنهـــا	**	الى الآن لم تبرح الى المجد سلما
فألفيتها قد اقفرت من ربوعهـــا	**	ولم يبق فيها الفضل الا توهمـــا
حوت قوم سوء أسلموا أى نفوسهـــم	**	الى الكفر الا من له الله سلمـــا
وألفيت فيها أمة عربيـــة	**	يرى القوم منها " امة الزنج أكرمـــا
وما نقموا منا بنى العرب خصلـــة	**	سوى أن خير الخلق لم يك أعجمـــا
ولكن حجاب الحقد أعمى قلوبهـــم	**	فلم ينظرونا من ورا حجب العمـــى
بنى اللؤم انى ما تكلمت هاجيـــا	**	ولكن قلبى من جفاكم تكلمـــا
ولو لم يكن قصدى مديح أبى الهـــدى	**	لجرعتكم لو ذقتم الهجو علقمـــا [2]

فقصيدة النبهانى " الرائية الصغرى فى مدح السنة وذم البدعة الغـــرا " قالها بعد أن عزل من وظيفته عام ١٣٢٧ [3] . لأن النبهانى يقول فى آخر القصيدة :

وقد تم لى احدى وستون حجـــة ** بفضلك اسلامى بها لم يشب كفـــرا

---

(١) راجع الفصل الخامس من الباب الثانى .

(٢) الديوان ص ٤٠٠ .

(٣) راجع الدلالات الواضحات ص ٥٠ .

وقد نبه النبهانى فى شرح هذا البيت فقال " كانت ولادتى سنة ١٢٦٦ هـ فى قرية اجزم — على صورة الأمر — الواقعة فى شمال أرض فلسطين من أعمال حيفا التابعة لعكة وهى تبعد عن القدس ثلاث مراحل لجهة الشمال وهذه القصيدة نظمتها منذ سنتين وذلك فى سنة ١٣٢٧ ونحن الآن فى التاسعة والعشرين (١) .

ومعنى هذا أن النبهانى قال هذه القصيدة وعزل فى سنة واحدة وهى السنة التى خلع فيها السلطان عبد الحميد عن الحكم . وهذا يدل على أن الشيخ النبهانى بقى ثابتا لم يتغير اتجاهه مع من حدد مواقفه معهم منذ طلبه العلم فى الأزهر الشريف أعنى الأفغانى ومدرسته .

لقد كان خلع السلطان عبد الحميد انتصارا لأفكار الأفغانى ورشيد رضا ومحمد عبده ومع هذا قال النبهانى هذه القصيدة التى أقذعت فى هجائهم وبيان مفاسد آرائهم . ولم يرهبه زوال سلطانه وقيام دولتهم . ولذلك لم يتغير عن المبادئ التى تربى عليها فى "اجزم" وهى المبادئ الاسلامية وقول الحق فى كل زمان ومكان .

ولما تولى القضاء وأصبح من رجال الحكم وممن يتودد اليهم بقى على مبادئه الأولى . وانه ليقول :

" قد فصلت من وظيفتى رياسة محكمة الحقوق فى بيروت سنة ١٣٢٧ هـ بعد أن اقمت فيها اثنتين وعشرين سنة متوالية وكنت فيها كما قال الشيخ مصطفى البابى الحلبى — وكان من قضاة عصره وأفضلهم واشعرهم — :

ولیت الحکم خمسا وهی خمس ** لعمری والصبا فی العنفوان
فما وضع الأعادی قدر شأنی ** ولا قالوا : فلان قد رشانی

سوى أنه ولى الحكم خمسة أعوام وولينه ثلاثين عاما منها فى بيروت اثنان وعشرون والباقى فى بيت المقدس واللاذقية وكوى سنجق من بلاد الأكراد ووالله انى لا أذكر أنى حكمت فى هذه المدة حكما مخالفا للشريعة المطهرة أو لغرض سوى اتباع الحق بحسب مقدرتى ومعرفتى ولذلك رأيت فى منامى وانا فى المدينة المنورة أن محكمتى فى جانب محكمة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكأنا معه

---

(١) الديوان ص ٤٠٠ .

أحياء والحمد لله رب العالمين (١) .

ومن أثر قريته على اخلاقه " العناد " الذى عرف به أهل هذه القرية من بين القرى المجاورة .

ومن مظاهر هذا العناد لدى الشيخ النبهانى طول نفسه فى الشعر فمعظم قصائده مطولات فهمزيته الالفية المسماة " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " وصلت الى ألف بيت .

والرائية الكبرى فى الكمالات الالهية والسيرة النبوية ووصف الملة الاسلامية والملل الأخرى " بلغت ٧٢٥ بيت . والرائية الصغرى بلغت ٥٥٠ بيت وله موشح فى التشبيب بمعالم الحرمين الشريفين ومدح الرسول بلغت أبياته ١٠٢ بيت مطلعه .

لست أنسى زمنا قد سلفا ** فيك يا مكة بالعيش الهنى
اذ من المروة أسعى للصفا ** وبذات الخال وجدى عمنى

وله موشح آخر بلغ ١٠٢ عارض فيه الموشحات الأندلسية السينيات مطلعه

حى يا سعد قبا با بالحمى ** تحتها ربع المنى لم يندرس
جاد الغيث اذا الغيث همى ** لا زمان الوصل بالأندلس

وغيرها من التخاميس والنشاطير والمعارضات كثير . وطول النفس فى الشعر ان دل على شىء فانما يدل على استعداد ملكة الشاعر على ملاحقة المعنى المطلوب ومتابعته حتى يستكمل الصورة التى ترضى بها نفس الشاعر وتكتفى به ، وكأن المعنى المقصود خصم لا يرضى ملكة الشاعر غير القبض عليه واخضاعه مهما امتدت الملاحقة او طالت المطاردة .

وقد كان لموقع قرية " اجزم " الجغرافى على تلة تحيط بها السهول الفسيحة من كل جانب ثم تليها الجبال والوديان المكسوة بالخضرة وآثار النشاط الزراعى بين

---

(١) المصدر السابق .

السكان مع كثرة الأشجار المثمرة والحرجية ، كل هذا هيأ للشاعر جوا رائعا نشأ فيه وترعرع فثبت فى عقله هذه الصور التى ظهرت فى شعره ظهورا واضحا اكسبته روعة وجمالا ، من تنوع فى التشبيهات وابعاد فى الأخيلة فلولم يكن النبهانى ذا خيال واسع ومقدرة على التشبيه فريدة فى تاريخ الأدب العربى لما استطاع أن يقول قصيدة عدد أبياتها ألف بيت على وزن واحد وقافية واحدة ، وهو غير متفرغ لنظمها حيث كان فى وظيفة رئيس محكمة الحقوق فى بيروت ومشغولا بمؤلفات أخرى ثم شغله مركزا اجتماعيا حساسا فى بيروت المليئة بأنشطتها الفكرية من تجديد وتغيير ونبشير فقصيدته الألفية هذه نظمها فى سنتين كان فيهما يراجعها ويهذب منها كما قال بعد تمام قصيدته " .... يقول ناظمها قد مضى من شروعى فى نظمها الى ختام طبعها سنتان لم أخل فيهما من تهذيب وتنقيح وزيادة ونقص فى ألفاظها — ومعانيها حتى جاءت لعين كل مؤمن ويحمد الله وبركة ممدوحها قرة وفى جبين هذا العصر غرة [1] " وقصيدته الرائية الصغرى التى بلغت ٥٢٥ بيت فقد قالها بعد أن دخل فى العقد السابع من عمره ،

كل هذا مع ما خلفه من مؤلفات جاوزت الستين ، فلو لم يكن النبهانى يتمتع بشمولية فطرية فى التصور نشأت وترعرعت مع طفولته وملاعب صباه لما استطاع أن يخلف لنا هذا التراث الضخم الذى لم يسبق الى مثله فى موضوعه ، فمن جميل صوره فى تشبيهاته قوله فى أحد موشحاته ،

لست أنسى زمنا قد سلفا ** فيك يا مكة بالعيش الهنى
اذ من المروة أسعى والصفا ** وبذات الخال وجدى عمنى [2]
حين أغدو طائفا من حولها ** اتهادى مثل صب ثمل
ابتغى عارفة من نولها ** وهى ترعانى تحت الحلل
ومتى نمت مساعى طولها ** بلغتنى من رضاها أملى [3]

---

(١) طيبة الثناء فى مدح سيد الأنبياء ص ١٠٤ المطبعة الأدبية ١٣١٤ هـ .

(٢) ذات الخال الكعبة ، وخالها الحجر الاسود .

(٣) الطول الافضال .

أدخلني في مقـــام شرفـــا ** كل من يدخله في مأمـــن (١)
اجلستني كرما في حجرهـــا ** بعد تقبيل فمي منها اليمـــين (٢)

الى أن يقـــول :

أشـرب الخمرة شرب النهـــم ** دون اثم غير سكران ملـــوم
انما أعني ســـلاف زمـــزم ** صانها الرحمن لابنت الكـــروم
فأراني كالمليك الأعظـــم ** من سروري وتجافيني الهمـــوم

الى أن يقول :

حي يا برق أثيلات العقيـــق ** وربوعا في النقا والمنحـــنى (٣)
واسق سلعا وقبـــا خير رحيـــق ** من سلاف الغيث موصول الهنـــا
آه من لي ثم سكر لا أفيـــق ** منه بالحذراء لا يبقى غـــدا (٤)

الى غير ذلك من الشواهد الظاهرة في ديوانه .

وقد نبه الشيخ النبهاني الى هذا في مقدمة بعض قصائده ، مثل قوله فـــي مقدمة "طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء" التي هي الهمزية الالفية حيث يقول " ..... ونبهت من أنواع البديع على جميع ما فيها من التورية لشرفها وكونهـــا اعلى أنواع التحسين ، واشتمالها منها على مالم يشتمل عليه عدة دواوين .... " (٥)

---

(١) المقام مقام ابراهيم .
(٢) حجر الكعبة المحاط من جوانبها بحائط مخصوص وفيه نورية بحجر الانســـان وهو حضنه اليمنى المراد به الحجر الاسود ففي الحديث انه يمين اللـــه في الأرض اى كاليمين .
(٣) الاثل شجر الطرفاء والعقيق وادي النقا والمنحنى وسلع وقبا اماكن فـــي المدينة المنورة الرحيق صفوة الخمر .
(٤) الديوان ص ٣٨٢ـ٣٨٤ .
(٥) طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء ص ٢ المطبعة الأدبية ١٣١٤ هـ .

ففى مقدمة الرائية الكبرى يقول الشيخ النبهانى : " أما بعد فيقول ناظمها الفقير يوسف النبهانى عفا الله عنه: ان هذه القصيدة فريدة فى بابها وقد اشتملت على ما تلزم معرفته من محاسن الديانة الاسلامية ومساوىء غيرها مع كمال الفصاحة والبلاغة والسهولة وقلما يخلو بيت منها من النكت الأدبية والمحسنات البديعية وقد شرحت بعض ما يلزمه الشرح من ألفاظها ولم أنبه على ما فيها من المحاسن البديعة مع كثرتها سوى التورية لعزتها فى الكلام وقد يسرها الله فيها فى اكثر من ثلاثين موضعا [1] وهذه الحال لا تختص بها الرائيتان فقط بل هى شائعة فى جميع مدائحه النبوية ، ومقدرة النبهانى على رسم الصور الطبيعية الناطقة فى شعره متوافرة بصورة اوضح فى غير مدائحه النبوية اذ أنه فى المدائح النبوية يكون مقيدا ملتزما لعدم مناسبة موضوع المدائح النبوية مع المبالغة فى التصوير .

ومن يراجع مقدمة قصيدته التى تالها فى مدح احمد عزت باشا العابد وفى مدح ابى الهدى الصيادى يلمس مقدرته الفائقة فى رسم الصور الناطقة والمتحركة مثل قوله فى مطلع هذه المدحة :-

١ ــ بشرى فقد سرت الدنيا ومن فيها ** وعم داعى التهانى كل اهليها
٢ــ وانجزت وعدها الأيام محسنة ** لنا عفا الله عن ماضى مساويها
٣ــ فقم نبادر الى بكر معتقة ** من كف نشوان ساهى العين ساجيها
٤ــ قد أشبهت خده القانى بحمرتها ** وطرفه فيه معنى من معانيها
٥ــ فى روضة ضحكت ازهارها وجرت ** أنهارها وغدت تبكى غواديها
٦ــ تلاعب الريح فيها الغصن معتدلا ** لعب الأحبة تثنية وتثنيها
٧ ــ والطير تشدو على الأعواد مطربة ** والدوح يهتز من توقيع شاديها
٨ــ يا صاح دعنى ودع صحوا بليت به ** فليس يحمد فى اللذات صاحيها
٩ــ وعاطنى قهوة من فوقها حبب ** كالغادة الخود زانتها لآليها
١٠ ــ كالنار تجرى على أحشاء شاربها ** فتحرق الهم منه فى مجاريها
١١ ــ نفاحة يحسب الحاظى بنهلتها ** أن قد سقاه مذاب المسك ساقيها

---

(١) الديوان ص ١ ٢٩ .

١٢ــ قديمة العهد تروى كل حادثة ** قبل الزمان وعنها الدهر يرويها
١٣ــ بكر مضى الدهر لم تفضض بكارتها ** ولا لها فى البرايا من يكافيها
١٤ــ قد اسكر الخلق طرا قرب حانتها ** ولم تزل فى حجاب من قنانيها
١٥ــ لو أسفرت فى الدياجى عن محاسنها ** لزال فى الحال بالأنوار داجيها
١٦ــ فلا تدع ذكرها ان كنت ذا ولع ** فيها ففى حال ذكراها توافيها
١٧ــ ولا تخل اننى فى الوصف أحصرها ** جلت عن الحصر تمثيلا وتشبيها
١٨ــ لكن جعلت لها هذا النسيب حلى ** ومدح أحمد عقدا فى تراقيها

هذه الأبيات الثمانية عشر جعلها الشيخ النبهانى مقدمة لمدح أحمد عزت باشا العابد ونحن نلاحظ أن الشيخ النبهانى قد تجول فى الرياض والبساتين فوصفها وصفا حيا كمن رآها وعاش فيها ففى البيتين الأول والثانى يستعجل الشاعر زفاف البشرى فقد سرت الدنيا ومن فيها وانتشرت الأعياد والأفراح بين جميع أهليها حيث ان الأيام قد صدقت وعدها لنا حيث ولى احمد عزت باشا العابد الوزارة ثم يقول " عفا الله عن ماضى مساويها " أى ان الأيام التى لم تهيىء الوزارة للعابد سابقا كانت مجحفة بنا وفى توليتها اياه الآن أصلحت خطأ كانت فيه وفى قوله " أنجزت وعدها أى : كأن الشعب يطالب الأيام منذ القديم بأن يكون العابد هو الوزير وقد وافقت الأيام على وزارته منذ القديم ايضا بوعدها بتلبية الطلب اما الآن فقد وفت بوعدها سامحها الله لتأخرها فى الوفاء . بعد أن تمت الفرحة بتولى الممدوح الوزارة وتبدو مظاهر الأفراح بتعاطى الشراب والتجول فى الحدائق الغن والرياض الفيح . وفى البيتين الثالث والرابع يصف الخمر وساقيها والتشابه فى الجمال بينهما وفى الأبيات الخامس والسادس والسابع يصف الروضة التى تعاطوا فيها انسهم . وقد وصف الروضة وصفا تصويريا ناطقا فأزهارها متفتحة بقوة نموها فتبدو كأنها ضاحكة وأنهارها وسواقيها جارية مما يولد فى النفس تجددا فى الشعور ونشاطا فى الاحساس . وعشبها الغض الطرىء مبلل بالندى فيبدو كأنه يبكى حيث ان حبات الندى المتدلية من اطراف هذا النبات كأنها دموع .

فأنظر كيف صور البكاء بصورة مفرحة ثم يصف الريح والنسيم الذى يلاعق الأغصان ملاعبة لطيفة رشيقة حيث ان الغصن يتمايل وهو معتدل فى مكانه وهذا التلاعب والتثني شبهه بلعب الأحبة عندما يثنى الحبيب حبيبته فتثنى معه ثم تثنى الحبيبة

حبيبها فيتثنى معها وهكذا تظل الحركة مستمرة ثم يصف الطير وهى تشدو على الأغصان باصواتها المطربة والأشجار تهتز طربا من شدو الطيور وجمال توقيعها وأدائها فى أصواتها • والاهتزاز علامة على منتهى الطرب والتجاوب مع جمال المسموع من غناء وشدو ففى هذه الأبيات رسم لنا صورة روضة متحركة وناطقة •

وفى البيت الثامن يصور النبهانى حالة وقد تعاطى القهوة "البكر المعتقة" فهو يعد سكره الدائم من أكبر النعم ولا يحمد الا من واصل السكر • ثم يطلب من عاذله فى البيت التاسع أن يسقيه قهوة يكسوها الحبب أى الفقاقيع دلالة على قدمها وجودتها وقد شبه القهوة بحبيبها بالحسناء المتزينة بعقودها • ونلاحظ فى البيت التاسع أنه قد صور نفسه وقد طرحه السكر وصاحبه يهم به كى ينهض ويدع الشراب ولكن الشاعر يمانع راثيا لحال عاذله الصاحى ثم يطلب منه أن يسقيه من قهوة لها زبد كالحسناء المتحلية بالآلىء ولو رسم قارورة خمر يملوها الزبد الى جانب الشاعر وصاحبه لخرجت صورة ناطقة • ثم يستمر مع الأبيات المتبقية فى وصف هذه القهوة وما فيها من أسرار باهرات وقد نجح الشاعر فى ابراز صفاتها الدقيقه وجعلنا نشتهيها ناسين غلظة حرمتها وحدها • ونجد مثل هذا التصوير أو الرسم فى مطلع قصيدته التى قالها فى مدح الشيخ أبى الهدى الصيادى التى يقول فيها :

تذكر دهرا بالعقيق نصرما ** فواصل سفح الدمع فى خده دما
وهبت عليه من ربا الشام نسمة ** فكاد يفيض النفس لما تنسما
وبأن له من جانب الحى بارق ** تألق فى جو السما فتألما
وأبكاه قوس السحب لما بدا له ** فأذكر من ليلى سوارا ومعصما
كأن الهوى منه عليه بصارم ** سطا وربى عن ذلك القوس اسهما
كأن احمرارا فيه محنىُّ اضلع ** طوت من غرامى مارجا متضرما
يقولون طبع النار تقويم ما انحنى ** ولم أر ضلعا من ضلوعى تقوما

وكذلك كان ما قاله فى مدح أحمد فارس الشدياق رئيس تحرير الجوائب •

والنبهانى بمقدرته الفائقة على الاتيان بالصور والتشبيهات فى شعره انما ينقل

لنا ما كان حفظه ووعاه منذ الصغر ـ عن قريته وجمالها وموقعها وكثرة أشجارها كالغصن الذى تقف عليه الطيور تغنى فيهتز من تحتها طربا حتى اذا قطع هذا الغصن وصنع عودا ـ آلة موسيقية ـ أعاد لنا تلك الأنغام الشجية التى حفظها وهو غصن ميادٍ على شجرته وهذا يشبه المعنى الذى قصده الشاعر بقوله يصف آلة موسيقية مصنوعة من خشب :

وطنبور مليح الشكل يحكى ** بنغمته الفصيحة عند ليبا
روى لما ذوى نغما فصاحا ** حواها فى تقلبه قضيبا
كذا من عاشر العلماء طفلا ** يكون اذا نشأ شيخا اديبا

ومن آثار قريته "اجزم" فى شعره طول النفس فى الحوار والنقاش فأهلها معروفون بتصلبهم فى آرائهم ومعتقداتهم وليس من السهل اقناعهم بما لا يعرفونه مسبقا وهذه الميزة معروفة فيهم دون سكان جميع القرى فى قضاء حيفة الذين يعاملونهم ويحتكون بهم حتى انهم ينسبون حب النقاش وعدم الاقتناع فى سكان قرية "اجزم" الى بئر تقع فى جهتها الغربية تسمى "البئر الغربية" وأصبحت ظاهرة كثرة النقاش والجدل فى قضاء حيفة كله ينسب الى الشرب من ماء هذه البئر فيقولون فلان شارب من البئر الغربية اى لا فائدة من نقاشه . وقد انعكس هذا الأثر فى مدائح النبهانى النبوية ومصادماته مع من يخالفهم فى آرائهم فهو لا يتوانى عن نقاشهم والتنبيه على اخطارهم فى كل مناسبة ولا يتهيب من الدخول طرفا فى النزاع مع الطرف الذى يؤيد معتقده .

مثال ذلك قصيدته البائية التى بلغت ثلاثة وخمسين ومائة بيت ينتصر فيها للامام السبكى فى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ويرد على من هجا الامام السبكى لكتابه "شفاء السقام فى زيارة خير الأنام" (١) الذى رد به على ابن تيمية الذى يحرم الزيارة وهى مسألة خلافية قديمة قالها الامام ابن تيمية وايده فيها ابن حزم (٢)

---

(١) راجع ما كتبنا عن كفاحه الدينى الفصل الخامس الباب الثانى .

(٢) رد الشيخ ابن عبد الهادى على كتاب السبكى المذكور بكتاب اسمه "الصارم المبكى فى الرد على السبكى" راجع شواهد الحق ص ٥٣ .

وغيره فد خل الشيخ النبهاني طرفا فى النزاع بكتابه " شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق " وكتب قصيدته البائية يرد على من هجم الامام السبكى • وقد جر هذا على النبهانى خصومات كثيرة فكتب الاستاذ محمود شكرى الألوسى كتابه " غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " منتصرا لابن تيمية ودعوته وقيلت قصائد كثيرة فى الرد على قصيدة النبهانى أو هجائه بسببها وقد ذكر بعضها الاستاذ الألوسى فى كتابه المذكور • وكذلك دخل النبهانى فى خصام مع مدرسة الأفغانى وهم دعاة التجديد والتغيير وكتب فى هجائهم قصيدة بلغت ٥٢٥ بيت فكتبت عليه الردود الكثيرة (١) •

كما لا ننسى وقوفه فى وجه التبشير المسيحى فى بيروت التى كانت عاصمة الجمعيات التبشيرية فكتب الكتب والقصائد مبينا فساد معتقدهم ومحذرا المسلمين من سوء العاقبة وقد ناله من كل هذا الأذى والسعى لقطع رزقه عن طريق عزله من وظيفته ولكن الله سبحانه كان ينجيه منهم ويحفظه وقد حاربوا ولده محمد شمس الدين بعد وفاة والده وعزلوه من وظيفته حيث كان يشتغل فى منصب قاضى طرابلس فساءت حالة لأنه لم يكن له مورد رزق غير وظيفته ولم يخلف له والده تركة فمات بعد أربع سنوات من وفاة والده ١٩٣٦م حزنا عليه • وكمدا مما لاقاه بعده من النصارى • كل هذا يدلنا على أن النبهانى كان رجل مصادمات واذا كان هذا موقفه ممن عارضوه فلا شك أن موقفه مع من وافقوه كان بالسخونة نفسها • لذلك أشاد بالعلماء الذين ساروا معه فى آرائه متواضعا أمامهم ناسبا لنفسه كل تقصير تجاههم ولم ينس أن يتواضع حتى أمام خصومه مثل الامام ابن تيمية وابن حزم وابن عبد الهادى وابن قيم الجوزية (٢) حيث قال " ووالله لولا ان بدعهم متعلقة بلباب الدين وشؤون سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لما تعرضت لأحد منهم بكلمة فيها أدنى ذم له ولو صدر منهم من الخطأ ما عساه أن يصدر لأنهم بشر وليسوا بأنبياء فهم غير معصومين من الخطأ وانما ينظر الى ما يغلب عليهم من الحسنات أو السيئات وحسنات هؤلاء الأئمة هى بحمد الله اكثر من سيئاتهم أضعافا كثيرة لأنهم

---

(١) راجع الفصل الخامس من الباب الثانى •

(٢) راجع الفصل الخامس من الباب الثانى •

من ائمة الاسلام وأكابر العلماء الأعلام لاسيما أن اعتراض مثلى على مثلهم فيه عدم توقير من الصغير للكبير وهو منهى عنه شرعا اذ لا مناسبة بينى وبينهم فى العلم والفهم لأنى من أضعف الطلبة وهم من أئمة العلماء ولكن هذه المسائل التى زلوا فيها وخالفوا جمهور الأمة المحمدية وجلبوا بها على المسلمين وعلى أنفسهم أعظم بلية هى من الظهور بحيث لا تخفى على مثلى ولا على من هو أقل منى ومع ذلك تجدنى مع نقلى ردود العلماء عليهم فى تلك البدع ومبالغتى فى تحذير المسلمين منها والرد عليهم فيها أعتقد كمال فضلهم وتقواهم وامامتهم للدين فى غير ما خالفوا به جمهور المسلمين • فيلزمنا على كل حال توقيرهم والثناء عليهم لتلك الصفات الجليلة ، وهم بلا شك أجدادى من حيث العلم فأسانيدى متصلة بهم وذمى لهم اذا كان بدون حق فيه قطيعة لرحم القرابة العلمية (١) •

وهذا الكلام لا يعد غريبا بالنسبة لشخصية النبهانى فمن المعلوم أن الرجل الشديد فى ناحية تراه سهلا وهينا فى ناحية أخرى •

ولكنه لم يتنازل عن آرائه تجاه محمد عبده ورشيد رضا والأفغانى فهو كلما ذكرهم بالغ فى ذمهم منبها على خطرهم •

أما الوهابيون فهو مع معارضته لهم فى منعهم زيادة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به لكنه مدحهم بقوله " والوهابية مازالوا منشرعين بشرائع الاسلام (٢) "ولكن عناد الشيخ النبهانى ظهرت له نتائج ايجابية حيث وجد ضالته فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فأوصى نفسه التى لا تعرف انصاف الحلول فكانت

---

(١) شواهد الحق ص٥٥٧ •

(٢) راجع البشائر الايمانية فى الميراث المنامية ص٢٨ •

قصائده المطولة فى المدائح النبوية ثمرة رد فعله لما عليه المجتمع ولو توجهت انظار الباحثين اليها لتركت دويا فى عالم الأدب .

تعلمه فى الأزهر : التحق الشيخ يوسف النبهانى بالأزهر الشريف فى غرة المحرم سنة ١٢٨٣ هـ وكان عمره سبع عشرة سنة وقد مكث فى الأزهر سبع سنين حصل فيها على ما قدره الله له من العلوم النقلية والعقلية على حد تعبيره ثم عاد الى وطنه بأمر والده (١) .

والشيخ النبهانى التحق بالأزهر بعد أن تأسس علميا على يد استاذه ووالده الشيخ اسماعيل النبهانى وفى الأزهر تلقى العلم على شيوخ عصره وقد اورد هم فى كتابه " هادى المريد الى طريق الأسانيد " الذى جمع فيه اجازاته وما تعلمه وبمراجعة شيوخه والكتب التى أجيز بها .

نلاحظ أنه تلقى العلم على أكثر من واحد من أئمة المذاهب الأربعة وقد تلقى العلوم التى كانت تدرس فى عصره من عقلية ونقلية وقد قرأ علم النحو من الآجرومية الى الأشمونى مع الشروح والحواشى ، وحفظ الآجرومية والألفية ومطالعته للعوامل " والاظهار وكافية ابن الحاجب بنفسه ولبعض الطلبة وهذا يدل على اتقانه للعربية الذى يظهر تمكنه منها فى كتاباته المنظوم منها والمنثور وكثيرا ممن ترجموا له قالوا بأنه مالك ناصية اللغة وقد أشار النبهانى الى اتقانه للعربية وتمكنه منها نظما ونثرا فى عدة مناسبات . (٢)

وقد كان النبهانى متصوفا يؤمن بالكرامات وغيرها وكان يعتمد فى معلوماته الشرعية ما يقوله العلماء المتصوفون أمثال الامام الغزالى وابن حجر والشعرانى وغيرهم ولعله كان يقصد مؤلفاتهم بقوله " .... وقد رزقنى الله ولله الحمد والمنة كثيرا من الكتب النافعة المقبولة

---

(١) راجع الفصل الثانى الباب الثانى " ثقافته " .

(٢) راجع الفصل الثالث الباب الثانى مكانته العلمية .

المتفق على جلالة مؤلفيها من الطبع والخط (١) " وقوله أيضا " وقد رزقنى الله وله الحمد والمنة حسن التعبير عما أريد أن أعبر عنه بعبارتى وحسن الترتيب لما أريد أن أنقله من كتب العلماء مع معرفتى المعتمدين منهم وغير المعتمدين المقبولين عند الأمة وغير المقبولين لكثرة ما طالعته فى كتبهم ولا سيما كتب الامام الشعرانى رضى الله عنه وعنهم مع حسن اعتقادى فيهم أجمعين وهذا من أكبر نعم الله علىّ فانهم أحباب الله وخاصته من خلقه فلم يعتقد فيهم أحد الا ربح الدنيا والآخرة ولم ينتقدهم أحد الا خسر الدنيا والآخرة " (٢) .

ويبدو أن الشيخ النبهانى لم يعتقد طريق الصوفية من دراسته فى الأزهر بل جاء من قريته " اجزم " الى الأزهر صوفيا حيث ان والده الشيخ اسماعيل النبهانى كان مداوما على قراءة القرآن الكريم والأوراد فى مسجد " اجزم " . يؤيد ذلك ما ذكره النبهانى عن اجتماعه بالشيخ جمال الدين الأفغانى فى مصر وأن الأفغانى كان يبدى نحوه قبولا وميلا ولكنه لما رأى أفكار الأفغانى ودعوته للاجتهاد ومحو المذاهب ترك مجالسته (٣) وابتعد عنه . والشيخ النبهانى بثقافته كان بعيدا عما فى عصره من جديد ومحدث حيث قضى حياته فى " اجزم " منعزلا فيها وأستاذه هو والده أى ان أفكار والده

---

(١) راجع الفصل الثالث الباب الثانى مكانته العلمية .

(٢) أسباب التأليف ص ٣٣٦

(٣) المصدر السابق .

الصوفية تعايشه صباحا ومساء وقد كانت " قرية اجزم " بالنسبة اليه أشبه بالخلوة التى ينقطع فيها المريد عن كل ما حوله ليتقى باطنه وقلبه من كل الأدران حتى اذا خرج من خلوته خرج بقلب جديد يعامل المجتمع بأسلوب جديد تزوّد به من خلوته .

هذه هى حال الشيخ النبهانى فهو عندما خرج من "اجزم" الى الأزهر كان قد صلب عوده وتكونت معالم فكره وعقيدته ، ولذلك لم يستطع الأفغانى ببيانه الساحر أن يؤثر فيه اذ سرعان ما انسحب النبهانى من مجلسه بمجرد سماعه أفكارا تخالف ما ثبت فى عقيدته من وجوب تقليد الأئمة الأربعة .

فلا شك أن النبهانى قد تلقى معارفه وعلومه فى الأزهر بالصورة والكيفية التى أنشأه عليها والده ومن هنا نفهم ونفسر تشدد النبهانى وتمسكه بأفكاره وعدم تساهله مع من يخالفه وقد ترجمت الأيام كل هذا عنه صراحة مطلقة فى قول الحق واستعدادا للصادمة فى سبيل أفكاره ولو تحمل فى ذلك من كثيرا المتاعب .. ومن هنا كانت غيرته الدينية بوقوفه ضد التبشير المسيحى النشيط فى بيروت . وتمسكه بمعالم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا نظما ونثرا .

وقد ظهرت ثقافة النبهانى فى مدائحه وأشعاره ظهورا واضحا وبدا تمكنه منها بدوا لائحا فى مناقشاته ومحاوراته مع من خالفوه فى أفكاره مثل مدرسة الأفغانى أو بيان مزايا الملة الاسلامية على الملل الأخرى .

ومن آثار ثقافته الصوفية فى مدائحه النبوية قوله فى مطلع الهمزية الألفية :

نورك الكلّ والورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء

علة الكون أنت ولولا ... كنت لدامت فى غيبها الأشياء (١)

منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء

لم تزل فوق كل فوق مجدا ... بالترقى ما للترقى انتهاء

جزت قدرا فما أمامك خلق ... فوقك الله والبرايا وراء (٢)

ففى البيت الأول اشارة لما أورده الحافظ أبى على الحسن بن على بن عبد الملك الرهونى المعروف بابن القطّان فى كتابه البشائر والأعلام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والأعلام " حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم "كنت نورا بين يدى ربى عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر عاما ......" (٣) وقد أورد النبهانى حديثا آخر مطولا عن كعب الأحبار بهذا المعنى .

وفى قوله " يا نبيا من جنده الأنبياء " يقول النبهانى فى تفسيره ((من جنده الأنبياء أى من أنصاره قال تعالى ((وإذ أخذ الله ميثاق

---

(١) فى الديوان رحمة الكون أنت ص ١٢

(٢) طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء ص٢

(٣) راجع حجة الله على العالمين جـ ١ ص ٢٤٤

النبيين)) والآية بتمامها هى ((واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)) (١)

وفى البيت الثانى جاء قوله " علة الكون أنت " وفى رواية " رحمة الكون أنت " وهذا المعنى مأخوذ من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم كما أخرجه البيهقى وابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ((الرسول صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله آدم أراه بنيه فجعل يرى فضائل بعضهم على بعض فرأى نورا ساطعا فى أسفلهم فقال يا رب من هذا قال هذا ابنك احمد وهو أول وهو آخر وهو أول شافع " (٢)

وفى البيت الأخير اشارة الى عروجه صلى الله عليه وسلم الى السماء وقد خلّف وراءه جميع المخلوقات حتى الملائكة .

والشيخ النبهانى كثيرا ما يستعمل المعانى والمصطلحات الصوفية فى مدائحه حيث يقول واصفا شوق الزائرين لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم :

نسمات القبول هبت عليهم ... رنحتهم كأنها صهباء (٣)

هى كانت أرواحهم وبها كا ... ن لهم بعد موتهم احياء (٤)

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٠

(٢) حجة الله على العالمين ص ٢٥١

(٣) القبول ريح الصبا والقبول أيضا الرضا فيه تورية رنحتهم أمالتهم والصهباء الخمرة .

(٤) أرواح جمع روح وجمع ريح وفيها تورية .

قبض القبض منهم بسط البســـــط لهم حين بادت البيـــداء (١)

بانتشاق النسيم كل عـــــراه حين جازت أرض الحبيب انشاء(٢)

لا بهنت الكروم هاموا ولم يحبـــــــث بهم أهيف ولا هيفـــاء

انما الله والنبى هواهـــم وجميع الأكوان بعد هبـــاء

نلاحظ فى هذه الأبيات أن الروح الصوفية مشعة بين كلماتها وقد استعمل مصطلحات الصوفية فى قوله ((قبض القبض بسط البسط)) وفى قوله عن الرسول صلى الله عليه وسلم : وهو سار بين العوالم

وهو سار بين العوالم لم تحصـ ـصره من روض قبره أرجـــاء

فلديه فوق السماء وتحـــت الـ أرض والعرش والحضيض ســـواء(٣)

هو حى فى قبره بحيـــاة كل حى منها له استمداء (٤)

ملأ الكون روحه وهو نـــــور وبه للجنان بعد امتـــلاء (٥)

هو أصل للمرسلين أصيـــل هم فروع له وهم وكـــلاء (٦)

ونجد أن هذه المعانى شائعة فى جميع مدائحه النبوية .

ويقول أيضا مقسما الخلق تقسيما تصاعديا حيث جعل عامّة الخلـــق أولا ثم الأولياء ثم الأنبياء ثم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ثم الله عز وجل

---

(١) البيداء المفازة وهو موضع مخصوص قدام ذى الحليفة قرب المدينة المنورة وفيه تورية .

(٢) الحبيب المحبوب وهو اسم النبى صلى الله عليه وسلم ففيه تورية .

(٣) الحضيض قرار الأرض . (٤) الاستمداء : الاستمداد .

(٥) ملأ الكون روحه لأن الخلائق خلقت كلها من نوره صلى الله عليه وسلم .

(٦) الأصيل الشريف وقد استعمله الفقهاء فيمن يباشر عمله بالاصالة عن نفسه ضـــد الوكيل فيكون فيه تورية .

جلاله : فقال :

كل فضل فى الناس فرد ألوف ... نالها من هباته الأولياء

فهى بالتهم قبيل بدايا ... ت علاها فوق الورى الأنبياء

ولدى الأنبياء من فضله الجز ... ء ولكن لا تحصر الأجزاء

هو والرسل والملائك والخلـ ... ـق جميعا لربهم فقراء

هو بعد الله العظيم عظيم ... دون أدنى مقامه العظماء

هو أدنى عبيد مولاه ضمه ... ما لعبد لم يدنه ادناء

من أراد الدخول لله من با ... ب سواه جزاؤه الاقصاء

الى أن قال :

قل لمن يسأل الحقيقة لا ينـ ... ـفك عن أحمد استفتاء (١)

هى سر بعلمه استأثرا للـ ... ـه وحارت فى شأنه العقلاء

قد علمناه عبد مولاه حقا ... ليس لله وحده شركاء

ثم لسنا ندرى حقيقة هذا الـ ... ـعبد لكن من نوره الأشياء

صفه وامدح وزك واشرح وبالغ ... وليعنك الصاقع البلغاء (٢)

فمحال بلوغك الحد مهما ... قلت أو شئت من غلو وشاؤا

---

(١) يقول النبهانى فى شرح هذا البيت : " قال فى لسان العرب الحقيقة ما يصدر اليه حق الأمر ووجوبه وبلغ حقيقة الأمر أى يقين شأنه وفى شرح المواهب للزرقانى عند قوله أبرز الحقيقة المحمدية نقلا عن لطائف الكاشى يشيرون بالحقيقة المحمدية المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة لها أى للحقائق والسارية بكليتها فى كلها سريان الكل فى جزئياته .

(٢) الصاقع الخطباء البلغاء .

الى أن قال :

ليس يدرى قدر الحبيب سوى الله ... فماذا تقوله الفصحاء

خير وصف له العبودة لله ... فما فوقه بمدح علاء

وتأمل سبحان من منه فضلا ... كان ليلا بعبده الاسراء (١)

وتظهر المصطلحات الصوفية كذلك فى قوله :

من نوره خلق الله الورى فسرى ... لآدم وبعبد الله موصول (٢)

وفى قوله :

نور الورى فى جميع الكائنات سرى ... صباحها وهى للمصباح مشكاة (٣)

فنحن نلاحظ من هذه الأبيات أن النبهانى يعيش فى مدائحه النبوية مع مصطلحات الصوفية وأنه مستوعب لأفكارهم تمام الاستيعاب حتى استطاع أن يعبر عن هذه المعانى بوضوح تام وأن من تمام استيعابه لها تعبيره عنها شعرا .

والنبهانى بمدائحه النبوية انما يعبر عما عليه الصوفية من تقديس ومحبة للذات النبوية . وهو كثيرا ما ينبه الى بعض المفاهيم والمقاصد التى يختلف بها الصوفية عن غيرهم مثل قوله فى الرائية الكبرى .

فأشهد أن الله لا رب غيره ... توحد فى الدنيا توحد فى الأخرى

تقدس عن كل الجهات وأنه ... مع الخلق لكن الحقيقة لا يدرى

---

(١) الديوان ص ١٧ ـ ٢٠

(٢) الديوان ص ٩٢

(٣) الديوان ص ١٢٩

نبه فى الحاشى على قوله : " مع الخلق " فقال : مع الخلـــق بالعلم وعند الصوفية بالذات (١) .

وكذلك فى مدحه لنعل الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول : ــ

على رأس هذا الكون نعل محمد علت فجميع الخلق تحت ظلالـــه

لدى الطّور موسى نودى اخلع واحمد على العرش لم يؤذن بخلع نعالـه

نبه على الشطر الأخير فقال " قولى " على العرش لم يؤذن بخلـــع نعاله " لم يصح عند المحدّثين وقد صح عند الصوفية بوجه آخر كما ذكره الأجهورى فى معراجـــه .

وتظهر ثقافة النبهانى الأزهرية واضحة فى مدائحه أثناء نقاشه لآراء الخصوم والرد عليهم ومع هذا كان كثيرا ما يستعمل اصطلاحات الفقهـــاء والأصوليين وعلماء الحديث فى أشعاره مثل قوله : ــ

فدينه الحق مفتاح الفلاح نعـــا بدونه بابه المقفول مدخـــول

لا جرح يلحق مخلوقا يعدّلـــه وما لمجروحه فى الخلق تعديـــل

لم يجحد الله لم يجحد نبوتـــه الاعم عن طريق الرشـد ضليـــل

فكلّ ذرّات كلّ الخلق شـــاهدة أن لا اله سوى الرحمن مقبـول (٢)

فاستعماله كلمات " الجرح والتعديل " و " يجحد " و " طريق الرشـــد " و " ذرات " : جرى على اصطلاحات يستعملها المحدّثون وعلماء الأصول .

---

(١) راجع اليواقيت والجواهر للشعرانى .

(٢) الديوان ص ٩٢

والنبهانى كثيرا ما يقتبس معنى حديث أو آية ويضمنه شعره مثل قوله : ـ

الدين فيه بحكم الجمر قابضه ... بنار دنياه بين الناس مشغول

بوعدك الصدق لا تنفك طائفة ... منا على الحق مهما كان تبديل

وفى البيت الأول يقصد قوله صلى الله عليه وسلم " يأتى زمان على أمتى يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر " .

وفى البيت الثانى يقصد قوله صلى الله عليه وسلم " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك " رواه مسلم .

وهناك أحاديث أخرى بصيغ مختلفة تفيد المعنى نفسه متفق عليها (١) .

وفى مناقشته لقضية القضاء والقدر يظهر أثر ثقافته الأصولية ـ فى شعره حيث يقول : ـ

وكل البرايا نفحة من هباته ... فسبحانه ربا وسبحانه برا (٢)

ولا فاعل للشر والخير غيره ... ومن أدب لسنا له ننسب الشرا

ومنه القوى فينا وقد يسترد ها ... وكل امرئ منا بحالته أدرى

ومن أين تأتينا الخواطر هل لها ... سحاب على الأفكار تمطرها مطرا

---

(١) منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين للنبهانى ص ٤٣٥

(٢) البر من أسماء الله الحسنى ومعناه الكثير البر وهو الخير .

وأكثرها يبقى عقيما وبعضهـــا يرى منتجا ينموكما تبذر البذرا (١)

ومن أين تأتى المرء رؤيا منامـــه ولا عقل يبديها هناك ولا فكـــرا

وعلم أن الروح فى الجسم غيره وما الجسم الا بيته فيه قد قـــرا

فمن أين يأتيه وعند فراقـــه الى أى مأوى فارق الجسم مضطـرا

فذلك أمر ظاهر انّ ربنـــا هو الفاعل المختار فى الخلق ما أجرى

وجازى الورى عن كسبهم باختيارهم ولا قدرة منهم تؤثر لا جبرا (٢)

بتيسيره كلّ أتى ما قضـى لـــه وليس بمسئول ويسألهم طـرّا (٣)

ودونك فانظر فى الأمام وعكســه وعلوا وسفلا لليمين ولليســـرى

فمهما شغلت الفكر فى كل وجهـة الى أبد الآباد لا غاية تدرى (٤)

نلاحظ فى هذه الأبيات وضوح معتقدة فى القضاء والقدر ثم يرجع أخيرا الأمـــور لله تعالى ويقرر أن العبد يسير فى الطريق التى ييسرها الله له كما فى قولـه تعالى " ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات " (٥) .

والمتتبع للعناوين البارزة لرائية النبهانى الكبرى يلاحظ أن هـــذه

---

(١) العقم الذى لا ينتج وأصل العقم والنتاج فى البهائم واستعمل فى غيرها مجازا .

(٢) مذهب أهل السنة أن للعبد كسبا اختياريا هو مجزى به وليس مجبورا كالريشة فى الهواء كمذهب الجبرية ولا لقدرته تأثير فى خلق أفعاله كمذهب القدرية .

(٣) بتفسيره اشارة الى حديث الصحيحين اعملوا فكل ميسرا لما خلق له وليـــس مسؤول (قال تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) طرا : جميعا .

(٤) الديوان ص ٢٩٤

(٥) سورة البقرة آية ١٤٨

العناوين مستخلصة من دراسات عميقة للأفكار التى يناقشها مثل قوله " الكلام مع اليهود فى شأنه صلى الله عليه وسلم ووصف دينهم الذميم وما فيه من اعتقاد التجسيم " وقوله " الكلام مع النصارى فى اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم .

بالدلائل الباهرات ووصف دينهم وما فيه من الغوائل والآفات" وقوله " الكلام على اعتقادهم التثليث وصلب المسيح عليه السلام وقوله " رد زعمهم أن حكمة الصلب تخليص بنى آدم من خطيئته عليه السلام " وقوله " وصف الصليب وعبادتهم له " وصف الرهبان " وقوله " ذكر بعض عجائب دينهم كالقربان وهو بزعمهم استحالة الخبز والخمر الى لحم عيسى عليه السلام ودمه عليه السلام " ذكر المسيح وقد خنق القسيس المريض عند اليأس من شفائه " الكلام على الاعتراف وهو أن يعترف المذنب منهم بذنبه أمام القسيس ليغفر له " .

" وصف فرقة البروتستانت التى ضلّت كلّ فرق النصارى وضللوها " " الكلام على قولهم الدين فوق العقل والفرق بين دينهم ودين الاسلام المؤيد بالعقل والنقل " " والكلام على استدراجه تعالى للافرنج بالنعم الدنيوية وذكر حكمة بعض الأحكام الشرعية ووصف مجامع أنسهم وبه تظهر حكمة مشروعية الحجاب للنساء " .

وهكذا يستمر فى اثارة النقاط البارزة التى يأخذها على النصرانية ليبين فسادها ومحاسن ما يقابلها لدى الدين الاسلامى .

ومن جملة قوله فى " وصف مجامع أنسهم وبه تظهر حكمة مشروعية

الحجاب للنساء " .

ومن رقة فى الدين والعرض أصبحوا ... بأنفسهم كلّ غدا حاكما حرا (١)

فما غيرت أخلاقهم قطّ غيرة ... وان شاهدوا زوجاتهم تصحب الغيرا

وليس بازراء بهم مسّ عرضهم ... فأعراضهم ليست تشدّ بهم أزرا (٢)

فقد جعلوا للرّقص فى لهو بعضهم ... ليالى أنس كم لهم طلعت بدرا

فزوجة ذا فى حضن هذا وزوجها ... بزوجته أجرى الذى معها أجرى ،

فضائحهم للصلح صارت ذريعة ... فلا أحد يبدى على أحد فخرا (٣)

نساء ورجال كالمراة تعانقوا ... بأحسن أشكال تثير الهوى قهرا

فلو نظر المنّين فيهن نظرة ... لما احتاج فى تقويم قوته أخرى ،

وأتقى عباد الله ليس بممكن ... هنالك تقواه اذا لم يكن صخرا

فلا تلم ابنا قد تولّد بعدها ... اذا لم يكن طوعا لوالده برّا

فان لم يكن هذا زناء فانه ... أخوه سوى أن الزنا فعله سرّا

ولو خيّروا فى فعل ذلك مسلما ... وأنثاه لاختارا على فعله القبرا

حيائهما قد ناسب الدين ضمهما ... كما أن هتك العرض قد ناسب الكفرا (٤)

فنحمد رب العالمين لشرعه ... حجابا عن الاسلام قد حجب المهرا (٥)

---

(١) العرض موضع المدح والذم من الانسان .

(٢) أزرى به عابه وأهانه والأزر القوة قال تعالى " شد به أزرى " .

(٣) فضائحهم عيوبهم وفى المثل افتضحوا فاصطلحوا والذريعة الوسيلة .

(٤) هتك السر خرقه وهتك العرض فضيحته .

(٥) الحجاب أى حجاب النساء عن الرجال فمشروعيته فى دين الاسلام منعت تلك الأمور الفظيعة التى ترتبت على عدم الحجاب عند غير المسلمين . العهد الزنا الديوان ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

وفى الرائية الصغرى تظهر ثقافة النبهانى الأزهرية واضحة فيما يحييه على جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، فمما عابه على جمال الدين الأفغانى : دعوته الى الاصلاح الدينى والاجتهاد قال الشيخ النبهانى : ـ

يقولون هذا المصلح الأكبر الذى ... به صار حكم الدين فى عصرنا يسرا
مذاهب أهل العلم من قد سوا ... توافق أحوال الزمان الذى مرّا
وابدع هذا الشيخ للناس مذهبا ... يوافق فى تيسير أحكامه العصرا
غدا كلّ عبد فيه صاحب مذهب ... به صار فى الأحكام مجتهدا حرا
فقد كان تنّورا لطوفان غيهم ... ولكن محلّ الماء فار لهم جمرا (١)

وانتقد النبهانى الأفغانى بدعوته لتوحيد المذاهب فقال :

وحين أتاه ذلك الحين عبده ... وأمثاله أفشى لهم ذلك السرا
أسر لهم محو المذاهب كلّها ، ... ليرجع هذا الدين فى زعمه بكرا

الى أن يقول :

قد اختصروا بالجهل دين محمد ... وما تركوا من عشر أحكامه العشرا (٢)

وقد استشهد النبهانى بالقرآن الكريم على بطلان دعوة الأفغانى الاصلاحية فقال :

وقد جاء فى القرآن ذكر افسادهم ... وزعمهم الاصلاح فى السورة الزهرا
وفى درّه المنثور سلمان قائل ... هم بعد لم يأتوا فخسرا لهم خسرا
وها هم أتونا مثل ما قال ربّنا ... بأوصافهم فاعجب لها آية كبرى (٣)

---

(١) التنور هو الذى يخبز به وقد كان ظهور طوفان نوح عليه السلام من التنور فجمال الدين هذا بمنزلة التنور لضلال هذه الفرقة ولكنه لم يفر لهم ماء انما فار لهم نارا .

(٢) الديوان ص ٣٥٥

(٣) قال الله تعالى فى سورة البقرة " واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون " .

يقول الشيخ النبهانى فى تفسير هذا البيت :

وقال الله تعالى فى سورة البقرة " واذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض قالوا : انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون " .

ومما يأخذه النبهانى على الأفغانى ومدرسته أيضا مأخذ دينية مثل قوله :

تراهم اباحيّين أو هم تظهرهم ... اذا كنت عن أسرارهم تكشف السرا

وكل امرئ لا يستحى فى جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكرا

فمن قال صلوا قال قائلهم لـه ... يجوز لنا فى البيت نجمعها قصرا

وان قيل لا تشرب يقول شربتهـا ... بقصد الشفا أو قال ليس اسمها خمرا

نقل السيوطى فى تفسير " الدر المنثور " عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه سئل عن هؤلاء القوم فقال : لم يأتوا بعد ، وذكر ذلك البيضاوى فى تفسيره وقال الشهاب فى حاشيته : انه نقله عن تفسير ابن جرير ، قلت : لا شك أن المنافقين المذكورين فى هذه الآيات ، السابقة واللاحقة والخوارج الذين خرجوا على سيدنا على رضى الله عنه وغيره من أئمة الاسلام متصفون بهذه الأوصاف الذميمة الا أنهم لم يدّعوا أنهم مصلحون لدين الاسلام ويلقبوا أنفسهم بهذا اللقب مثل هذه الفرقة الضالة فرقة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده المصرى فى مطابقة الآية لهذه الفرقة أكثر من مطابقتها للمنافقين والخوارج ، وأن شملتهم جميعا أحكامها وتسمية هؤلاء أنفسهم المصلحين تبعوا فيها فرقة البروتستانت النصرانية فانهم سمّوا أنفسهم المصلحين لدين النصارى بتركهم العمل بما زاد على التوراة والانجيل ورفضهم كلام أئمة النصارى الأقدمين أصحاب المجامع فتبعهم من المسلمين هؤلاء الضالون فرفضوا مذاهب أئمة الاسلام وادّعوا الاجتهاد المطلق وأنهم قادرون على أخذ الأحكام من الكتاب والسنة مع أنهم أجهل الجهّال فى دين الله وأفسق الفسّاق ولكنهم كانوا مظهرا لمعنى هذه الآية القرآنية بعد أربعة عشر قرنا من نزولها كما أنهم كانوا مظهرا لتصديق قوله

صلى الله عليه وسلم : " لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : اليهود والنصارى ؟ .. قال : صلى الله عليه وسلم : فهذا الحديث ينطبق على هذه الفرقة الضالة "

ومما يأخذه النبهاني على الأفغاني ومدرسته من المآخذ الدينية قوله :

تراهم اباحيين أو هم نظيرهم ... اذا كنت عن أسرارهم تكشف السترا

وكل امرئ لا يستحي في جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكرا

فمن قال صلوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجعلها قصرا

وان قيل لا تشرب يقول شربتها ... بقصد الشفا أو قال ليس اسمها خمرا

فيجهر كل بالمعاصي مجادلا ... بما نفث الشيطان في قلبه سرا

وفي الألف منهم واحد ربما أتى ... مساجدنا لكن اذا كان مضطرا

واخبرني من لا أشك بصدقه ... بأن قد رأى من بال منهم بلا استبرا

ولازمه حتى أتى بعد مسجدا ... فصلى ولم يحدث من الحدث الطهرا

وآخر منهم قد أقام صلاته ... بدون اغتسال مع جنابته الكبرى (١)

فالنبهاني يتهم أتباع هذه المدرسة بالاباحية والجدال والتلفيق وعدم الانتظام في الصلاة وشرب الخمر والصلاة بدون طهارة من الحدث الأصغر أو الأكبر وقلة الصلاة في المساجد وهذه كلها معان دينية ثم يتهمهم بالتمدن ومجاراة العصر فيقول :

يقولون عصر الدين فيه تنوروا ... ولكنه من نورة تحلق الشعرا (٢)

وقد حلقت أديانهم من قلوبهم ... فما تركت من نور ايمانهم أثرا (٣)

---

(١) قال في المصباح النورة بضم النون حجر الكلس ثم غلبت على أخلاط تضاف الى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لازالة الشعر .

(٢) الديوان ص ٣٦١ (٣) الحضر شدة العدو

وفى هجائه للشيخ محمد عبده أخذ عليه بعض المآخذ الدينية مثل قلة العلم

فقال :

جرىء على الفتوى بحق وباطل ... بحكم الهوى والجهل ما شاء أجرى

وليس بعالم الفقه يلحق محضرا ... وان راح يمدو خلفه أبدا حضرا (١)

ومع جهله فى ديننا وعلومه ... يرى نفسه أعلى أئمته قدرا (٢)

كما اتهمه بحب الدنيا وعدم الثبات على أمر من أمور الدين : يقول :

تولع بالدنيا وصيّر دينه ... اليها على ما فيه من خفّة جسرا

يمينا اذا كانت يمينا وان تكن ... يسارا سعى يمدو اليها من اليسرى

فمن جهة يدعى الامام ويقتدى ... بأعمال أهل الكفر من جهة أخرى (٣)

يذمّ خيار المسلمين وعندما ... يرى حاجة للكفر يستحسن الكفرا

لكيما يقال الشيخ حرّ ضميره ... فيبلغ عند القوم مرتبة كبرى (٤)

لئن نفع الاسلام من دون قصده ... فكم هو عن قصد به ألحق الضرّا (٥)

خبيث حكى أمّ الخبائث اذ حوت ... على كبر فى الاثم منفحة كبرى (٦)

كما اتهمه بتأييد المستعمرين وتحسين حياتهم للمسلمين حيث يقول :

وعاد الى مصر فأحدث مذهبا ... ولوّث من أقذاره ذلك القطرا (٧)

---

(١) الديوان ص ٣٦٦ (٢) الديوان ص ٣٦٧

(٣) الديوان ص ٣٦٧

(٤) أم الخبائث الخمرة قال تعالى " يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما " .

(٥) دخول الفاء على جواب القسم هنا خطأ والشاعر يقع فيه كثيرا . د . سرحان

(٦) أحدث أوجد وفيه تورية بأحدث من الحدث بمعنى نقض الطهارة بنحو بول وغائط .

(٧) يقصد منصب الافتاء .

وأيد أعداء البلاد بحـــيه ... وأوهم أهل الجهل أن بهم خيرا

يحسّن بين الناس قبح فعالهم ... ومهما أساءوا راح يلتمس العذرا

بمقدار ما خان البلاد وما أتـى ... لأعدائها نصحا علا عندهم قدرا

وهجمه على دعوته لاصلاح الدين الاسلامى وشبهها بدعوة البروتستنت لاصلاح المسيحية ارضاء للمستعمرين الذين عينوه برتبة عالية (١) فحاوب رجال العلم يقول النبهانى :

وأحدث بين المسلمين نظيرهم ... بروتستنت صاروا مثلهم فرقة أخرى

لقد قادهم منه الى رأى ملحـد ... اذا لم يكن كفرا فقد قارب الكفرا

ونال بجاه القوم فى الناس وتهـة ... بها حاز فيمن شاء النفع والضرّا

فأصلى رجال العلم من كل مذهب ... بنار فساد منه قد قذفت جمرا (٢)

فتفسيره من رأيه ليس خاليـا ... فاما يرى فسقا واما يرى كفـرا

أحذّر كل الناس من كتب دينـه ... وبالردّ والاعراض تفسيره أحرى

وهجمه لتأييده مذهب الامام ابن تيمية بشأن الزيارة والاستغاثة والتوسـل قـال :

يرى لفتى تيمية بابتداعـه ... وزلّاته فى الدين منقبة كبرى

ولكنه لم يتبعـه بزهـده ... وأقواله الحسنا وخيراته الأخرى

ويأخذ عليه اختلاطه بنساء النصارى وأكله ما يأكلونه وشربه المسكرات وافتاءه بحله وأكل المخنقة وتحليله لبس البرانيط والربا وعدم حجه الى بيت الله الحرام وقيامـه بالصلاة رياءا يقول الشيخ النبهانى :

---

(١) راجع كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين ج ٢ ص ٣٠٢

(٢) أحرى أولى وهو انما فسر جزء عمّ فقط وخبط وخلط ونسبه بعضهم الى الكفـر وبعضهم الى الغلط .

يعاشر نسوان النصارى ولا يرى ... بذلك من بأس وان كشف السترا (١)

ويأكل معهم كل ما يأكلونه ... ويشربها حمراء ان شاء أو صفرا (٢)

ويفتى بحل المسكرات جميعها ... اذا هى بالأسماء خالفت الخمرا

ويأكل مخنوقا ويفتى بحله ... لئلا يقولوا انه ارتكب الوزرا

وكم زار باريزا ولندرة ولم ... يزر مكة يوما ولا طيبة الغرا

وان كان يوما للرياء مصليا ... يرى فاعلا يوما وتاركها شهرا

الى أن يقول :

وقد كنت فى لبنان يوما صحبته ... لقرب غروب الشمس من ضحوة كبرى

وصليت فرض الظهر والعصر بعده ... لديه وما صلى هو الظهر والعصر

وكان صحيح الجسم لا عذر عنده ... بلى ان ضعف الدين كان له عذرا

ومع كل هذا فهو أستاذ عصره ... فأف له شيخا وأف له عصرا (٣)

ثم ذكر النبهانى صحبته للأفغانى وعدم صلاته أيضا فقال :

وقبل غروب الشمس صاحبت شيخه ... لقرب المشا أيام جاورت فى مصرا

ولم أره أدى فريضة مغرب ... فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدهرا

---

(١) ((الذى أعلمه من حال الشيخ محمد عبده وكل من عرفه يعلمه كذلك أنه حينما كان فى بيروت منفيا كان كثيرا المخالطة للنصارى والزيارة لهم فى بيوتهم والاختلاط مع نسائهم بدون تستر هذا مما يعلمه كل من عرف حاله فى هذه البلاد فضلا عن أسفاره المشهورة)) ومع هذا لا نستطيع الاسترسال وراء هذه الاتهامات العنيفة على هذا الوضع الذى تفيده الأبيات ، خاصة بهذه الطريقة الجارحة الشديدة الرد ، والخارجة على مستوى الجدل الشريف .

د / سرحان

(٢) هذا اتهام لا يمكن أن يقبل وأسلوب لا يليق بالعلماء ، وكذلك ما بعده .

د / سرحان

(٣) الديوان ص ٣٧١

يقول الشيخ النبهانى فى توضيح هذين البيتين " اجتمعت فى مصر سنة ألف ومائتين وسبعة وثمانين (١) هجرية بالشيخ جمال الدين الأفغانى وأنا مجاور ولازمته من قبل الغروب الى قرب العشاء فلم يصل المغرب وتحققت أنه كان تاركا صلاة يصلى فى بعض الأحيان والغالب عليه الترك كتلميذه الشيخ محمد عبده وفرقته كلهم تاركون الصلاة وأظن أنه لا يوجد واحد منهم دائم على صلاته وقليل منهم يصلى تارة ويتركها أخرى .

ويرى أحد العلماء الشيخ محمد عبده بعد موته فى المنام أعور العين (٢) فيفسرها الشيخ النبهانى على أن الشيخ عبده كان دجالا فيقول : ـ

حكى الحسن بن الأسطوانى وهو من ... يدور الهدى فى الشام أكرم به بدرا
حكى أنه من بعد ما مات عبده ... رأى عينه فى النوم مطموسة عورا
فأولت أن الشيخ دجال عصره ... وما زال دجالا وان سكن القبرا
فقد مات لكن أحيت الدجل كتبه ... وورث كلا من تلاميذه فدرا

بعد كل هذا نلاحظ أن كل ما يأخذه الشيخ النبهانى على الشيخ محمد عبده هو بعض مواقفه الدينية التى تتعارض مع رأى الشيخ النبهانى وفى مآخذه على رشيد رضا أيضا سنلاحظ أن الخلاف بينهما دينى أيضا فهو يأخذ عليه تقصيره لحيته

---

(١) الصواب فى هذا التعبير ان يقال : سنة سبع وثمانين ومائتين وألف والنبهانى مخطئ ـ أيضا ـ فى قوله " سبعة " مع أن المعدود مؤنث ، فالواجب " سبع " . د / مرحان

(٢) قال النبهانى أخبرنى العالم العامل والصوفى الكامل الشيخ حسن افندى خطيب الجامع الأموى فى دمشق الشام وهو من الحريصين على حج بيت الله الحرام وزيارة النبى عليه الصلاة والسلام فى كل عام بأنه رأى فى منامه الشيخ محمد عبده بعد وفاته أعور العين ففسرت رؤياه بأن ذلك لكونه من أعظم المضلين فى هذا العصر لأعور الدجال ، الديوان ٣٧٣ .

ورؤية النبهانى له فى المنام أغبر الوجه مع أن وجهه كان أحمر .

يقول النبهانى : ـ

وأما رشيد ذو المنار فانه ... أقلهم عقلا وأكثرهم شرا

أتانى ببيروت بشرح شبابه ... بمقلته السودا ووجنته الحمرا

له لحية مقصوصة من جذورها ... تترجم عنه أن فى نفسه أمرا

ثم ذكر النبهانى توبيخ نصوحى بك والى بيروت لرشيد رضا على تقصير لحيته فقال : ـ

وكان ولى الأمر عندى جالسا ... نصوحى جزاه الله عن نصحه خيرا (١)

فوبخه مستنبحا ما أتى به ... وأبدى له من سخطه النظر الشزرا

وقد غاب عنى خمس عشرة حجة ... وعاد ولم يزدد شعورا ولا شعرا

وشاهدت منه الوجه أغبر مظلما ... كأن عليه من ضلالته سترا (٢)

واتهم النبهانى رشيد رضا بالنصب والاحتيال وقد انتبه له المسلمون فى المسجد الأموى فطردوه وضربوه وكذلك فى مسجد الامام الحسين فى القاهرة حيث تهجم على الامام الحسين فطرده المسلمون : يقول النبهانى : ـ

وكم ذا أراد النصب فى درس جامع ... فأولاه أرباب التقى الخفض والجرا (٣)

---

(١) قال النبهانى : ولى الأمر نصوحى بك والى بيروت وقد أخبرنى حفظه الله أن أصله عربى مصرى من سلالة شهاب الدين بن عبد الحق المصرى أحد أئمة العلماء فى القرن العاشر للهجرة ثم ان بعض أجداده هاجر الى القسطنطينية .

(٢) الديوان ص ٣٧٤

(٣) قال النبهانى : يطلق فى اصطلاح الناس على الاحتيال والكذب للحصول على شىء من الدنيا ويقال لفاعله نصاب وهكذا كان الشيخ محمد عبده وشيخه وتلاميذه جميعا ولا سيما هذا السفيه رشيد رضا كلهم نصابون اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وباعوه بعرض قليل من الدنيا قاتلهم الله أنى يؤفكون . والخفض خفض المنزلة وجر الشىء : سحبه وفى هذه الثلاثة تورية بالنصب والخفض والجر وقد هجم المسلمون فى جامع سيدنا الحسين فى مصر حينما سمعوا منه ألفاظا =

وكم قام يتلو فى الكنيسة خطبـــة بها ناب عن قس وعانقه جهـــرا

وشكك النبهانى فى نسب رشيد رضا واتخذ منه طريقا للتشنيع عليه فقال : ــ

" له كجمال الدين نسبة كـاذب بها زاد فى طنبوره نغمة أخـــرى

وقد سمعت أذنا ى قول ابن عمـــه مجيبا بأن لا نسبة لهم تـــدرى

وكيف يكون ابن النبى عـــدوه فأعظم به زورا وأعظم بـــه وزرا

وقد عدّ النبهانى كلّ المآخذ التى أخذها على جمال الدين الأفغانـــى ومحمد عبده مآخذ على رشيد رضا أيضا ــ لأنه نشر أفكارها فى المنار ــ فقال : ــ

غدا ناشرا فيه ضلالات شـــيخه كما نشر الزّراع فى أرضه البحـــرا

ومما أخذه على رشيد رضا انكاره لحديث الشمس الذى رواه البخارى عن أبى ذرّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له حين غربت الشمس : أتدرى أين تذهـــب قال ، قلت الله ورسوله أعلم قال : فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع عن مغربها فذلك قوله تعالى " والشمس تجرى لمستقر لهها ذلك تقدير العزيز العليم " ، وقد ورد انكار رشيد رضا لهذا الحديث فى عدد المنـــار رمضان سنة ١٣٢٧ هـ على احتساب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يخبر بغير الواقع " يقول الشيخ النبهانى : ــ

وكم ضل رأيا من سقامة فهمـــه بأمر صحيح من شريعتنا الغـــرّا

== شنيعة فى حقه رضى الله عنه وكادوا يفتكون به لولا هروبه ، وكذلك وقع له فـى الجامع الأموى مثل ذلك وكادوا يفتكون به لولا أن خلصه منهم بعض الحاضرين وأخرجه من دمشق الشام ليلا فذهب الى قريته واختفى فيها ثم هرب الى مصر من البلاد الشامية وحصل له فى طرابلس من الضرب والجرح وفى دمشق الشام من الهيجان العظيم والطرد الأليم ، راجع الديوان ٢٧٥ / ٢٧٦

ولو سأل الأشياخ أدرك سرّه ... ولكنه مع جهله قد حوى كبرا

ومنه حديث الشمس بعد غروبها ... فتسجد تحت العرش تستأذن السيرا

بآخر شهر الصوم من عام سبعة ... وعشرين قد أبدى النار له ذكرا

رواه الامامان البخارى ومسلم ... فصحته كالشمس قد طلعت ظهرا

وما شك فى صدق الحديث وانما ... رأى خبر المختار ما صادق الخبرا

وصرّح فيه أنه غير واقع ... وأن رسول الله لم يعرف الأمرا

فهل بعد ذا التكذيب يحتاج كفره ... لاثباته بين الورى حجة أخرى

كما انتقد الشيخ النبهانى رشيد رضا بتجويزه التحاق أبناء المسلمين بالكنيسة الكلية الاميركانية التى تشترط على من يدخلها القيام بالطقوس الدينية المسيحية من أولاد المسلمين ... يقول النبهانى : ـ

وفى جزء شعبان من العام نفسه ... ببيروت للاسلام قد جوّز الكفرا

أباح لهم أن يعبدوا بكنيسة ... عبادة أهليها بمدرسة كبرى

وقلّده من لم يبالوا بدينهم ... لكيما يقول الناس ان لهم عذرا (١)

ولا عذر للأبناء عند بلوغهم ... وآبائهم مع شيخهم كفروا طرّا (٢)

كما اتهمه بالجرأة على الفتوى وعدم الثبات على منهج معين فى فتواه : فقال : ـ

فتاويه فى الأحكام طوع اختياره ... تصرّف كالملاك فى دينه حرّا

فيحظر شيئا كان بالأمس واجبا ... ويوجب شيئا كان فى أمسه حظرا

ومذهبه لا مذهب غير أنه ... يجادل عن أهوائه الشهر والدهرا

---

(١) قلده من لا دين لهم فى ذلك ليتخذوه عذرا والا فهم يصرفونه على ضلال وأن ذلك غير جائز شرعا وهم يفعلونه على كل حال .

(٢) طرا جميعا .

ثم يستحدى النبهانى أهل مصر ويحرضهم على رشيد رضا باسم الرسول صلى الله عليه وسلم ممن حيث ان رشيد رضا قد أزرى بالدين فيقول : ـ

فيا أمة الهاوى لقد طال صبركم ... على فاجر بالدين والمصطفى أزرى
ويا أهل مصر كيف صار عدوّه ... يكذّبه ما بين أظهركم جهرا
وعهدى بكم للدين أسد فما الذى ... لكم قد جرى حتى تهيبتم الهرا

ثم ذكر ما حصل لرشيد رضا من الطرد والضرب فى الشام وطرابلس وحمص وحماة وأخيرا يذكر النبهانى زيارة رشيد رضا له ومذاكرته له فى شؤون شيخه واتهامه لمحمد عبده بترك الصلاة والحج والتحاقه بالماسونية التى تنكر جميع الأديان ويأخذ عليه دعوة محمد عبده بالأستاذ الامام ويقول له : لو دعوتموه بالفيلسوف كابن سينا والفارابى لما اعترض على ذلك ولو جدلا :

ومن نحو عام جاءنى فنصحته ... كما تنصح الثعبان أو تنصح الفأرا
وذاكرته فى شيخه وهو عبده ... تملكه الشيطان عن قومه قسرا
فقلت له لو كابن سينا زعمتم ... وهالم فاراب وأرفعهم قدرا
لقلنا لكم حقا ولو كان باطلا ... ولم نر من هذا على ديننا ضرّا
ولكنكم مع تركه الحج مرة ... وحج لباريز ولندرة عشرا
ومع تركه فرض الصلاة ولم يكن ... يسرّ بذا بل كان يتركها جهرا
ومع كونه شيخ المسون مجاهرا ... بذلك لا يخفى أخوّتهم سرا
ومع غير هذا من ضلالاته التى ... بها سار مثل السهم للجهة الأخرى
تقولون أستاذ امام لديننا ... فما أكذب الدعوى وما أقبح الأمرا
ونحن نراه عندنا شرّ فاسق ... فيقتل فسقا فى الشريعة أو كفرا

ثم يصل الشيخ النبهانى الى القمة فى الغضب والنكران ويدعو رشيد رضا للمباهلة أو الملاعنة زيادة منه فى ايمانه بحقه وبطلان دعوى خصومه حيث يقول : ـ

رضينا بحكم الله فينا وفيكم ... وحكم رسول الله والشرعة الغرّا
تعالوا نباهلكم فنلعن من غدا ... بنا وبكم أولى بلعنته أحرى (١)
فيا ربنا العن شرّنا وأضرّنا ... بتحكيمه فى الدين مع جهله الفكرا
وخصّ رشيدا ذا المنار وشيخه ... وشيخهما ان شئت بالحصص الكبرى (٢)
ثلاث أثافٍ تحتها نار فتنة ... ومن فوقها الالحاد صار لها قدرا (٣)
وقد دخلوا حزب المسون بهمة ... بها حلّ كلّ من محافله الصدرا
ومذهبهم حكم الديانات واحد ... تساوى به الاسلام والملل الأخرى

بعد هذا نلاحظ أن الشيخ النبهانى يأخذ على مدرسة الأفغانى دعوتها الى تجديد واصلاح الدين الاسلامى والاجتهاد المطلق ويأخذ على جهال الدين عدم أدائه الصلاة بانتظام ودعوته الى محو المذاهب وتوحيد الأديان وتعاطى المسكرات ودخوله فى الماسونية ويأخذ على الشيخ محمد عبده كل ما يأخذه على أستاذه الأفغانى ويزيد عليه جرأته على الفتوى لتوليه منصب الافتاء وتقليده للنصارى بأكل الخنزير ومعاشرة نسائهم وتحليله لبس البرانيط والربا والمسكرات وشربها وعدم الحج وعدم الانتظام فى أداء الصلاة ويأخذ على السيد رشيد رضا

---

(١) المباهلة الملاعنة وهو أن يجتمع القوم اذا اختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا ومنه حديث ابن عباس من شاء باهلته أن الحق معى " قاله فى النهاية "

(٢) قال النبهانى : اعتمد العلماء تحريم لعن المعين بخصوصه ولو كان كافرا ولذلك عينت فى هذا البيت هؤلاء الثلاثة رؤوس الضلال قلت : ان شئت يعنى أن الأمر فى ذلك راجع لمشيئة الله تعالى أى ان كانوا مستحقين فالعنهم لعنا كبيرا .

(٣) الأثافى جمع أثفية بتشديد الياء وقد تخفف الياء فى الجمع وهى الحجارة التى تنصب وتجعل القدر عليها .

قص لحيته من جذورها والقاءه خطبة فى الكنيسة واتهمه بتزوير نسبه وادعائه الشرف وانكاره لصحة ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث الشمس واباحته التحاق أولاد المسلمين بمدارس النصارى التى تشترط عليهم العبادة فى الكنائس وتقلبه فى منح الفتاوى دون الالتزام ، بمنهج محدد وكل مآخذه دينية نابعة من ثقافته الأزهرية .

الباب الرابع

مدائحه النبوية

الفصل الثالث : نماذج من شعره فى المدائح النبوية .

أن قصائد المدائح النبوية للشيخ النبهانى محدودة العدد ولكنها مطولة فقصيدته " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء أو المسماة " الهمزية الألفية " بلغت ألف بيت " وسعادة المعاد فى معارضة بانت سعاد " بلغت أربعة وأربعين ومائة بيت وقصيدة " القول الحق فى مدح سيد الخلق " صلى الله عليه وسلم بلغت ثلاثة عشر بيتا ومائت بيت وهكذا باقى قصائده ، فكل قصيدة لا تقل عن أربعين بيت فطول النفس هو أهم خصائص النبهانى فى مدائحه النبوية خاصة وشعره عامة ، ومدائح الشيخ النبهانى متشابهة فى بواعثها ومقاصدها ولذلك سأكتفى بالاستشهاد بثلاثة نماذج مختلفة الأساليب :

النموذج الأول : وهو قصيدة " القول الحق فى مدح سيد الخلق " صلى الله عليه وسلم

وهى قوله :

لمن ربع بأكناف المصلى ... علا السبع العلا شرفا وفضلا (١)

رعاه الله مغنية كل نفس ... وحيّا الله تربته وأعلى (٢)

---

(١) الربع المنزل . والأكناف الجوانب والمصلى وقبا والعقيق والعوالى واحد ، والنقا وسلع واللوى والحرار كلها أمكنة بالمدينة المنورة السبع العلا السموات .

(٢) رعاه الله حفظه . المغنية ما يتمناه الانسان . حياه من التحية وأصلها الدعاء بطول الحياة .

أحبّ لأجل ذات النّخل نخلا ... بها وحجارة فيها ورملا (١)

وأهواها وأهوى لابتيها ... وأهوى أرضها حزنا وسهلا (٢)

وأهوى كل منسوب اليها ... وان لم ترضني للوصل أهلا

أراها ضيتي وهوى فؤادي ... اذا هوى السّوى هندا وليلى

هي العذراء يهدي هواها ... اذا ما الغير بالعذراء ضلّا (٣)

لقد شغلت فؤادي عن سواها ... ولم تترك له بالغير شغلا

وكنت هويت قبل اليوم جملا ... فأنستني هوى جمل وجملا (٤)

ولا عجب اذا حلّت بقلبي ... فان بها رسول الله حلا

محمد المصفى من قريش ... خيار العرب خير الناس أصلا

تنقّل نوره في خير قوم ... وأشرف معشر أنثى وبعلا (٥)

تفرّع عن أصول ثابتات ... علت كلّ الورى أصلا وفضلا (٦)

الى أن حلّ أنجب كل أنثى ... وخير عقائل الأنجاب فحلا (٧)

وكم ظهرت له آيات صدق ... تدلّ على الهدى مذ كان حملا (٨)

فلولاه لما نصرت طيور ... أبابيل وجيش الفيل فلا (٩)

---

(١) ذات النخل من أسماء المدينة المنورة .

(٢) لابتاها حرتاها والمدينة بين حرتين عظيمتين من الشرق والغرب والحزن ضد السهل .

(٣) العذراء الاولى من أسماء المدينة المنورة والعذراء الثانية السيدة مريم عليها السلام .

(٤) جمل من أسماء نساء العرب المحبوبات .

(٥) البعل الزوج .

(٦) الفصل الفرع مقابل الاصل .

(٧) انجب اكرم والنجبة من النساء التي تلد النجباء وكذلك النجب من الرجال والعقائل الكرائم من النساء جمع عقيلة .

(٨) الايات العلامات وخوارق العادات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم .

(٩) الابابيل الجماعات وفل هزم .

ويلّغ من غوادى السحب عنى ... قبلب قهما بسهل القطر سولا (١)
ودام على المفيق عهاد غوث ... تروّى روحه سلما وأثلا (٢)
ولا برح النسيم على المواسى ... يجرّ هناك فوق النجم ذيلا (٣)
وحيّا الله من أحد محبّا ... حبيبا لن يملّ ولن يسلا
قرير العين ضحاك الثنايا ... قريبا لا يزال الدهر جذلا (٤)
فيا ركب الحجاز فدتك نفسى ... تحمّل ما يخفّ عليك حملا
متى جزت النقا سبوع سلع ... وجئت أعزّ أرض الله أهلا (٥)
فبادر بالسجود على ثراها ... وأدّ بلثمه فرضا ونفلا (٦)
وخذ علم الهوى لا عن كتاب ... ولا تختر من الأبواب فصلا (٧)
ويلّغ طيبة والساكنيها ... رسائل من ملىء الشوق تملى (٨)
يظلّ فؤاده للجزع يصبو ... ويهوى بالّلوى ماء وظلّا (٩)
وحيّ بها الحرار فان ذوقى ... يراها من رياض الشام أحلى (١٠)

---

(١) الغوادى السحب تنشأ غدوة أى أول النهار والسؤل ما يسأله الانسان ويتمناه.
(٢) العهاد الأمطار الدائمة .
(٣) النجم النبت وهو ما لا ساق له خلاف الشجر وفيه تورية بنجم السماء .
(٤) قرت عينه بردت دمعتها من السرور . والثنايا الطرق فى الجبال وفيه تورية بثنايا الانسان . الجذل المسرور .
(٥) جزت تجاوزت الربوع المنازل .
(٦) بادر أسرع . الثرى التراب الندى .
(٧) الهوى الحب وفى الابواب تورية بأبواب الكتب وكذلك فى الفصل وكذلك فى الكتاب.
(٨) الملى الغنى واملاه له ما يكتبه عنه .
(٩) يصبو يميل . ويهوى يحب .
(١٠) الحرار جمع حرة وهى الأرض ذات الحجارة السود .

ولمّا أن أتى بشرا سويّا ... وأجمل كلّ خلق الله شكلا (١)

بدا من أمّه نور أراها ... قصور الشام ظاهرة تجلّى (٢)

يراه الله أوفى الناس نيلا ... وأفضل خلقه دانا ونبلا (٣)

ولم يوجد له فى العلم مثلا ... ولم يخلق له فى العدل عدلا (٤)

وأعطاه علوم الغيب حتى ... كأن الدهر بين يديه يجلى (٥)

وحلية ذاته أبهى حلى ... بها الرحمن جمله وحلى (٦)

ومن كل المناقب قد حباه ... خصالا أحرزت للسبق خصلا (٧)

بها ساد الورى شيخا وكهلا ... وأروع يافعا وأغرّ طفلا (٨)

فضائل لو قسمن على البرايا ... لما أبقين بين الخلق نذلا (٩)

أجلّ الناس أفرادا وجمعا ... وخير الخلق أبعاضا وكلّا

حلاه فى الزّبور وسفر شعيا ... وفى التوراة والانجيل تتلى (١٠)

تنبأ قبل آدم وهو ختم ... فيا لله ختم جاء قبلا

وساد جميع رسل الله قدما ... فكان السيد السند الأجلّا

---

(١) السوى التام الخلق والشكل الهيئة .

(٢) تجلى تتجلى أى تنكشف .

(٣) براه خلقه . وأوفى أتم . النيل العطاء والنبل الفضل .

(٤) العدل بفتح العين : ضد الجور والعدل ـ بكسرها ـ المماثل .

(٥) يجلى يكشف .

(٦) الحلية الوصف . وأبهى أحسن والحلى ما يتزين به من الجواهر ونحوها وحلى زين .

(٧) المناقب الفضائل وحباه أعطاه . والخصال الخلال والصفات . وأحرزت نالت . واحرز خصل السبق غلب .

(٨) الشيخ من جاوز الاربعين . والكهل من جاوز الثلاثين . والاروع الحسن المعجب واليافع من يفع الغلام اذا شب . والاغر السيد .

(٩) البرايا الخلائق . النذل الخسيس (١٠) حلاه اوصافه . والسفر الكتاب وتتلى تقرأ .

وصلى ليلة الاسراء فيهم ... فجلّى فى الرسالة حين صلّى (١)

أناف بليلة المعراج قدرا ... على كلّ الورى علوا وسفلا

علا السبع العلا والرّسل فيها ... وجاوزها الى أعلى فأعلى

رأى المولى بلا شبه ومثل ... ولا كيف تعالى الله جلّا

ولما كان منه قاب قوس ... بحقّ أحرز القدح المعلّى (٢)

تأمل كونه كالقاب قربا ... وأدنى اذ دنا لما تدلّى (٣)

وجبريل الأمين يقول حدّى ... هنا لا أستطيع القرب أصلا

تجده قد علا العالين قدرا ... ولا يعلوه الا الله فضلا

وفى يوم القيامة سوف يبدو ... له شرف الشفاعة قد تجلّى

يحيل المرسلون عليه فيها ... فيظهر أنه بالفضل أولى

وكم من معجزات باهرات ... كثيرات بها الهادى استقلا (٤)

توالت آيها فالبعض يتلو ... سواه كثرة والبعض يتلى (٥)

كلام الله أبهرها وأبهى ... وأعلاها وأعلاها وأحلى (٦)

---

(١) جلى سبق الجميع فهو مجل . وصلى أى صلى صلاة ذات ركوع وسجود وفيه تورية صلى بمعنى تبع المجلى فهو مصل وخيل السباق أولها المجلى وثانيها المصلى .

(٢) قاب القوس من مقبضه الى معقد وتره . والقدح السهم بلا نصل . والمعلى سابع سهام الميسر وهو أعصمها نصيبا .

(٣) الأدنى الأقرب . وتدلى تدلل وزاد قربا .

(٤) العالون أكابر الملائكة وفيه تورية بالعالين من العلو .

(٥) الباهرات الغالبات . واستقل انفرد من القلة ففيه تورية .

(٦) أيها آياتها ويتلو يتبع . ويتلى يقرأ وفيه تورية بيتلى بمعنى يكون متلوا أى متبوعا .

اذا مرّ المكرّر من سواه ... فبالتكرار قد يحلو ويحلى (١)
جديدا لم يزل فى الناس مهما ... مضى يبلى الزمان وليس يبلى
دعا المولى فشق البدر وحيا ... ودرّ الشمس للمولى تصلّى (٢)
وكم شهد الجماد له بحق ... كأنّ الله قد أعطاه عقلا
سمت شجر اليه شاهدات ... وعادت فاستوت سرحا ونخلا (٣)
وسلّمت الحجارة مفصحات ... وجذع النخل حنّ حنين ثكلى (٤)
وظلّله الغمام ومال فيء ... وأعجب منه عرجون تدلّى (٥)
وليس لشخصه فى الأرض ظل ... وهل أحد رأى للنور ظلا (٦)
دعته غزالة فيها وثاق ... فخلّاها بنعمته وحلّا (٧)
وأفصح بالشهادة فيه ضب ... وذلّ الفحل والسرحان ذلّا (٨)
ونسج العنكبوت بغار ثور ... غدا لمزائم الكفّار فصلا (٩)
برأس الغار بيضة ذات طوق ... وقته من العدا بيضا ونبلا (١٠)

---

(١) حلا يحلو من الحلاوة وحلى فى عينى يحلى حسن يحسن .
(٢) المولى هو الله تعالى . ووحيا سريعا وفيه تورية بالوحى بمعنى الالهام الذى يوحى به الى الانبياء . والمولى الثانى سيدنا على رضى الله عنه ففى الحديث من كنت مولاه فعلى مولاه .
(٣) استوت استترت . والسرح الشجر الكبير .
(٤) الجذع أصل النخله . والحنين الشوق . والثكلى فاقدة الولد .
(٥) الفىء الظل بعد الزوال . والعرجون عذق النخلة الذى يحمل البلح .
(٦) الشخص سواد الانسان وغيره .
(٧) الوثاق ما يشد به كالحبل . وحلاها زينها من التحلية . وحل وثاقها .
(٨) الضب حيوان كالحردون اكبره كالعنز والفحل مراده به فحل الابل . والسرحان الذئب .
(٩) الغار الكهف فى الجبل وهذا الغار هو الذى اختفى فيه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة جبل ثور قرب مكة المشرفة . والمزائم الهمم القوية والفصل التفريق وفيه تورية بفصل الكتب ورشحها ذكر الباب .
(١٠) ذات الطوق الحمامة . والبيض السيوف . والنبل السهام .

وطرف سراقة بالخسف صارت ... له الغبراء حتى تاب كبلا (١)
ومن الضرع من شاة عناق ... وأخرى حائل فحلبن سجلا (٢)
وما باسم دعا الرحمن الا ... أجاب دعاءه بالحال فصلا (٣)
وما قط استهل لحبس غيث ... بأيسر دعوة الا استهلا (٤)
ورب قليل مال أو طعام ... به الجيش اكتفى شربا وأكلا
وكم ذا من مريض قد شفاه ... ولو شلت جوارحه وسلا (٥)
اذا ما بل ذا داء بريق ... يرى فى حال يلتئه أبلا (٦)
ألم يبلغك ما فعلت رقاه ... بطرف قتادة اذ سال سيلا (٧)
شفى برضابه عينى علىّ ... فيا عجبا لريق صار كحلا (٨)
عسيب النخل صار له حساما ... وسيف عكاشة قد كان جذلا (٩)
وكان لصحبة الأبطال حصنا ... حصينا فى الوغى والسّلم ظلا (١٠)
شديد البطش ذو عزم قوى ... وقلب لا يخال الهول هولا (١١)

---

(١) الطرف الفرس . وسراقة بن جعشم المدلجى تبع النبى صلى الله عليه وسلم لارجاعه فى الهجرة فخسف بفرسه ثم أسلم رضى الله عنه . والغبراء الأرض . والكبل القيد .

(٢) العناق الانثى من ولد المعز . والحائل التى ضربها الفحل فلم تحمل . والسجل الدلو الكبير .

(٣) فصلا أى اجابه بقضاء حاجته بالفصل .

(٤) قط ظرف للزمان الماضى . واستهل الثانى أمطر .

(٥) شلت اليد وغيرها تعطلت حركتها . والجوارح الاعضاء . وسل أى أصيب بداء السل .

(٦) ابل من المرض برأ منه .

(٧) الرقى ما يقرأ على المريض ليشفى جمع رقية والطرف العين .

(٨) الرضاب الريق .

(٩) العسيب جريدة من النخل مستقيمة يكشط خوصها . والجذل ما على مثال شماريخ النخل من العيدان واصل الشجرة .

(١٠) الابطال الشجعان . والوغا الحرب .

(١١) البطش الاخذ بعنف . ويخال يظن . والهول الفزع .

فكم جمع العدا جمعا صحيحا ... فكسر جمعهم أسرا وقتلا
وصارعه ركانة وهو ليث ... فعاد بصرعه فى الحال وعلا (١)
وفى بدر بقبضته رماهم ... فشتت بالحصى للقوم شملا (٢)
وأودى بعد فى احد أبى ... بحربته كما أنباه قبلا (٣)
ولو وقعت على رضوى محنته ... ولو وقعت على ثهلان ثلا (٤)
اشارته بيوم الفتح خرت ... بها الاصنام كالاعداء قتلى (٥)
بفعلته غزا غطفان يوما ... فلم يترك لهم ابلا وخيلا (٦)
فكم من هامة بالسيف طرت ... وكم ذا من دم بالترب طلا (٧)
أباد الجاهلية والأعادى ... فلم يترك أبا جهل وجهلا (٨)
وأوقعها باليهود وفى تبوك ... أذل الروم حين غزا هرقلا (٩)
ولم ينفك يغزو الناس حتى ... تولا هم وأمر الكفر ولى (١٠)
أتاه وهو مثل السيف حدا ... فلم يعبأ به حاشا وكلا (١١)
رماه بالردى طورا وطورا ... علاه بالهدى حتى اضمحلا (١٢)
شريعته هدت برا وبحرا ... وهم ضياؤها حزنا وسهلا (١٣)

---

(١) ركانة رجل من قريش وكان اشدهم • والليث الاسد • والوعل تيس الجبل •
(٢) شتت فرق • والشمل ما اجتمع من الامر •
(٣) اودى هلك • وابى بن خلف قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليه الصلاة والسلام اخبره وهو فى مكه بانه يقتله فقتله فى غزوة احد •
(٤) رضوى جبل وكذلك ثهلان • وثل هدم •
(٥) خرت سقطت •
(٦) غزا غطفان هى غزوة حنين •
(٧) الهامة الرأس • وطرت شقت • وطل الدم هدر ولم يؤخذ بثأره •
(٨) أباد أهلك •
(٩) وقع بهم بالغ فى قتلهم • وهرقل ملك الروم •
(١٠) تولا هم حكمهم وولى امرهم وولى ذهب ومضى •
(١١) يعبأ يبالى • وكلّ : عجز ولم يقطع وفيه تورية بكلا أداة الردع •
(١٢) الردى الهلاك • والطور التارة • واضمحل ذهب من اصله •
(١٣) الحزن ضد السهل •

هى الشمس المنيرة فى البرايا ... ومن عجب غدت للناس ظلا (١)
علت فى كل ارض كل دين ... ودين الله يعلو ليس يعلى
أبا خير الأنام بكل خير ... وخير خيارهم نسبا ونسلا
اذا جار الزمان على أناس ... أتوك فعاد ذاك الجور عدلا
وان بخل الغمام بطل غيث ... همت يمناك للعافين وبلا (٢)
لقد فقت الورى فى كل وصف ... جميل وانفردت علا وعقلا (٣)
فلم يخلق لك الرحمن شبها ... ولم يخلق لك الرحمن مثلا
وفوق الانس أشرف كل نوع ... لأنك منهم يا نور شكلا (٤)
ورسل الله سادوا الخلق طرا ... وفاقوا العالمين هدى وفضلا
وانك خيرهم نفسا ودينا ... وأتباعا وأصحابا وأهلا
وأكثرهم هدى وأعز جاها ... وأطولهم علا وأجل طولا (٥)
فقد سدت الورى علوا وسفلا ... ملائكة وأنباء ورسلا (٦)
أبا من قد تمنى كل تاج ... يكون برجله للنعل نعلا (٧)
وخير الناس يرضى ان تراه ... للثم تراب تلك النعل أهلا
لقد شرفتنى فى النوم فضلا ... بتقبيلى يدا منكم ورجلا
فلولا أن يقال لقلت مالى ... مثيل لا أرى لى اليوم مثلا
وما قصدى افتخارا غير أنى ... لشكرك أنشئ معنى وقولا
ومهما كان شكرانى جليلا ... فقد جاءت مواهبكم أجلا

---

(١) الظل هنا الستر من قولهم انا فى ظل فلان اى ستره .
(٢) الطل المطر الضعيف وهمت سالت والعافى طالب الفضل والرزق . والوبل المطر الكثير .
(٣) العلا المراتب العلية والرفعة .
(٤) الشكل الهيئة .
(٥) الطول الافضال .
(٦) الانباء الانبياء .
(٧) التاج ما يوضع على رأس الملك .

ولست بحاجة للمدح لكن لنا حاج وليس سواك مولى (١)
ولم تنفك للرحمن سيفا وقد يستحسن السيف المحلى (٢)
ومهما كنت أنت فأنت عبد وعز الله مولانا وجلا (٣)

ولو نظرنا نظرة تحليلية للقصيدة لوجدنا أن الشاعر ابتدأ قصيدته بمقدمة تقليدية حيث شبب بمعالم وآثار بلد الممدوح والشاعر لم يتغزل بمحاسن المرأة في قصيدته .

وفي البيت الثاني حتى السابع يلمح الى أن محبوبه ليس امرأة بل هو محبوب لجميع الناس وجميع الناس شركاء للشاعر في حبه اذ لو كان امرأة لحرص الشاعر الا يشاركه في حبها أحد (٤)

رعاه الله ضيعة كل نفس وحيا الله تربته وأعلى

من هذا البيت تظهر نزاهة وعفة حب الشاعر ثم يتمنى الشاعر لسكان بلاد المحبوب أن يسقوا الماء الذي به تنتعش حياتهم ويعمها الرخاء ثم يقترب الشاعر من التصريح بمحبوبه عندما يحييه من أحد ويصفه بأنه حبيب ومحبوب ولا يمل من التحية ولا يمل منه أيضا وهو قرير العين وضحاك الثنايا .

وفي البيت الثامن يخاطب الركب كعادة الشعراء ويوصيهم بأنهم متى جازوا النقا وربوع سلع ووصلوا الى الأرض التي يسكنها أحب الناس الى الله وأعزهم عليه فليسرعوا بتقبيل الأرض مرات ومرات ثم يقرئ السلام المدينة المنورة وساكنيها ممن امتلأ قلبه شوقا ومحبة وفؤاده صبابة وحنينا الى اللوى لمائها وظلها وهما عنوان الخصب والنماء في حياة العرب الصحراوية .

---

(١) الحاج جمع حاجة . والمولى السيد .
(٢) المحلى المزين بنحو الذهب والفضة .
(٣) الديوان ص ٩٩ ـ ١٠٧
(٤) في هذا المعنى يقول الشاعر : واترك حبها من غير كره وذاك لكثرة الشركاء فيه
اذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء اذا كان الكلاب ولغن فيه

ثم يستمر فى وصف شوقه وحنينه حتى البيت الواحد والعشرين ثم يصرح بعد هذه المقدمة الطويلة بازالة العجب من حبه للمدينة المنورة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ٠

وفى البيت الثالث والعشرين يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صفى ٠٠٠ من قريش الذين هم خيار العرب وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقى نوره يتنقل من أطهر الأصلاب الى أطهر الأرحام " آمنة بنت وهب " ٠

وفى البيت السابع والعشرين يوضح أن آيات الرسول كانت تظهر وأمه حامل فيه ، وأن منها انتصار قريش بالطير الأبابيل فى عام الفيل ، كذلك النور الذى خرج من أمه ساعة ولادته حتى رأت قصور الشام ٠

ثم بدأ فى البيت الواحد والثلاثين حتى الثامن والثلاثين فى ذكر مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضها أنه لا يوجد مثله فى العلم والأخلاق والعدل وأن الله أعطاه علم الغيب وأن الله حلى ذات الرسول بأجمل حلية وأعطاه الكثير من المناقب التى لم يحصل عليها غيره ، وأنه خير الناس فرادى وجماعات ٠

وفى البيت التاسع والثلاثين حتى البيت الخمسين ذكر تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم على الأنبياء والرسل من حيث عروجه الى السماء ومقابلته لله سبحانه وتعالى واحالة الرسل الشفاعة اليه يوم القيامة ٠

ومن البيت الواحد والخمسين حتى الخامس والسبعين تكلم عن معجزاته صلى الله عليه وسلم مبتدئا بالقرآن مشيرا الى أنه المعجزة التى انفرد بها صلى الله عليه وسلم على غيره من الرسل ٠

ومن معجزاته انشقاق القمر ووقوف الشمس حتى صلى الامام على وطق الجمادات وسعى الأشجار اليه لتشهد برسالته ثم عودتها الى حالها وتسليم الحجارة وجذع النخل وتظليل الغمام له وكونه صلى الله عليه وسلم ليس له ظل وكلمته غزالة مقيدة فقك قيدها وشهد له الضب والبعير والذئب ونسج العنكبوت وبيض الحمامة أمام غار ثور ٠ وتثبيت سراقة فى الأرض فلم يستطع أن يدرك الرسول صلى الله عليه

وسلم وأبا بكر فى هجرتيهما • ومس ضرع شاة أم معبد بعد أن جفت فافاضت بالحليب استجابة لدعوته واستجابة الغيث لدعائه والطعام القليل الذى يكفى جيشا كبيرا بركته صلى الله عليه وسلم وشفاؤه للمرضى مثل قتادة الذى رد اليه عينه بعد أن قلعت وشفاؤه لعين على من الرمد وتحول عسيب النخل فى يده الى حسام وكذلك سيف عكاشة •

وفى البيت السادس والسبعين حتى الواحد والتسعين يتكلم عن قوة الرسول صلى الله عليه وسلم الشخصية فهو قوى لا يخاف وقد صارع ركانة بن عبد يزيد الصحابى ، وكان أقوى رجل فى قريش فصرعه ، وفى بدر تشتت شمل الأعداء بكف حصى رماه فى وجوههم •

وفى أحد قتل أبى بن خلف وفى فتح مكة سقطت الأصنام من هيبته صلى الله عليه وسلم وشتت المشركين فى غطفان ، وكذلك فتك باليهود وغزا هرقل فى تبوك ، وهو الذى محا الشرك والكفر وبه انهزم الشيطان •

ومن البيت الثانى والتسعين حتى الرابع والتسعين يذكر محاسن الشريعة الاسلامية •

وفى البيت الخامس والتسعين حتى البيت السادس بعد المئة يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بمحامد جميلة وصفات حسنة اتصف بها الرسول •

وفى البيت السابع بعد المئة حتى آخر القصيدة يذكر رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم وتقبيله يده ورجله ويفتخر النبهانى بهذا ويعد مدحه للرسول من باب الشكر لانعامه عليه وأن الرسول ليس بحاجة للمديح ولكن للمادح حاجة وليس له سيد غير الرسول لقضائها ثم يختم قصيدته بالاحتراس من أن يكون قد تجاوز الحد فى مدحه منبها الى أن الرسول مهما مدح فهو عبد لله سبحانه جل وعلا •

النموذج الثانى :

يقول الشيخ النبهانى رحمه الله : قلت منذ سنتين هذه القصيدة لتقرأ وقت الزيارة فى مواجهته صلى الله عليه وسلم أو يستحضره القارئ أينما كان انه بحضوره

يخاطبه بها عليه الصلاة والسلام : —

يا نبيا لدى الاله عظيما ... وحبيبا له وعبدا كريما
أنت فقت المسيح فقت الكليما ... فقت نوحا وفقت ابراهيما
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما (١)

فقت روحا وفقت اسرافيلا ... فقت جبريل فقت ميكائيلا
فقت كل الأنام جيلا فجيلا ... ما برا مثلك الاله زعيما (٢)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت أصل الوجود ما لك مثل ... ما لخلق من دون فضلك فضل
قد تساوى لديك بعد وقبل ... سدت كل الورى حديثا قديما
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت نور الزمان نور المكان ... أشرقت منك سائر الأكوان
حاز نزرا من نورك النيران ... وبنزر منه انرت النجوما (٣)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت للجود مظهر فى الوجود ... ومد بالسعد كل سعيد (٤)
سقت خير الدنيا لخير الصبيد ... وبأخراهم النعيم المقيما
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت فرد الأكوان والمجموع ... أنت أصل والعالمون فروع
نورك البدر والجميع نروع ... طاب بعض والبعض صار وخيما (٥)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

---

(١) الرؤوف الرحيم من أسماء الله الحسنى التى شرف حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم بتسميته بها وقد ذكر منها فى الشفا نحو الثلاثين وزدت عليه كثيرا وبلغتها نحو الثمانين كما ذكرته سابقا فى قصيدتى أحسن الوسائل والرأفة أرق من الرحمة .

(٢) الجيل الصنف من الناس والزعيم الرئيس . (٣) النزر القليل .

(٤) مظهر اى محل ظهور جود الله على خلقه فان النعم تفيض من الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم ومنه على الخلائق .

(٥) الوخيم الثقيل الردىء .

أنت بدر البدور شمس الشموس ... ومد بالنور خير النفوس
مستمد من حضرة القدوس ... فه نلت التخصيص والتعميما
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت شمس الهدى وبحر العطايا ... قد حباك الوهاب خير المزايا (١)
لمحة من سناك تهدى البرايا ... نفحة من ندالك تحيى الرميما (٢)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت خير الورى على الاطلاق ... سيد الخلق صفوة الخلاق
عنك جبريل قائل للبراق ... مثله ما حملت قط كريما (٣)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت عبد لله سدت الأنام ... نلت حظا من قربه لن يراما
وعلى العرش قد حباك مقاما ... صد عنه فى الطور موسى الكليما (٤)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت فى الخلق نائب الرحمن ... لك أعطى سيادة الأكوان (٥)
وله دمت مظهر الاحسان ... مصطفاه صراطه المستقيما (٦)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت روح الأرواح علوا وسفلا ... ومد الأشباح فرعا وأصلا (٧)
ان حكاك الأنام يا نور شكلا ... فالحصى ربما تحاكى النجوما (٨)

---

(١) حباك أعطاك • المزايا الخصال التى يمتاز بها •
(٢) الندى الجود • والبرايا الخلائق • ونفح الريح هبوبها ونفح الطيب اذا فاح ومنه ان لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها • والرميم العظم البالى •
(٣) لما أراد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ركوب البراق جمح فقال له جبريل ما ركبك أحد مثله فسكن •
(٤) حباك أعطاك أى ان الله تعالى تكرم على النبى صلى الله عليه وسلم برؤيته لذات الله عز وجل من غير كيف ولا انحصار ومنع عز وجل سيدنا موسى عليه السلام حينما طلب ذلك بقوله رب ارنى أنظر اليك فقال لن ترانى • والطور الجبل • (٥) نائب الرحمن قال تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وقال تعالى يد الله فوق أيديهم • (٦) صراطه المستقيم أى طريقه الموصل لمعرفته تعالى
(٧) الشبح الشخص والجمع أشباح • (٨) الشكل الهيئة •

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

قد روينا عن جابر معناكما بحديث أضاء فينا سناكا (١)

قبل كل الورى الاله براكما منه نورا وعمه تقسيما (٢)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

آدم كان والد الأشباح مثلما أنت والد الأرواح

أنت نور بدا لأهل الفلاح وعن العمى لم يزل مكتوما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

سيد الخلق أنت للعبد بعد مولاك أنت في الكون فرد

بكر هذا الوجود كنت ومعد صار عن مثلك الزمان عقيما (٣)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

لا فقير للعبد أفقر منكما لا غنى من الخلائق عنكما

من رضاه حباك مولاك ملكا لم يكن للسوى بوجه مرومًا (٤)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

واحد الفضل أنت لم تلف شركا ما زوى الله قط جدواه عنكما (٥)

خر موسى بالصعق والطور دكا ولديه كنت القوى القويما (٦)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

---

(١) السنا الضوء وهذا الحديث رواه عن جابر عبد الرزاق وهو قوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر .

(٢) الورى الخلق . وبراك خلقك ثم قسم هذا النور أقساما خلقت منها جميع المخلوقات كما في حديث جابر المذكور .

(٣) العقيم الذى لا يلد .

(٤) حباك أعطاك .

(٥) زوى منع . والجدوى العطية .

(٦) خر سقط . وصعق غشى عليه لصوت سمعه . والطور الجبل ودكه دقه حتى سواه بالأرض .

جزت كل الورى وحزت محـــلا صرت فيه مجليـا ومجـــلا (١)
ورأيت الاله عـز وجـــلا دون كيف لا حصر لا تجسيما (٢)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

كل من رام للاله وصـــولا من سبيل سواك ضل السبيل (٣)
بابه أنت من أراد الدخـولا من سوى بابـه غدا محروما
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

ليس لله من طريـق ســواكـا حصر الخير فيك اذ ســواكا
كل من أمه بغير هداكـــا ضل سعيا وكان عبدا ذميما (٤)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

لم تزل للاله عبـدا فقـيرا لا شريكا له ولست وزيـرا
لعطاياه قاسما لن تجـورا لك لم يخلق الاله قسيما (٥)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

جئت والكون غارق فى الظـلام طافح من عبـادة الأوثـان
فجعلت التوحيد بدر تمـــام نوره صار فى البرايا عميمـا
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

---

(١) جزت جاوزت • والمجلى اول خيل السباق • ومجلا اى اجله الله وأعزه فهو اسم مفعول من اجله يجله اجلالا او اسم مفعول من جلاه يجليه اذا كشفه واوضحه يعنى انه بذلك انكشف علو منزلته صلى الله عليه وسلم ففيه توريه وفى المجلى توربة باسم الفاعل بمعنى كاشف وموضح لتلك المقامات العالية ولشريعته المحمدية التى استفادها من الله تعالى ليلة المعراج وفيها الصلوات الخمس •

(٢) الكيف الكيفية وهى حالة الشيء وصفته •

(٣) السبيل الطريق •

(٤) أمه قصده •

(٥) قال صلى الله عليه وسلم " انما أنا قاسم والله معط " والقسيم المقاسم والمراد النظـــير •

قد حباك الرحمن خير كتـــاب معجز نظمه ذوى الألبـــاب (١)
وهو شمس الهدى وبدر الصواب ومن الله قد أتاك نجـومـــا (٢)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

سيد الكتب كلها والفـــرقان بين حـق وباطـل فرقـــان (٣)
هو نعم المبين نعم البيـــان منك أبدى الحديث منه القديما (٤)
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

هو والآل فى الورى ثقـــلان من ضلال للناس خير أمـــان (٥)
وهما عنك عندنا نائبـــان لا يزالان لازما ملـزومـــا
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

غير خاف عليك ما حل فينـــا قد غدونا فريسـة الكافرينـــا (٦)
سل لنا الله منه فتحـا مبينـــا وعلى الكافرين نصرا عميمـــا
يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أهل نار الجحيم سافوا علينـــا شر نار من الحروب اصطلينـــا (٧)
وتداعوا من كل فسج علينـــا مثلما قلت فى الحديث قديمـا (٨)

---

(١) حباك أعطاك • ونظمه تركيبه وترتيبه • والالباب العقول •
(٢) نزل القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما أى مفرقا فى أوقات مختلفة •
(٣) الفرقان الفارق بين الحق والباطل •
(٤) البيان الظهور •
(٥) قال ابن الاثير فى النهاية فى الحديث انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل ويقال لكل خطير ثقيل فسماهما ثقلين اعظاما لقدرهما وتفخيما لشأنهما •
(٦) الفريسة ما يفترسه الوحش من شاة ونحوهـــا •
(٧) صلى النار اخترق بها واصطلى بالنار وتصلى بها •
(٨) قال صلى الله عليه وسلم ستداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتهـا رواه أبو داود • والفسج الطريـــق •

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

داوموا حربنا بكل سلاح ... وأغاروا على جميع النواحي

أبدلوا بالفساد كل صلاح ... فاحمنا واحم ديننا والحريما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

خدعوا بالمدارس الغافلينا ... أوهموهم منى وأعطوا منونا (١)

سحروهم بالكفر سحرا مبينا ... فرأوا دينك الصحيح سقيما (٢)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

نار حرب ثارت على المسلمينا ... أوقدتها مدارس المشركينا

أحرقت بالضلال دين اليقينا ... جعلوا حرب دينك التعليما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

دخلوها بدينهم جاهلينا ... وتغذوا فيها الضلال سنينا

صاحبوا المشركات والمشركينا ... ولدين الاسلام صاروا خصوما (٣)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

كل هذا نتائج العصيان ... شمل عجلت من النيران (٤)

أنت مقبول حضرة الرحمن ... فاذا ما شفعت صارت نعيما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

---

(١) المنى جمع منية وهى ما يتمناه الانسان والمنون الموت .

(٢) المبين الظاهر .

(٣) خصومة أعداؤه يجادلون أهله .

(٤) نتائج العصيان قال صلى الله عليه وسلم المعاصى بريد الكفر ومعناه ان البريد وهو الرسول هو الذى يتوجه قبل القيوم ليهيىء لهم المكان فكذلك المعاصى تهيىء للكفر المكان باظلامها القلوب فيدخلها الشيطان ويتلاعب فيها كيف يشاء كما هو مشاهد .

أنت بحر الاحسان بالفضل طامى ... وفؤادى لعذب جودك ظامى (١)
فتكرم بما يزيل أوامى ... ويزيد التكميل والتكريما (٢)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنت أرجى وسائلى عند ربى ... هو ربى وأنت فى الخلق حسبى (٣)
جل دائى وقد تعاظم ذنبى ... سله يعفو عنى ويشفى السقيما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

شارك الجسم بالسقام فؤادى ... صدئ بالذنوب للخير صادى (٤)
وأمورى على خلاف مرادى ... لست ترتضى للعبد حالا ذميما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

جئت أشكو اليك مولاى سقمى ... وهموما كموج بحر خضم (٥)
ان أثل قد تزول زادت بؤسى ... فامسح عنى جديدها والقديما (٦)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

صار عمرى ستين عاما وعاما ... ملأت لى صحيفتى آثاما
غير أنى استفدت منك ذماما ... يجعل السيئات طرا هشيما (٧)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

---

(١) طما الماء ارتفع والظامى العطشان .

(٢) الاوام العطش .

(٣) الوسائل جمع وسيلة وهى ما يتوسل به القضاء لحاجة وحسبى كافينى .

(٤) الفؤاد القلب والصدى من الظمأ وهو وسخ الحديد والصادى العطشان من الصدى .

(٥) الخضم البحر .

(٦) الرغم الذل والهوان وأصله من الرغام وهو التراب .

(٧) الذمام العهد . والهشم من النبات اليابس المتكسر .

قد مضى العمر جبذا هو عمرا　　لك يا بحر منك اهتديت درا
ان أنل فى جوار قبرك قبرا　　فزت بين الأنام فوزا عظيما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أبتغى فى جوار دارك دارا　　لست أرضى سواك فى الخلق جارا
أنا عبد جاروا عليه وجارا　　فتقبله ظالما مظلوما

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما

أنا ضيف بالفقر جئت اليكا　　واعتمادى من بعد ربى عليكا
فتفضل واجعل قراى لديكا　　فى جنان البقيع مأوى كريما (١)

يا رءوفا بالمؤمنين رحيما (٢)

النموذج الثالث :

" الموشحات "

للشيخ النبهانى ثلاث موشحات فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوبين مختلفين :

الأسلوب الأول :

موشح قاله الشيخ النبهانى عارض به موشح أبى عبيد (٣) حيث يقول :

ارو لى ـــــ مدح النبى الخاتم الأول
واجل لى ـــــ كأس الصفا من حبه قد ملى (٤)
قد علا ـــــ حتى رقى السبع الطباق العلا (٥)

---

(١) القرى الاكرام .
(٢) الديوان ص ٢٥٨ / ٢٦٦ .
(٣) موشح أبى عبيد ذكره للشيخ النبهانى فى المجموعة النبهانية جـ ٤ ص ٤٤٥ـ٤٤٨
(٤) جلا العروس اهداها الى زوجها .
(٥) رقى من باب رمى ـ كرقى من باب رضى ، والأولى لغة طيىء . د / سرحان

وانجلـــى ـــــ له مقام القرب فوق المـــلا (١)
واعتلـــى ـــــ بروحه الجسم حتى اجتلـى (٢)
والعلـــى ـــــ قد خصه بكل وصف عـــلا
اذ ولـــى ـــــ من نظر التقديس ما قد ولى (٣)
الأمـــين ـــــ أحجم عن صحبة طه الأمين (٤)
والمعـــين ـــــ صاحبه حيث انقطاع القرين (٥)
لا تمـــين ـــــ ان قلت هذا سيد العالمين (٦)
أجمـــل ـــــ فى حقه الأمداح أو فصل
لا تلـــى ـــــ بالمدح منه حبّة الخردل
من ســـما ـــــ غير أبى الزهراء فوق السماء (٧)
وانتمـــى ـــــ لرؤية الحق بطرف نمـــا (٨)
اذ همـــى ـــــ عليه من سحب الرضا ما همى (٩)
أمل لـــى ـــــ فمدح خير الخلق لم يمـــل (١٠)
ان لـــى ـــــ قلبا يحبيه غنى ملـــــى (١١)

---

(١) انجلى انكشف والملأ اشرف الناس .
(٢) اجتلى نظر .
(٣) ولى الامر تولاه . التقديس التطهير .
(٤) الامين الاول جبرائيل عليه السلام . واحجم تأخر عند بلوغهما سدرة المنتهى فوق السماء السابعة ليلة المعراج .
(٥) المعين هو الله تعالى والقرين المقارن الصاحب .
(٦) لا تمين لا تكذب .
(٧) سما علا .
(٨) انتمى انتسب . نما : زاد .
(٩) همى سال .
(١٠) الاملاء تلقينك غيرك ما يكتبه . ويمل يسأم .
(١١) الملىء الغنى .

جبرئيـــل ـــــ سيد أملاك السماء الجليـل
والخليـــل ـــــ أفضل رسل الله من كل جيل (١)
لا مثيـــل ـــــ من ذا وذا ؟ لأحمد لا مثيل
واشـــمل ـــــ سواهما فى العلو والأسـفل
مأملـــى ـــــ ما فوقه الا الاله العلـــى (٢)
الكلـــيم ـــــ أجابه بلن ترانـــى الكريـم
والنعـــيم ـــــ برؤية الرحمن لابن الحطـيم (٣)
والكـريـم ـــــ قد خصه بكل فضـل عظـيم
هـات لـى ـــــ كالمصطفى فى فضله الأكمـل
وارحـــل ـــــ للعلو مهما شئت أو فانـــزل
المسـيح ـــــ يقول أمّوا ذا المقام الرجيـح (٤)
فى الصحيـح ـــــ يسجد لله بحمد فسـيـح
يستمـيح ـــــ يجيبه المولى بقـول فصيـح (٥)
أقبـــل ـــــ واشفع بمن تختـاره أقبـل
واســـأل ـــــ أعطيك مهما شئت من مأمـل (٦)

---

(١) الجيل الأمة من الناس .
(٢) ما على محل أعلى وهو النبى صلى الله عليه وسلم .
(٣) الحطيم حجر الكعبة وابن الحطيم المراد به النبى صلى الله عليه وسلم وقد كان نائما فيه اذ جاء جبرئيل وعرج به .
(٤) اموا قصدوا يعنى فى الشفاعة الكبرى فى المحشر .
(٥) يستميح يطلب .
(٦) المأمل ما يأمله ويترجاه .

لـن تـــرى ـــــ مثل حبيب الله بين الـورى
مـا بـــــرا ـــــ نظيره مولاه فيمن بـــــرا (١)
قد جـــرى ـــــ فى الكون من آياته ما جرى (٢)
أصـغ لـــى ـــــ أهديك للآذان خير الحلى (٣)
واجتلـــى ـــــ من آيه بدر الرشاد الجلى (٤)
كـم وكـــم ـــــ أحيا به مرسله من أمـــم
وانتقـــم ـــــ من قادة الشرك فصاروا رمم (٥)
وانقصـــم ـــــ بسيفه المشهور تلك الظلـم (٦)
اذ جلـــى ـــــ نور الهدى من دينه واجتلى (٧)
واســـأل ـــــ ان شئت من قرآنه المـــنزل
يا أمـــين ـــــ يا رحمة الله الى العالمين
خير ديـــن ـــــ دينك دين الحق حق مبين (٨)
لا أديـــن ـــــ بغيره والله نعم المعـــين (٩)
ســله لـــى ـــــ ختام خير حسن أكمـــل
وأجمـــل ـــــ أهلى وأحبابى ومن يدع لى (١٠)

---

(١) برا : خلق .
(٢) آياته معجزاته الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم .
(٣) اصغ استمع والحلى ما يتزين به من نحو الذهب والفضة وهو هنا مديح النبى .
(٤) اجتل انظر والآى جمع آية وهى المعجزة والرشاد ضد الضلال . والجلى الظاهر .
(٥) الرمم جمع رمة وهى العظام البالية .
(٦) انقصم انقطع .
(٧) جلى كشف . واجتلى نظر .
(٨) المبين الظاهر .
(٩) دان انقاد وتدين .
(١٠) يدع بحذف الواو للضرورة ولك أن تقول من شرطية ويدع فعل الشرط كقوله تعالى " ومن يدع مع الله الها آخر " غير أن الجواب هنا محذوف تقديره فهو كذلك .

الديوان ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠

الأسلوب الثانى :

وهو موشحتان الأولى قال فى تقديمها :

" قلت .. أمدحه صلى الله عليه وسلم معارضا الموشحات السبع لعلماء دمشق (١) وقد شببوا برياض الشام وشببت بمعالم الحرمين الشريفين على مشرفهما الصلاة والسلام .

لست أنسى زمنا قد سلفا ... فيك يا مكة بالعيش الهنى
اذ من المروة أسعى للصفا ... وبذات الخال وجدى عمنى (٢)
حين أغدو طائفا من حولها ... أتهادى مثل صب ثمل (٣)
أبتغى عارفة من نولها ... وهى ترعانى تحت الحلل (٤)
ومتى تمت مساعى طولها ... بلغتنى من رضاها أملى (٥)
أدخلتنى فى مقام شرفا ... كل من يدخله فى مأمن (٦)
واصلتنى ولكم قبل هفا ... نحوها قلبى وزادت شجنى (٧)
أجلستنى كرما فى حجرها ... بعد تقبيل فمى منها اليمين (٨)
ولقد منت بأوفى برها ... اذ دعتنى أدخل البيت الأمين
فلسانى عاجز عن شكرها ... واليها لم يزل منى حنين

---

(١) الموشحات السبعة ذكر الشيخ النبهانى فى مجموعته النبهانى ج ٤ ص ٤٠٦ـ٤٤٢

(٢) ذات الخال المراد بها الكعبة زادها الله شرفا وخالها الحجر الأسود والوجد شدة الحب .

(٣) تهادى مشى متمايلا مشيا غير قوى والصب العاشق والثمل السكران .

(٤) أبتغى أطلب والعارقة العطية . والنول العطاء وترعانى تحفظنى والحلل جمع حله وأصلها ثوبان ازار ورداء .

(٥) الطول الأفضال والعلا الرفعة والمراتب العلية .

(٦) المقام مقام ابراهيم عليه السلام .

(٧) هفا الفؤاد ذهب فى أثر الشىء وطرب والشجن الحزن .

(٨) حجر الكعبة المحاط فى جانبها بحائط مخصوص وفيه تورية بحجز الانسان وهو حضنه واليمين المراد به الحجر الأسود ففى الحديث أنه يمين الله فى الأرض أى كاليمين .

قربتنى بعد ما طال الجفا ... وبدت تزهو بوجه حسن (١)
فمضى همى وصافانى الصفا ... وأتى أنسى وولى حزنى
أشرب الخمرة شرب النهم ... دون اثم غير سكران ملوم (٢)
انما أعنى سلاف زمزم ... صانها الرحمن لا بنت الكروم (٣)
فأرانى كالمليك الأعظم ... من سرورى وتجافينى الهموم (٤)
قد أزالت وهى طعم وشفا ... سقمى عنى وزادت سمنى (٥)
من رمى الدنيا ومنها رشفا ... مرة فى عمره لم يغبن (٦)
والمنى تمت لدينا فى منى ... حين نرمى من هوانا الجمرات (٧)
واجتمعنا بسرور وهنا ... عند جمع وعرفنا عرفات (٨)
ذاك يوم كل ما الدهر جنى ... قد محاه بالأيادى الطائلات (٩)
غير أنى لم أزل ملتهفا ... لنوى من حبها تيمنى (١٠)
لست أبغى غادة أو أهيفا ... طيبة قصدى وأقصى منى (١١)

---

(١) تزهو تحسن وتشرق ، وهى قليلة والأصح تزهى مبنية للمفعول .
(٢) النهم المفرط فى شهوة الطعام وهنا الشراب .
(٣) السلاف الخمر وصانها حفظها .
(٤) تجافينى تتباعد عنى .
(٥) فى الحديث ماء زمزم طعم وشفاء سقم .
(٦) رشف مص . ويغبن يخدع وينقص من حقه .
(٧) الهوى الحب . والجمرات الحصيات وفيها تورية بجمرات النار .
(٨) جمع هى المزدلفة .
(٩) جنى أذنب والايادى النعم فيها تورية بالايادى التى تقابل الارجل ورشحها لفظة طائلات وهى من الطول وهو الأفضل وفيها تورية بالطائلات من الطول .
(١٠) اللطف شدة الحزن والنوى البعد . وتيمه الحب عبده .
(١١) الغادة الناعمة والأهيف ضامر البطن والخاصرة أقصى أبعد والمنى النعم .

حى يا برق أثيلات العقيق ... وربوعا فى النقا والمنحنى (١)
واسق سلما وقبا خير رحيق ... من سلاف الغيث موصول الهنا
آه من لى ؟ ثم سكر لا أفيق ... منه بالعذراء لا يبقى عنا (٢)
فمتى فيها أرى لى موقفا ... تتمم العين به كالأذن
ومتى أمنح فيها زلفا ... وأراها دون أرضى وطنى (٣)
هى والله منى قلبى الحزين ... ان تكن تقرب أو تنأى الديار (٤)
يا ترى أحظى ولو من بعد حين ... بحماها وأرى فيها القرار (٥)
ثاويا ثمة فى الحرز الأمين ... فى جوار المصطفى أكرم جار (٦)
خيرة الأخيار أوفى من وفى ... الكريم ابن الكرام المحسن (٧)
كل خلق من نداه اغترفا ... وهو بالله عن الخلق غنى (٨)
آدم شيث ونوح ابراهيم ... رسل الله وهم خير الجدود
وجميع الرسل عيسى والكليم ... وسواهم ومشاهير الوجود
فاز منه الكل بالحظ العظيم ... وحباهم كل فضل وسعود (٩)
وبه جبريل نال الشرفا ... اذ سرى نحو العلا لا ينثنى (١٠)

---

(١) الاثل شجر الطرفاء والعقيق واد والنقا والمنحنى وسلع وقبا اماكن فى المدينة المنورة والربوع المنازل والرحيق صفوة الخمر .

(٢) آه كلمه توجع والعذراء من أسماء المدينة المنورة .

(٣) الزلف جمع زلفه وهى القربه والمنزله .

(٤) تنأى تبعد .

(٥) الحمى حماه عليه الصلاة والسلام واسأل الله العظيم ان يرزقنى فى جواره حسن الختام .

(٦) الثاوى المقيم وثمة هناك وحرز الشىء ما يحفظ به والجار مجاور المنزل والذى يجير غيره ويؤمنه مما يخاف منه ويطلق على المستجير أيضا وهو الذى يطلب الأمان .

(٧) الخيرة المختار المصطفى

(٨) الندى الكرم .

(٩) الحظ النصيب وحباهم أعطاهم .

(١٠) العلا السموات .

ويخفض القدر عنه اعترفا ... حينما قال له لا تنسنى
شاهد الله بلا كيف وأين ... بقوى أعطى له المولى العلى (١)
قد رآه بفؤاد ويمين ... منحة خص بها فى الأزل (٢)
قصر به صعقه موسى دون مين ... للتجلى حين دك الجبل (٣)
تجد المختار منه أشرفا ... وأحب الخلق لله الغنى
لو حباهم من علاه طرفا ... أغرق الكل ببحر المنن (٤)
نال قدرا من رضى المولى الكريم ... جزء جزء منه ما نال الكرام
وسقى بحرا من الله العليم ... لو سقى القطرة منه الكون هام (٥)
ثم فى الليل انثنى نحو الحطيم ... فأتاه قبل اسفار الظلام (٦)
بعروج العرش فاق المصطفى ... كل عبد كان أو لم يكن
عرف الحق له من عرفا ... وسواهم فى ضلال بين (٧)
انما ذلك من فضل القدير ... من برا كل الورى عز وجل (٨)
يستوى كل صغير وكبير ... عنده فى الخلق ما شاء فعل
فلديه العرش كالنمل الصغير ... عندنا والأمر أعلى وأجل
وهو من كل البريات اصطفى ... عبده الهادى لأسنى سنن (٩)

---

(١) كيف يسأل بها عن الوصف وأين عن المكان . والمولى السيد .
(٢) الفؤاد القلب . والمنحة العطية والأزل ما لا ابتداء له فى الماضى مقابل الأبد وهو ما لا نهاية له فى المستقبل .
(٣) صعق غشى عليه لصوت سمعه والمين الكذب وتجلى الشىء انكشف ودكه كسره حتى سواه بالأرض .
(٤) حباهم أعطاهم والعلا المراتب العلية .
(٥) هام ذهب على وجهه من الحب ونحوه
(٦) الحطيم الحجر أو ما بين مقام ابراهيم وباب الكعبة .
(٧) البين الظاهر .
(٨) برا خلق .
(٩) البريات المخلوقات واصطفى اختار والسنن الطريقة .

أحمد المختار طه ذا الوفـــا ... خير مبعوث له مؤتمـــــن
ما له بين البرايا من مثيـــل ... كلهم لولاه ما نالوا الوجـــود
ولما أعطاهم المولى الجليـــل ... قسمة منه على قدر الجـــدود (١)
شرف الأشراف جيلا بعد جيل ... وبه الأعقاب تسمو والجدود (٢)
خصه الله بما قد لطفـــــا ... علمه عن درك أهل الفطـــن
كل من نظم أو قد صنفـــــا ... لم يفز منه بسـر صـــين (٣)
ليس يدرى كنهه غير الالـــه ... واستوى فى جهله كل الورى (٤)
وعلت فوق علا الخلق عـــلاه ... شرفا أين الثريا والثرى ؟ (٥)
زانت الكون واهليه حـــلاه ... وبكل نوره السارى ســرى (٦)
جاء والكون مريض فشـــفى ... بهداه كل عبد مؤمـــن
ولقد أسمع لما هتفـــــا ... من مضى أو من أتى فى الزمن (٧)
كم له من معجزات باهـــرات ... ما لها بين البرايا من نظـير (٨)
دام منها حكمه بعد الممـات ... والى الحشر الكتاب المستنير
كله آيات حـق بينـــــات ... دلت الناس على صدق البشـير
أعجزتهم سلفا والخلفـــا ... فاستوى الفدم وأذكى لســن (٩)

---

(١) فى الحديث انما انا قاسم والله معطى والجدود الحظوظ .
(٢) الجيل الصنف من الناس ويطلق على الأمة . وعقب الرجل ولده وولد ولده .
(٣) الصين المصون المحفوظ .
(٤) كنه الشىء حقيقته والورى الخلق .
(٥) الملا المراتب العلية . والثريا عدة نجوم الظاهر منها سبعة والثرى التراب الندى .
(٦) حلاه اوصافه صلى الله عليه وسلم .
(٧) هتف نادى .
(٨) باهرات غالبات .
(٩) الفدم العيى البليد واللسن الفصيح .

وهدتهم غير قلب أغلفـــا ... والعمى فى القلب لا فى الأعين (١)
بحر علم ما له من ســـاحـــل ... جاء تفسيرا له قول الرســول
وأتى عن كل حبر فاضـــــل ... لهما شرح من العلم يطـــول (٢)
رب مجنون بدعوى عاقـــــل ... لا يرى فضل الأئمة الفحـــول (٣)
دعه لا تحفل به مهما جفـــا ... وغدا فى القول أذكى فطـن (٤)
كان هاديا علينا أخوفـــا ... من سفيه حاز علم اللســـن (٥)
فعليه الله صلى من شـــفيق ... حذر الأمة أسباب الضـــلال
لم يدع فى الدين والدنيا طريق ... لهدانا ما له فيهـا مقـــال
أيها المفتون كم لا تســتفيق ... وترى ما أنت فيه من وبـــال
أتبع واسلك سبيل الحنفـــا ... من سعى فى نهجهم لم يفتن (٦)
هم بقول الله كانوا أعرفـــا ... من سواهم بمعانى الســـنن (٧)
خل هذا فيه القول فضـــول ... عند من سقت لهم هذا الكلام (٨)
لم تؤثر فيهم بيض النقـــول ... أترى يردعهم سنى المـــلام (٩)

---

(١) قلب أغلف عليه غلاف أى غطاء فلا يعى ولا يعقل .
(٢) الحبر العالم .
(٣) المراد بالمجنون من يدعى الاجتهاد المطلق فى هذا الزمان .
(٤) لا تحفل لا تبال .
(٥) فى الحديث أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم باللسان .
(٦) السبيل الطريق . والحنفاء المسلمون أهل المذاهب الأربعة والنهج وسط الطريق .
(٧) السنن جمع سنة وهى ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من الأحكام الشرعية .
(٨) الفضول جمع فضل وهو الزيادة وقد استعمل بما لا يعنى وهو الفضول الذى يشتغل بما لا يعنيه .
(٩) البيض السيوف وفيه تورية بالبيض خلاف السود أى النقول الواضحة الجليـة .

خلهم وارجع الى مدح الرسول ... صفوة الرحمن من كل الأنام

دم على المدح له معتكفا ... واتخذه لك أقوى جوشن (١)

وتقلده حساما مرهفا ... قاطعا أعناق كل المحن (٢)

هو سلطان النبيين الكرام ... وعليهم أخذ الله العهود (٣)

فهم نوابه بين الأنام ... نشرت فيهم لعلياه البنود (٤)

انما الدهر له مثل الغلام ... كم له عبد على الناس يسود (٥)

هكذا الله به قد شرفا ... خلقه من دان أو لم يدن (٦)

وعفا عن آدم لما هفا ... وسواه من ذوى القدر السنى (٧)

ويوم الحشر ترضاه العباد ... شافعا اذ يحجم الرسل الكرام (٨)

ربه يعطيه فيه ما أراد ... فيرى التفريج عن كل الأنام

ثم فى الأمة يرضيه الجواد ... وينال الخلد فى أعلى مقام (٩)

---

(١) المعتكف الملام . والجوشن الدرع .

(٢) الحسام السيف القاطع . والمرهف السيف الرقيق والمحن البلايا .

(٣) العهود المواثيق .

(٤) العليا المرتبة العلية . والبنود الأعلام .

(٥) الغلام الابن الصغير ويطلق على الخادم .

(٦) دان انقاد .

(٧) هفا مال والسنى العلى .

(٨) يحجم يتأخر فان الناس يأتون قبله سادات الرسل فيعتذرون لتظهر سيادته عليهم وهم سادات الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام .

(٩) الخلد الجنة والبقاء الدوام .

سوف يعطيه علا لن توصفـــا ... تعجز الأفكار عجز الألســـن
يسكن الفردوس يعطى غرفـا ... تحتها للرسل أعلى موطـــن (١)
سيدى يا أيها المولى المـلاذ ... يا حبيب الله يا خير رســـول (٢)
كل جاه فى البرايا ذى نفـاذ ... فعليه جاهك الضافى يطـــول (٣)
ليس لى غيرك فى الخلق معاذ ... ولحالى سيدى شرح يطـــول (٤)
أدرك ادركنى فصبرى قد عفـــا ... وغدا ربع الصفـا كالدمـــن (٥)
عبدك الدهر بحقى أجحفـــا ... وفنى عـنى لذيـذ الوسـن (٦)
ولكم من حاجة فى خلـــدى ... أنت تدريها وما عنك استتار (٧)
أنا فى الدارين أبغى رشدى ... منك فى الدنيا وفى دار القرار (٨)
لا تخصصنى بخير ســـيدى ... عم أهلى واحبنا منك الجـوار (٩)
وأبحنا من حماكـم كنفـا ... واقيـا من شر كل الفـتن (١٠)

---

(١) الفردوس أعلى الجنان ومنزله صلى الله عليه وسلم فى أعلاه ويتفـرع منـه فروع تتصل بجميع الجنان فوق منازلها أهلها • والغـرف العـلالـــى والموطن محل الاقامـة •

(٢) المولـى السـيد • والمـلاذ الملجـأ •

(٣) الجاه القدر والمنزلة • والبرايا الخلائـق • والنافذ المطاع الماضـــى والضافى السابغ الساتر الطويل • ويطول يغلب بالطول •

(٤) يطول بصير طويلا فبينها وبين يطول السابقة جناس تام •

(٥) عفـت الـدار محيى اثرهـا والربـع المـنزل والدمـن كآثـار الديـــار جمـع دمنـة •

(٦) أجحفت بعبده أكلفه مالا يطيـق والاجحاف النقـص الفاحـش والوســن النعاس •

(٧) الخلـد القلـــب •

(٨) أبغى أطلب والرشد هو الرشد ضد الضلال ودار القرار الجنة

(٩) جواه أعطاه والجوار ملاصقـه السكن واجارة المستجيـر •

(١٠) الحمى المكان المحمى والكنف الجانب والفتن المحن •

حسبنا الله الها وكفـــى بك للمحسوب أقوى ركـــن (١)

وبعد : فهذه نماذج مختلفة من مدائح النبهانى النبوية ، ونحـــن نلاحظ أنه قد طوع الشكل الشعرى للمديح النبوى فاستطاع أن ينظم من الموشحات مديحا نبويا يدل على أصالته فى الشعر وتمكنه من بحوره وأوزانه . هذا وقد قدمنا من مدائحه النبوية كثيرا أثناء كلامنا علـــى مواقف مختلفة من حياته الفكرية أو الاجتماعية وكلها تلقى ضوءا واضحا على شاعرية النبهانى وتقدمه فى فن المديح النبوى .

---

(١) حسبنا كافينا والمحسوب أى المعدود من جملة المنسوبين الى خدمتك واستعماله بهذا المعنى عرفى وحسنه هنا جناس الاشتقاق بينه وبين حسبنا .

الباب الرابع : مدائحه النبوية

الفصل الرابع : الخصائص الفنية فى مدائحه النبوية

العاطفة :

"هى انفعال شديد ينزع بصاحبه الى ميل نحو أمر من الأمور ملك عليه منافذ حواسه فلا يستطيع الانفلات منه ولا التخلى عنه " (١)

وقد يتخذ هذا الانفعال طريقا الى عقل الانسان يصور له أن ميله هذا نحو ذلك الشيء انما هو عقلى ومنطقى . والعاطفة قد تنشأ عن حنان بين الوالد ووالديه وقد تنشأ عن مودة بين الفرد وابناء وطنه أو بينه وبين أبناء جنسه وقد تنشأ عن علاقة الحب بين الزوج وزوجه وهى أعظم انفعال فينا يستولى على مشاعرنا ويرتفع بنا الى اسمى درجات الخيال ، وقد يتألله الحب عند بعض الناس كحب الصوفية الذى نجده عند امثال ابن الفارض ومحيى الدين بن عربى و رابعة العدوية رضى الله عنهم حتى يصبح مجرد عشق للجمال الذى يسمو على النزوع الجنسى ويعلو على الشهوات الجسدية . ومن هذا النوع من الحب ما يسمى " الحب المحمدى " الذى نراه فى مدائح الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم فقد أصبح هذا اللون من الحب من أغراض الشعر المستقلة التى نشأت مع نشوء التصوف وتغذت من معانيه وسواجده . والعاطفة عنصر مهم فى التجربة الشعرية تتوهج بها الألفاظ وتتجسد بها المعانى ويجد القارئ من تأثيرها فى نفسه نشوة تغريه بالاستزادة منها لأنها سريعة النفاذ الى قلبه الذى هو منبع العواطف (٢) .

وقد كان لصدق العاطفة وحرارتها كل الأثر فى خلود قصائد من الشعر كالتى أنشدتها قتيلة بنت الحارث أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتل الامام على أخاها النضر بن الحارث اثر معركة بدر بعد أن أسر قتله بأمر رسول الله حيث تقول :

---

(١) دراسات فى النقد الادبى رشيد العبيدى ج ٢ ص ١٣

(٢) من الاقوال المأثورة " الكلام الذى يخرج من القلب يقع فى القلب والذى يخرج من اللسان حده الآذان " .

يا راكبا ان الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
ابلغ بها ميتا بأن تحية ... ما ان تزال بها النجائب تخفق
منى اليك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخفق (١)
هل يسمعني النضران ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق (٢)
ما كان ضرك لو مننت ورهطا ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
أوكنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم ان كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني ابيه تنوشه ... لله ارحام هناك تشقق
صبرا يقاد الى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

قام ابن هشام : فيقال — والله أعلم — ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر قال لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه " (٣) .

هذه القصيدة موضوعها عتاب الا أنها تتدفق عاطفة وتتفجر بكاء لان عتابها مشوب بلوعة الأخت الثكلى التي فدحتها المصيبة ولبسها الحزن والهم . وهكذا تكون العواطف زاخرة جياشة في القصيدة حين يكون شعور صاحبها متقدا واحساسه فيها قويا . ولطف صدق العاطفة من اكثر العوامل اثرا في روائع الادب الخالد العربي منه والعالمي وهناك الكثير من هذه الروائع في الادب العربي عامة والشعر خاصة ومنها رثاء مالك بن نويرة لاخيه متمم ورثاء الخنساء لاخيها صخر ورثاء الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم حيث ان فقدهم له أوقعهم في ذهول ودهشة وحزن عميق عبروا عنها بمراثيهم له ولا تزال هاشميات الكميت ودعبل وميمية الفرزدق من الشعر العربي الخالد لانها تفيض عاطفة صادقة ، ومما أضرم عاطفتها ابتغاء الاجر والمثوبة من الله لكون الممدوح له صفة دينية ولان الدافع الديني أقوى وأعمق في قلب الانسان .

يقول الدكتور الحوفي " أول ما يتميز به الادب القوي الصادق أنه تعبير عن العاطفة أو العواطف التي تجيش بنفس الاديب ، والادب الذي لا ينبع من العواطف أدب زائف

---

(١) الواكف السائل
(٢) الضنء الاصل . المعرق : الكريم
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥ .

يعوزه الصدق الشعورى وتعوزه الحرارة وقد يروق بهرجه وطلاوه ولكنه لا يسهر النفس ولا يستثير المشاعر » (١)

وقد تكلم النقاد عن دوافع العواطف الأدبية فقالوا : هى الرغبة والرهبة والطرب والغضب ورأوا أن أغراض الشعر تصدر عنها فمع الرغبة يكون المدح والفخر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع (٢) وقال دعبل الخزاعى فى كتاب له فى الشعر " ومن أراد المديح فبالرغبة ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء . (٣)

من هذا يتضح لنا أن فن المديح يرتبط بعاطفة الرغبة ضعفا وقوة وأقواها التى ترتبط بمقصد دينى يبعدها عن أطماع الدنيا التى تتنازع فيها الرغبات بين اقدام واحجام وعليه تصبح أشعار المدائح النبوية قمة فى الشعر لصدق عاطفتها الموحية حيث ان من يمدح شخصا ما لاسباب دنيوية رغبة كانت أو رهبة لابد ان يختلج فى نفسه نوازع ومشاعر بعدم اخلاصه فى مدحه حيث يظهر — لذى البصيرة بالشعر والمشاعر — التواء فى عاطفة الشاعر لان الشعر تصوير لما يدور فى نفس الشاعر وباطنه من خلجات ولئن استطاع الاديب الناثر أن يخفى هذه الخلجات فى نثره نوعا ما فان الشاعر لا يستطيع أن يخفيها فى شعره لان الشعر فيه لمسة خفيه لا ارادية خارجة عن مقدرة الشاعر ، لان الشاعر لا يتحكم فى نظم شعره بمقدار ما يوحى اليه من شعر يتلقاه حسب استعداده الفنى له . فالشاعر يلون شعره بثقافته وشخصيته ولكنه لا يتدخل فى خلقه وصنعه (٤) .

بعد هذا نقول ان العاطفة فى شعر المدائح النبوية عامة وزاخرة وهى متوافرة لدى كل شاعر مسلم له قليل من التدين . ولكن توافر العاطفة المشبوبة للشاعر لا تكفى وحدها لان تجعله من شعراء المدائح النبوية .. اذ لابد من عامل آخر خفى وهو " التلقى " وقد تنبه الشيخ النبهانى لهذة الناحية وسماها " التوفيق " حيث ان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يعد طاعة يثاب فاعلها ولابد من توفيق الله للعبد للقدرة على أدائها وبهذا فسر عدم صدور مدائح نبوية من كبار الشعراء كالمتنبى وأبى تمام والبحترى وغيرهم وقد ناقش النبهانى هذه الفكرة

---

(١) الاسلام فى شعر شوقى ص ٢٦١

(٢) دراسات فى النقد الادبى جـ ١ ص ١٦

(٣) العمدة جـ ١ ص ٧٩ الاستبطاء من ابطأ ضد اسرع ، القاموس المحيط مادة بطؤ .

(٤) لعل هذا هو الذى جعل الشعراء قديما ينسبون لانفسهم شياطين يوحون لهم بالشعر لانهم شعروا انه يلقى عليهم القاء .

فى مقدمة المجموعة النبهانية فقال " قال بعض العلماء ان سبب عدم مدح البعض من مشاهير الشعراء كالمتنبى وأبى تمام والبحترى للنبى صلى الله عليه وسلم انما هو علمهم أنهم عاجزون عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح فتركوا مدحه أدبا معه عليه الصلاة والسلام " (١) .

وبعد أن أورد الشواهد القرآنية وغير القرآنية على صحة هذا الرأى فى نفسه من أن الخلق جميعهم لو اجتمعوا لما استطاعوا أن يصلوا الى حقائق صفات الرسول صلى الله عليه وسلم " قال " ولكن السبب الصحيح الذى أراه لعدم مدحهم له عليه الصلاة والسلام ان مدحه من جملة الطاعات والعبادات فيحتاج للتوفيق من الله تعالى للعبد حتى يتيسر له فعله وهؤلاء وأشباههم لم يوفقوا لهذه الطاعة لعدم تأهلهم لها بسبب ما اتصفوا به من اخلاق الشعراء من نحو توغلهم فى الكذب بأبلغ العبارات فى المدح ان رضوا والذم ان غضبوا فضلا عن تعديهم على أعراض الناس وقذفهم المحصنات والتشبيب بمعينين من النساء والغلمان ونحو ذلك من السفاهات وكفى بذلك مانعا من مدح النبى صلى الله عليه وسلم مالم يتوبوا اذ الظلام والنور ضدان ففى آن واحد لا يجتمعان وكونهم من اكبر الشعراء ولا يقتضى تأهلهم لعبادة الله بمدح عبده ونبيه وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم فانا نرى كثيرا من الاغنياء لا يحجون ولا يزكون ولا يتصدقون ونرى بعكسهم كثيرا من الفقراء كما نرى كثيرا من الاقوياء لا يصلون ولا يصومون ولا يقومون الليل ونرى بعكسهم كثيرا من الضعفاء وما ذلك الا بسبب توفيق الله تعالى لكثير من الفقراء والضعفاء وعدم توفيقه لكثير من الاغنياء والاقوياء فكذلك يقال هنا : يحرم المتنبى وامثاله من الشعراء من هذا الخير العظيم فى مدح النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ليرزقه كثيرا من العلماء والصلحاء ممن بضاعتهم فى الشعر قليلة بتوفيق الله تعالى لهم " (٢) .

والى مثل هذا ذهب الدكتور الحوفى فى تعليله لتخلف أحمد شوقى عن أداء فريضة الحج بعد أن سار فى موكب الخديو عباس حلمى حتى وصل بنبها حيث اختفى فيها وقد بحث عنه الخديوى فى بنبها كثيرا فلم يجده لأنه عاد الى القاهرة .

يقول الدكتور الحوفى : " ولكن من حق شوقى أن نذكر أن تخلفه عن الحج لم يكن جحدا للفريضة أو استهانة بها بل كان جبنا وخوفا وتوهما للعجز وارجاء الى وقت آخر ثم كان فوق هذا كله عدم توفيق " .

---

(١) المجموعة النبهانية ج ١ ص ١٧ — ١٨ .

(٢) المجموعة النبهانية ج ١ ص ٨ — ١٩ ...

والشيخ النبهانى نفسه الذى انطلق بمدائحه النبوية انطلاقة لم يسبقه اليها غيره كان يجد فى شاعريته العجز عن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول أمره مع أن قصائده فى مدح زعماء الدولة العثمانية مشهورة وذائعة وقد أوضح الشيخ النبهانى عجزه هذا بقوله " وقلت قبل أن يوفقنى الله لمدحه " صلى الله عليه وسلم :

يقولون لى هلاّ مدحت محمدا ... رسول اله الخلق اعظمهم خُلُقَا
فقلت لهم ماذا أقول بمدحه ... وخالقه اثنى عليه وما أبقى (١)

وقد ذكر الشيخ النبهانى عددا من شعراء المدائح النبوية كان لهم الموقف نفسه بما قالوه فى ذلك ومنهم : ابن الفارض ولسان الدين بن الخطيب والشهاب أحمد بن خلوف التونسى القيروانى وأبو القاسم بن جزى أحد مشايخ لسان الدين والامام البوصيرى .

ومما قاله أبو القاسم بن جزى رحمه الله : -

أروم امتداح المصطفى فيردنى ... قصورى عن ادراك تلك المناقب
ومن لى بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لى باحصاء الحصا والكواكب
ولو أن أعضائى غدت السنا اذن ... لما بلغت فى المدح بعض المآرب
ولو أن كل العارفين تألبوا ... على مدحه لم يبلغوا بعض واجب (٢)

أقول ان العاطفة الدينية الموجودة لدى كل شعراء المدائح النبوية تكاد تكون واحده ولكنها تختلف بينهم حسب ثقافاتهم وانطباعاتهم الشخصية التى تظهر جليا فى اختلاف مدائحهم النبوية .

والعاطفة الدينية لدى الشيخ النبهانى ظاهرة بينه وقوية عارمة فى مدائحه النبوية فان من يقول قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أبياتها ألف بيت " وهى طيفة الغراء فى مدح سيد الانبياء " التى مطلعها :

نورك الكل والسورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الانبياء
علة الكون كنت أنت ولو لا ... ك لدامت فى غيبها الاشياء

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٤
(٢) المصدر السابق ...

ومن يقول قصيدة أبياتها أربعة وأربعون ومائة بيت وهى " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " التى مطلعها :

هواى طيبه لا بيضاء عطبول ... ومنيتى عينها الزرقاء لا النيل
عذراء جلت عن التشبيب اذ جليت ... هامت بها الخلق جيلا بعد جيل

ومن يقول قصيدة بلغت ثلاثة عشر بيتا ومائة بيت وهى " القول الحق فى مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم " التى مطلعها :

لمن ربح باكتناف المصلى ... علا السبع العلا شرفا وفضلا
رعاه الله منية كل نفس ... وحيا الله تربته وأعلى

وغيرها من المدائح النبوية المطولة . وله كالمخمس فى المولد النبوى والموشحات والرائيه الكبرى التى بلغت أبياتها خمسة وعشرون بيتا وسبعمائة بيت والرائية الصغرى التى بلغت ابياتها خمسة وعشرين بيتا وخمسمائة بيت فطول النفس هذا يدل على ظمأ عاطفى يصيب الشاعر وقت نظمه فلا يروى ظمأه الا بعد أن يقول كل ما يريد قوله مدحا وثناء على شخص الممدوح صلى الله عليه وسلم .

ومن امثلة مدائحه التى تفيض عاطفة بل ولها وحبا لجناب الرسول صلى الله عليه وسلم قوله فى خاتمة " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " :

سيد العالمين يا بحر جود ... قطرة من سخائه الاسخياء
هذه "طيبة" بمدحك قد طا ... لت وطاب الانشاد والانشاء
كلها وهى الف بيت قصور ... عنك ضاقت وانها فيحاء (١)
سكنتها أبكار غر المعانى ... منك فهى المدينة العذراء (٢)
كل معنى بلقيس والبيت صرح ... ومن الدر لا الزجاج البناء (٣)
سرت فيها بأثر شيخ امام ... قد أقرت بسبقة الشعراء (٤)
وبحسبى أنى المصلى وان الـ ... ـمنشد يها كانهم قراء (٥)

---

(١) قصور جمع قصر والعجز ففيه توريه والفيحاء الواسعة .
(٢) المدينة والعذراء من اسماء مدينته صلى الله عليه وسلم والمدينة فى الاصل المصر الجامع والعذراء البكر ففيهما توريه وشحها تسميه هذه القصيدة طيبة .
(٣) بلقيس اسم ملكة سبأ والصرح القصر .
(٤) شيخ امام هو شرف الدين البوصيرى .
(٥) بحسبى يكفينى . والمصلى الفرس فهو يأتى بعد السابق ومؤدى الصلاة ففيه توريه .

أنت عنى وعن ثنائى غنى ... ما لعلياك بالثناء اعتلاء
انما أنت سيد اريحى ... لك قبلى بالمادحين احتفاء (١)
واذا لم أكن بمدحك حسانا ... فهذى قصيدتى حسناء (٢)
لو رآها كعب لقال : سعاد ... امة من امائها سوداء (٣)
ما لها فى الكرام غيرك كفوء ... بان عنها الاكفاء والاكفاء (٤)
لم تزد قدرك الرفيع سوى ما ... زاد فى الشمس من سناها البهاء
هى أوصافك الجميلة ان كا ... نت قصيدا او لم تكنه سوداء (٥)

وفى ختام همزيته تفيض عاطفة الشاعر رقة وخضوعا وتذللا لمقام الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

رضى الله من رضيت ومن لم ... ترض عنه فالله منه براء
فارض عنى بالله واسمع وقل لى ... قد قبلناك أيها الخطاء
ومن الفوز أن أكون لديكم ... ثاويا لا يمل منه الثواء (٦)
ليت شعرى هل يقبل الله شعرى ... وجميعى عجب وكلى رياء (٧)
بك ارجو قبوله وقبولى ... محض فضل ولن يخيب الرجاء
انت شمس وفى سناك ظهورى ... غير مستغرب لانى هباء
كم فقير بلحظة منك أضحى ... عن جميع الورى له استغناء
قد اجزت المداح قبلى فكانت ... سنة واقتدى بك الكرماء
فاجزنى بما تطيب به نفسك فضلا ياسمح يا معطاء
لست أبغى غنى ولا قدر شعرى ... قدر جود المعطى يكون العطاء
ويحسبى صلاح دينى ودنيا ... ى وحسن الختام فيه اكتفاء

---

(١) الاريحى الكريم احتفاء اعتناء .
(٢) حسانا فيه تورية على انه مأخوذ من الحسن ولهذا صرف
(٣) كعب بن زهير رضى الله عنه وسعاد هى التى تغزل بها فلو رأى هذه القصيدة لفضلها على محبوبته لكونها فى مدح الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم .
(٤) بان انقطع الاكفاء جمع كفوء وهو لماثل الاكفاء من عيوب الشعر وهو الاسناد فى آخر البيت بمخالفة الاعراب وغيره .
(٥) القصيد ثلاثة ابيات فصاعدا الديوان ص ٨٦
(٦) ثاويا مقيما .
(٧) شعرى على العجب كبر فى النفس الرياء تحسين العمل ليراه الناس .

فعليك الصلاة تبقى من اللـــــ ـــه كما شاء كثرة وتشـــــاء
وعليك السلام منه علـــى قـــد رك قدرا لا يعتريه فنـــــاء
وعلى الاولياء آلك والصحـــ ـــب ومن للجميع فيـــــه ولاء
ماقضى الله فى الورى لك مدحـــا وله الحمد كله والثنـــاء (١)

وقد كان النبهانى يستقى عاطفته فى مدائحه من قريته — اجزم — المعروفه بتدينهـــا ومحافظتها على القديم وصعوبة قبولها لكل جديد ومن والده واستاذه الاول الشيخ اسماعيـــل النبهانى رحمه الله ثم من دراسته فى الازهر الشريف على كبار علمائه ومن مزامنته للسلطـــان عبد الحميد الذى كان يدعو الى جامعة اسلامية اساسها العاطفة الدينية لدى المسلميـــن ويكفى أن نذكر القبول الذى كانت تلاقيه مؤلفات النبهانى فى العالم الاسلامى حتى ان بعـــض المؤلفات كانت تطبع عدة مرات فى أماكن مختلفة وبعضها يطبعه بعض المحسنين ويوزعونـــه مجانا وكانت مؤلفاته تنتشر فى بعض البلاد ويكون لها السطوة على قلوب المسلمين حـــتى انهم كانوا يحرقون أى كتب قادمة مخالفة لكتب النبهانى كما حدث فى بلاد الهند وجنـــوب شرق آسيا ، وكل هذا دلالة بالغة على قوة العاطفة الدينية لدى المسلمين وقتها .

وتتجلى عاطفة الشيخ النبهانى الدينية فى تفننه فى مدح الرسول صلى الله عليـــه وسلم وفى معارضته لكبار شعراء المدائح النبوية كما سيأتى وفى صياغة بحور الشعر الستة عشـــر فى مدح الرسول مثل " البحر الطويل " وأجزاؤه فعولن مفاعيلن .. أربع مرات .. حيث يقول

أجل ليس للهادى الشفيع مماثـــل هو البحر لم يعرف له قط ساحـــل
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلـــن طويل نجاد السيف أروع باســـل (٢)

البحر البسيط وأجزاؤه : مستفعلن فاعلن .. أربع مرات : حيث يقول :

للمصطفى ملة دانت لها الملـــل وشرعه أشرقت من ثـــوره السبـــل
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعـــل بحر بسيط به بحر الورى وشـــل (٣)

---

(١) الديون ص ٨٩

(٢) النجاد حمائل السيف التى يتعلق بها كناية عن طول قامته وقد كان ربعة الى الطـــول واذا مشى مع الطوال طالهم صلى الله عليه وسلم والاروع من يعجبك بحسنه وجهاوة منظره وشجاعته والباسل الاسد والشجاع .

(٣) الوشل الماء القليل يتحلب من جبل او صخر ولا يتصل قطره .

وهكذا بحور الشعر الباقية ...

وتتمثل عاطفته الدينية أيضا في دفاعه عن الديانة الاسلامية وابانته عن محاسنها وسماوئ الديانات الاخرى وهو موضوع قصيدته " الرائية الكبرى في الكمالات الالهية والسيرة النبوية ووصف الملة الاسلامية والملل الاخرى " التي بلغت ٧٢٥ بيتا حيث ناقش اليهود والنصارى في عقائدهم وتكلم عن نواح متعددة من ديانة المسيحيين مثل التثليث وصلب المسيح وقولهم ان حكم الصلب تخليص آدم من خطيئته . وفي وصف الصليب وعبادتهم له وفي وصف الرهبان وفي القربان حيث يستحيل الخبز والخمر الى لحم عيسى ودمه عليه السلام وخنق القسيس للمريض عند اليأس من شفائه . والاعتراف وغيرها من معتقداتهم .

وتتمثل عاطفته الدينية أيضا في محاربته للمدارس التبشيرية وتحذير المسلمين منها مثل قوله :

الا انتبهوا فالقوم دسوا لدينكم ... دسائس كفر قد تغوا مرا غدرا (١)
واعظمها شرا مدارس في القرى ... وفي البدو والامصار قد نشرت نشرا
تربي لكم أطفالكم في حجورها ... وقد جعلت دور الضلال لهم دورا (٢)
فصار كثير منهم مثل اهلها ... سوى الزي والاسماء واتحدوا كفرا
الا فانظروا كم اخرجت من بنيكم ... زنادقة بالكفر قد ربحوا الخسرا
وصاروا من الاعداء لا فرق بينهم ... سوى أنهم في الدين اعظمهم ضررا (٣)

الى آخر القصيدة التي بلغت خمسة وأربعون بيتا وهي تفيض حسرة ولوعة على أولاد المسلمين محذرا ومنبها الاباء الى أن مسئولية أبنائهم تقع على عاتقهم وهو كثيرا ما يلجأ الحجاج في بيان أضرار المدارس التبشيرية مستشهدا بما يظهر من أبناء المسلمين المتعلمين من جهلهم للكفر والكفار وافتخارهم بذلك وغيرها من الامور التي أخذها عليهم مستشهدا في ابطال بعضها بأدلة من الكتاب والسنة .

وتتمثل عاطفته الدينية ايضا في استحداثه أغراضا اسلامية جديدة للشعر .

---

(١) الدسيس اخفاء المكر كما في لسان العرب وفي معنى ذلك الدسيسة والجمع الدسائس من الدس ومعناه كما في القاموس الإخفاء ودفن الشيء تحت الشيء الغير الذي لم يجرب الامور .

(٢) الدر الحلبيب .

(٣) الديوان ص ٣٣٩ .

يقول الشيخ النبهاني في خاتمة رائيته الكبرى : " الخاتمة في التغزل بمحاسن حبيبتنا ملة الاسلام وهو لهذه القصيدة مسك الختام ولا اعلم احدا سبقني الى هذا الاسلوب البديع من شعراء الاسلام .

والقصيدة بلغت واحدا وثمانين بيتا يقول فيها :

لعمري لئن فضلت دين محمد ... وملته لم آت بدعا ولا نكرا (١)
وان هام قلبي في محبتها فكم ... بها من كرام الناس من مغرم مغري

وفيها يقول :

واني لم أخدع بظاهر حسنها ... وما دون تحقيق فؤادي بها اغترا
ولكن على علم بسر جمالها ... تعشقتها قدما وكنت بها ادرى
ففي كل معنى قد حوت حسن يوسف ... وقد زهرت اسرارها بأبي الزهراء
وكل فتى مما غدا في غرامها ... زليخا وكل الارض قد اصبحت مصرا
وقد اشرقت بين البرايا شموسها ... كما اطلعت في كل افق لها بدرا
وعفوا ايا ذات المحاسن انني ... حصرت ولم أبلغ بمدحي لك الحصرا (٢)
وقصر شعري عن محاسنك العلا ... وان عمر البحر الطويل الى الشعري (٣)
ولست على الاقران مفتخرا به ... ولكن لي في خدمة المصطفى الفخرا
انا فسح عن خير الانام ودينه ... واعتصم الناس قد رهبوا الكفرا (٤)

وتتمثل عاطفة النبهاني الدينية - كذلك - في خصومته مع جهال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وقد كانت أسباب الخصومة دينية بحتة وقد تكلمنا في ذلك حديثا عن كفاحه الديني في الفصل الخامس من الباب الثاني كذلك عن خصومته ايضا مع محمد شكري الالوسي وقد نالـه من هذه الخصومة الكثير من الاذى الفعلي والقولي .

---

(١) العمر بفتح العين هو العمر بضمها وهو الحياة ولم يستعمل في القسم الا مفتوح العين واللام للتأكيد

(٢) حصرت عييت وعجزت وقوله ولم ابلغ بمدحي لك الحصرا من حصر الشيء يحصره حصرا استوعبه واحاط به .

(٣) البحر الطويل هو بحر هذه القصيدة وفيه تورية .

(٤) الديوان ص ٣٥٢ - ٣٤٨ .

وتتمثل عاطفته الدينيه أيضا فى أثارته المسائل الخلافية القديمة ودخوله طرفا فيها فكتب قصيدته البائية التى بلغت ١٥٣ بيتا فى الرد على كل من الشيخ أبى المظفر يوسف بن محمد بن مسعود العبادى العقيلى المروزى نزيل دمشق والشيخ محمد بن يوسف اليمنى اليافعى حيث أنتقصا من الامام تقى الدين السبكى فى كتابه " شفاء السقام فى زيارة خير الانام " الذى رد به على الامام تقى الدين أبن تيميه فى كتابه " منهاج السنة " . وقصيدة النبهانى مطلعها :

الحمد لله حمدا أستعد به ... لنصرة الحق كى أحظى بمطلبه
بك أستعنت الهى عاجزا فأعن ... أبغى رضاك فأسعفنى بأطيبه
فأن تعن ثعلبا يسطو على أسد ... أو تخذل الليث لا يقوى لثعلبه
وأننى عالم ضعفى ولا عمل ... عندى يفيد ولا علم أصول به ،
ورأس مالى جاه المصطفى فبه ... أدعوك يارب أيدنى له وبه
وأرحم علماء الدين قاطبة ... من أهل سنته ساه ومنتبه
منهم أبو الحسن السبكى ناصره ... سقاه غيث الرضى الهامى بصيبه
أهدى شفاء سقام فى زيارته ... شفى صدور جميع المؤمنين به
ورب غرغوى ذمة حسدا ... به غرور وقاح الوجة أصلبه (١)
ساء خلائقة ضلت طرائقه ... قد تاه بالتيه فى تيهاء سبسبه (٢)
فقال ما قال فى السبكى من سفه ... قبحا له من سفيه القول أكذبه (٣)

وتتمثل عاطفة النبهانى الدينية أيضا فى أتلافه لجميع أشعارة التى قالها فى مدح زعماء عصره ولم يثبت فى ديوانه الا قصيدة واحدة فى مدح الشيخ الاكبر محى الدين بن العربى . بلغت واحدا وثلاثين بيتا يقول فيها :

يا نسيما سرى الى قاسيونا ... حى حبرا بسفحه مدفونا (٤)
حى عنى بالصالحية بحرا ... ملأ الكون لؤلؤا مكنونا
حى عنى شمسا هنالك صينت ... طبق الشام نورها والصينا (٥)

---

(١) أصلبه أى جامده من قلة الحياء

(٢) خلائقه طبائعه . طرائقه مذاهبه . تاه ضل التيه المفازة التى يتاه فيها التيهاء الارض المضلة السبب المفازة والارض المستوية البعيدة .

(٣) الديوان ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ (٤) قاسيون جبل دمشق الشام فى سفحه بلدة الصالحية وفيها قبر سيدنا محى بن العربى رضى الله عنه .

(٥) طبقها ملأ هـا .

هى تحت الثرى بجلق غابت ... وعلا نورها علينا لـ (١)
ذلك الحاكمى مولاى محى الدين ... أكرم به اماما أمينا (٢)
فاز من فتح ربه بعلوم ... عرفته الاكوان والتكوينا
كم حكى من علوم غيب بكشف ... عن شهود لم يحكها تخمينا
كان فيها اليقين ظنا فلما ... جاءها صير الظنون يقينا
رب قوم لم يعرفوه فعاشوا ... عن سنا فضله المنير عمينا
مثل ناموسة تريد لنور الشمس ... ستر اعن أعين الناظرينا (٣)

وأخيرا فأن جميع مؤلفات النبهانى المنظوم منها والمنثور تمثل عاطفته تمثيلا واضحا فمن أطلع عليها أو على مقدماتها لمس صدق العاطفة وقوة الغزيرة فى عرض موضوعاته

وحدة الشخصية :

من يستعرض حياة الشيخ النبهانى رحمة الله يجد أنه اتخذ طريقا واحدا لم يغيره فالتدين كان السمة الاولى له لم يتغير عنه حتى نهاية حياته ولم تكن عنده عواطف أو نزعات أخرى تتنازع عاطفته الاولى ـ التدين ـ كما نجده عند غيره من الشعراء فهناك دعوة مقامة ضد أبى نواس وأبى العتاهية موضوعها "ازدواج الشخصية" وأخيرا أقيمت دعوى مماثلة ضد أحمد شوقى أقامها ضده الدكتور محمد حسين هيكل فى تقديمه للشوقيات وقد دافع الدكتور الحوفى عن شوقى فى هذه الدعوى فى كتابة "الاتجاه الروحى فى شعر شوقى" (٤) منكرا أن يكون لشوقى شخصيه مزدوجة .

أما الشيخ النبهانى فأن هذه الدعوى لا تنطبق عليه فعاطفته الدينيه أصيلة وثابته لم تتغير فى يوم ما وهو الذى يوصى بأتلاف شعره الذى قاله فى غير مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يثبته فى ديوانه بل كثيرا ما كان يمحو كل ما يدل على شهرته وعلو مقامه . وقد كانت تأتيه مراسلات من مختلف أنحاء العالم الاسلامى وكلها تثنى عليه مظهرة لمكانته العلمية والاجتماعية ولكنه أهملها خوفا من مداخلة الرياء لما تحمله من ثناء وأثبت منها ما ورد من السادة الاشراف مع حذف الفاظ الثناء والتشريف .

يقول الشيخ النبهانى "تنبيه" أعلم قبل الشروع فى الحديث عن مكاتيبهم

---

(١) الثرى التراب الندى جلق دمشق الشام . عليين أعلى الجنة
(٢) الحاكمى منسوب لحاتم طى جده
(٣) الديوان ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .
(٤) الاتجاه الروحى فى شعر شوقى ص ١٠ ـ ٢٢

أن منها ما يشتمل على الثناء الجميل فى حق هذا الفقير بدون أستحقاق منى لذلك حقيقة وأنما هو من حسن ظن أولئك السادات وأثبات ذلك منى فى كتابى — وان كان قبيحا ومن قبيل قولهم " مادح نفسه يقرئك السلام " وفيه اقتداء ببعض الذين أثبتوا مثل ذلك فى مؤلفاتهم لحسن نياتهم مع أنى حذفت منها الفاظا كثيرة من الاطراء والثناء الزائد الظاهر كذبه وعدم موافقته للواقع ونفس الامر وانما حملهم عليه حسن الظن وقد أبقيت بعض الالفاظ التى تحتمل التأويل ، وأسأل الله العفو والعافية . وهو حسبنا ونعم الوكيل(١)

فالنبهانى هوى الذى يسيّر قلمه حيث هواه وعاطفته الدينية فيحجم عن التأليف فى علم الادب لان النفع الاخروى فيه قليل حيث يقول (ولم يخطر لى التأليف فى علم الادب مع امكان ذلك نظما ونثرا لكون النفع الاخروى فيه قليل الان وان كان من وسائل معرفة العلوم الدينيه لان المؤلفات الموجودة منه ليست بقدر الكفاية فقط بل هى أكثر من الكفاية بأضعاف مضاعفة ولذلك لا ينبغى لعلماء المسلمين الان تضييع الاوقات فى التأليف فى ذلك وما أشبهه من العلوم الالية والفنون العقليه وترك المقصود بالذات وهو الامور الدينية ولا سيما التى تناسب هذا الزمان وما طرأ فيه على الاسلام وأهله من هجوم الكفر والاضاليل والبدع والاباطيل فيجب على علماء المسلمين السالمة عقائدهم من الزيغ المبادره الى تأليف مؤلفات تحفظ عقائد الاسلام وتدفع عنها الضلالات والاوهام ولا سيما مشايخنا واخواننا علماء الازهر والمحفل الانور فان هذه البلايا التى طرأت على الدين هى الآن فى بلدهم مصر أكثر منهم من سائر بلاد المسلمين فبعد أن كانت معدن الرشاد ومنها يتفرع الى العباد كثر فيها فى هذه الأيام فى الدين الفساد وصار ينشر منها الى سائر البلاد (٢)

ولا شك أن فى هذا النص القول الفصل لكل من يشتبه فى صدق عاطفته الدينية .

الافكـــار :

من يستعرض حياة النبهانى الثقافية يجدها عامرة لكثرة المؤلفات التى أطلع عليها ففى قريته حفظه أستاذه ووالده القرآن وبعض المتون وفى تعلمه فى الازهر نجد من إجازاته أنه قد قرأ أمهات الكتب فى مختلف الفنون وقد كان بداية مؤلفاته كتاب " الشرف المؤبد لآل محمد صلى الله عليه وسلم " فقد حدثنا النبهانى أنه كان يختلف الى مكتبات استامبول ليجمع منها المعلومات ومنها بدأت حياته العلمية . ومن يقرأ مؤلفات النبهانى خصوصا فى المسائل الخلاقية القديمة أو التى أختلف عليها حديثا أو المسائل الشرعية التى يسير

(١) اسباب التأليف من العاجز الضعيف ص ٣٤٣

(٢) أسباب التأليف من العاجز والضعيف ص ٢٣٦

الناس عكسها نجده يكثر من الاستشهاد بالمؤلفات والنقول ٠ خصوصا فى كتابه " شواهد الحق فى الاستغاثه بسيد الخلق صلاة الله وسلامة عليه " وكتابه سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين صلى الله عليه وسلم " وكتابه " حجة الله على العالمين يجد أن النبهانى يستشهد بكثير من المؤلفات لتأييد رأيه ٠ كما أنه قد تهيأ له الاطلاع على كثير من المخطوطات النادرة بحكم مركزه العلمى والاجتماعى من العالم الاسلامى فقد كانت تأتيه المخطوطات من مختلف أنحاء العالم الاسلامى حيث يطلع عليها ثم يردها لأصحابها ٠٠ أضف الى ذلك جلده وصبره على القراءة والاطلاع الذى لا يعرف الملل ثم طريقته فى التأليف حيث كان يستعين بأربعة كتاب من محكمته ليساعدوه فى نقل المعلومات من المصادر ثم يراجع ما كتبوه عن طريق المقابلة مما أدى الى اطلاعه على كتب أكثر بدلا من شغل وقته بالنقل أما عمله اليومى فى رياسته لمحكمة الحقوق العليا فى بيروت فقد كان لا يستغرق أكثر من ساعتين ٠

كل هذه الظروف كانت فرصا للشيخ النبهانى ليزيد من ثقافته وأطلاعة ومن يقرأ كتبه يجد ثقافة واسعة ومتمكنة ثم نجده يبحث الموضوع من مختلف جوانبه لانه تعرف على الاراء المختلفه فيه ٠ هذا وقد كانت ثقافة النبهانى الواسعة موجهة توجيها صوفيا وهذا ما تلمسة فى مدائحه النبوية بكل وضوح من حيث نظرته لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وربما يكون هذا هو السبب الذى أعطى النبهانى زخما (١) قويا فى مدائحه فتراه يقول ويطيل فتجاوز القصيدة المائة البيت وبعضها المئات ومع هذا لا تحس منه تعبا ولا لهاثا وكأنه أنتهى بالهمة والنشاط اللذين أبتدأ بهما حيث أن الصوفية نظروا للرسول صلى الله عليه وسلم من عدة زوايا فغاضت قرائحهم حسبما رأوا ، أما أهل السنة فقد نظروا اليه من زاوية واحدة ربما تكون ضيقة فلم يجدوا ما يتغنون به من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا فينطبق عليهم المثل الذى يقول " ضاق شبر عن مسير " ٠

وتتمثل أفكار النبهانى فى النواحى التاليه :

(١) الفكر الصوفى :

يظهر الفكر الصوفى واضحا فى مدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم فالنبهانى ينظر للرسول نظرة صوفيه مغرقه فى المحبة والتقديس لدرجة أنه يجلعه فى المرتبة العليا بالنسبة لكل المخلوقات ويمد جميع الكائنات مخلوقة من نوره عليه الصلاة والسلام مثل قوله : ـ

نورك الكل والورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الانبياء

(١) الزخم بفتح فسكون :ـ الدفع ٠

علة الكون أنت ولـــــــولا ... ما تدامت في غيبها الأشياء
منتهى النقص في العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء
جزت قدرا فما أمامك خلق ... فوقك الله والبرايا وراء (١)

ويتمثل فكره الصوفي في قوله :ـ

نسمات القبول هبت عليهم ... رنحتهم كأنها صهباء
هي كانت أرواحهم وبها كا ... ن لهم بعد موتهم احياء
قبل القبض منهم بسط البسـ ... ـط لهم حين بادت البيداء

الى أن يقول :ـ

لا ببنت الكروم هاموا ولم يعـ ... ـبث بهم أهيف ولا هيفاء
انما الله والنبي هواهم ... وجميع الأكوان بعد هباء (٢)

وقوله أيضا :ـ

حيث يثوي محمد سيد الخلـ ... ـق وفي بابه الورى فقراء
يقسم الجود بينهم ومن اللـ ... ـه أتاهم على يديه العطاء (٣)
وهو سار بين العوالم لم تحـ ... ـصره من روض قبره أرجاء
فلديه فوق السماء وتحت الـ ... أرض والعرش والحضيض سواء (٤)
هو حي في قبره بحياة ... كل حي منها له استملاء (٥)
ملأ الكون روحه وهو نور ... وبه للجنان بعد امتلاء (٦)

وقوله أيضا :ـ

قل لمن يسأل الحقيقة لا ينـ ... ـفك منه عن أحمد استفتاء (٧)

---

(١) الديوان ص ١٢ .
(٢) الديوان ص ١٣ـ ١٤ .
(٣) يقسم الجود ورد وفي الحديث أنما أنا قاسم والله المعطي .
(٤) الحضيض قرار الأرض .
(٥) الاستملاء الاستمداد .
(٦) ملأ الكون روحه لان الخلائق خلقت كلها من نوره صلى الله عليه وسلم الديوان ص ٤٦
(٧) قال في لسان العرب الحقيقة ما يصير اليه حق الامر ووجوبه وبلغ حقيقة الأمر أي يقين شأنه وفي شرح المواهب للزرقاني عند قوله أبرز الحقيقة المحمدية نقلا عن لطائف الكاشي يشيرون بالحقيقة المحمدية الى الحقيقة المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة لها أي للحقائق والسارية بكليتها في كلها سريان الكلي في جزئياته .

هى سر بعلمة أستأثر اللـــــه ... وحارت فى شأنها العقـــلاء
قد علمناه عبد مولاه حقـــا ... ليس لله وحـده شركـــاء
ثم لسنا ندرى حقيقة هذا الـ ... ـعبد لكن من نوره الاشياء (١)

وقولـــــه :

هو نور الانوار أصل البرايـــا ... حين لا آدم ولا حـــواء (٢)
هو فرد بالله والكل منـــه ... ليس ثان هنا وليس ثنـاء (٣)
منه عرش ومنه فرش ومنـــه ... قلم كاتب ولوح ومـــاء (٤)
منه كل الافلاك كانت ومـــادا ... رت به والذوات والاسماء (٥)
منه نور النجوم والشمس والبـــد ... ر ومثل البصائر البصـــراء (٦)
فهو للكل والد وأبـــو الخلـ ... ـق جميعا وهم له أبنـــاء

الى أن يقول :

فيه آدم جنى المنوحاســـوا ... فهو جان قد جاءه الإجتباء (٧)
فيه النار للخليل جنانـــا ... قد أحيلت وعكسه الاعـــداء
خيرة الله منتقى كل خلـــق ... ولكل من الاصول أنتقـــاء
خيرة الله واصطفاه خيـــارا ... من خيار ومن صفاء صفـــاء
حل نورا بآدم فأستنار الصلـ ... ـب منه والجبهة الغـــراء
وسرى فى الجدود كالروح سـرا ... صانه الامهـات والابـــاء
هو كنز الرحمن فى كل عصـــر ... هم جميعا أرصاده الامنـــاء

كل هذه الابيات أنتقيتها من مجموع خمسين بيتا من همزيته الالفية المسماه "طيبة الغراء فى مدح سيد الانبياء" والنبهانى قد ضمن هذه الابيات المعانى الصوفية

(١) الديوان ص ١٩
(٢) نور الانوار أى الذى خلقت منه جميع الانوار والبرايا جمع بريه وهى الخليقة .
(٣) ثناء أى عدد أثنين أثنين والمراد أنه صلى الله عليه وسلم لا ثانى له واحدا أو مكررا .
(٤) العرش هو أعظم مخلوقات الله تعالى جميعها فى داخله والعرش المراد به الارض قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض فراشا والقلم الذى أمره الله فكتب سائر المقدرات فى اللوح المحفوظ .
(٥) الافلاك جمع فلك وهو مدار النجوم فى كل سماء
(٦) البصائر أنوار القلوب والابصار أنوار العيون وقد خلقت كلها من نوره صلى الله عليه وسلم والبصراء أى أبصار البصراء .
(٧) جانه من جنى الفواكة وجنى الذنب ففيه توريه .

عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه المعاني عبارة عن أحاديث نبوية ذكرها في مواضع مختلفة من كتبه (١)

والحقيقة أن مؤلفات النبهاني التي زادت على الستين ، وكلها في شؤونه صلى الله عليه وسلم لو جمعت ورتبت لجاز أن نسميها دائرة المعارف المحمدية فأنه لا يكاد يترك شاردة أو واردة في شؤونه صلى الله عليه وسلم الا ذكرها وهذه ميزة لا أعلم أحد من علماء المسلمين سبقه اليها .

وأفكار النبهاني الصوفية في مدائحه نجدها في أمهات كتب الصوفية مثل الكبريت الاحمر في عقائد الشيخ الاكبر للامام عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه حيث ان المؤلف أستقاه من كتاب " الفتوحات المكية للشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه في كتاب اليواقيت والجواهر " للامام عبد الوهاب الشراني (٢) ، وفي كتاب أيقاظ الهمم في شرح الحكم " للشيخ احمد بن محمد بن عجيبه الحسني . (٣)

ومن أراد الرجوع لهذه المسائل وغيرها من أفكار النبهاني الصوفية في مدائحه النبوية فليراجع كتب النبهاني فأنه يرشد الى المصادر التي أستقى منها معلوماته .

(٢) السيرة النبوية :

لا شك أن جميع من يتعرض لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم لا بد أن يتعرض لسيرة حياته لان حياته طيبة بالمآثر والمعجزات أبتداء من ولادته ودعوته للاسلام ومغازيه حتى وفاته . والشيخ النبهاني الذي نظم المطولات من القصائد في مدح الرسول كان لا بد أن يتعرض لسيرته صلى الله عليه وسلم التي تحمل بين طياتها فضائله ومكارمه التي يتخذها الشاعر منطلقه في المدح ولا تخلو جميع قصائد النبهاني من مقتطفات من السيرة النبوية مركزاً على

---

(١) راجع جواهر البحار للنبهاني ص ٤٥ ـ ٥٧ ـ ٣٦٨ ـ ٢٤٣ ـ ٢٥١ ـ ٢٥٥
وراجع حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين للنبهاني ص ٣٨٣ ـ ٣٩٣ .

(٢) ج ٢ ص ١٨ ، ٤٧ ج ١ ص ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٥٦

(٣) ص ١٦١ ، ١٦ ، ١٧٣

معجزاته الخارقة كتسبيح الحصى ونبع الماء من بين أصابعه وغيرها .

وتعد قصيدته "الهمزية الألفية "المسماه" طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء" تسجيلا كاملا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده حتى وفاته ، ويظهر ذلك من العناوين البارزة للقصيدة "مولده وجملة من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم" "رضاعه صلى الله عليه وسلم" ، "شق الملائكة صدره الشريف صلى الله عليه وسلم" ، "موت أبويه ثم احياؤهما وايمانهما به صلى الله عليه وسلم" ، "تبشير الأنبياء وغيرهم به صلى الله عليه وسلم" ، "حالة الأديان وقت بعثه صلى الله عليه وسلم" ، "بدء الاسلام ووصف القرآن" ، "السابقون للاسلام" ، "عداوة قريش له ولاصحابه صلى الله عليه وسلم" ، "انشقاق القمر بدعائه صلى الله عليه وسلم" ، "عرضهم عليه تمليكه عليهم صلى الله عليه وسلم" ، "دخوله مع قومه الشعب صلى الله عليه وسلم" ، "وفاة أبي طالب ومناقبه" ، وفاة السيدة خديجة وفضائلها رضى الله عنها" ، "خروجه صلى الله عليه وسلم الى "الطائف" ، "فصل في توحيد الله سبحانه وتعالى" ، "الاسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم" ، "مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم" ، "هجرته الى المدينة صلى الله عليه وسلم" ، "وصوله الى المدينة المنورة ومدح أصحابه صلى الله عليه وسلم" ، "اذن الله له ولأصحابه بالقتال عليه الصلاة والسلام" ، "غزوة بدر الكبرى" ، "غزوة المريسيع لبني المصطلق من خزاعة" ، "غزوة الأحزاب" ، "عمرة الحديبية" ، "عمرة القضاء" ، "غزواته صلى الله عليه وسلم لليهود" ، "الفتح الأعظم فتح مكة زادها الله شرفا" ، "غزوة حنين" "غزوة تبوك" ، "غزواته التي لم يحارب فيها صلى الله عليه وسلم" ، "مراسلاته للملوك صلى الله عليه وسلم" ، "وفود رؤساء القبائل عليه صلى الله عليه وسلم" ، حجه صلى الله عليه وسلم حجة الوداع" ، "وفاته صلى الله عليه وسلم" . "فصل في جملة من معجزاته صلى الله عليه وسلم" ، "فصل في شمائله الشريفة صلى الله عليه وسلم" ، "تفضيله صلى الله عليه وسلم في مواطن القيامة" ، "فصل في التوسل اليه بمن يعز عليه" ، "ثم جعل للقصيدة خاتمة بلغت ثلاثة وستين بيتا جعلها خلاصة لما في قلبه من حب وولعه محمدي . وهي تعد قمة من قمم شعر المدائح النبوية .

قال النبهاني : وبعد هذا النظم من الله على بزيارته صلى الله عليه وسلم .

وللشيخ النبهاني "النظم البديع في مولد الشفيع" تكلم فيه عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وما رافق ولادته من معجزات ختمها بالدعاء للاسلام والمسلمين والسلطان وعماله بالتوفيق والصلاح .

وفي رائيته الكبرى أفرد عناوين بارزة عن مقتطفات من السيرة النبوية .

نماذج من السيرة النبوية فى مدائح النبهانى :

يقول فى همزيته تحت عنوان " رضاعه صلى الله عليه وسلم " :ـ

جـاء كالدرة اليتيمة فـردا ... يـتم الكون حسنه الوضـاء (١)
فأبتـه كل المراضـع لليتـ ... ـم وقـد ذل فى الورى اليتمـاء
أرضعته فتاة سعد ففـازت ... برضيع ما مثلـه رضعـاء (٢)
ارضعته والعيش أغبر فاخضـ ... ـر وعيش المعيشـة الغـبراء (٣)
ركبت فى المحيء شـر أتـان ... سبقتها لضعفها الرققـاء
ثم عادت تمد وعليها فلم تـد ... رأتـان أم سابق عـداء ؟
وشياه لها بمحل شديـد ... مصر ماء الثرى أتاهـا الشـراء
أقبلت لبنا شباعا وأهـل الـ ... ـحى مع شائهم جياع ظمـاء (٤)
بركات ارخت عليها رخـاء ... فى زمان غال الجميع الغـلاء (٥)

وقال أيضا تحت عنوان " موت أبويه ثم احياؤهما وايمانهما به صلى الله عليه وسلم :

ماتت ام النبى وهو ابن سـت ... وأبوه وبيته الأحشـاء
ثم أحياهما القدير فحـازا ... شرف الدين حمذا الاحيـاء
وهما ناجيان من غير شـك ... فترة أو حيـاة أو حنفـاء (٦)

---

(١) اليتيمة التى لا نظير لها ويتمه الحب عبده وذله الكون المكونات المخلوقات الوضاء كثير الحسن والبهجة من الوضاءة .

(٢) فتاة سعد هى السيدة حليمة السعدية .

(٣) العيش الاغبر عيش الغلاء والاخضر عيش الرخاء .

(٤) شاة ملبن وملبنة : ذات لبن .

(٥) غال أهلك ـ الديوان ص ٢٥ .

(٦) الفترة ما بين كل نبيين وأهل الفترة ناجون ولم يجاوز سنهما العشرين سنة أو حياة اى احياهما الله تعالى فآمنا به صلى الله عليه وسلم كما ورد فى الحديث وحنفاء على دين ابراهيم عليه السلام فنجاتهما محققة على كل حال .

رضى الله عنهما وكرام النا ... س منا ولتسخط اللؤماء
ليس يرتاب فى نجاتهما الا رقيع ... فى الدين أو رقماء (١)
كيف ترجى النجاة للناس ممن ... ما أتى والديه منه النجاء ؟
كم أتانا بأمر بر ونهى ... عن عقوق وهو الفتى المئتاء (٢)
ومحال تكليفه الناس خيرا ... هو منه حاشا وحاشا براء
أيرون الدعاء ما كان منه ... لهما أو دعا وخاب الدعاء
بل دعا الله واستجاب له ... فحيا تلك القبور الحياء (٣)

وقد ناقش النبهانى مسألة احياء والدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابه " الأنوار المحمدية من المذاهب اللدنية " ، فقال " وقد روى أن آمنه آمنت به صلى الله عليه وسلم بعد موتها ، روى الطبرانى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل الحجون كئيبا حزينا فأقام به ماشاء ثم رجع مسرورا قال سألت ربى عز وجل فأحيا لى أمى فآمنت بى ثم ردها وكذا روى من حديث عائشة أيضا احياء أبويه صلى الله عليه وسلم حتى آمنا به أورده السهيلى والخطيب . وقال القرطبى فى التذكره ان فضائله صلى الله عليه وسلم وخصائصه لم تزل تتوالى وتتتابع الى حين مماته فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه ، قال : وليس احياؤهما وايمانهما ممتنعا عقلا ولا شرعا ، فقد ورد فى الكتاب العزيز احياء قتيل بنى اسرائيل واخباره بقاتله ، وكان عيسى عليه السلام محيى الموتى ، وكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم أحيا الله على يديه جماعة من الموتى ، واذا ثبت هذا فما يمتنع ايمانهما بعد احيائهما ، ويكون ذلك زيادة فى كرامته وفضيلته صلى الله عليه وسلم ، وقال الامام فخر الدين الرازى : ان جميع آباء محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين ، ومما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات وقد قال تعالى : " انما المشركون نجس " فوجب ألا يكون أحد من أجداده ، مشركا ، ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقى حيث قال :ـ

---

(١) يرتاب يشك والرقيع الاحمق ناقص العقل ومؤنثه الرقعاء .
(٢) المئتاء المجازى المعطاء .
(٣) الديوان ص ٢٦ والحياء ممدود ضرورة من الحيا بمعنى المطر .

حبا الله النبي مزيد فضل ... على فضل وكان به رؤفا
فاحيا أمه وكذا أباه ... لا يمان به فضلا لطيفا
فسلم فالقديم بذا قدير ... وان كان الحديث به ضعيفا (١)

وفى قصيدته الرائية الكبرى التى بلغت ٧٢٥ بيتا ضمنها بعض معالم سيرته صلى الله عليه وسلم وضمنها " والثناء على الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة السابقين للاسلام وما وقع لهم من التعذيب والتغريب والآلام رضى الله عنهم " ، " وذكر الهجرة ومشروعية الجهاد فى الكفار ومدح المجاهدين المهاجرين وأنصاره " ، " وذكر غزواته وفتوحاته صلى الله عليه وسلم " ، " وذكر الوفود وحجة الوداع ووفاته صلى الله عليه وسلم " ، أما باقى العناوين فهى تخص أهل الأديان ومناقشتهم .

ومما قاله فى " ذكر الوفود وحجة الوداع ووفاته صلى الله عليه وسلم " قوله :-

وكم غمرت قوما غمار هباته ... ونالت وفود العرب نائلة الغمرا (٢)
وحج بعام العشر أفضل حجة ... بها ودع الاصحاب والبيت الحجرا
وعاد كبدر التم تم كماله ... وفى طيبة صارت سحابته قبرا
وما حجبت عن قومه غير شخصه ... وأنواره قد عمت البر والبحرا
وخلف شرعا مثله ظل هاديا ... تبوأ منهم فى مكانته الصدرا (٣)
ومن قبره خير القبور أمدهم ... بنور وطيب اخجلا الزهر والزهرا (٤)
فأعظم به أفقا به خير نير ... به ثغر دين الله ما زال مفترا (٥)
أيا صفوة الرحمن يا خير خلقه ... وأعظمهم فضلا وأرفعهم قدرا
لك الفخر كل الفخر اذ كنت عبده ... وسدت على كل الأنام ولا فخرا (٦)

---

(١) الانوار المحمدية من المواهب للمدنية ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٢) غمره البحر والماء علاه . الغمار جمع غمر وهو الماء الكثير ومعظم البحر ونائله الغمر عطاؤه الكثير .
(٣) تبوأ نزل وسكن المكانة المنزلة . الصدر صدر الانسان او صدر المجلس فيه توريه .
(٤) الزهر النجوم جمع ازهر وهو النير .
(٥) الافق الناحيه من السماء والارض والنير المضئ ومنه قيل للشمس والقمر نيران . الثغر المبسم وافترضا حكاى تبسم وابدى أسنانه .
(٦) ولا فخر اى لا فخر اعظم من ذلك ولا يفتخر بذلك بل افتخاره صلى الله عليه وسلم بعبوديته لله تعالى .

وكل كمال فى الخلائق كلهم ... فانت له أصل وأنت به أحرى
نعم أنت مخلوق ولست بخالق ... ولكن لك الرحمن قد وكل الأمرا
وسواك شمس العالمين عمدهم ... فلو فقدوا امدادها أظلموا فورا
وأنك عبد الله قاسم فضله ... على خلقه تعطيهم القل والكثرا
وأقبح كل العالمين جهالة ... جهول لمن يلف من غيره خبرا
ومهما يكن فى جهلهم بك منكر ... فأعظم منه جهلهم ربهم نكرا
قريبا يزول الجهل عنهم متى دأوا ... لوائك تتلوه شفاعتك الكبرى
عليك صلاة الله مقدار فضله ... تدوم تفوق الكم والكيف والحصرا (١)

(٣) ترتيب أفكاره :

من يطلع على مدائح النبهانى متتبعا ما يقتضيه بعضها من تسلسل الأفكار يجد أن أفكاره العامة متسلسلة فهو فى همزيته الألفية مثلا يتبع التسلسل التاريخى فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كما بينا فى العناوين البارزة لقصيدته هذه ولكنه لا يتقيد بالعنوان المثبت فى نظمه فمثلا هنالك عنوان نصه " وصوله الى المدينة المنورة ومدح أصحابه صلى الله عليه وسلم" ومع ذلك يقول تحت هذا العنوان :-

(١) هم سيوف للمصطفى ورماح ... وهو رأس وهم له أعضاء
(٢) أيدوه وبلغوا الدين عنه ... فهم الناصحون والنصراء
(٣) وهم حارب البرية ما قا ... ل هلموا الا أجابوا وجاءوا
(٤) قاد منهم نحو العداة أسودا ... رجفت من زئيرها الأنحاء
(٥) كل ليث لا يرهب الموت لا تنـ ... ـفك منه الى الوغى رغباء
(٦) عجل ان دعى وان فرقن ... فيه عن لحوقه ابطاء
(٧) واذا ما ادلهم ليل حروب ... أسفرت منه طلعة غراء (٢)
(٨) هم سيوف لله جل تعالى ... ولها فى يد النبى انتضاء (٣)

وفى البيت الاول يصف الصحابه بأنهم سيوف ورماح للمصطفى وأنهم طوع ارادته

---

(١) الديوان ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .
(٢) غراء بيضاء الطلعة .
(٣) الديوان ص ٤٧ .

كأعضائه ، وفى البيت الثانى يذكرهم بتبليغ الدين الى الأمم الأخرى بأمانة واخلاص ثم يعود فى البيت الثالث حتى التاسع يصف شجاعتهم فى الحروب وأنهم سيوف الله التى قطعت رقاب المشركين ، وهذه وغيرها من صفات الشجاعة والفروسية • ومع هذا كتبت تحت عنوان " وصوله الى المدينة المنورة ومدح أصحابه صلى الله عليه وسلم " فوصف أصحاب الرسول بالشجاعة فى الحروب وتبليغهم الدعوة الاسلامية الى الأمم الأخرى وأنهم قطعوا الشرك والمشركين لا يكون تحت هذا العنوان بل يكون تحت العنوان الذى يليه وهو " اذن الله له ولأصحابه بالقتال صلى الله عليه وسلم " ، أو يكون وصف شجاعتهم بعد أول غزوة وهى "غزوة بدر الكبرى" ، ثم بتبليغهم الدعوة الاسلامية للأمم الأخرى الذى لم يكن الا بعد اقامة الرسول فى المدينة مدة طويلة ثم تجهيز غزوة مؤته التى سبقتها غزوات وحروب كثيرة منها بدر الكبرى وأحد والخندق وغيرها • وكان المفروض أن يذكر هذه الأبيات تحت عنوان " اذن الله له ولأصحابه بالقتال صلى الله عليه وسلم" أو بعد غزوة بدر الكبرى • أما البيت الثانى فكان الأولى أن يذكره فى الحديث عن معركة مؤته أو فى الحديث عن وفاته صلى الله عليه وسلم من حيث ان الاسلام بقى قويا بعده لأن أصحابه أدوا الأمانة بعده بتبليغهم الاسلام للأمم الأخرى • ويظهر عدم ترتيب الأفكار لدى النبهانى بشكل واضح فى مدائحه التى تكون قصيدة واحدة ولا يجزئها الى عناوين بارزة مثل قصيدته المسماة "القول الحق فى مدح سيد الخلق" فانه بعد أن تكلم عن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة تكلم عن قوة الرسول صلى الله عليه وسلم وبطشه واستشهد بمصارعته لركانة حيث يقول :

وصارعه ركانة وهو ليث فعاد بصرعه فى الحال وعلا (١)

فى حين أن مصارعة الرسول صلى الله عليه وسلم لركانة تمت فى مكة قبل الاسراء والمعراج (٢) •

وهكذا نراه فى جميع مدائحه النبوية ، ولكن من يدقق النظر يجد أن النبهانى يلتزم ترتيب الأفكار الكلية فى مدائحه كما هى فى العناوين البارزة لبعض

---

(١) الديوان ص ١٠٥ •

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ •

مدائحه مثل "الهمزية الألفية" وفي كلامه عن الفكرة لا يلتزم بما حدث بعدها أو قبلها .

والحقيقة أن هذه ظاهرة بارزة في الأدب الصوفي عامة والمدائح النبوية خاصة ، وذلك لأن المتصوفة اذا كتبوا في موضوع ما يكتبون ما يفتح الله بل عليهم وما يلهمهم فيه من واردات فهم يتعرضون لنفحاته القدسية ويكتبون ما يتلقون عنه سبحانه وتعالى حتى اذا أفاق الصوفي وشاهد عدم الترتيب فيما كتب أبقاه على حاله لأنه كتبه في حالة القرب والأنس الالهي الذي تصفو به النفس وتكون بعيدة عن ثقل الجسد وكدرته الباعثه على التفكير لذلك نرى الصوفي يعد كتابته هذه مقدسة ولا يجوز تبديلها .

ولعل هذا هو ما نلاحظه في أشعارهم سواء مدائحهم الالهية أو النبوية حيث تكون قصائدهم مختلة الوزن والصياغة ولكنها غنية بمعانيها وعاطفتها ومن يراجع ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري تحقيق الأستاذ يحيى حقي يجد مثل هذا وقد نبه الأستاذ يحيى حقي في مقدمته الى القصائد المختلة الوزن والصياغة . وقد ذكر الامام عبدالوهاب الشعراني في كتابه "الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر" شيئا من هذا .

فقال في "الباب التاسع والثمانين من الفتوحات والباب الثامن والاربعين وثلاثمائة منها" : واعلم أن ترتيب أبواب "الفتوحات" لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكري وانما الحق تعالى يجلي لنا على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره ، وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيه بقوله تعالى "حافظوا على الصلوات الصلاة والوسطى" [1] ، بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة تتقدمها وتتأخرها .

في الباب الثاني من "الفتوحات" اعلم أن العارفين انما كانوا لا يتقيدون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الالهية مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامتثاله وألفته على حساب ما حَدَّ لها ، فقد تلقى الشئ الى ما ليس من جنسه امتثالا لأمر ربها" .

وقال في الباب السابع والأربعين : "اعلم أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر وانما هي من طريق الفيض الالهي" .

---

(١) البقرة آية ٢٣٨ .

ومن شاء الاستزاده فى توضيح العبارة الأخيرة فليراجع اليواقيت والجواهر [١] .

الحكمـــة : المقدمـــة :

يقول قسطاكى بك فى باب " الحكم " وهو من أشرف موضوعات النظم لكنها من أسهل أبوابه وأقرب رتبه منالا .. اذ هى حقائق أدبية وزواجر ونواه يفرغها الشاعر فى قالب النظم فلا يحتاج لأجلها الى كد قريحة أو اعمال فكرة فى استخراجها أو تأليفها أو ابتكارها .. لأن الشاعر لا يصل الى النظم فى هذا الباب حتى يكون قد امتلأت ذكراته من أمثال الأمم وأقوال الحكماء ، والأمثال والحكم هى عند جميع الأمم ومنذ أقدم العصور فلاتجد حكمة أو مثلا عند أمة الا وتجده بعينه أو بمعناه عند غيرها وهى هيهات أن تقوى على استنباط حكمة غير مسبوقة فيتحصل من ذلك أن الشاعر مهما أجهد قريحته لابتكار حكمة فلا ينظم الا كلاما سمع معناه وسبق الى محفوظه ثم نسى أنه طبع فى ذاكرته فبقى فيها معناه كما يبقى أثر الحروف على الورق وقد زال لون الحبر بيد أن الحكم لشرف غايتها تفعل فى النفوس الفعل الذى يتوخاه الشاعر [٢] .

الحكمة فى مدائح النبهانى النبوية :

نلاحظ أن نصيب الحكمة فى مدائح النبهانى النبوية قليل نسبيا خصوصا فيما يتوجه فيها لوصف وجدانه ولواعج محبته ، وربما يكون استغراق عاطفته وتفكيره فى التعبير عن وجدانه ومحبته للرسول صلى الله عليه وسلم قد صرفه عن صوغ الحكم ، أما فى مدائحه النبوية التى يتطرق فى بعضها الى الوعظ والارشاد فهو يكثر من الحكم والأمثال ولكنها ليست كثرة مطلقة لأن فكره يكون مشغولا فى استحضار الحجج والبراهين ليرد بها هجمات خصومه وما قد يثيرون من شبهات لذلك لا يكون هناك وقت كاف لاستحضار الحكمة والاستشهاد بها بل جل فكره يكون منحصرا فى استحضار الدليل لابطال حجة الخصم وتزييف دليله ومع هذا نرى مدائحه النبويه لم تخل من الحكمة وهى مستمدة غالبا من آية قرآنية أو حديث نبوى شريف أو مثل عربى أو حكمة مأثورة سابقة والنبهانى لديه حصيلة وافرة من هذا وهو يعتنى بالأقوال المأثورة خاصة النبوى منها واطلاعه الدائم على الأحاديث

---

(١) " ج ١ ص ١٥/ ٢١ " منه .

(٢) منهل الوراد فى علم الانتقاد قسطاكى الحمصى ١ ص ١٨٠ .

الشريفة جعله يستخلص منها حكما مأثورة ألحقها بديوانه سماها " نموذج الحكم النبوية " وتتجلى فى مائة حديث نبوى شريف .

ومن أمثلة النوع الأول من مدائحه وهى التى يصف فيها وجدانه ولواعجه النفسية موشحته التى قالها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

حى يا سعد قبابا بالحمى ... تحتها ربع المنى لم يندرس
جادة الغيث اذا الغيث همى ... لازمان الوصل بالاندلس

والموشحة بلغت بيتين ومائة بيت ، ومع ذلك لم ترد الحكمة فيها الا فى قوله يصف هواه وشجنه :

واذا ليل غرامى أظلما ... ولنفسى لم أجد من مؤنس
أجد الراحة فى شعرى فما ... نفس الكربة الا نفسى (١)

فالحكمة فى البيت الثانى مأخوذة من المثل الذى يقول " ماحك جلدك مثل ظفرك " .
وقوله يصف الرسول صلى الله عليه وسلم :

كل آى الرسل من آياته ... قد رأى ذلك أرباب العقول (٢)
قل لمن يزعم مثلا : هاته ... ليس بين الخلق مثل الرسول
بدء هذا الدهر مع غاياته ... فوق أمليه له حكم الشمول (٣)

وقوله لمن يجحد مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم أو ينقص من فضله ولا يبالغ فى مدحه والثناء عليه :

ما تفيد العين ان عم العمى ... عين قلب مظلم منتكس (٤)
ولسان ناطق مهما نما ... ليس يجدى مع فؤاد أخرس (٥)

---

(١) الديوان ص ٢٧٥ الحكمة فى البيت الثانى .
(٢) الضمير فى آياته راجع الى الرسول .
(٣) الديوان ص ٢٧٥ للحكمة فى البيت الثانى .
(٤) المنتكس المقلوب .
(٥) الديوان ص ٢٧٨ الحكمة فى البيتين .

وقولـــــه :

انما اللـــــه المعين المستعـــــان ... من يشـأ يضلل ويهدى من يشاء (١)

ويختم النبهانى موشحته هذه ببعض الحكم المنعكسة عن الامه التى يختزنها فـى قلبـه لما يلاقيـه من زمانه وأهله فيقول :

يا عمادى أنت أدرى بالزمـــــان ... ما لأهليـه وفاء وعهـــــــود (٢)
كلما اخترت فتى للصـدق منـــان ... قابلوا المعروف منى بالجحـــود
ضعف الايمان فيهم والأمـــــان ... ودهم مذ وجد واهم وعـــــود (٣)

وفى موشحته التى مطلعها :

لست أنسى زمنا قد سلفـــــــا ... فيـك يا مكـة بالعيش الهـــــنى
اذ من المروة أسعى للصفـــــا ... وبذات الخال وجدى عمـــــنى (٤)

وقد بلغت أبياتها بيتين ومائة بيت لم ترد الحكمة الا فى بيتين منها الأول فـى قولـه يصف فضائل الرسول ومعجزاته التى لم يدركها الأعمى ، والأعمى الحقيقى هو أعمى القلب لا أعمى البصر يقول النبهانـى :

أعجزتهم سلفا والخلفـــــا ... فاستوى القدم وأذكـى لســـن (٥)
وهدتهم غير قلب أغلقـــــا ... والعمى فى القلب لا فى الأعـــين (٦)

الحكمة فى البيت الثانى وهى مأخوذة من قوله تعالى " فانها لا تعمى للأبصـــار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " (٧) .

---

(١) الديوان ص ٢٧٨ .
(٢) يا عمادى المقصود هو الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٣) المذق الخلط الجدوى المعطيه الديوان ص ٢٨٠ هذه الحكم شبيهة بحكم المتـنى التى عقد لها الاستاذ قسطاكى الحمصى موازنة نقديه مع حكم اخرى ليزيد ابـن الحكم الثقفى والشيخ نصيف اليازجى وقد انتهى الاستاذ قسطاكى لتفضيل حكـم المتنبى على غيره راجع منهل الوراد فى علم الانتقاد ج ١ ص ٢٣٦ ـ ٢٤٤ .
(٤) ذات الخال المراد بها الكعبة . (٥) القدم العيى البليد واللسن الفصيح .
(٦) الديوان ص ٢٨٥ . (٧) سورة الحج آية ٤٦ .

وتظهر الحكمة أيضا في قوله :

رب مجنون بدعوى عاقل ... لا يرى فضل الأئمة الفحول (١)

أى : قد يكون لأحد الناس كلام العقلاء ولكنه مجنون في استعمال هذا الكلام كمن يناقش فضل الائمة الفحول وخدمتهم للدين .

والنوع الثانى من مدائح النبهانى هى التى يتطرق فيها للوعظ والارشاد ويكثر فيها من الحكم كثرة نسبية ففى رائيته الكبرى عقد فصلا بعنوان نصيحة المسلمين وتحذيرهم من الفتن العصرية التى أعظمها المدارس النصرانية " فهو يقول مثلا :

عقاربهم دبت لكم فتحفظوا ... ولا تحسبوا جمرا أتوكم به تمرا
وقد زعموا مع لينهم حب خيركم ... فلا تخدعوا من فى الأفاعى رأى خيرا ؟

والحكمة فى هذا البيت شبيهة بقول الشاعر :

ان الأفاعى وان لانت ملامسها ... عند التقلب فى أنيابها العطب

وقوله :

ومن يدعى الاسلام وهو مثابر ... على الغى لم يبرح به الشهر والدهر

وهذا شبيه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا تزده من الله الا بعدا " ، وقوله : " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه " (٢) .

وقوله أيضا :

أعدوا لهم من قوة ما استطعتم ... فلا يقبل المولى لاهمالكم عذرا

وهو مأخوذ من قوله تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " (٣)

ومن أمثلة حكمه أيضا قوله فى الرائيه الكبرى :

ولكن حفظ الدين شرط محتم ... فلا خير فى الدنيا اذا ضاعت الأخرى

---

(١) الديوان ص ٢٨٥ .
(٢) رواه البخارى منتخب الصحيحين من كلام سيد المرسلين ص ٣٨٩ .
(٣) سورة الانفال آية ٦٠ .

وقولـــــه :

وهذا الذى من سخطه تشهد ونـــه جرائركم ردت فجرت لكم جمـرا (١)

وقولـــــه :

وكل فتى مناغدا فى غرامهـــــا زليخا وكل الأرض قد أصبحت مصرا(٢)

وقولـــــه :

ولم أدخر كنزا سواك وانمـــــا جعلت ثباتى فى محبتك الذخـــرا

ومن حكمه فى رائيته الكبرى يصف دعوة الأفغانى لاصلاح الدين •

قولـــــه :

كفـيرا ن قصر أفسدت فيه جهدهـــا ترى نفسها قد أصلحت ذلك القصرا

وقولـــــه :

وذلك حق قصدهم فيه باطـــــل وخير كلام قد أرادوا به شـــــرا

والحكمة فى البيت الثانى وهى شبيهة بالحكمة التى تقول " كلمة حق يراد بهـا باطـــــل " •

وقولـــــه :

وأشقى الورى من ضل فى ليل غيـــه وما قلد السارى الذى شاهد البدرا

وقولـــــه :

وما قط شاهدنا حمارا مسابقـــــا جوادا وتيسا صارع الليث والنمـــرا

وقولـــــه :

لقد أخطأ وأين الثريا من الثـــرى ؟ وما لبغاث الطير أن يشبه النسـرا

وقولـــــه :

سفينة دين الله فيها نجاتـــــكم اذا فار تنور الفساد لكم فـــورا

---

(١) الضمير فى ســـخطه هو الله سبحانه وتعالى الجرائر جمع جريرة وهى الجناية ورد فى الحديث انما هى أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومـــن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفســـه •

(٢) فى غرامها يقصد الملـــة الاسلامية •

وقولـــــــه :

تجارت بهم أهواؤهم كالذى جـــرى ... به كلب يعدى اذا عض الغـــيرا (١)

وقولـــــــه :

كأسنان مشط كلهم فى ضلالهـــــم ... فلا أحد يبدى على أحد فخـــــرا

وقولـــــــه :

ولست أبالى ان أفـز بجهادهـــــم ... اذا فاتنى فتح لرومية الكـــبرى (٢)

وقولـــــــه :

فنون جنون الجاهلين كثـــــــيرة ... وأقبحها قرد يرى نفسه بـــدرا !!

وقولـــــــه :

فلم ير ثور راحم الأســـد قبلـــــه ... ولا حدأة من قبله راحمت نسرا (٣)

وقولـــــــه :

فقد أصبح الاسلام ما بين أهلـــــه ... غريبا وفى أوطانـه لم يجد نصـــرا

وسيعود غريبا

وفى هذا المعنى جاء الحديث الشريف "بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء".

وفى ختام الرائية الصغرى أورد النبهانى عدة حكم يظهر فيها تحسره على عصره وتغير حاله فيقـــول :

فيارينا أخذ ل كل من رام دينـــــا ... ودولتنا بالسوء وامنح لنا النصـــرا

ففى كل وقت نحن فى حاجة بنـــــا ... لفضلك ان أهملتنا لم نجد خـــيرا

مضى عصرنا شر العصور وانـــــه ... بنسبة هذا العصر أكرم به عصـــرا

---

(١) فى الحديث تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه أى يتواقعون فـــى الأهواء الفاسده ويتداعون فيها تشبيها بجرى الفرس والكلب بالتحريك داء معروف يعرض للكلب فمن عضه قتله قاله فى النهاية .

(٢) بجهادهم يقصد جماعة الافغانى .

(٣) المهجو فى هذا البيت والذى قبله هو الشيخ محمد عبده .

مفهوم هـذا البيت مأخوذ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم " خير القرون قرنى هـذا ثم الذى يليه ثم الذى يليـــه " .

أرى ذمه فرضـا اذا ما ذكرتـــــه ... فان قسته باليوم أو ليته شكـــرا
تبدلت الأحوال من كل وجهـــــة ... وأصبح عرف الدين بين الورى نكـــرا
وصار تقى القوم أحقر قومـــــه ... وصار شقى القوم أرفعهم قـــــدرا
وكان الرياء فى أن يرى العبد صالحـــا ... فصار الرياء فى أن يرى فاسقا جهـــرا
فكم من تقى صار يظهر نفســـــه ... شقيا لكيما يتقى بالشـــقا الشـــرا
وكم من شقى حين يوصف بالتقـــــى ... تبرأ حتى لا يهان ولا يـــــزرى
وكم كان قبل اليوم فيها منافـــــق ... على غيـه من خوفه أسبل الســـترا
فلما غدا فى سربه اليوم آمنـــــا ... يكشف مخازيه غدا يظهر الفخـــرا
وكل غدا فى الناس حرا بزعمـــــه ... وهل ترك القهار من خلقه حـــرا
متى كان حرا وهو مقهور قـــــادر ... على رغمه يجرى مقاديره قهـــــرا
هو العبد وابن العبد والعبد جـــده ... عبودية لا تقبل العتق والابـــرا (١)
وما سيد حقا سوى الله انـــــه ... له الحكم فى الدنيا له الحكم فى الاخرى (٢)

هذه الأبيات تمثل الحكمة فى النوع الثانى من مدائحه وهو ما يتوجه بالوعـــظ أو الزجر فى أمر من الأمور اذ أن دواعى الاستشهاد بالحكم يكون أدعـــــى مما لو كان شعره فى وصف أحاسيســـه وشعوره ووجدانـه .

ولو راجعنا مفهوم الحكمة فى اللغة لوجدنا صاحب القاموس المحيط يقـــول (الحكمة بالكسرة العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والانجيل (٣) .

وفى لسان العرب : الحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم " ان من الشعر لحكمة " ـ أى : ان فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهمـــا ،

---

(١) المراد بالابرا ما يقارب العتق من فك القيد المعنوى عمن لك عليه حق من تـــرك ذلك الحق فعبودية العبد لربه لا تقبل التبرى منها وزوال الملكية عنه بوجه مـــن الوجوه فكيف يكون من هذا حاله حرا .

(٢) الديوان ٣٩٧ ـ ٣٩٨ .

(٣) القاموس المحيط مادة " الحكم " .

قيل أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها أو الحكم هو الشيخ المجرب المنسوب الى الحكمة والحكمة العدل ورجل حكيم عدل حكيم وأحكم الأمر : أتقنه ويقال للرجل اذا كان حكيما : قد أحكمته التجارب ، والحكيم المتقن للأمور (١)

وفي القرآن الكريم وردت كلمة " الحكمة " تسع عشرة مرة في سور مختلفة منها قوله تعالى " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا . (٢)

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية " أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود وأوتي ادراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال وذلك خير كثير متنوع الألوان . (٣)

ويقول الشيخ القاسمي في تفسير هذه الآية " قال كثيرون : الحكمة اتقان العلم والعمل وبعبارة أخرى : معرفة الحق والعمل به قال أبو مسلم الحكمة فعلة من الحكم وهي كالنحلة من النحل ورجل حكيم اذا كان ذا حجا ولب واصابة رأى " ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " اذ بها انتظام أمر الدارين . وفي ايلاء هذه الآية لما قبلها (٤) أشعار بأن الذي لا يغتر بوعد الشيطان ويوقن بوعد الله هو من آتاه الله الحكمة " . (٥)

ووردت كلمة " الحكمة " في قوله تعالى " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون " . (٦)

يقول سيد قطب : " الحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ووزن الأمور بموازينها الصحيحة وادراك غايات الأوامر

---

(١) لسان العرب مادة حكم .

(٢) البقرة آية ٢٦٩ .

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب تفسير للآية .

(٤) وهي قوله تعالى " الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم .

(٥) تفسير القاسمي للآية .

(٦) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

والتوجيهات .. وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزكاهم بآياته . (١)

وفي تفسير قوله تعالى : " ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل " (٢) .. يقول سيد قطب الحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها وادراك الصواب واتباعه وهي خير كثير . (٣)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما أخلص عبد العمل لله أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " وفي رواية أخرى " من اتقى الله أربعين صباحا طافت روحه في الملكوت ورجعت اليه بأطراف الحكمة " ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا : " الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت " وفي رواية أخرى " الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها " .

نستطيع الآن أن نقول : ان كل ما ورد في معنى الحكمة من معنى لغوي أو قرآني أو نبوي يعطينا معاني جديدة للحكمة خلاصتها " الرأي السديد الذي يقود صاحبه لفهم تعاليم الاسلام فهما ايجابيا " والذي لا يقوده عقله وبصيرته لفهم الاسلام وتمثله يعد معطلا لهذه القوة التي خلقها الله لمعرفته ، وفي هذا المعنى يقول تعالى " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (٤) .. أي : ان أساس الادراك في الانسان هو معرفة الله سبحانه وتعالى والاهتداء بتعاليم رسله ومن لا يقوده عقله وادراكه للايمان بالله وما أتى به رسله فكأنما عطل غاية وجوده وعطل قوة عقله ولذلك يقول تعالى يصف حال الكافرين وتحسرهم على عقولهم التي لم يهتدوا بها الى تعاليم الاسلام : " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير " . (٥)

ومن هذا المفهوم الاسلامي نقرر أن كل قول يحض على الاسلام ويتفق معه هو من الحكمة وكل قول يختلف ويتعارض مع الاسلام ليس من الحكمة ، وعليه تكون مدائح النبهاني النبوية من الحكم .

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١ ص ١٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٨ .

(٣) في ظلال القرآن جـ ١ ص ١٣٩ .

(٤) سورة الذاريات ٥٦ .

(٥) سورة الملك آية ١٠ .

الصـــور الشعرية :

هى الطريق الذى يسلكه الشاعر والأديب لعرض أفكاره وأغراضه عرضا أدبيـــا مؤثـــرا" .

فالصورة الشعرية تنقل الى القارئ عاطفة الشاعر وتجربته وفكرته التى انفعل بها وكلما كانت الأفكار نابعة من المشاعر والانفعال كانت أكثر حرارة وقوة فالمشاعر والوجـدان لا تنظر الى الأمور بالعين المجرده وانما تراها بعين الخيال السحرية حيث تـــرى الحقيقة الواحدة فى ألوان شتى وأبعاد كثيرة ، فالصورة التى يلونها الخيال ويبرزها من خلال المشاعر والأحاسيس والعواطف ويرقى بها عن أصلها الحقيقى هى ما تسمـــى " الصورة الشعرية " فالصورة الشعرية تتكون من أمرين .

الأول المعانى والأفكار والمشاعر من حيث هى مادة للصورة أو المضمون .
والثانى العبارات المصورة لهذه المعانى والمشاعر أو الألوان والأذواق المصورة لهذه المعانى والمشاعر وهى الشكل أو الصورة .

ولابد لجانب المشاعر أن يطغى على المعانى والأفكار حيث ترتفع درجة التأثير النفسى فوق التفكير العقلى وكلما زادت حرارة المشاعر زادت درجة تأثيرها على المضمون ومن هنا يقال " ان أعذب الشعر أكذبه " حيث ان الصورة الشعرية تكون منقـــادة للمشاعر والأحاسيس انقيادا يؤثر على ما بها من حقائق حتى يسقطها فتبقى الصـــورة الشعريه شعلة متقده فى هذه المشاعر التى لا ينافسها فى تلوين الصورة يطابعهـــا غيرها .. هذا اذا كان مضمون الصورة الشـعرية من أفكار ومبادئ من غير القـــيم والمبادئ الدينية التى لا يجوز أن تطغى العواطف والمشاعر عليها لتغير منها ، ومـــن هنا قالوا " ان الشعر يضعف فى منازع الخير " ، لان المضمون يكون قويا فلا تطغى عليه الصورة أو الشكل ويقوى فى منازع الشـر لأن الشاعر يكون طليقا فى تلوين الصورة الشعرية باللون الذى يريده دون أن يتقيد بمبدأ أو فكرة تحد من انطـلاقته الشعرية ومن هنـا أيضا نلاحظ أن الشعر يقصر فى معانى الوعظ والارشاد وفى ايقاظ الأمم وبعثها مـــن غفلتها وينجح النثر الذى يستجيب للأفكار ويظهرها أكثر من الشعر الذى يستجيـــب للعواطف والأحاسيس ولربما يكون هذا كله أحد الأسباب التى جعلت من القـــرآن نثرا لا شعرا وأبعدت عن الرسول صلى الله عليه وسلم صفات الشعراء .

يقول الدكتور نايل " وكلما زادت حرارة المشاعر زادت درجة التأثير وارتفعـــت القيمة الحقيقية للأدب وللصورة الأدبية خاصة . ولقد تكون قوة الانفعال عاملا كبيرا فـــى

التقاط الصورة الرائعة والكلمات المعبرة حتى يخيل لك أن هذه الصورة والكلمات تفد اليك وحدها وتنثال عليك من تلقاء نفسها ولعل ذلك هو السر فى أن لغة الساخط الغاضب أروع تأثيرا أو أشد وقعا مع أن حالة السخط والغضب ، قل أن تدع للانسان فرصة الاختيار والتحبير وتنسيق الصور والعبارات (١) .

والانفعال فى صور المدائح الشعرية النبهانية واضح ولكنه لا يتخذ طابع الغضب الذى يثير الهجاء بل هو يظهر فى عدة وجوه هى :

الوجه الأول :

تسخير أدبه المنثور والمنظوم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يؤلف فى موضوع آخر مع قدرته على ذلك .

الوجه الثانى :

قصر ديوانه على غرض المدائح النبوية فقط ولم يذكر فيه أى قصيدة قالها فى أغراض الشعر الأخرى مع جودتها واعتداره بل استغفاره عما نظمه فى غير المدائح النبوية .

الوجه الثالث :

طول نفسه فى المدائح النبوية حتى ان قصائده بلغت المئات وليس له قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أقل من أربعين بيت .

الوجه الرابع :

افتتانه بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم افتتانا شهد له به أعلام عصره ويتجلى انفعال النبهانى فى مدائحه بعدة صور منها مطالع بعض قصائده ومقدماتها مثل مطلع قصيدته " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء حيث يقول :

نورك الكل والورى اجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء
رحمة الكون حيث أنت ولولا ... ك لدامت فى غيبها الأشياء

---

(١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٨٠ .

منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء
لم تزل فوق كل فوق مجدا ... بالترقى ما للترقى انتهاء
جزت قدرا فما أمامك خلق ... فوقك الله والبرايا وراء
خير أرض ثويت فهى سماء ... بك طالت ما طاولتها سماء (١)

فهذه الأبيات خصوصا أولها تفيض ولها واحتراما لحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يسترسل الشاعر فى التعبير عن حبه فى صور مدائح وفضائل للرسول صلى الله عليه وسلم لم يسبقه اليها غيره وهى تمثل الشاعر وقد وقف فجأة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فأول ما يرى من الشمس ضوؤها وكأن الرسول فى نظر الشاعر كالشمس اذ تسبق أنواره جسمه فى الظهور والشاعر لا يستطيع أن يستحضر مثل هذه المعانى لو لم ينفعل فى نفسه انفعال محبة وشوق فكما أن الذرة ينتج عنها قنابل ذرية مدمرة كذلك ينتج عنها طاقة ذرية تعالج الأمراض وتحرك المصانع وتفعل ما يعجز غيرها عنه من مصادر الطاقة ، ومثلها ـ الانفعال اذ منه ما يولد غضبا وثورة مع العدو ومنه ما يولد محبة وشوقا مع الحبيب وكلا الانفعالين ظهرا فى مدائح النبهانى حيث أن الانفعال الأول يظهر فى هجائه لمحمود شكرى الألوسى الذى يمنع السفر الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يصدم الشاعر بوجدانه وأحاسيسه لذلك هجاه الشاعر هجاء مقذعا منه قوله :

الى أن رمى مجنونهم برجيمه ... على الناس فى تأليفه ذلك السفرا (٢)
وما وصلت أرجاسه غير قومه ... به وبهم أرجاسه حصرت حصرا
وسمها أبا نوا عذرهم بجنونه ... نصدقهم فيه ولا نقبل العذرا
فكان عليهم قيده بسلاسل ... وأن يحجروه عن فظائعه حجرا
فمن أطلق الكلب العقور فانه ... هو المخطئ الجانى الذى فعل العقرا
أتى بكتاب الشتم لا العلم داعيا ... الى لعنه بين الورى كل من يقرا
عدو رسول الله أرضى عداته ... ومنى ومن أحبابه أوغر الصدرا
ومن حمقه أو كفره قال انه ... الهى وقد أكثرت فى مدحه الشعرا

---

(١) الديوان ص ١٢ .

(٢) مجنونهم يقصد شكرى الألوسى حفيد صاحب التفسير المعروف بتفسير الألوسى والألوسى الحفيد ألف كتابا فى الرد على النبهانى سماه "غاية الاماني فى الرد على النبهانى" .

ولو حل مدحى للنبى بسفره ... للوشه تهأله وله سفرا (١)
ومع شحنه من نظم كل مجازف ... بشعر اذا حققته تلقه بعدا
فمن مدح خير الخلق ما راح منشئا ... ولا منشدا بيتا ولا منشدا شطرا

الى أن يقول :

وهلا عفا عنا لذنب يزعمه ... لخدمتنا روح الوجود أبا الزهرا
فلو كان من نسل المجوس عذرته ... وقلت أمرؤ يبغى لأجداده ثأرا
ولكن نراه يدعى خير نسبة ... وأم الفتى منه بنسبته أدرى (٢)
فمن ذا رأى فى الناس شخصا مواليا ... لقوم يرون الحب فى جده كفرا ؟!!
ومن ذا رأى فى الناس شخصا معاديا ... فتى بمعالى جده أنفق العمرا ؟!!
ولكنه عشواء تخبط خبطها ... بليل من الأهواء قد فقد البدرا (٣)
وأعقل منه الكلب يستر رجسه ... وهذا رأى فى نشر أرجاسه فخرا
كتابى لخير الخلق قد جاء صابرا ... وهذا لأعداء النبى أتى نصرا(٤)

ونستطيع أن نعد قصيدته الرائية الصغرى التى هجا فيها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده رشيد رضا من هذا النوع من الانفعال وكذلك الرائية الكبرى فى هجاء اليهودية والنصارنية.

وأما النوع الثانى من الانفعال الذى ولد محبة وهياما بالرسول صلى الله عليه وسلم فهو باقى ديوانه الذى يمدح به الرسول صلى الله عليه وسلم مدحا يفيض

---

(١) قال النبهانى : قال فى كتابه المذكور عنى : انى مدحت النبى صلى الله عليه وسلم بمدائح كثيره ولكنه لا ينقل منها شيئا فى كتابه لئلا يلوثه بها فانظر هذا الضلال المبين وانظر هذا التهتك فى الدين وانظر هذه الاستهانة بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم اجمعين ايمكن ان يقول هذه العبارة مسلم فى قلبه محبة وتعظيم له صلى الله عليه وسلم بل هذه العبارة الخبيثة التى صدرت من هذا الخبيث لا تصدر من النصارى واليهود ولا أدرى اذا عرضت على العلماء الاعلام هل يفتون ببقائه مسلما أو بخروجه بها من دين الاسلام .

(٢) يدعى شكرى الألوسى انه من الأشراف .

(٣) عشواء الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط بيدها كل شئ .

(٤) الديوان ص ٣٩١ـ٣٩٣ .

رقة وعذوبة ولوعة .

ومن أمثلة تمثله فى مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم الناتج عن انفعال المحبة فى مشاعره وأحاسيسه قوله فى همزيته الألفية :ـ

سيدى يا أبا البتول سؤال ... من فقير جوابه الاعطاء (١)
جئت أبغى منك النوال وعندى ... منك يا أعلم الورى استفتاء
ما تقولون سادتى فى محب ... مطل الصيف وعده والشتاء
كل عام يقول كدنا وكاد الـ ... ـوصل يدنو أما لمكاد " انتهاء
قصرت عن خطا الكرام خطاه ... فى سبيل الهدى وطال الحفاء
وهو عار مما يقى الحر من أعـ ... ـال خير لاكسوة أو كساء (٢)
وفقير الأعمال والمال والحا ... ل فقير فى ضمنه فقراء
ما اجتدى قط من سواكم نوالا ... سيء من سواكم الاجتداء (٣)
وأتاكم يبغى نداكم وقد عـ ... ـم البرايا من بحركم أنداء (٤)
يبتغى الحب يبتغى القرب يبغى ... كل خير قد ناله السعداء
يبتغى أن تحيل منه الخطايا ... حسنات من جودك الكيمياء
يبتغى عيشة لديكم يطيب الـ ... ـسر فيها وتحصل السراء
يبتغى فى جواركم خير موت ... ناله الصالحون والشهداء
وأتاكم مستشفعا بأخيكم ... جبرئيل ومن حوته السماء
وبأولادكم رقية عبد الله منهم ... وللبتول ارتقاء
أم كلثوم زينب القاسم أبرا ... هيم نعم البنات والأبناء
وبأهل العباء منهم على ... حسن والحسين والزهراء
وبنوهم ومن تناسل منهم ... فلهم حكم من حواه العباء
سادتى يابنى النبى نداء ... من عبيد يرضيه هذا النداء
سادة الناس أنتم باتفاق ... وخلاف فى غيركم أو خفاء

---

(١) البتل القطع وسميت السيده فاطمه رضى الله عنها بتولا لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسبا وقيل لانقطاعها عن الدنيا الى الله تعالى والسؤال ما يقابل الجواب وهو ايضا الاستعطاء ففيه تورية .

(٢) الكسوة اللباس والكساء ما يستر أعلى البدن .

(٣) اجتدى طلب العطية .

(٤) الانداء جمع ندى يطلق على الجود وعلى المطر الضعيف ففيه تورية .

الى أن يقـــول :

أنتم للنجـــاه خير ســـــفين كلما فاض فى البرايـا البـــلاء
أنتم بضعـة النبى فكونـــوا كيف كنتم فما لكم اكفـــاء

ويختم الشاعر هذا التشفع بعد أن يواسى أهل البيت لاجحاف الزمن بهـــم اذ لهم بجدهم الأول صلى الله عليه وسلم كل أسوة حسنة وهو الذى لو طلب الجبـــال ذهبا لكانت ثم يثنى على صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وبمن خدموا الدين الحنيف من علماء الحديث والتفسير والفقه ثم يمدح العارفين من الصوفية وهم أهل الحقيقـــة وبكل هؤلاء يتشفع النبهانى طالبا العفو والمغفرة من الله سبحانه وتعالى ويقـــول فى ختامهـــا :

حالة العبد يا شـــفيع البرايـــا وهـــم كلهـــم له شـــفعاء (١)

ثم يتقدم الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى دلال وغبطـة بصورة عتاب رقيـــق منكسر العين والقلب ملحا عليه صلى الله عليه وسلم أن يقبل شفاعة هؤلاء فـــــى الشاعر فيقـــول :

أتراه والحـــال هذى أبا القـــا سم حل عن مثله الاغضـــاء ؟
أتراه يجوز من غـــير بـــــر ويجوز القلى لـــه والجفـــاء ؟ (٢)
أيكون القبـــول منكم جوابـــا وجزاء له ونعم الجـــزاء ؟
لكم الفضل كيف كنتم ولكـــن ما تقول الشـــريعة الغـــراء
جئت فيها بكل خلـــق كريـــم يا سراجا بـه الكرام استضـــاءوا

وفى البيتين الأخيرين يوضح أن الفضل فى كل شئ للرسول صلى الله عليـــه وسلم ، وهو متى شاء يقبل أو يرد ، ولكن ورد فى الشريعة الغراء أن الرسول لـــه كل خلق كريم يرجى منه القبول والعفو ، فالكرماء يستضيئون فى كرمهم بالرسول صلـــى

---

(١) كلهم يقصد أهل البيت والصحابه والتابعين وغيرهم الذين قدمهم شفعاء لـــدى الرسول صلى الله عليه وسلم ليرضى عنه ويشفع له .

(٢) يجوز الأولى يمر والثانيه يحـــــــل .

الله عليه وسلم وكأنه يقول ان الرسول هو أصل ومعدن ومصدر الكرم وانه امام ورأس الكرماء الذين يعفون عن المسيئ وكان النبهانى يريد أن يحظى من الرسول صلى الله عليه وسلم بشفاعة وقبول بطريقة كياسية دبلوماسية " وعتاب رقيق .

هذا هو انعكاس المشاعر والأحاسيس على المضمون وتأثيرها فى المعانى والأفكار

ولقد حاولت البلاغة القديمة أن تنتقص من الحقيقة دورها فى البيان فجعلت المجاز والكناية أقوى من الحقيقة والتصريح وجاء النقد الحديث فجعل الخيال أساس الجمال فى الصورة الشعريه أو الأدبية . ولا شك فى أهمية المجاز والكناية والاستعارة والتمثيل فى الصورة الشعرية اذ أنها مبنية على المبالغة ولكننا لانستطيع أن نتجاهل أهمية الحقيقة فى الصوره الشعرية والأدبية .

وقد استعمل النبهانى الحقيقة فى صوره شعره كما استعمل المجاز فمن استعماله الحقيقة فى صوره قوله : عن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لانشقاق القمر .

كلفوه بشقة القمر الـ ... ـراء هم ليلا تكليفها لا يشاء
فدعا فاستبان شقين فى الحـ ... ـل وبين الشقين بان حراء (١)
فاسترابوا بأنه السحر حتى ... جاء من كل وارد أنباء
أخبروه بصدقه فاستمروا ... والعمى لا تفيده الأضواء (٢)

فى هذه الأبيات صورة تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم وقد وقف مع رجال قريش وجرى بينهم نقاش حول نبوته صلى الله عليه وسلم فطلبوا منه برهانا بأن يشق القمر وقد كان طالما فدعا صلى الله عليه وسلم فانشق القمر وظهر جبل حراء بين شقيه فلما رأوا انشقاقه وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم استمروا فى طغيانهم ومكابرتهم ونسبوا الانشقاق للسحر .. لا .. لكونه معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم وقد جاء أناس آخرون يشهدون بأنهم شاهدوا القمر منشقا وفيه حراء ومع هذا ظلوا مكابرين مع وضوح المعجزة أمامهم لأن قلوبهم عميت عن مسالك الايمان فلا يفيدها أى نور والذى توحى به هذه الصورة مكابرة قريش وسلفها مع وضوح دعوة الرسول وثبوتها .

---

(١) حراء جبل من جبال مكة المشرفة .

(٢) الديوان ص ٣٣ .

وأبيات النبهانى فى خروجه صلى الله عليه وسلم الى الطائف ، وهى قوله :

لو رأيت النبى من بعد فى الطـــا ـــف سألت بالحصب منه الدمـاء (١)
وسمعت التخيير فيهم من اللـــ ـــه فكان اختياره الابقـــاء (٢)
كنت شاهدت أعظم الخلـق حلمـا وتمنيت أن يعم الفنـــاء
كان يلقى عنه الحجـارة زيـــد ان روحى لنعل زيد فـــداء (٣)

تصور الرسول صلى الله عليه وسلم وهو خارج من الطائف وقد لحقه الصبيان يقذفونه بالحجارة التى تتساقط عليه صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثه يتلقى الحجارة عنه ولكنها لكثرتها أصابت الرسول حتى أدمت قدميه وفى هذه اللحظه ينزل جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم ويخبره فى أن يطبق على قريش التى أخرجته وسببت له هذا العذاب ـ الأخشبين ـ وهما جبلان ـ ولكن الرسول لحلمه وكرمه عفا عنهم لعله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله وهذه الصورة توحى بصبر الرسول صلى الله عليه وسلم وحلمه وسعة خلقه على من يعذبونه ويطردونه كما توحى بصدق زيد وقوة ايمانه .

ومن الصور الحقيقية فى مدائحه أيضا قوله " فى عرضهم عليه أن يجعلوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملكا عليهم :

مالهم أمره فخافوا وما هـــم بعد حين من فتكه أمنـــاء
عرضوا أن يكون فيهم ملـيـــكا واليه الأمـــوال والآراء
ثم يدنو فلا يمسه أحـــلا ما فما هم بزعمهم سفهاء
فأبى ملكهم ولو لهـوى النفـ ـس دعاهم لما تأتى الابـــاء
ثم ناداهم فقال : وهل يسـ ـمع ـ أهل القبور ـ منه النداء
لو وضعتم بدر السما فى شمـالى ويمينا ى كان منكم ذكـــاء (٤)
ما تركت الدعاء لله حـــتى يحكم الله بيننا ما يشـــاء
فأساءو بالقتال وبالأفـ ـعال واشتد منهم الاعتداء (٥)

---

(١) الحصب الرمى بالحجارة .
(٢) فيهم أى قريش الذين أساءو وحملوه على الخروج من مكة فقد أرسل الله اليه جبريل ومعه ملك الجبال وخيره بان يطبق عليهم أخشبيها أى جبليها يعنى مكة فلم يقبل رجاء أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى .
(٣) زيدا هو زيد بن حارثه مولى الرسول صلى الله عليه وسلم الديوان ص ٣٧ .
(٤) ذكاء الشمس .
(٥) الاعتداء الظلم .

ولكن المجاز فى الصور الشعرية لمدائحه كان هو الأعم والأغلب خاصة أن الشعر يناسبه المجاز أكثر من الحقيقة اذ به تظهر مقدرة الشاعر على التصوير ولعل كثرة المجاز فى مدائح النبهانى النبوية خاصة وشعره عامة تدلنا على عواطفه وانفعالاته التى تعجز الصورة الحقيقية عن احتوائها ، ثم اظهارها ، والنبهانى مولع بابراز المعانى النفسية فى تلوين صوره حيث يغوص فى أعماق النفس كاشفا خلجاتها مثل قوله فى تصوير رفاقه لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم :

ومتى أقطع القفار بحر ... من سراب تخوض بى وجناء ؟ (١)
فى رفاق من المحبين كل ... فوقه من غرامه سيماء (٢)
جسدنا حل وطرف قريح ... ظل يهمى وهامة شعثاء (٣)
أضرم الوجد ناره بحشاهم ... ولثقل الغرام ناحوا وناءوا (٤)
شربوا دمعهم فزادوا أوام ... ما بد مع لعاشق ارواء (٥)
لا تسل وصف حبهم فهو سر ... يسوى الذوق ماله افشاء
ساقهم للحجاز أى حنين ... ضمه من ضلوعهم أحناء (٦)
أحد شاقهم وأكناف سلع ... لا روا بى نجد ولا الدهناء (٧)
نسمات القبول هبت عليهم ... رنحتهم كأنها صهباء (٨)
هى كانت أرواحهم وبها كا ... ن لهم بعد موتهم احياء
قبض القبض منهم بسط البسط ... لهم حين بادت البيداء (٩)

---

(١) السراب ما تراه وسط النهار فى البرارى وقت الحر كأنه ماء . الوجناء الناقة الشديدة .
(٢) الغرام الولوع . السيماء المحبة .
(٣) الطرف العين القريح الجريح أى من كثرة البكاء ظل دائم يهمى يسيل الهامة الرأس الشعثاء المتغيرة المتلبدة لقلة تعاهدها بالدهن .
(٤) ناءوا يقال ناء بالحمل اذا نهض مثقلا بجهد ومشقة . (٥) الاوام العطش
(٦) الاحناء جمع حنو وهو كل ما فيه اعوجاج من البدن كالضلع .
(٧) الاكناف الجوانب سلع جبل فى المدينة .
(٨) القبول ريح الصبا والقبول الرضا ففيه تورية و رنحتهم اماتتهم الصهباء الخمرة .
(٩) قبض أمسك والقبض ضد البسط وسط البسط انتشر السرور وبادت هلكت أى انقطعت بالسير والبيداء المفازة ووضع مخصوص قدام ذى الحليفة قرب المدينة المنورة ففيه تورية .

بانتشـــاق النسيم كل عـــــــراه ... حين جازت أرض الحبيب انتشـــاء (١)
لا ببنت الكروم هاموا ولم يعـــــــ ... ـــث بهم أهيـف ولا هيفـــــاء (٢)
انما اللـــه والنبي هواهـــــــم ... وجميع الأكوان بعد هبـــــــاء
شاهدوا النور من بعيد قريبـــــا ... ساطعا أشرقت به الخضـــراء (٣)
منه برق لـــهم أضاء ومنهـــــم ... كل عين سحابـــة سحـــــــاء
ليتني منهم وماذا بليـــــــت ... ما بليت ســـوى المناء غنـــاء

فالشاعر يصور رفاق سفره لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن كل واحـــد منهم محب للرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى ويقـــرر أن نياتهم خالصـــة لزيـــارة حبيبهم صلى الله عليه وسلم ، وكل واحد منهم قد ظهرت علامات حبه واضحة عليـــه حيث ان أجسادهم ناحلة ، وعيونهم مقروحة من أثر البكاء وشعره أشعث لقلة المنابـة بـه حيث شـغلوا بحبيبهم ، وأن الوجد قد شغل أحشاءهم .. كناية عن تمكنه منهم ولشدة هذا الوجد بكوا وتثاقلوا عن السير .

هذه المعاني يستطيع الرسام أن يبدع صورة ناطقة لمحب قد شغله الحب عـن نفسه ويصف رفاقه بأنهم لكثرة بكائهم قد شربوا دموعهم فزادوا عطشا .. ثم يتوقع ، أن يتعجب السامع لشدة وجدهم فيجيبه الشاعر بأنه لا يدرك حبهم الا بالذوق وهو المشاركة في أفعال حبهم حيث ان الصوفيه يقولون : " نحن أصحاب حال ولسنا أصحاب مقال " ثم يصور الشاعر حالتهم أثناء سيرهم عندما استشعروا حبهم وما هم فيه يترنحـــون كأنهم سكارى وهم في الطريق حيث يعتريهم القبض والبسط ، وهما مصطلحان صوفيان يعني الأول الشعور بالخوف والثاني الشعور بالرضا والرجاء . وأن هيامهم لم يكن لأجـــل مذكر أو مؤنث ، بل حبهم كان لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ومـــا سواهما لا قيمة لـــه .

فقد كانت بشائر لقائهم للحبيب تظهر قريبة لهم مع بعدها حيث ان النباتـــات

---

(١) الحبيب المحبوب وهو اسم النبي صلى الله عليه وسلم ففيه توريه والانتشاء السكر
(٢) الهيام كالجنون من العشق الأهيف ضامر البطن .
(٣) الخضراء قبة النبي صلى الله عليه وسلم .

الخضر كانت مشرقة به ـ أى : دالة عليه بجمالها ورونقها ، فقد انقدح هذا النور لهم فى قلوبهم كالبرق ظهر أثره فى عيونهم بالبكاء ، " وأخيرا يتمنى أن يكون الشاعر منهم ولكن ماذا يفيد التمنى سوى كثرة الألم .

ومن هنا نلاحظ أن الشاعر استعمل الألوان النفسية فى ابراز أحاسيس ومشاعر رفاقه الذين يتمنى صحبتهم ولم تكن هذه الأحاسيس سوى أحاسيسه ومشاعره هو :

وقد يستعمل الشاعر الألوان الحسية فى ابراز صورة شعره مثل قوله فى رضاعه صلى الله عليه وسلم :

جاء كالدرة اليتيمة فردا ... تيم الكون حسنه الوضاء (١)
فأبته كل المراضع لليتم ... وقد ذل فى الورى اليتماء
أرضعته فتاة سعد ففازت ... برضيع ما مثله الرضعاء
أرضعته والعيش أغبر فاخضر ... وبئس المعيشة الغبراء (٢)
ركبت فى المجىء شر أتان ... سبقتها لضعفها الرفقاء
ثم عادت تعدو عليها فلم تد ... ر أتان أم سابق عداء (٣)
وشياه لها بمحل شديد ... صر ماء الثرى أتاها الثراء
أقبلت لبنا شباعا وأهل الـ ... ـحى مع شائهم جياع ظماء
بركات أرخت عليها رخاء ... فى زمان غال الجميع الغلاء

فالشاعر أبرز صورة رضاعه صلى الله عليه وسلم بمعان محسوسة فقد وصفه بالدرة التى لا مثيل لها ثم صور حياة حليمة السعدية قبل ارضاعها له وبعده فقد كان عيشها مغبرا كناية عن الفقر ثم أصبح أخضر كناية عن الخصب والغنى ثم كان مجيئها على أتان ضعيفة لا تقوى على السير كغيرها ، ثم عادت وأنها حصان سباق وقد كان لها شياه هزيلة لشدة المحل ثم أصبحت غزيرة اللبن مع ضعف شياه الحى . ويختمها بقوله : ان البركات قد كثرت على السيدة حليمة السعدية

---

(١) اليتيمة التى لا نظير لها وتيمه الحب عبده وذلله الكون المكونات اى المخلوقات الوضاء كثير الحسن .
(٢) الغبراء العيش الاغبر عيش الغلاء والاخضر عيش الرخاء .
(٣) السابق العداء الفرس الشديد الجرى .

بارضاعها للرسول صلى الله عليه وسلم مع أن زمانها كان كله جدبا وغلاء وهذه المعانى جميعها حسية .

وكثيرا ما يستعمل الشاعر التورية فى الصورة الشعرية فى مدائحه النبوية مثل قوله :

شاقنى فى ربوعها خير حى ... حل لا زينب ولا أسماء

الحى القبيلة وضد الميت وهو هنا النبى صلى الله عليه وسلم فيه تورية وقوله :

لا تسل وصف جهلهم فهو سر ... بسوى الذوب ماله افشاء

السر : ما يكتم ضده الاعلان ، والسر فى اصطلاح الصوفية صار حقيقة عرفية على الولاية التى لا تعرف الا بالذوق .

وقوله :

هى كانت أرواحهم وبها كا ... ن لهم بعد موتهم احياء

أرواح جمع روح وجمع ريح .

وقوله :

لو بكيت العقيق بالسفح ماكا ... ن لوجدى غير اللقاء شفاء

العقيق واد بالمدينة المنورة وخرز أحمر . وتوجد تورية أيضا فى كلمة " السفح " وهو اسالة الدمع أو أسفل الجبل ووجهه .

وقوله :

ليت شعرى كيف الوصول الى طيـ ... ـبة وهى الحبيبة " العذراء "
فتداوى سوداء قلب محب ... أثرت فيه عينها الزرقاء

التورية فى كلمة " العذراء " وهى اسم للمدينة ، والفتاة البكر ، وكذلك فى لفظ " الزرقاء " التى هى عين ماء فى المدينة المنورة والعين الزرقاء خلاف السوداء وفى قوله :

ينحنى المنحنى هناك على الصـ ... ـلب حنوا وتعطف الزوراء

المنحنى : اسم مكان فى المدينة وهو أيضا من الانحناء . والزوراء : اسم مكان فى المدينة والزوراء أيضا : المائلة . وفى قوله :

وله تضحك الثنايا اذا ما ... ثار من شدة السرور البكاء

الثنايا : جمع ثنية وهى الطريق بين جبلين وهى اسم لعدة ثنيات فى المدينة المنورة منها ثنية الوداع والثنايا - أيضا - الأسنان الأربع فى مقدم الفم وفى قوله :

هو أصل للمرسلين أصيل ... هم فروع له وهم وكلاء

للأصيل الشريف وقد استعمله الفقهاء فيمن يباشر عمله بالأصالة عن نفسه ضد الوكيل فيكون توريه وفى قوله :

وبه آدم جنى العفو حلوا ... فهو جان قد جاءه الاجتباء

جان من جنى الفاكهة وجنى الذنب .

هذا والتورية شائعة فى جميع مدائح النبهانى شيوعا ظاهرا وشواهد التورية هذه استخرجتها من أول مائة بيت من قصيدته " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " ، وشيوع التورية فى مدائحه بهذه الكثرة يوضح عمق الشاعر وتمكنه من معانى شعره وغزارة مادته وبعد خياله ومقدرته على اختيار الألفاظ الموحية .

هذا وللتورية مقام محمود لدى علماء البلاغة ، يقول الامام الزمخشرى : " ولا ترى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام صحابته رضى الله عنهم أجمعين فمن ذلك قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوى " لان الاستواء على معنيين أحدهما : الاستقرار فى المكان وهو المعنى القريب المورى به الذى هو غير مقصود - لان الحق تعالى منزه عن ذلك ، والثانى : الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور[1] .

---

(١) علوم البلاغة أحمد مصطفى المراغى ص ٣١٢ .

وكثيرا ما ترد الكناية في مدائح النبهاني مثل قوله :

اشارته بيوم الفتح خرت بها الأصنام كالأعداء قتلى

كناية عن هيبته صلى الله عليه وسلم وقوله :

نورك الكل والورى أجزاء بأنبيا من جنده الأنبياء

ومن جنده الأنبياء كناية عن تفضيله وعلو منزلته صلى الله عليه وسلم وفي قوله يصف رفاقه لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم :

جسد ناحل وطرف قريح ظل يهمي وهامة شمشاء

هذا البيت كله كناية عن شدة الوجد والهيام:

وفي قوله يصف عظمة الله سبحانه وتعالى مسفها من يعتقد أن المسيح بن مريم هو الله لاستحالة أن يكون الاله قد حواه بطن امرأة .

فكيف انحشى حاشاه في ضيق الحشا ؟!! وكيف ثوى فترا من البطن أو شبرا ؟!!.
فمن يعتقد أن النساء يلدنه فقولوا له من أمه يمص البظرا

الكناية في الشطر الثاني من البيت الثاني والمقصود به تسفيه وتقبيح من يعتقد ولادة النساء له بقوة وقدرة منهن فقط .

هذا وقد وفق الشاعر في هذه الكناية كل التوفيق بحسن تأليفها وقوة تركيبها (١) وقد أخفق المتنبي في قوله :

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

قال ابن الأثير : فهذه كناية عن النزاهة والعفة الا أن الفجور أحسن منها وليس الا من سوء تأليفها وقبح تركيبها (٢) .

---

(١) راجع أمثلة من الكنايات الجيده الموفقة والكنايات التي لم يوفق قائلها لضعف تأليفها (علوم البلاغة ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٢) في هذا التعبير بعض القسوة وان كان استعماله في موطنه استهزاء من هؤلاء الذين يعتقدون أن امرأة تلد الها ، د . سرحان ...

وفى قوله يصف تغير الأحوال فى عصره وانقيادها لغير أهلها

صرنا من المحنة فى غمار ... من كثرة المصائب الطوارى
فى زمن دبر بالادبار ... الليث فيه انقاد للحمار
والخير مغلوبا غدا للشر

وتظهر الحركة المتلاحقة فى صور مدائحه خصوصا فى المواطن التى تستدعى ذلك كما فى الاسراء والمعراج حيث يقول :

أرسل الروح بالبراق لما تف ... ضله للكرامة الكرماء (١)
فعلاه البدر التمام ابو القا ... سم ليلا فضاء منه الفضاء (٢)
راح يهوى به وحد انتهاء الطرف ... منه الى خطاه انتهاء
مر فى طيبة وموسى وعيسى ... ولقد شرفت به ايلياء (٣)
ثم صلى بالأنبياء اماما ... وبه شرف الجميع اقتداء
ومضى ساريا الى العالم العلـ ... ـوى حيث العلا وحيث العلاء (٤)
سبقته الى السماوات كيما ... ثم تجرى استقباله الانبياء
فعلا فوقها كشمس نهار ... اطلعته بعد السماء سماء
رحب الرسل بالحبيب وكل ... فيه اما ابوة او اخاء (٥)
وجميع الاملاك مع حوته ... قد تباهت وزاد فيها البهاء
والسفير الامين خير رفيق ... لم يفارق ط مثله سفراء
ولدى السدرة الجوازعليه ... صار حظرا فكان ثم انتهاء

---

(١) الروح جبريل عليه السلام والبراق دابة دون البغل وفوق الحمار

(٢) ضاء اضاء والفضاء ما اتسع من الارض

(٣) مر فى المدينة وقبر سيدنا موسى ومولد سيدنا عيسى فى بيت لحم عليه وعليهما السلام وايليا هى بيت المقدس

(٤) مضى ساريا اى ذاهبا ليلا والعلا جمع علياء واصلها كل مكان مشرف والعلاء الرفعة والشرف .

(٥) ابوه سيدنا ادم واخواته باقى ساداتنا الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

فدعـــاه النبـى حين عـلا السـد ... رة نور منـه عليها غشـــاء
هـهنـا يترك الخليـل خليـــلا ... أيـن ذاك الصفاء أيـن الوفـــاء ؟
قال عذ ـروا فلـن أجـاوز حـــدى ... لو تقدمت حَلَّ فـىَّ الفنـــاء
وبـه زج فى البهـاء وفى النـــو ... ر الى حيـث كل خلـــق وراء

الـى أن يقـول :

ثم عاد الضيف الكريم الى الاهـــ ... ـل وتمت من ربـه النعمـــاء
عـاد قبل الصباح فارتـاب فـــى ... مكـة قوم من قومـه بلـــداء
الى أن يقـول
لـو اراد القدير كان يلحـظ . . . كل هذا ولم يكـن اســـرا ء(١)

فنحن نلاحظ أن الشاعر قد اورد صورا متلاحقـه منتظمـه .

فالصورة الاولى للبراق وهو واقف ينتظر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يركبه .

والصورة الثانية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد ركـب البـراق

والصورة الثالثه للبـراق وقد انطلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو يضع حافـره حيث يرى بصره أى : إن سرعته كسـرعة الضوء وقد استعمل الشاعر كلمة " يهوى " لتوضيح سـرعة البراق " نقول هوى الجسم اذا سقط من مكان عال وكلما كان المكان عاليـــا تضاعفت سرعته (٢) والجسم الذى يهوى لا يكون له جهد او قوة فى سرعته بل تكون سرعتـه تلقائيه .

كل هذه المعانى أضفت على البراق صفة من صفات الكمال فى الركوبة وهى السرعة القصـوى بدون تعب أو جهـد .

والصورة الرابعة للرسول صلى الله عليـه وسـلم وهو يمر فوق المدينة المنـــوره وفوق قبر سيدنا موسى عليه السلام وفوق مدينة بيت لحم مولد سيدنا عيسى عليه الســـلام وأخيرا فوق القدس الشـريف .

والصورة الخامسة للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقف امام لجميع الانبيـــاء عليهم السلام وهذه من دلالات أفضليته عليهم .

والصورة السادسة للانبياء وقد رفعوا الى السماء ليكونوا فى استقباله صلى اللـــه على وسلم .

---

(١) الديـوان ص ٤١ ــ ٤٢

(٢) حسـب قانون الجاذبيـــة .

والصورة السابعة للرسول صلى الله عليه وسلم وقد عرج به الى السماوات ولكن الشاعر وضع الصورة السابعة قبل السادسة ربما لزيادة الاهتمام بها لتعلقها بالرسول صلى الله عليه وسلم .

والصورة الثامنة للرسول صلى الله عليه وسلم وهو في كبد السماء وقد شبهه الشاعر بالشمس المنيرة .

والصورة التاسعة للانبياء يرحبون بالرسول صلى الله عليه وسلم وقد وصل اليهم وفيهم أبوه آدم عليه الصلاة والسلام .

والصورة العاشرة لجبريل رفيق الرسول صلى الله عليه وسلم ودليلة في هذه الرحلة وقد تراجع عندما وصل الى سدرة المنتهى وهي آخر ما يستطيع أن يصل اليه من الاماكن .

والصورة الحادية عشرة للرسول صلى الله عليه وسلم وقد افتقد سيدنا جبريل وقد اخذته الحيرة والرهبة فنادى على جبريل حتى لا يفارقه ولكنه اعتذر عن عدم امكانه تجاوز حده والا أحرقه النور الالهي .

والصورة الثانية عشرة للرسول صلى الله عليه وسلم وقد زج به في النور الالهي حيث اجتاز سدرة المنتهى وهناك رأى النبي صلى الله عليه وسلم مولاه سبحانه وتعالى بعيني رأسه بلا كيفية من كيفيات الحوادث من مقابلة أو جهة وتحيز وغير ذلك مما يستحيل عليه سبحانه وتعالى .

ثم أطال الشاعر في ذكر ما حصل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في أسرائه من علوم غيبية فضل بها سائر المخلوقات .

والصورة الثالثة عشر وهي الاخيرة للرسول صلى الله عليه وسلم في عودته الى مكه بعد أن تمت نعمة ربه عليه باسرائه وعروجه اليه .

ونحن نلاحظ أن الصور هذه جاءت متحركة ومتتابعة حسب ترتيبها الزمني وكثيرا ما يلون النهباني صورة مدائحه النبوية بالنظر العقلي الذي يدعو الى التأمل والتفكر بعيدا عن الشواهد والنصوص وذلك في بيانه لأثر دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في أصحابه الذين كانوا اعرابا جفاة ثم اصبحوا سادة وقوادا ، وذلك حيث يقول :

بها قد أتى الأمي في جاهلية ... أقل الورى علما وأكثرهم فقرا
بأقرب وقت أصبحت خير أمة ... فضائل واستولت على غيرها قهرا
وكم عاقل لما أصاخ لقوله ... وشام المحيا بالسجود له خرا (١)

(١) اصاخ استمع وشام نظر . المحيا الوجه ـ خوسقط .

فكافاه عن ايمانه بأمانه ... وجازاه عن فعل السجود له زجرا
وكم ذا من الاعراب وافاه جاهلا ... كوحش الفلا قد أشبه الذئب والنمرا
فصار به فى العلم والحلم قدوة ... يرتل فى المحراب والمنبر الذكرا (١)
ويارب عبد كالبهيمة طبعه ... قضى عمره فى الشر لا يعرف الخيرا
باكسير خير الخلق صحت طباعه ... فصارت نضارا بعد أن طبعت صفرا (٢)
وصار به من سادة القوم سيدا ... ففى جحفل قلبا وفى محفل صدرا
فقل لى أغير الله يفعل هكذا ؟ ... وهل أحد يقضى على ربه جبرا ؟
فان لم يكن خير النبيين صادقا ... اذن فالهوى قد جوز الكفرا (٣)

اللغة :

١ ـ الألفاظ والتراكيب :

يختار النبهانى ألفاظه فى مدائحه النبوية معبرة عن مدلولات وافية ملائمة للعاطفة والفكرة، فمن ألفاظه الشائعة فى مدائحه " نورك " نبيا ، رحمة الكون ، منتهى الفضل الابتداء الترقى ، شاقنى ، نسمات القبول ، رنحتهم صهباء ، القبض " البسط هجر المحبين وغيرها من الألفاظ العاطفية .

ولكننا نجد نقيض هذه الألفاظ عندما يغضب أو يثور على من يحرمون زيارة قبر الرسول حيث يستعمل معهم الألفاظ النابية المعبرة عن شدة غضبه وسخطه .

ومن هذه الألفاظ التى وردت فى هجاء الأفغانى : الجاهلون .. أفظع الأمر ، شيخا مشردا ، قبح فعله ، الحاده ، فئران مروق ، وقاحة ، حثالة ،

وبعض هذه الألفاظ وصلت الى حد الشتم ، ومنها كلمات مجنون رجيعة أرجاس فظائع . الكلب العقور . المخطىء الجانى الشتم . عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رتلت القرآن ترتيل تمهلت فى القراءة ولم اعجل والذكر هنا القرآن واصله الشرف والفخر واطلق على القرآن لما فيه من الشرف قاله فى النهاية وايضا هو من ذكر الله تعالى .

(٢) الاكسير : الكيمياء ، والنضار الذهب ، وطبع على الشىء جبل عليه وطبعت السيف ونحوه صنعته والدراهم ضربتها ففى طبعت هنا تورية ، والصفر النحاس

(٣) الديوان ص ٣٠١

جمعت بحرا • وغيرها من الالفاظ التى اضطر اليها اضطرارا فى دفاعه عن دينه ومبادئه وعقائده المختلفة •

التراكيب :

والطابع العام للتراكيب فى مدائح الشيخ النبهانى هو الجزالة ، والقوة مع احكام المعنى مثل قوله فى قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " :

عليك بالصدق فى حب الحبيب فما ... بغيره لك تحصيل و توصيل
محمد خير خلق الله أفضلهم ... لديه سيان مفضال و مفضول
أصل النبيين قدما وهو غايتهم ... فمنه للكل اجمال و تجميل
حقيقة الفضل عنه لا مجاز لها ... أما سواه فتشبيه و تمثيل
كل الفضائل منه فُصِّلت فله ... على البريه بالتفصيل تفضيل
و دينه الحق مفتاح الفلاح فما ... بدونه بابه المقفول مدخول
لا جرح يلحق مخلوقا يُعدُّ له ... و ما لمجروحه فى الخلق تعديل
لم يجحد الله يجحد نبوته ... الا عم عن طريق الرشد ضليل
وان أحمد خير الرسل رحمته ... للعالمين ففيها الكل مشمول
من نوره خلق الله الورى فسرى ... لادم و بعيد الله موصول
نعم الظهور البطون الحاملات له ... يا حبذا حامل منهم و محمول
كم من دلائل جاءت فى نبوته ... ان النهار لشمس الافق مدلول (١)

و مثلها قوله فى الفضائل المحمدية من رائيته الكبرى

قد اختار من كل الخلائق رسله ... لتعريفهم ما كف عن علمه الفكرا
ومنهم قد اختار الحبيب محمدا ... نبى الهدى روح الوجود أبا الزهرا
نبى جميع الانبياء مليكهم ... وفى قومهم عن حكمه نفذوا الامرا
ولو جاء فى أعصارهم آمنوا به ... وكانوا له من خير أجناده نصرا
مآثره فى كتبهم يأثروها ... و لو وجدوا فى عصره تبعوا الاثرا
امام جميع الرسل جامع فضلهم ... خطيبهم فى الخطب ان حشروا حشرا
و يجمعهم فى الحشر تحت لوائه ... وكل يقول اشفع فأنت بها أحرى
لكل نبى أمره فوق قومه ... و هم وذووهم تحت امرته الكبرى (٢)

---

(١) الديوان ص ٩٢ ــ ٩٣

(٢) الديوان ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧

وله بعض المدائح النبوية التي تتفاوت بين الرقة والجزالة كقوله يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم من قصيدته " القول الحق في مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

تنقل نوره في خير قوم ... وأشرف معشر أنثى وبعلا
تفرع عن أصول ثابتات ... علت كل الورى اصلا وفصلا
الى أن حل أنجب كل أنثى ... وخير عقائل الانجاب فحلا
وكم ظهرت له آيات صدق ... تدل على الهدى مذ كان حملا
فلولاه لما نصرت طيور ... ابابيل وجيش الفيل فلا
ولما ان أتى بشرا سويا ... وأجمل كل خلق الله شكلا
بدا من أمه نور أراها ... قصور الشام ظاهرة تجلى
براه الله أوفى الناس نيلا ... وأفضل خلقه ذاتا ونيلا (١)
ولم يوجد له في العلم مثلا ... ولم يخلق له في العدل عدلا (٢)
وأعطاه علوم الغيب حتى ... كأن الدهر بين يديه يجلى
وحلية ذاته ابهى حلى ... بها الرحمن جلله وحلى
ومن كل المناقب قد حباه ... خصالا أحرزت السبق خصلا
بها ساد الورى شيخا وكهلا ... واروع يافعا وأغر طفلا
فضائل لو قسمن على البرايا ... لما ابقين بين الخلق نذلا
أجل الناس افراداً وجمعا ... وخير الخلق أبعاضا وكلا (٣)

ومن تراكيبه التي يصل بها الى درجة عالية من الرقة موشحاته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مثل قوله :

كيف ياسعد ثنيات اللوى؟ ... أتراها بنداها تبسم؟
زاد في قلبي للقياها الجوى ... فمتى ارشفها او الثم
طاب لي في جمعها شرح الهوى ... فيه ان عز وصل أنعم
واذا ليل غرامي اظلما ... ولنفسي لم أجد من يؤنس

---

(١) النيل العطاء .
(٢) عدل الثاني الماثل والاول ضد الجور .
(٣) الديوان ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

أجد الراحه فى شعرى فمـــا ... نفس الكريـه الا نفســـــى
اناذا أشدو بسلع والنقـــا ... وروابى حاجر والمنحـــنى (١)
لا أرى الورقاء منى أخلقـــا ... اننى اعظم منها حزنـــــا
خير أرض الله غربا مشرقـــا ... أنا أهوى وهى تهوى الدمنـا (٢)
فارحمى طيبة صبا مغرمـــا ... بك ان يرج اللقا او ييـــاس
هو لا ينفك عبدا قيمـــا ... شددى فى هجره أو نفســـى
لست والله بذا الخلق خليـق ... انما ذلك تمويـه الكـــلام
ان أكن حقا بما قلت حقيـق ... فغلام ولما هـذا المقـــام؟
ولماذا ان يجئ ذكر العقيـق ... لست أجريه بدمع كالغمـــام؟ (٣)

وقوله فى موشحه الذى عارض الموشحات السبعة لعلماء دمشق .

حى يا برق أثيـلات العقيـق ... وربوعا فى النقا والمنحـــنى (٤)
واسق سلعا وقبا خير رحيـق ... من سلاف الغيث موصول الهنـــا
آه من السى ثم سكر لا أفيـق ... منه بالعذراء لا يبقى عنـــا (٥)
فمتى فيها أرى لى موقفـــا ... تنعم العين به كـــالاذن
ومتى أنح فيها زلفـــا ... وأراها دون أرضـى وطـــنى(٦)
هى والله منى قلبى الحزيـن ... ان تكن تقرب أو تنأى الديـــار
يا ترى احظى ولو من بعد حين ... بحماها وأرى فيها القـــرار
ثاويا ثمة فى الحرز الامين ... فى جوار المصطفى اكرم جـــار (٧)

ولكنه لا يستمر على رقته دائما فى موشحاته اذ ان مناقشة الخصوم تثيره وتقطع عليه انسيابه الرقراق فى مثل قوله :

ايها المفتون كم لا تستفيـق ... وترى ما انت فيه من وبـــال
اتبع واسلك سبيل الحنفـــا ... من سعى فى نهجهم لم يغـــتن

---

(١) سلع النقا حاجر المنحنى اماكن فى المدينه المنوره
(٢) الدمنا اثار الناس .
(٣) الديوان ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦
(٤) الاثل شجر الطرفاء العقيق وادى النقا والمنحنى وسلع وقبا اماكن فى المدينة المنوره والربوع للمنازل الرحيق صفة الخمر .
(٥) العذراء من اسماء المدينه
(٦) الزلف جمع زلفى وهى القربة والمنزلة .
(٧) ثاويا : مقيما ثمة هناك الديوان ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

هم يقول الله كانوا اعرفـــا ... من سواهم ومعانى السُّـــنَن
خل هذا فيه القول فضـــول ... عند من سُقْتُ لهم هذا الكـــلام
لم يؤثر فيهم بيضُ النقـــول ... اترى يرد عنهم منى المـــلام؟
خلهم وارجع الى مدح الرسول ... صفوة الرحمن من كل الأنـــام
دم على المدح له معتكفـــا ... واتخذه لك أقوى جوشـــن(١)
وتقلده حساما مرهفـــا ... قاطعا اعناق كل المحـــن(٢)

٢ ـ الجنـــاس : ـ

كان النهبانى رحمه الله يهتم بشعره ويفضل التعبير المتميز بموسيقـــاه وانسجام مفرداته وتلاحق رناته ولذلك كثر الجناس فى مدائحه كثرة ملحوظـة ولكنه لم يكن يطلب الجناس لذاته بل يأتيه دون تعسف او تكلف وقد اشـار الى ذلك فى الفصل السابع من مجموعته حيث يقول " .... وكثير مـن المشارقة اكثروا مـع جودة المعانى والالفاظ ـ من المحسنات البديعـة فى أشعارهم بخلاف المغاربة ، فقد اقلوا وجعلوا محط نظرهم البلاغـة والفصاحـه وهما اذا اجتمعا مع المحسنات البديعية فياحبذا هى والا فلا خير فيها " (٣) لذلك لم يرد الجناس فى مدائح النهبانى عاديا علـى حساب الفكرة بل جاء سهلا أنوسا ، ومن امثلة الجناس فى مدائحـه قولـه . :

بانتشـاق النسيم كل عـراه ... حين جازت ارض الحبيب انتشاء (٤)

وقولـــه :

ليتنى منهم وماذا بليـــت ... ما بليت سـوى العنـاء غنـاء
وقوله : ان اكن مذنبا فمنهم اهل عفـو ... وعلى الكونان رضونى العفـــاء
وقوله : منهم الغاديات نالت حياهـا ... واستمدت حياتها الاحيـــاء

---

(١) الجوشن الدرع .
(٢) الديوان ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦
(٣) المجموعة النبهانية ج ١ ص ١٦ ـ ١٧
(٤) الانتشاق السكر . وقد بحثنا عن مادة انتشق فى القواميس فلم نجدها ، وربمـا كانت الكلمة مخترعه . ، دسرحان

وقوله : حيث كل الخيرات حيث جميع البر ... حيث العنا وحيث السناء

وقوله : اعقل العاقلين فى كل عصر ... عقلت عن لحاقه العقلاء

وقوله : كل المحاسن جزء من محاسنها ... إجمالها بجمال الكون تفصيل

وقوله : تقول نفسى غداً او لا فبعد غدٍ ... يا نفس يكفيك هذا القال والقيل

وقوله : يا برق واشرح لساداتى وان علموا ... معنى المعنى وما بالشرح تطويل

وقوله : لا تجحد الحق يا هذا فانتفتى ... كسلان عندك تسويف وتسويل

وقوله : كتابه معجز للخلق قد خضعت ... له الاقاويل منهم والمقاويل

وقوله : حبذا ثم حزون وسهول ... حلها الأنس وحلاها الجمال

وقوله : ويفعل ما يختار فى الخلق مطلقا ... ولا حرج يأتى عليه ولا حجرا

وقوله : امام جميع الرسل جامع فضلهم ... خطيبهم فى الخطب ان حشروا حشرا

فنحن نلاحظ ان معظم الجناس فى مدائحه من الجناس غير التام وهو ما لا يحتاج الى كبير جهد وطول فكر مما يكد قريحة الشاعر ويستنفد جهده على حساب المعنى . ونلاحظ ايضا ان المعنى فى اللفظ الثانى للجناس أقوى من المعنى الاول مما يسوغ للشاعر الاتيان باللفظ الثانى لزيادة المعنى وليس حروفا مكررة مما يعد من حشو الكلام .

٣ ـ الطباق : ـ

اهتم النبهانى بتوضيح أفكاره وعواطفه فاستعمل موازنة الشىء ونقيضة ومن هنا كثر الطباق فى شعره كثرة واضحة ولكنه خال من التكلف والصنعة اذ غالبا ما يأتى على السليقة والطبع ومن أمثلة ذلك قوله : ـ

لو أرادوا لواصلونى ولكن ... أحسنوا فى قطيعتى ما أساءوا

وقوله : قربتهم احبة ابعدونى ... بذنوب تنأى بها الاقرباء

وقوله : منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من جمالك الابتداء

وقوله : قبض القبض منهم بسط البسط ... لهم حين بادت البيداء

وقوله : خيموا ثم فى رياض جنان ... حسدتها الخضراء والغبراء

وقوله : ما له ما عليه نفع وضر ... من مرايا ما حسنوا او اساءوا

كل شىء من الخلائق فان ... وله وحده تعالى البقاء

ارسل الرسل للانام ليمتا ... ز لديهم سعادة وشقاء

وقوله : هواى طيبة لا بيضاء عطبول ... وسبتى عينها الزرقاء لا النيل

وقوله : استغفر الله من قول أخيله ... صدقا ومعناه بالتحقيق تخييل

وقوله : محمد خير خلق الله افضلهم ... لديه سيان مفضال ومفضول

وقوله : شريعته هدت برا وبحرا ... وعم ضياؤها حزنا وسهلا

وقوله : فقد سدت الورى علوا وسفلا ... ملائكة وانباء ورسلا (١)

وقوله : أول خلق الله كان نوره ... منه الورى يطلبونه طهوره

وقوله : قد كان من نور النبى الكل ... العلو منه حلقه والسفل

وقوله : فالكون فرع والنبى أصل ... ليس له فى العالمين مثل

د ـ المذهب الكلامى : ـ

هذا التسمية تنسب للجاحظ وهو أن يأتى البليغ على صحة دعواه وابطال دعوى خصمه بحجة عقلية قاطعة تصح نسبتها الى علم الكلام ، وقد استعمل القرآن هذا النوع لافحام الخصوم وابطال حججهم مثل قوله تعالى " لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا " لكنهما لم تفسدا .. اذن ليس فيهما آلهة الا الله . ومثله قوله صلى الله عليه وسلم " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فتمام الدليل لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا لانكم لم تعلموا ما أعلم ، ويروى أن أبا دلف قصده شاعر تميمى فقال له من أنت فقال : من تميم فقال أبو دلف :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت طرق الهداية ضلت

فقال له التميمى : بتلك الهدايه جئت اليك . فأفحمه وقد استعمل النبهانى هذا الاسلوب فى مدائحه كثيرا لحاجته لرد دعوى خصومه لأنه رجل مبادئ ، فلم يكن يقصر مدائحه النبوية على مدح الرسول فقط ، بل كان يعرج عنها على اثارة الخلافات مع خصومه ليرد عليها لذلك كثر هذا النوع فى تراكيبه مثل قوله :

ويارب عبد كالبهيمة طبعه ... قضى عمره فى الشر لا يعرف الخيرا

باكسير خير الخلق صحت طبيعة ... فصارت نضارا بعد ان طبعت صفرا

وصار به من سادة القوم سيد ... ففى جحفل قلبا وفى محفل صدرا

فقل لى أغير الله يفعل هكذا ؟ ... وهل أحد يقضى على ربه جبرا ؟

فان لم يكن خير النبيين صادقا ... اذن فالمعرش قد شرع الكفرا

---

(١) الأنباء : الأنبياء .

فالشطر الثانى من البيت الأخير مقتضى معناه أن العالم العرش لم يشرع الكفر طبعا .. ، اذا فخير النبيين صادق . وفى البيت الذى قبله أيضا حجة عقليه اذ أنه لا أحد يقضى على ربه جبرا ، اذن فالتغيير الخلقى الذى حصل لهذا الانسان لم يكن من قدرة أحد غير الله ومثله قوله فى مناقشته النصارى فى اعتقادهم التثليث والصلب .

والقته طفلا مثل أبناء آدم ... وما زاد شيئا عن سواه ولا ظفرا
وبالدر غذته فلله دره ... نبيا كريما كان فى أمه برا
وقد كان مثل الناس فى كل حاجة ... فيأكل مضطرا ويخرج مضطرا
وان كان من أم أتى دون والد ... فآدم من فخارة أحرز الفخرا

فبعد أن عدد الصفات البشرية لسيدنا عيسى عليه السلام ذكر أن كونه مولودا من أم فقط لا ينقص قدره اذ أن أبانا آدم عليه السلام مخلوق من طين وقد حاز الفخار .. فسيدنا عيسى أولى لأنه مولود من أمه .

هذه الحجج العقليه شائعه فى مدائحه لاحتياجه اليها فى مناقشة الخصوم من غير المسلمين لالزامهم بالحجة .

هـ - حسن التعليل :-

وهو أن تقصد الى حكم من الأحكام فتراه مستبعدا من أجل ما اختص به من الغرابة واللطف فتأتى على جهة الاستطراف بعلة مناسبة للتعليل وتدعى كونها علة للحكم لتوهم تحقيقه وتقريره نهاية التقرير من قبل أن اثبات الشئ معللا أكد فى النفس من اثباته مجردا عن التعليل . وقد شاع التعليل فى مدائح النهانى للتدليل على صدق محبته وصحة شوقه وغرامه مثل قوله :

اضرم الوجد ناره بحشاهم ... ولثقل الغرام ناحوا ونائوا
شربوا دمعهم فزادوا أوامـا ... ما بدمع لعاشق ارواء

ففى البيت الثانى أقام دعوى بازدياد عطشهم لشربهم دمعهم فعلل فى الشطر الثانى أن العاشق لا يرويه دمعة وقوله :-

لو بكيتا لعقيق بالسفح باكـا ... ن لوجدى غير البكاء شفاء

لو أرادوا لواصلوني ولكن ... أحسنوا فى قطيعتى ما أساءوا
لست أهلا لوصلهم فظلامى ... حائل أن يحل منهم ضياء

ففى البيت الثانى يشكرهم على قطيعتهم له ويمدحهم على هجرانهم وفى البيت الثالث يعلل ذلك بأنه ليس أهلا لحبهم لأن قلبه مظلم ـ كنايه عن المعاصى ـ لذلك لا يحل ضيائهم ـ كناية عن رضاهم وقوله :

هجرونى ولست أنكر أنى ... لم أزل مذنبا وكلى خطاء
غير أنى التجات قدما اليهم ... وعزيز على الكرام التجاء
ورجوت النوال منهم وظنى ... بل يقينى الا يخيب الرجاء

فهو يعلل هجرانه لهم لكثرة ذنوبه وأخطائه ويعلل رجاءه لهم ، لانه متيقن أنهم لا يخيبون رجاء من يقصدهم ، ويقول أيضا :

ان اكن مذنبا فهم أهل عفو ... وعلى الكون ان رضونى الصفاء

فهو يعلل تقربه منهم مع ذنوبه لطمعه فى عفوهم وهكذا قوله :

أو أكن أكدر المحبين قلبا ... فلمثلى منهم يكون الصفاء
أو أكن ناقدا فعال محب ... فلقلبى على الوداد احتواء
أو يرونى أفلست من عمل البر ... فمنهم نال الغنى الأغنياء
أو أكن عثريا ولست بهذا ... فمع الهجر ما يفيد الثراء
أو أكن نازح الديار فمنهم ... لحظات تدنو بها البعداء

فى هذه الأبيات يذكر ذنبه ويعلل اصراره على القرب من حبيبه كما هو فى الأبيات ويظهر حسن التعليل فى قوله :

وليس لشخصه فى الأرض ظل ... وهل أحد رأى للنور ظلا ؟

وحسن التعليل شائع فى جميع مدائحه وذلك لسعة اطلاعه وكثرة معلوماته وقدرته على ايجاد سبب وعلة لأى معنى يعرقه فى مدائحه بالاضافة الى أنه يجعل من مدائحه سلاحا يحارب به خصومه وذلك يدعوه الى أن يكثر من الحجج لاثبات دعواه وابطال دعوى الخصم الى جانب حياته الوظيفية حيث اشتغل فى القضاء أكثر من ثلاثين سنة هيأت له ملكة فى استحضار الحجج والاستدلال بها فى تعليل الاحكام .

و - المبالغة : -

في القاموس المحيط : " بالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد ولم يقصر "[1] ولدى علماء البلاغة هي ادعاء بلوغ وصف في الشدة أو الضعف حدا يستحيل أو يبعد[2] حدوثه ، وللعلماء فيها مذاهب ثلاثة :-

الاول : الرفض مطلقا وحجة هؤلاء أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق وجاء على منهاج الصدق من غير افراط ولا تفريط .

الثاني : القبول مطلقا وحجة أولئك أن خير الشعر أكذبه وأفضل الكلام ما بولغ فيه .

الثالث: وهو الذي عليه الائمة التوسط ما بين الأمرين فتقبل مع الحسن اذا جرت على منهج الاعتدال ودليل ذلك وقوعها في التنزيل على ضروب مختلفة وترد اذا جاءت على جهة الاغراق والغلو ويذم مستعملها كما درج على ذلك ابو نواس وابن هانيء الاندلسي والمتنبي وأبو العلا وغيرهم .[3]

وتقسم المبالغة الى ثلاثة أقسام : -

١- التبليغ وهو ما يكون المدعى ممكنا عقلا وعادة .

٢- الاغراق : وهو ما يكون المدعى فيه ممكنا عقلا لا عادة .

٣- الغلو : وهو ما يكون المدعى فيه غير ممكن لا عادة ولا عقلا . وهذا مسرح الشعراء المفلقين في مدحهم أو هجوهم .

وقد استحسل النبهاني رحمه الله المبالغة في مدائحه كثيرا بل بنى جميع مدائحه على المبالغة ونبه الى ذلك في مقدمة ديوانه حيث قال : " اعلم أيها الواقف على هذا الديوان المشتمل على كل الحسن وجميع الاحسان في مدح سيدنا محمد حبيب الرحمن صلى الله عليه وسلم أنه مع كونه في الدرجة العالية من حسن الصناعة الشعرية والمعاني الادبية والاوصاف الجميلة التي لا يستحقها أحد من الخلق سوى الحضرة المحمدية : قد اشتمل على كل المعاني الشريفة التي يجب على كل مسلم أن يعلمها من أوصاف هذا النبي الكريم وأوصاف دينه الكريم وأخباره ودياره وآثاره ومولده ومعراجه وشمائله وسيرته ومعجزاته وغزواته وشفاعته وسائر فضائله في الدنيا والاخرة ومدح آله وأزواجه وأصحابه وأمته وذم أعدائه من الكفرة وأهل البدعة

---

(١) القاموس المحيط مادة " بلغ " (٢) علوم البلاغة للمراغي ص ٣٣٢

(٣) المرجع السابق .

وما كان من بدايته ونهايته صلى الله عليه وسلم وجميع حقائق وردت في القرآن وفي الاحاديث النبوية والآثار المروية فلا يجوز لمسلم أن يحلي نفسه من معرفتها وليست معاني هذه المدائح النبوية من الخيالات الشعرية التي لا حقيقة لها في الخارج وحسنها يرجع الى المبالغات الفكرية فاننا مهما بالغنا في مدحه صلى الله عليه وسلم لا نبلغ حقيقته المحمدية التي يعجز عن معرفتها جميع الخلق على الاطلاق ولا يعرفها الا الملك الخلاق ، فاعلم ذلك ولا تظن أني بالغت في شيء من أوصافه الشريفة صلى الله عليه وسلم ولا تنسني ووالدي من دعوة صالحة وتفضل علينا بقراءة الفاتحة " (١)

وفي مقدمة المجموعة النبهانية فصل القول في المبالغة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في الفصل الثاني حيث يقول " قال سيدي العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي في خطبة ديوانه " نفحة القبول في مدحة الرسول صلى الله عليه وسلم " . اعلم أيها الواقف على هذا المجموع الجامع ، والنور الساطع اللامع . أن الثناء على نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بما هو أهله ليس في قدرة أحد من الخلق أبدا على طول المدى ولو نسجت له الفصاحة سوقا وقسمت له البلاغة أقساما وصنوفا كيف والفصاحة والفصيح والبلاغة والبليغ كل ذلك مخلوق من نوره قبل أوان ظهوره وانما القدرة على ذلك ليست الا للواحد القديم الذي خلقه وهو به عليم ، وقد أنزل مدحه عليه في محكم آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى " وانك لعلى خلق عظيم " واذا كان الله مادحه بكلامه المنزه عن الحرف والصوت فهل حظ المادحين من مدحه الا الاعتراف بنهاية القصور والفوت قال لسان الدين بن الخطيب من قصيدة تأتي :

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
ولذا كتاب اللاثني مفصحا ... كان القصور قصار كل فصيح

ولكن القلوب تنظر بعيون الايمان على مقدار غروسها وشروقها والألسنة تنضح بما فيها ، ومن المعلوم أن الهدايا على مقدار مهديها وحيث لا يمكن الوصف على قدر الموصوف بل على قدر الواصف ـ ولا يعرف حقيقة سليمان عليه السلام الا وزيره آصف ـ ولا مناسبة بين الثرى والثريا والقدم والمحيا ، فمن مدحه صلى الله عليه وسلم من المتقدمين

---

(١) الديوان ص ١ .

والمتأخرين انما مدحه توسلا بجنابه أو تفريجا لكربه و مصابه أو رغبة فى جزيل ثوابه ، أو استشفاء ببركة ذاته واستلذاذا بذكر اسمه الشريف وصفاته :

أعد ذكر نعمان لنا ان ذكـــــره هو المسك ما كررته يتضـــــوع

أو اهتماما بخدمته الشريفة أو تسليا عن الاجتماع بحضرته المنيفه ومقاصد المادحين شتى ، وانما التوفيق مواهب ، وللناس فيما يعشقون مذاهب " انتهى كلامـــه رضى الله عنه .

اذا علمت ذلك تعلم أن مدحه صلى الله عليه وسلم بما يطابق جلالة قدره وعظمة منزلته وكثرة فضله وعلو مقامه عند الله تعالى لا يستطيعه أحد سوى خالقه جـــل وعلا لأن غيره تعالى لم يقف على الحقيقة المحمدية وما وهبها الله تعالى من مواهـــب الفضل والكمال التى بعضها يستغرق جميع فضائل العالمين بالتفصيل والاجمال . وحسبك أن الله تعالى خلق نوره صلى الله عليه وسلم ثم خلق منه جميع المخلوقات وأنه قـــد أفرغ عليه صلى الله عليه وسلم جميع الخيرات والكمالات وهو قسمها على الخلائـــق بحسب استعداداتهم فلا خير يصل الى أحـد من خلق الله فى الدنيا والآخـــره الا بواسطته (١) صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك العارفون وسلطانهم الشيخ الاكبـر سيدى محيى الدين بن العربى رضى الله عنه ولذلك تكون المبالغات فى المدح مهمـــا بلغت قاصرة عن الوصول الى ما يستحقه صلى الله عليه وسلم ، وجميع مدائحه عبـــارة عن حكاية أحوال ووصف أقوال وأفعال وأخبار عن حقائق ثابتة وموجودة حقيقة لا كمـــا يتخيله الشعراء من المعانى فى مديح غيره صلى الله عليه وسلم ، وانظر الى قولـــه صلى الله عليه وسلم فى الحديث " لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريـــم " يظهر لك ما قلته فان النصارى انما أطرت عيسى بادعائهم فيه الألوهية فقد نهانـــا صلى الله عليه وسلم أن ندعيها فيه لأنه مهما بلغ من الكمالات لم يخرج عن العبوديـــة لله تعالى وبذلك يعلم أن قوله هذا يتضمن الاذن بأن نمدحه بجميع أنـــواع المدائح ونبالغ بجميع أنواع المبالغات سوى هذا الوصف الذى نهانا عنه فانه تقصـــر عنه بلغ العبارات ولطى الامام البوصيرى قد استنبط من هذا الحديث قوله .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهـــم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكـــم
فان فضل رسول الله ليس لـــه حد فيعرب عنه ناطق بفـــم

واذا كان الأمر كذلك وهو كذلك فيلزم من يريد مدحه صلى الله عليه وســـلم أن يقف على أخباره وسيره ومعجزاته وفضائله الواردة فى الكتاب والسنة وعلى السنـــة

(١) هكذا عبارة النبهانى وهو خطأ شائع صوابه " بوساطته " د-سبحان ..

الأولياء العارفين الذين أطلعهم الله على بعض فضائله صلى الله عليه وسلم حتى يحكى ما يستطيعه منها فى شعره بعبارات فصيحة وأساليب بليغة فان مجرد حكاية ذلك هو مدح بليغ وهيهات أن يتخيل العقل من أوصاف الشرف والمجد والفضل والكمال ما هو فوق أوصافه الحقيقية صلى الله عليه وسلم فالشاعر الماهر من مدائحه عليه الصلاة والسلام وهو الذى يحفظ فضائله وشمائله ودلائله وسائر كمالاته المحمدية الحقيقية ويجيد التعبير عنها بكلامه ، وقد قلت فى خاتمة كتابى " أفضل الصلوات فى مقدمة القصائد السبع الثبويات ، ما نصه " وانى لا أقول ان هذه القصائد مع جودتها تعد من الشعر الذى يليق تقديمه الى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم .. حاشا وكلا ، ولكنى أقول انى قد بذلت فى تحسينها جهدى وجعلت جل معانيها من السيرة المحمدية والأحاديث النبوية اذ الفكر لا يصل بتخيله الى معنى يليق بمقامه الشريف صلى الله عليه وسلم والصناعة الشعرية مدار حسنها على المبالغة فى المعانى والتأنق فى الالفاظ اما الفاظها فهى - كما يراها المنصف الفهيم رقيقة رشيقة لا غرابة فيها ولا ابتذال وأما معانيها فهى أبلغ المعانى وأصدقها ، وأى معنى يتخيله الفكر لم يكن وصف النبى الحقيقى أبلغ منه ؟ ولذلك جعلت مديحه صلى الله عليه وسلم بهذه القصائد فى ضمن مدح دينه وذكر أخباره وديارة وآثاره ومولده ومعراجه وشمائله وفضائله وسيرته ومعجزاته وغزواته وشفاعته ومدح آله وأزواجه وأصحابه وأمته وذم أعدائه وذكر ما كان من بدايته ونهايته صلى الله عليه وسلم وجميع ذلك حكاية أمور حقيقية ورد اكثرها فى الاحاديث النبوية والآثار المرويةولا ينبغى لمسلم أن يخلى نفسه من معرفتها - لا خيالات شعرية يولدها الفكر من هنا وهناك [1] .

فالشيخ النبهانى رحمه الله يعترف بمبالغته فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويدافع عن هذه المبالغة بل ويعدها تقصيرا فى حقه صلى الله عليه وسلم حيث ان حقيقته لا يدركها غير خالقه فكيف يكون فى مدح الرسول مبالغة .. أى : تجاوز للحد ؟

وقد نبه النبهانى الى أن الشعور بالتقصير لدى شعراء المدائح هو شعور عام لديهم ، وذكر أمثلة لأقوالهم فى ذلك فى الفصل الاول من مقدمة مجموعته حيث يقول : " اعلم أن الله تعالى قد منح ولم يزل يمنح بغير انقطاع له الى غير نهاية عبده ونبيه ورسوله وحبيبه وسيد خلقه سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم من أنواع

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٧ - ٩ ..

الفضل والكمال وأوصاف الشرف والجمال وكرائم الطباع والخصال ومحاسن الاخلاق والافعال وكل وصف جميل يجوز ان يتصف به مخلوق بحال من الأحوال : ما تعجز عن حصر جملته مصاقع الألسنة والأقلام ، ولا تقدر على تصور حقيقته سواطع العقول والأفهام ، وبعد أن أعطاه سبحانه وتعالى جميع الكمالات ولم يعط من غير واسطته [1] شيئا من الخيرات الى أحمد من جميع المخلوقات : أثنى عليه جميل الثناء ، وقال له قولا كريما وبين عظمة فضله عليه فقال تعالى : " وكان فضل الله عليك عظيما " وأقسم سبحانه بحياته وهو غاية التوقير والتكريم وأخبر خلقه بعظمة خُلُقه بأنواع التأكيدات بقولة تعالى " وانك لعلى خلق عظيم " فبالله عليك ايها العاقل كيف ترى عظمة فضله وعظمة خُلُقه صلى الله عليه وسلم بعد أن أخبر الله العظيم بأن كلا منهما عظيم ، أفبعد هذا وقسمه بحياته — ولقسم من أجل أدوات التعظيم — يكون للشعراء وغيرهم من الحادحين له صلى الله عليه وسلم سبيل الى وصف حقيقة ما اختصه الله به من الفضل والتفضيل ؟ حاشا وكلا ، وحسبك من يعتقد ذلك ضلالا وجهلا ورضى الله عن ابن الفارض حيث يقول :

أرى كل مدح فى النبى مقصرا ... وان بالغ المثنى عليه وأكثروا
اذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما تمدح الورى؟

وقال لسان الدين بن الخطيب الأندلسى رحمه الله تعالى من قصيدة تأتى بعد :—

تقدمت مختارا تأخرت مبعثا ... فقد شملت علياؤك القبلَ والبَعدا
وعلة هذا الكون أنت وكل ما ... أعاد فأنت القصد فيه وما أبدى
وهل هو الا مظهر أنت سره ... ليمتاز فى الحلق الكتب من الأهدى
ففى عالم الأسرار ذاتك تجتلى ... ملامح نور لاح للطور فانهدا
وفى عالم الحس اغتديت مهيمناً ... لتشفى من استشفى وتهدى من استهدى
فما كنت لولا أن ثبت هداية ... من الله مثل الخلق رسلا ولا حدا
فماذا عسى يثنى عليك مقصر ... ولم يأل فيك الذكر مدحا ولا حمدا

وقال لسان الدين أيضا وقد روى فى المنام فذكر ان الله تعالى غفر له بهذين البيتين :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له اغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما ... أثنى على أخلاقك الخلاق؟

---

(١) الصواب : وساطته كما تقدم مرات.

وقال الشهاب أحمد بن خلوف التونسي القيرواني رحمه الله تعالى :

يا مصطفى قبل العوالم كلها ... والكون لم يبرز من التكوين

أيطيق مثن حصر وصفك بعد ما ... أثنى عليك الله في التبيين ؟

قال النبهاني : -

وقلت قبل أن يوفقني الله لمدحه صلى الله عليه وسلم : -

يقولون لي هلا مدحت محمدا ... رسول الله الخلق أعظمهم خلقا

فقلت لهم ماذا أقول بمدحه ... وخالقه أثنى عليه وما أبقى

وقال أبو القاسم بن جزي أحد مشايخ لسان الدين رحمهما الله تعالى من قصيدة تأتي :-

أروم امتداح المصطفى فيردني ... قصوري عن ادراك تلك المطالب

ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب؟

ولو أن أعضائي غدت السنا اذن ... لما بلغت في المدح بعض المآرب

ولو أن كل العارفين تألبوا ... على مدحه لم يبلغوا بعض واجب

وقال الامام الأبوصيري رضي الله عنه في " زاد المعاد " التي وازن بها " بانت سعاد وتأتي : -

كل البلاغة عي في مناقبه ... اذا تفكرت والتكثير تقليل

لو أجمع الخلق ان يحصوا محاسنه ... أعيتهم جملة منها وتفصيل

وقال رضي الله عنه في همزيته المشهورة الاتية في أول حرف الهمزة :

ان من معجزاتك العجز عن وصـ ... ـفك اذ لا يحده الاحصاء

كيف يستوعب الكلام سجايا ... ك وهل تنزح البحار الركاء

ليس من غاية لوصفك ابغيها ... وللقول غاية وانتهاء

انما فضلك الزمان وآيا ... تك فيما نعده الآناء

قال النبهاني :

وقلت في مقدمة همزيتي " طيبة الغراء " في مدح سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم :

قد تساوى بمدحه الغاية القصـ ... ـوى قصورا والبدء والأثناء

أي لفظ يكون كفأ لمعنـ ... ـاه وفي الخلق ما له أكفاء

هو والله فوق كل مديح ... أنشدته الرواة والشعراء

كل مدح له وللناس طرا ... كان فيه من مادح اطراء

هو منه مثل الندى سيق للبحـ ... ـر وأين البحار والأندواء

ليس يدرى قدر الحبيب سوى اللـ ـه فماذا تقوله الفصحاء
غال مهما استطعت فى النظم والنث ـر وأين الغلو والغلواء؟
ط :تطويل مدحه ينتهى الفضـ ـل فقصر أو طل به ما تشاء
عظم الله فضله عظم الخلـ ـق ومنه بعمره ابتلاء
فمديح الأنام من بعد هذا خبر صح منتهاه ابتداء

قال : ثم قلت فى خاتمتها مخاطبا لمصلى الله عليه وسلم : -

أنا أدريك سابق المدح مهما بالغت فى مدحك البلغاء
لا وصول لغير مهد أ عليا ك وما للعقول بعد ارتقاء
قاصر عن بلوغ فضلك مدح هو فى كل فاضل اطراء
كل وصف فى العالمين جميل لك مهما تعدد الأسماء
فلك الحمد يا محمد يا أحـ ـمد من كل حامد والثناء
واعتقادى ان لو مدحت بسفر عرضه الأرض كلها والسماء
ما حوى من غزير فضلك الا مثل ما حاز من بحار رکاء (١)

فنحن نلاحظ من هذا أن المبالغة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم هى الاساس الذى يبنى عليه شعراء المدائح النبوية قصائدهم ومعانيهم فى المدح ، بل هم يشعرون بالتقصير فى اعطاء الرسول حقه فى المدح .. لأنهم لا يعرفون حقيقته صلى الله عليه وسلم ولا شك أن شعورهم هذا ناتج من أثر التصوف على المدائح النبوية اذ ان شعر المبالغة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كان نادرا فى شعراء صدر الاسلام والعصر الأموى وحتى أول العصر العباسى ثم ظهر الامام الجنيد البغدادى شيخ الشريعة والحقيقة فى عصره كما يقولون - وبظهور التصوف الذى يجعل من الرسول صلى الله عليه وسلم الصوفى الأول فى الاسلام حيث توافرت دراسات الصوفية لشخصية الرسول ومعجزاته وجعلوها موضوعا لدرسهم مقصودا لذاته فخرجوا بنظريات وأفكار عنه صلى الله عليه وسلم بقيت مدونة فى كتبهم وجزء من علمهم الى أن ظهر الامام البوصيرى فى القرن السابع الهجرى (٦٠٨ - ٦٩٦) وأظهر المعانى الصوفية فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدائحه النبوية ، لذلك يعد بحق امام شعراء المدائح النبوية بالاجماع . ونحن نجد أن أئمة المديح النبوى كانوا من الصوفية لذلك لابد أن نرى أثر ثقافتهم وعقائدهم فى مدائحهم ولذلك كثرت التعابير والمعانى الصوفية فى المديح النبوى . وظهرت على مدائحهم المبالغة

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٣ - ٦ .

الشديد، في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم[1] وهم يشعرون بمبالغتهم وينبهون الآخرين عليها مظهرين التقصير في مدائحهم لأن الممدوح ليس انسانا عاديا وانما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الحائز على الشرف والرفعة من الله تعالى بما لم ينله غيره من المخلوقات وشعراء المدائح يبنون مبالغاتهم على الآيات والاحاديث والأخبار التي صحت عندهم . لذلك لا يعدون أنفسهم خارجين عن حدود اللياقة الأدبية في مدائحهم بل ملتزمين بما في النصوص والآثار .

ولعل المكاشفات التي يرونها في حياتهم في اليقظة والمنام قد عمقت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم غير العادية في أذهانهم فانعكست على مدائحهم .

ومن أمثلة المبالغة في مدائح النبهاني قوله :

أيا خير الانام بكل خير ... وخير خيارهم نسبا ونسلا

اذا جار الزمان على أناس ... أتوك فعاد ذاك الجور عدلا

وان بخل الغمام بطل غيث ... همت بيمناك للعافين وبلا

لقد فقت الورى في كل وصف ... جميل وانفردت علا وعقلا

فلم يخلق لك الرحمن شبها ... ولم يخلق لك الرحمن مثلا

ونوع الانس أشرف كل نوع ... لأنك منهم يا نور شكلا

ورسل الله سادوا الخلق طرا ... وفاقوا العالمين هدى وفضلا

وانك خيرهم نفساً ودينا ... وأتباعا وأصحابا وأهلا

وأكثرهم هدى وأعز جاها ... وأطولهم علا وأجل طولا (٢)

فقد سدت الورى علوا وسفلا ... ملائكة وأنباء ورسلا (٣)

أيا من قد تمنى كل تاج ... يسكون برجله للنعل نعلا

وخير الناس يرضى أن تراه ... للثم تراب تلك النعل أهلا

لقد شرفتني في النوم فضلا ... بتقبيلي يدا منكم ورجلا

فلولا ان يقال لقلت مالي ... مثيل لا أرى لي اليوم مثلا

وما قصدي افتخارا غير أني ... لشكرك انتقي معنى وقولا

ومهما كان شكراني جليلا ... فقد جاءت مواهبكم أجلا

---

(١) حسب معنى المبالغة الذي هو مجاوزة الحد عادة .

(٢) الطول الافضل (٣) الانباء والانبياء

ولست بحاجة للمدح لكن ... لنا حاج وليس سواك مولى (١)
ولم تنفك للوحش سيفا ... وقد يستحسن السيف المحلى
وما كنت انت فانت عبد ... وعز الله مولانا وجلا (٢)

ونلاحظ في البيت الاخير حرص النبهاني على اثبات صفة العبودية للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يفهم من مدحه أنه رفعه الى ما فوق مقام العبودية ، وقد حرص في مدائحه على استبعاد اطراء الرسول صلى الله عليه وسلم بما أطرت به النصارى عيسى بن مريم من أنه الله أو بن الله .

يقول النبهاني رحمه الله : ـ

فقل هو عبد الله سيد خلقه ... ودع ما طرا في حق عيسى من الاطرا (٣)
وقل هو بحر الله بالفضل زاخر ... وفي مدحه فاستغرق النظم والنثرا
فقد أطرب الارواح منشد مدحه ... وما دحه مهما أطال فما أطرا
تنقل نورا في جباه جدوده ... فنالوا به عزا وصاروا به غرا (٤)

ويقول في المعنى نفسه أيضا : ـ

خير وصف له العبودية لله ... ـه فما فوقها بمدح علاء
وتأمل سبحان من منه فضلا ... كان ليلا بعيده الاسراء

والنبهاني يعبر بحذر عن منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل حيث يقول :

هو بعد الله العظيم عظيم ... دون أدنى مقامه العظماء
هو أدنى عبد مولاه منه ... ما لعبد لم يدنه ادناه
من أراد الدخول لله من با ... ب سواه جزاؤه الاقصاء
يرجع الحب منه فيه الى الله ... ـه تعالى ومنه فيه القلاء
من يحب الحبيب فهو حبيب ... وعداة الحبيب هم اعداء
قل لمن يسأل الحقيقة لا ين ... ـفك عنه عن أحمد استفتاء
هي سر يعلمه استأثر الله ... ـه وحارت في شأنها العقلاء

---

(١) المولى السيد (٢) الديوان ص ١٠٦ ـ ١٠٧
(٣) طرحدث الاطراء مجاوزة الحد في المدح وهو دعواهم الالوهية فيه عليه السلام
(٤) رجل اغر صبيح وسيد قومه الديوان ص ٢٩٨ .

قد علمناه عبد مولاه حقـــــا ... ليس لله وحده شـــــريكا
ثم لسنا ندرى حقيقة هـذا الـــ ... ـعبد لكن من نوره الأشيـــاء
صفه وامدح وزك واشرح وبالـــغ ... وليعنك الصاقع البلغـــاء
فمحال بلوغك الحـــد مهمـــا ... قلت أو شئت من غلو وشـــاءوا
لو رقى العالمون كـل ثنـــاء ... فيه مهما علا وعال الثنـــاء (١)
لدعاهم الى الأمـام معـــان ... عرفتهم أن الجميـــع وراء (٢)

وقد نظم النبهانى معشرات على حروف المعجم سماها " السابقات الجياد فى مدح سيد العباد " صلى الله عليه وسلم ، أورد فيها الكثير من معانى المبالغـــة بمفهوم غير الصوفية ـ وكونها قصائد من عشرة أبيات ـ فقد حملت معانـــى المدح والثناء فقط ولم يذكر فيها شيئا من الأخبار والقصص والمعجزات واستشهد النبهانى بأول هذه المعشرات وهى على قافية الهمزة ـ فقال : ـ

أنا عبد لسيـــد الأنبيـــاء ... وولائى له القديـم ولائـــى
أنا عبد لعبده ولعبـــد الـ ... ـعبد عبد كذا بغير انتهـــاء
أنا لا أنتهى عن القـرب من بـــا ... ب رضاه فى جملة الدخـــلاء
أنشر العلم فى معاليـــه للنـــا ... س وأشدو به مع الشعـــراء
فعساه يقول لى أنت سلمـــا ... ن ولائى حسان حسن ثنائـــى
وبروحى أفدى تراب حمـــاه ... وله الفضل فى قبول فدائـــى
فاز من ينتمى اليـه ولا حـــا ... جة فيه لذلك الانتمـــاء
هو فى غنية عن الخلق طـــرا ... وهم الكل عنه دون غنـــاء
وهو لله وحده عبده الخـــا ... لص مجلى الصفات والأسمـــاء
كل فضل فى الخلق فهـو من اللـ ... ـه اليه ومنه للاشـــياء (٣)

ونلاحظ أنه أوضح فى البيت الذى قبل الأخير معنى جديدا من عبوديته صلى الله عليه وسلم الله تعالى وهى العبودية الوحيدة الخالصة من الشوائب والأدران التى تعكر صوفها ونظرا لصفائها الوحيد جعلها الله تعالى واسطته لخلقه اذ منها يستمد الخلق وهى تستمد من الله مباشرة وهذا هو معنى البيت الاخير ولا ننسى ما قالـــه

---

(١) عال : زاد
(٢) الديوان ص١٨ ـ ١٩
(٣) الديوان ص١٠٧

النبهانى رحمه الله فى مدح مثال نعل الرسول صلى الله عليه وسلم اذ مدحه بأوصاف تشرئب اليها أعناق العظماء فقد مدحه بعشرة أبيات لكل بيتين مستقلين قافية وأستشهد بأول قافيتين منها حيث يقول :

على رأس هذا الكون نعل محمد ... علت فجميع الخلق تحت ظلاله
لدى الطور موسى نودى اخلع واحد ... على العرش لم يؤذن بخلع نعاله

وقال أيضا :

مثال حكى نعلا لأشرف مرسل ... تمنت مقام الترب منه الفراقد
ضرائرها السبع السموات كلها ... غيارى وتيجان الملوك حواسد (١)

ز ـ الترصيع : ـ

وهو السجع فى البيت الواحد وقد عده البلاغيون أعلى أنواع السجع لان التتابع فى الكلمات ورنين مقاطعها يطبع التعبير بطابع صوتى رنان يستطيبه السمع وتستحليه النفس ، ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقى لان الأصوات تتكرر فى البيت مضافة الى تكرار القافية والوزن فتجعله شبيها بفاصلة موسيقية متعددة النغم ولكن الترصيع يكتسب جماله من ندرته ومن طواعيته فاذا كثر أو تكلفه الشاعر ثقل ، لأن الاسراف فى التجانس قبيح فى الموسيقى والشعر" (٢) وقد ورد الترصيع قليلا بل نادرا فى مدائح النبهانى مما يدل على أنه لم يكن يطلبه فيتكلفه . وذلك مثل قوله : ـ

طار أنسى وطال تعسى وما لل ... ـقلب الا بقربكم تفريح

وقوله : ـ

سيد الخلق مصطفى الحق من ... كل البرايا فماله من موازى

وقوله :ـ

روح الوجود محمد المـ ... ـحمود لا كظ وفاظ (٣)

---

(١) مثال النعل الشريف . جواهر البحار ج ٣ ص ٦٤

(٢) الاسلام فى شعر شوقى ص ٢٩١ ـ ٢٩٢

(٣) رجل كظ تغلبه الامور حتى تعجز عنها . الفظ الجافى الخشن الكلام .

وقد وجدت هذه الأبيات في قصائد المعشرات التي نظمها على حروف المعجم ولا تخلو مدائحه الأخرى من الترصيع ولكنه قليل جدا .

ـ بناء القصيدة : ـ

أ ـ وحدة الموضوع : لم يثبت النبهاني رحمه الله في ديوانه من أشعاره الا مدائحه النبوية فقط وقد كان للظروف المكانية والزمانية التي عاشها الشيخ النبهاني ... حيث ان اقامته في بيروت مركز ومنطلق التبشير المسيحي في المنطقة العربية ثم العصر الذي عاشه من ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢ ـ حيث خرجت النوايا الاستعمارية الصليبية من قمقمها الى حيز التنفيذ فانهارت الخلافة العثمانية على يد حزب الاتحاد والترقي والغى الاسلام نهائيا على يد مصطفى كمال أتاتورك وظهر الاستعمار الغربي وساعد الممالك العثمانية الأوروبية على الاستقلال مثل اليونان والبلغار والمجر وغيرها وقسم البلاد العربية واحتلها احتلالا مباشرا ثم ظهر دعاة التجديد بزعامة جمال الدين الأفغاني وأوجدوا مفاهيم جديدة في الدين لم تكن معروفة من قبل وظهر تأثير الاستعمار الغربي في الحياة الاجتماعية والأدبية والخلقية للمسلمين . كل هذا كان له أبلغ الأثر في توجيه المدائح النبوية للنبهاني توجيها ايجابيا حيث انه لم يكتف بأن يتغنى بمحامد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل جعل من هذه المدائح تسجيلا لحياة نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم من مولده حتى وفاته ، ثم مدح الخلفاء الراشدين والصحابة والائمة الأربعة أبي حنيفه والشافعي وأحمد ومالك ثم أشار مواضيع خلافية مثل زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والتوسل به وشرحها وهجم من يحرمها كما توجه الى أفعال المسلمين المغايرة للاسلام ونقدها وهجم على النصارى واليهود وبين أباطيلهم وحارب التبشير وحذر من مدارسه .

كل هذا ضمنه النبهاني مدائحه النبوية ، ولذا كان لابد ان يطيل نفسه في مدائحه لتبلغ بعض قصائده الف بيت وبعضها ٧٢٥ بيتا وبعضها ٥٢٥ بيتا وليس له قصيدة أقل من مئة بيت الا بعض القصائد المعشرات التي جعل قوافيها حسب حروف المعجم وكل قصيدة عشرة أبيات ، ونرجح أنه أراد بهذه القصائد اظهار مقدرته الشعرية على التفنن في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك كانت القصيدة الواحدة من مدائح النبهاني تعبيرا عن عدة مواضيع ولكنها كلها مرتبطة بشخصية الممدوح المثلى ، ولذلك كان كثيرا ما يعاود الربط بين الموضوعات وبين شخصية الممدوح صلى الله عليه وسلم ومن هنا يعد النبهاني من الذين لم

يخرجوا فى قصائدهم عن الغرض الاول لأن الكلام عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى مماته والاشادة بما تخللها من جهاد وغزوات ومعجزات له عليه السلام ثم الكلام عن أصحابه والأئمة الأربعة أبى حنيفة واخوانه ثم الدفاع عن الاسلام ضد خصومه كل هذا يتابع المدح للرسول صلى الله عليه وسلم ولو استعرضنا العناوين البارزة لقصائده المطولة لوجدناها لم تخرج عن ذلك ففى همزيته الألفية المسماة " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " وضع العناوين الآتية بعد أن جعل للقصيدة مقدمة بلغت سبعة أبيات ومائة بيت .. " مولده وجملة من دلائل نبوته ، رضاعه صلى الله عليه وسلم ، شق الملائكة صدره الشريف صلى الله عليه وسلم ، موت أبويه ثم احياؤهما وايمانهما به صلى الله عليه وسلم ..... وهكذا حتى وفاته صلى الله عليه وسلم ثم جعل فصلا فى التوسل بمن يعز عليه الرسول من × ثم جعل خاتمة ضمنها وصف الحياة الاجتماعية للمسلمين حيث يقول : ـ

فتقبل واعطف وكن لى شفيعا ... يوم تحتاج فضلك الشفعاء
وأجرنى وعترتى من زمانى ... قد واهيه كلها دهباء
عاد فيه الدين المبين كما قلـ ... ـت غريبا وأهله غرباء

الى أن يقول : ـ

كم أبو جهل استطال على الدي ... ـن وكم ذا أزرت به الجهلاء
ولكم فى ثيابه ابن سلول ... شاكه من نفاقه سلاء
ما اغترارى بمن تلون منهم ... والافاعى شرها الرقطاء
ملء قلبى محبة لمحبيـ ... ـك وان قل فى الفؤادى الصفاء

وفى قصيدته الرائية الكبرى فى الكمالات الالهية والسيرة النبوية ووصف الملة الاسلامية والملل الأخرى " التى يظهر من عنوانها تضمينها لعدة مواضيع وقد جعل هذه القصيدة وغيرها فى عنوان بارز يقول فيه " القسم الثالث فى القصائد المطولات التى وقع فيها مع مدحه صلى الله عليه وسلم الرد على اعدائه اللئام من الكفرة وجهلة الاسلام وقد افتتحها بقوله :

بربك ذكرهم عسى تنفع الذكـ ... ـرى فكم نعم أجدى وكم منن أجرى
وأعظمها دين النبى محمد ... هو النعمة العظمى هو المنة الكبرى
فاشهد أن الله لا رب غيره ... توحد فى الدنيا توحد فى الأخرى

فقد جعل للقصيدة مقدمة من ثلاثة وستين بيتا ثم جعل فيها العناوين التالية " الفضائل

المحمدية والسيرة النبوية ، الثناء على الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة السابقين للاسلام وما وقع لهم من التعذيب والتغريب والآلام رضى الله عنهم ، وذكر الهجرة ومشروعية الجهاد للكفار ومدح المجاهدين المهاجرين والأنصار ، وذكر غزواته وفتوحاته صلى الله عليه وسلم ، وذكر الوفود وحجة الوداع ووفاته صلى الله عليه وسلم ، والكلام مع أهل الكتاب فى اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم بالبشائر والدلائل وبيان ما فى ديانتهم من الغواية والضلال والكلام مع اليهود فى شأنه صلى الله عليه وسلم ووصف دينهم الذميم وما فيه من اعتقاد التجسيم وغيرها من العناوين التى يناقش فيها مع النصارى بعض القضايا فى دينهم مثل قضية التثليث والصلب والتصعيد والمسيح وغيره " وقد جعل لقصيدته خاتمة فى التغزل بمحاسن حبيبتنا ملة الاسلام وهى فى هذه القصيدة مسك الختام ولا أعلم أحدا سبقنى الى هذا الأسلوب البديع من شعراء الاسلام وقد افتتحها بقوله :

لعمرى لئن فضلت دين محمد ... وملته لم آت بدعا ولا نكرا

وان هام قلبى فى محبتها فكم ... بها من كرام الناس من مفرم مفرى

وانى لم أخدع بظاهر حسنها ... وما دون تحقيق فؤادى بها اغترا

ولكن على علم بسر جمالها ... تعشقتها قدما وكنت بها أدرى

ففى كل معنى قد حوت حسن يوسف ... وقد زهرت أنوارها بأبى الزهرا

وكل فتى منا غدا فى غرامها ... زليخا وكل الأرض قد أصبحت مصرا

ومن قصائده المطولة الرائية الصغرى فى ذم البدعة ومدح السنة الغراء التى مطلعها :

هو الله لا نحصى لآلائه شكرا ... له الحمد فى الأولى له الحمد فى الأخرى

وكيف نؤديه بشكر حقوقه ... ونعمته بالشكر تستوجب الشكرا

وقد جعل للقصيدة مقدمة بلغت سبعة عشر بيتا ومن العناوين البارزة فى القصيدة " القسم الأول " فى مدح الكتاب والسنة والأئمة الأربعة ومذهبهم رضى الله عنهم " والقسم الثانى " فى وصف جمال الدين الأفغانى وأهل بدعته الجهلة اللئام الذين يزعمون أنهم مصلحون لدين الاسلام يدعون الاجتهاد ويبغون فى الأرض الفساد " واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون " .

" والقسم الثالث " فى وصف شيخهم الثانى الشيخ محمد عبده تلميذ الأفغانى وقد سبق شيخه فى طاعة الشيطان وتأييد هذا الشأن فصار عندهم

هو الأول وعليه فى بدعهم المعمول .

" والقسم الرابع " فى وصف رشيد رضا صاحب جريدة المنار التى تطبع فى مصر وتنشر بدعهم فى سائر الأقطار ومؤسسها محمد عبده كبير هؤلاء الأشرار .

" وجعل القسم الخامس " فى الرد على محمود شكرى الألوسى " صاحب كتاب غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " وجعل لها " حسن الختام بمدح النبى عليه الصلاة والسلام مع التلهف والتأسف على حالة المسلمين والاسلام " .

ومن هذا نلاحظ أن النبهانى جعل من بعض مدائحه غرضا لعدة مواضيع اسلامية وبعض مدائحه قصرها على موضوع واحد هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مثل قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " ولعله يكون فيها مقتديا بقصيدة بانت سعاد ومقتفيا أثرها وكذلك فى قصيدته " القول الحق فى مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم " التى مطلعها :

لمن ربع بأكناف المصلى ... علا السبع العلا شرفا وفضلا
وعاه الله منية كل نفس ... وحيا الله تربته وأعلى

كذلك قصيدته " أحسن الوسائل فى نظم أسماء النبى الكامل " وكذلك قصيدته " النظم البديع فى مولد الشفيع صلى الله عليه وسلم وكذلك فى التخاميس التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل كل تخميس غرضا مستقلا بذاته حاول أن يلتزم بالغرض الذى جعله عنوان التخميس قدر الامكان ، وكذلك قصيدته التى قالها لتقرأ وقت الزيارة فى مواجهته صلى الله عليه وسلم أو يستحضرها القارئ أينما كان .. انه بحضوره يخاطبه بها عليه الصلاة والسلام ومطلعها :—

يا نبيا لدى الاله عظيما ... وجبيا له وعبدا كريما
أنت فقت المسيح فقت الكليما ... فقت نوحا وفقت ابراهيما
يا رؤوفا بالمؤمنين رحيما (١)

وكذلك فى أرجوزته التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومطلعها :—

برئت من عقيدة الأشرار ... من منعوا زيارة المختار
وأنه وسيلة للبارى ... فى كل خير سالف وطارى
بجلب نفع أو يدفع ضر (٢)

---

(١) الديوان ص ٢٥٨ .

(٢) الديوان ص ٢٦٦ .

وكذلك فى قصائده التى عارضها الموشحات الأندلسية السينيات وموشحة أبى عبيد وكذلك فى موشحته التى عارض بها الموشحات السبعة لعلماء دمشق وهى :-

لست أنسى زمنا قد سلفا فيك يا مكة بالعيش الهنى

هذه هى مدائحه التى لم يمدد فيها الموضوعات كما فى مدائحه الأخرى المطولة وفى الحقيقة لم تخل هذه القصائد من التطرق للجوانب المختلفة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم سواء فى مولده أو معجزاته أو غيرهما وانما كانت هذه المدائح أقل تشعبا واطالة ربما لقصرها بالنسبة لمطولاته الأخرى وربما لحذوه طريق غيره فيها مما جعله يلتزم بها فى قصائد الغير وهى أكثر قصيدة التزم فيها بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرها " حيث جعل المدح والثناء يدور حول شخصية الرسول بالذات " هى قصيدته التى قالها لتقرأ وقت زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وفى مواجهته كما مر.

ب - مقدمة القصيدة :

يحبذ الشيخ النبهانى رحمه الله التشبيب بآثار الحجاز لمن يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول فى مقدمة المجموعة النبهانية : " الفصل الرابع " يستحب لمن يمدح النبى صلى الله عليه وسلم أن يشيب بذكر الديار الحجازية ومعالمها وحب سكانها والشوق اليهم والبكاء ووصف النياق والسير والمناهل ووصف السحاب والبرق والريح التى تجئ من نحوهم والدعاء لهم بالسلامة ولديارهم بالعمران والسقيا وما أشبه ذلك ، قال العلامة تقى الدين بن حجة فى خزانة الأدب فى شرح البيت الأول من بديعيته وهنا فائدة وهو أن الغزل الذى يصدر به المدح النبوى يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتغاضل ويتشبب مطربا بذكر سلع ورامة وسفح والعقيق والعذيب والغوير ولعلع والمناف حازو ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل فى ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وما أشبه ذلك ، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب .

قال الامام الشيخ عبدالغنى النابلسى رضى الله عنه فى شرح البيت الأول من بديعيته : ويتعين عليه النظر فى أحوال المخاطبين والممدوحين ويحترز مما يكرهون سماعه ويطيرون منه فيجتنب ذكره ويختار لكل شئ ما يناسبه ويحتشم فى غزل المديح النبوى ويشيب فيه بذكر الجهات الحجازية من سلع ورامة ولبان والعلم وذى سلم وما فى معناها ويطرح ذكر التغزل فى الردف والخصر والقد والنحر ونحو ذلك ،

فان سلوك هذا الطريق فى المدح النبوى مشعر بقلة الأدب وحسب العاقل قوله تعالى " ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه " .

وقال أيضا فى خطبة ديوانه " نفحة القبول فى مدحة الرسول " صلى الله عليه وسلم : " وافتتحت كل قصيدة بغزل لطيف اما فى ذكر بعض مزايا المدح النبوى الشريف أو فى التشبيب بالأماكن الحجازية والحضرة البثرية أو فى التشوق الى جيرة هاتيك البلاد أو فى بث الأشجان والتوجع من ألم البعاد أو فى الطرب بنفحات الحداة وذكر البروق والنفحات ، المقبلة من تلك الجهات ، أو فى منازل الركب من دمشق الى طيبة ذات الشرف الزائد على جميع البلاد والبهية أو فى ذكر الحجيج والنياق السائرة فى كل عام ، أو فى التغزل بالحدائق والزهور وتلاحين الحمام الى غير ذلك من المهمات القلبية فى المدائح النبوية " .

ويستحسن أيضا تقديم المواعظ والحكم فى ابتداء مدائحه صلى الله عليه وسلم لأنها من الأمور النافعة المستحسنة طبعا وشرعا كما فعل الامام البوصيرى فى قصيدته التى وازن بها " بانت سعاد " حيث قال فى مطلعها :

الى متى أنت بالذات مشغول ... وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وشبب فى بردته بذكر الأماكن الحجازية ومحبته لأهلها وابتدأ فى همزيته بمدحه صلى الله عليه وسلم وابتدأ فى لاميته الأخرى فى الرد على بعض الأديان فقال :ـ

جاء المسيح من الاله رسولا ... فأبى أقل العالمين عقولا

ولم يشبب فى قصيدة من قصائده بذكر أوصاف النساء والغلمان ، وهو امام المديح النبوى الذى يقتدى به ، وهكذا غيره من أئمة هذا الشأن (١) .

وفى الفصل الخامس يقول الشيخ النبهانى ـ أيضا : " اعلم أن الشعر سجية عربية وأروج ما كان فى الجاهلية وأقوى مهيجاته العشق والشوق ، ولذلك ترى شعراء العرب كانوا معروفين بعشق نساء مخصوصة يشبون بهن فى أشعارهم وقلما تخلو قصيدة لهم من ذلك ، وقصائد المدح يرون من أعظم محسناتها افتتاحها بالنسيب وهو التشبيب والتغزل بمعنى ذكر محاسن المحبوب وأوصاف المحب ومقتضياته قال الشاعر " اذا كان مدح فالنسيب المقدم " ومشى على طريقهم شعراء الاسلام حتى صارت القصيدة التى لم تفتتح بالغزل تعد ناقصة أمرا لازما وكان العرب لا يعرفون الا حب النساء والتشبيب بهن وانما حدث فيهم حب الغلمان والتشبيب بهم حينما

حينما فتحوا الفتوحات وأختلطوا بالأعاجم فسرى ذلك منهم اليهم ، أما الحكم الشرعي في ذلك فللفقهاء فيه تفصيلات واختلافات بسطها الامام ابن حجر في آخر كتاب " الزواجر " والسيد مرتضى في شرح " الاحياء " في كتاب " السماع " والذي عليه الأكثرون أن التشبيب بمعينة أو معين غير من يحل كزوجة أو جارية حرام ويضر معين جائز لأن المقصود تحسين الشعر وتوقيفه على عادة الشعراء وسماعه جائز أيضا ان لم يفتتن به سامعه بأن يهيجه الى المعصية ويطبقة على من يحرم تمتعه به هذا في مطلق الغزل وهو في المدائح النبوية غير مستحسن مطلقا لأن الغزل ولو في غير معين لما اشتمل على وصف الخدود والقدود والأرداف وما أشبه ذلك من أوصاف النساء والغلمان التي هي من هذا القبيل وما يجري للعاشق مع المعشوق من السفاهات والنزهات هو مما يأبى ذكره الذوق السليم والطبع المستقيم في مقدمة قصيدة يمدح بها أحد العلماء العاملين والأولياء العارفين فضلا عن سيد الأنبياء والمرسلين وصفوة خلق الله أجمعين صلى الله عليه وسلم أما قصيدة " بانت سعاد " التي أتخذوها دليلا لبعض من سلك هذا المسلك واستحسنه وهو في نفسه غير حسن فهي لا تصلح دليلا لذلك لأن ناظمها كعب بن زهير رضي الله عنه كان قبل اسلامه شاعرا جاهليا فنظمها على طريقتهم قبل أن يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على يديه ويعرف آداب الاسلام وما ينبغي أن يخاطب به سيد الأنام عليه الصلاة والسلام واقرار النبي صلى الله عليه وسلم له ولغيره على ذلك لعله لهذا السبب وقرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها مع علمه صلى الله عليه وسلم أنهم لم يقصدوا بغزلهم معينا وانما هو شيء جرى على عادتهم فلا يترتب عليه محذور ، وحينئذ لا حاجة الى الجواب بأن سعاد هي زوجته وابنة عمه ، وقد طالت غيبته عنها لأن تشبيب الرجل بزوجته وان كان جائزا مخل بالمروءة كما هو ظاهر ، ونقله في الزواجر عن بعض الفقهاء ولو صدرت منه هذه القصيدة بعد اسلامه واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته احكام الدين وآداب المسلمين ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين . فربما كانت تصلح أن تكون دليلا لمن سلكوا هذا المسلك .

ويدل على ما قلته : أنه رضى الله عنه لم يحصل منه مثل هذا التشبيب بعد اسلامه ولا من أحد من شعراء النبى صلى الله عليه وسلم كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء الصحابة رضى الله عنهم فى مقدمة شعر مدحوا بها النبى صلى الله عليه وسلم الا مع قرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها ، أما بعد ذلك فلم يرو عن أحد منهم شيء من هذا القبيل وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولا وأعظم الناس أدبا مع الله ورسوله وقد قال الله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة " أفراهم بعد أن سمعوا هذا يضعون سفاسافها من الغزل بالنساء وأوصافهن المستهجنة موضع الصدقة فى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم حاشاهم ونحن مع ما بيننا وبينهم من الفرق فى كل وصف جميل عقلا وشرعا ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك واقبح من التشبيب بالنساء والولدان فى ذلك ما يستحسنه بعض الجهال القاصرين من سماع الأشعار المشتملة على المعانى الغزلية فى وصف الذات الشريفة المحمدية مما يأباه كل ذى طبع سليم لا يستحليه الا كل ذى ذوق سقيم ، وقد أدخلوا بعض تلك الأشعار فى قصة المولد الشريف المنسوبة الى بعض العلماء وصارت تقرأ فى مجالس العوام فلا تنكر وذلك من أقبح المنكر فليجتنب سماعه ولتحذر ومن ذا الذى يستحسن ان يتغزل به أو بأبيه أو برجل جليل من قومه أو ممن يعتقدهم أو يجلهم من العلماء والأولياء وغيرهم من الاكابر الأجلاء كما يتغزل بالولد أو النساء ؟ لا شك أن ذلك لا يستحسنه أحد من العقلاء ؛ نعم من اللازم ذكر محاسنه صلى الله عليه وسلم الجميلة وأخلاقه الجليلة التى اشتملت عليها شمائله الشريفة من صفات الجمال والكمال ، ولكن لا على وجه التغزل بل على وجه العلم والتعظيم والاجلال ، وهذا من الضرورى لكل مسلم حتى يستشعر دائما من نفسه كونه صلى الله عليه وسلم أفضل الفاضلين وأكمل الكاملين فى كل حال كما هو الواقع فى نفس الأمر ولله الحمد والشكر (١)

---

(١) المجموعة ص ١٤ — ١٥ ج ١ ..

وقد التزم النبهانى بمنهجة هذا فلم يشبب بالنساء أو الغلمان فى مطالع قصائده بل شبب بالديار الحجازية ومعالم مكة والمدينة المنورة ، وغالبا ما يبدأ بالمديح مباشرة ففى قصيدته " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم " بدأ بالمديح مباشرة حيث يقول : —

نورك الكل والسورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء

علة الكون كنت أنت ولولا ... ك لدامت فى غيبها الأشياء

منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء

هكذا يفتتح قصيدته بستة أبيات من المديح المباشر ثم يتغزل بالمدينة المنورة ومعالمها حيث يقول : —

يارعى الله طيبة من رياض ... طاب فيها الهوى وطاب الهواء

شاقنى فى ربوعها خيرحى ... حل لا زينب ولا أسماء

ثم يذكر هيامه وشوقه هكذا دون أن يتطرق الى أى غزل نسائى .

وفى قصيدته "سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " فقد ابتدأها بذكر الأطلال ومعالم ديار الحبيب وهى طيبة وساكنها عليه الصلاة والسلام حيث يقول : —

هواى طيبة لا بيضاء عطبول ... ومنيتى عينها الزرقاء لا النيل

عذراء جلت عن التشبيب اذ جليت ... هامت بها الخلق جيلا بعده جيل

كل المحاسن جزء من محاسنها ... اجمالها بجمال الكون تفصيل

فما سعاد اذا قيست ببهجتها ... وكل امثالها الا تماثيل

وفى قصيدته "القول الحق فى مدح سيد الخلق " يتغزل فى معالم المدينة المنوره حيث يقول :

لمن ربع بأكناف المصلى ... علا السبع شرفا وفضلا (١)

---

(١) الربع المنزل الاكناف الجوانب . المصلى وقبا والعقيق والعوالى واحد والنقا وسلع واللوى والحرار كلها امكنة فى المدينة المنورة .

رعاه الله منية كل نفـــــس وحيا الله تربتـــه وأعلـــــى

وبلغ من غواديه السحب عنى قباب قبا بسيل القطر سؤلا (١)

أما التخاميس السبعة التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ابتدأهـــا جميعها بالمديح المباشر وقصيدته التي قالها لتقرأ في وقت الزيارة في مواجهته صلى اللـــه عليه وسلم فقد ابتدأها بالمديح المباشر وموشحته التي عارض بها الموشحـــات الأندلسية السينيات فقد ابتدأها بذكر الديار والمعالم حيث يقول :

حي ياسعد قبابا بالحمـــى تحتها ربع المنى لم يـــــدرس

جاده الغيث اذا الغيث هـــى لا زمان الوصل بالاندلســـى

وفي موشحته التي عارض بها الموشحات السبع لعلماء دمشق الذين شبهوا برياضهـــا وبساتينها وهو شبب برياض الحرمين الشريفين مطلعها :

لست أنسى زمنا قد سلـــفا فيك يا مكة بالعيش الهنـــى

اذ من المروة أسعى للصفـــا وبذات الخال وجدي عنـــى

أما موشحه الذي عارض به موشح أبي عبيد فقد ابتدأه بمدح الرسول مباشرة مطلعه

ابو لـــــــــى مدح النبي الخاتـــم الأول

واجـــل لـــــى كأس الصفا من حبه قد ملـــى

أما قصيدتاه الرائية الكبرى والرائية الصغرى فقد بدأهما بالمدح المباشر للرســـول صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا نلاحظ أن النبهاني استعمل أسلوب المدح المباشر وأسلوب التشبيب بالديار الحجازية والذي نلاحظه في أسلوبه الثاني أنه لم يتغـــزل بالنســـاء بل كان تشبيبه شوقا بمعالم الحرمين الشريفين .. أي .. أنه قد التـــزم بمنهجه الذي وضحه في مقدمة المجموعة النبهانية ولم يحد عنه مع أن النبهاني ظاهـــر في صياغة المقدمات الغزالية أو الخمرية كما نلاحظ في قصيدته في مدح أحمـــد عزت باشا العابد . ولكن عاطفته الدينية تترفع به أن يقدم لمدح الرسول صلـــى

---

(١) الغوادي السحاب تنشأ عدوة اي اول النهار .

الله عليه وسلم بذكر النساء أو الخمر .

جـ — حسن التخلص : —

لقد أحسن النبهانى رحمه الله فى التخلص من التشبيب فى ديار الحرمين الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ففى قصيدته (سعادة العباد فى موازنة بانت سعاد " حيث بدأها بالتشبيب بمعالم المدينة المنورة ثم أظهر الحزن والبكاء لعدم إستطاعته زيارة بلد الحبيب ثم يعقب على عجزه هذا بأنه فى الحقيقة ليس لبعد ديار الحبيب أو لصعوبة الوصول اليها ولكن كثرة الذنوب هى التى ثبطته وأنه لو اتقى الله لطار لزيارة حبيبه وعليه فان أن يكون صادقا فى حبه لأنه ليس له عن غير طريقه فلاح ونجاح كل هذا جعله فى صياغة شعرية رائعة حيث يقول بعد مقدمة بلغت سبعة وعشرين بيتا :

لا تجحد الحق ياهذا فأنت فتى ... كسلان عندك تسويف وتسويل

هذى البحار وهذى البيد ما برحت ... تجرى بها السفن والنوق المراسيل (١)

لو كنت تقوى بتقوى الله طرت ولم ... يحوجك فلك ولم تعوزك شمليل (٢)

لكن بركت بأثقال الذنوب وهل ... يمثلها لجناح المرء تثقيل

عليك بالصدق فى حب الحبيب فما ... يفيده لك تحصيل وتنويل

ثم يفصح عن محبوبه بقوله :—

محمد خير خلق الله أفضلهم ... لديه سيان مفضال ومفضول

أصل النبيين قدما وهو خاتمهم ... فمنه للكل اجمال وتجميل

وفى قصيدته " القول الحق فى مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم " يشبب بمعالم ديار المحبوب فى مقدمة بلغت اثنين وعشرين بيتا ولما أراد الشاعر أن يخلص الى المدح هيأ له الجو أو البيت الانتقالى المناسب حيث يقول :

---

(١) المراسيل جمع مرسال وهى الناقة السريعة السير .

(٢) الشمليل الناقة الخفيفة السريعة .

هى العذراء يهدينى هواهـــا اذا ما الغير بالعذراء ضـــلا (١)
لقد شغلت فؤادى عن سواهـــا ولم تترك له بالغير شغـــــلا
وكنت هويت قبل اليوم جمـــلا فأنستنى هوى جمل وجمـــلا (٢)
ولاعجب اذا حلت بقلبـــى فان بهـا رسول الله حـــــلا
محمد المصفى من قريـــش خيار العرب خير الناس أصـــلا

فهو قبل الانتقال الى الغرض الأصلى هيأ لنا الجو المناسب حيث ذكر حبه لهـــا وشغل فكره عن سواها من محبوباته ثم ادعى تعجب الآخرين من فعله هذا ثـــم أزال تعجبهم لحبها — أى المدينة المنورة — لأن بها الرسول صلى الله عليه وسلم ثـــم شرع فى المديح وفى موشحاته التى عارض بها الموشحات الأندلسية السينيات بلـــغ القمة فى حسن التخلص فهو بعد أن يتغزل بمحاسن طيبة وبعد أن يشـــرب ماء زمزم من حر هواه وجواه يستعطف محبوبته طيبة أن ترحمه فيقول بعـــد أن قدم ثلاثين بيتا :

فارحمى طيبة صبا مغرمـــا بك ان يرج اللقـا أو ييأســـى
هولا ينفك عبدا قيمـــا شددى فى هجره او نفســـى
لست والله بذا الخلق خليـــق انما ذلك تمويه الكـــلام

فهو حتى فى هذه الأبيات يوضح أنه ليس صادقا فى ادعائه ومحبته لطيبة لأنـــه ليس أهلا لها ثم يذكر السبب فيقول :

أن أكن حقا بما قلت حقيـــق فعلام ولم هـــذا المقـــام
ولماذا ان يجى ذكر العتيـــق لست أجريه بدمع كالغمـــام
لو ترى طيبة عندى همـــا اكتسى منها بأبهى ملبســـى
أدخلتنى فى رضاها حرمـــا كل من يدخله لم يـــأس

---

(١) العذراء الاولى المدينة المنورة والثانية السيدة العذراء عليها السلام
(٢) جمل من اسماء نساء العرب المحبوبات.

فهو يرى أن عدم تقرب طيبه له هو أنه ليس أهلا لقربها ثم يذكر رجاءه وأمله في تقويمها ولكن الدهر كله يقول مستحيل حيث يقول :

لكن الظن بها ظن جميل ... لم يزل يزداد فيها أملي

عالم أني أرى فيها نزيل ... يذهب العسر وتشفى عللي

ولسان الدهر نادى مستحيل ... اذ بدا فقري وقلت حيلي

فهو في كل هذا يريد أن يسخن الموقف ويرفع درجة حرارة السؤال اذ أن الدهر والمقصود به هو واقع الحال ، والحقيقة تظهر استحالة مواصلتها له ثم يصطنع السؤال والحوار كعادته فيقول بلسان الدهر :

قال : ما أملت حتى تغنما ... ومتى تمت أماني مفلس ؟

فيجيب الشاعر :

قلت أملت النبي الأكرما ... أحتسي من جوده ما أحتسي

سيد الخلق له الكل عبيد ... وهو عبد الواحد الفرد الصمد

فائق في فضله فذ وحيد ... مفرد في قرب مولاه الأحد

أحمد الرسل لمولاه الحميد ... أفضل الكل واعلاهم وشد

وللشيخ النبهاني رحمه الله موشح آخر قاله في تقديمه " وقلت أمدحه صلى الله عليه وسلم معارضا الموشحات السبع لعلماء دمشق وقد شبهوا بحدائق الشام وشببت بمعالم الحرمين الشريفين على مشرفهما الصلاة والسلام ومطلعه :

لست أنسى زمنا قد سلفا ... فيك يا مكة بالعيش الهني

اذ من المروة أسعى للصفا ... وبذات الحال وجدي عمني

فقد شبب بمعالم الحرم المكي في ثلاثة وعشرين بيتا صور فيها طوافه حول الكعبة وهو سكران ثمل لأنه قد سكر من ماء زمزم وانتشى وشعر بالعظمة ثم صور زيارته لمنى ورمي الجمرات والمزدلفة وعرفات كل ذلك قد صوره بصور من العشق والمحبة مثل قوله :

والمنى تمت لدينا في منى ... حين نرمي من هوانا الجمرات (١)

---

(١) الهوى الحب الجمرات الحصيات رميها تورية بجمرات النار .

واجتمعنا بسرور وهنـــــا عند جمع وعرفنا عرفـــــات

ذاك يوم كلما الدهر جنـــى قد محاه بالأيادى الطائـــلات (١)

غير أنى لم أزل ملتهفـــا لنوى من حبها تيمـــنى (٢)

لست ابغى غادة أو أهيفـــا طيبة قصدى واقصى منتـــى

وهكذا استطاع أن يخلص من التشبيب فى الحرم المكى الى التشبيب فى الحرم المدنى ولا تحس بنقله أو فراغ بين التشبيبين ويستمر فى التشبيب بالحرم المدنى فى ثمانية أبيات ثم يخلص الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والأبيات التى مهد بها لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم هى قوله :

هى والله منى قلبى الحزيـــن ان تكن تقرب او تنأى الديـــار

يا ترى أحظى ولو من بعد حيـــن بحماها وارى فيها القـــرار

ثاويا ثمة فى الحرز الأميـــن فى جوار المصطفى أكرم جـــار

هكذا تلاحظ انه يكل سهولة تخلص من التشبيب الى غرضه الأساسى وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أشار النقاد الى يسر التخلص وسهولته من التشبيب بديار الحبيبة الى الغزل لقوة الصلة بينهما مما يجعلنا نعد الاثنين مرحلة واحدة تقريبا . ولعل قوة العلاقة آتية من اقامة الحبيبة فى هذه الديار وما ترتب أثناء الاقامة فيها من ذكريات أصبحت بعد الرحيل والفراق وقودا لعاطفة الشاعر (٣) ولكن الشيخ النبهانى لم يكن يتغزل بالرسول صلى الله عليه وسلم بل كان يمدحه لذلك أجاد التخلص مع غرض المديح أقوى منها فى الغزل .

---

(١) جنى أذنب والايادى النعم وفيها توبة بالايادى التى تقابل الارجل ورشحها لفظة طائلات وهى من الطول وهو الافضل وفيها توبة بالطائلات من الطول .

(٢) اللهف شدة الحزن لنوى البعد تيمه الحب عبده .

(٣) راجع المطلع التقليدى فى القصيدة العربية ص ٢٢ ـ ٢٣ ..

ومما نلاحظه أن النبهانى رحمه الله لم يتكئ على كلمات محدودة للتخلص من غرض الى غرض كما هو مألوف لدى الشعراء مثل " دع ذا " و " عد عن ذا " أو يأتون بأن المشددة فى ابتداء الكلام الذى يقصدونه ولهذا قالوا بعد وصف الناقة والمفازة " الى فلان قصدت " وحتى نزلت بفناء فلان " وما شاكل ذلك (١) ولكن النبهانى اعتمد على تهيئة الجو والموقف واعداد الكلمات المناسبة توطئة للانتقال فهو فى غزله بديار الحبيب تراه ينتقل فى التشبيب شمالا ويمينا اجمالا وتفصيلا ذاكرا ولهه ولهفته وتعلقه بهذه الديار حتى اذا قارب الافصاح عن حبيبه تراه يرفع حرارة حبه وعشقه وتمنياته باللقاء ليكون تصريحه بالممدوح نتيجة متوقعة وان المتتبع لمقدمات مدائحه الكاملة بالعودة الى الديوان لقراءة المقدمة بعناية وتتبع سرعان ما يتوقع التخلص الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى البيت أو البيتين القادمين ، ولم تقتصر اجادة النبهانى فى التخلص من غرض الى غرض على مدائحه النبوية فقط ففى قصيدته البائية التى انتصر بها للامام تقى الدين السبكى وعارض بها قصيدتى المظفر يوسف بن محمد بن سعود العبادى العقيلى الحنبلى ومحمد بن يوسف اليمنى اليافعى الشافعى حين كتب كل منهما بائية فى الانتصار للامام ابن تيمية ضد الامام السبكى فالشيخ النبهانى جعل للقصيدة مقدمة من ثمانية أبيات قبل أن يفصح عن غرضه فى نصرة الامام السبكى وقد هيأ للانتقال من المقدمة الى الموضوع بالأبيات التالية : ـ

ورأس مالى جاه المصطفى فيه ... أدعوك يارب أيدنى له وبه

وارحم به علماء الدين قاطبة ... من أهل سنته وساه ومنتبه

أولاهم بما علمنا ما بعثت به ... خير الورى وعجزنا عن تطلبه

ثم يفصح عن مطلب الموضوع فيقول :

منهم أبو الحسن السبكى ناصره ... سقاه غيث الرضى الهامى بصيبه (٢)

د ـ جودة المطلع : ـ

اعتنى الشعراء المجيدون بمطالع قصائدهم وما زال الشعراء على مر العصور

---

(١) راجع العمدة جـ ١ ص ٢٣٩

(٢) الديوان ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ..

يعتنون بمطالع قصائدهم لأنه أول ما يطرق السمع ليدل على منزلة الشاعر وقيمة شعره وقد كان المطلع موحيا بالموضوع لدى كبار الشعراء وهو ما يسمى براعة الاستهلال ، ومن يدقق فى مطالع المدائح النبوية لا يسعه الا أن يعجب ببراعة المطلع الذى استهل به الشاعر مدائحه ففى قصيدته طيف الغراء فى مدح سيد الأنبياء أو الهمزية الألفية" يقول فى مطلعها :

١ـ نورك الكل ولورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء

٢ـ وحمة الكون حيث أنت ولولا ... ك لداست فى غيبها الأشياء

٣ـ منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء

٤ـ لم تزل فوق كل فوق مجدا ... بالترقى ما للترقى انتهاء

٥ـ جزت قدرا فما أمامك خلق ... فوقك الله والبرايا وراء

٦ـ خير أرض ثويت فهى سماء ... بك طالت ما طاولتها سماء

لقد وفق الشاعر فى افتتاح هذه القصيدة حيث انه استعمل الكلمة الأولى " النور " التى توثر فى القلب فتشع فيه روحانية تخضع لها الحواس وتسكن وكأنها فى تلقى الهبى لا ارادة لها فيه ، والشطر الأول من البيت الأول تظهر فيه ثقافة الشاعر الصوفية اذ ضمنه ما يقوله الصوفية ان الله خلق أولها خلق نور محمد ثم خلق من نوره سائر المخلوقات " العرش والكرسى والسماوات والأرض والجنة والنار وغيرها " وقد استعمل الشاعر ضمير المخاطب فى الكلمة الأولى " نورك " والخطاب يعطى معنى أقوى من الغيبة وكأنه تصور الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدا أمامه وقد رآه الشاعر فذهل ودهش من قوة نوره فكانت عينه أسرع من تفكيره حيث رأت النور أولا فنطق بما وصل لعقله عن طريق بصره ثم هدأت أعصابه لحظة فأفصح عقله عن صاحب النور فقال :

" يا نبيا من جنده الأنبياء " فالشطر الثانى فيه افصاح عن صاحب النور الذى بهر الشاعر وأوقعه فى ارتباك موقت وفى البيتين الثانى والثالث استعمل التعابير الصوفية وفى البيت الخامس يصل الشاعر الى قمة المبالغة فى وصفة للرسول صلى الله

عليه وسلم فى الدرجة الثانية بعد الله سبحانه وتعالى مع أن الصوفية لا يعدون هذا مبالغة ولكن مبالغته جاءت من الجرأة فى التعبير بمعان والفاظ حول الذات الالهية وفى البيت السادس استمرار للمبالغة فى البيت الخامس ثم يبدأ التشبيب بديار الرسول صلى الله عليه وسلم كعادة الشعراء وبعد هذا الترتيب فى مقدمة القصيدة نتحاجد يدا فى الشعر العربى (١) .

هكذا نجد الشاعر قد وفق كل التوفيق فى مطلع قصيدته الذى يدل على الوله المحمدى للشاعر وفى قصيدته سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " التى مطلعها :

هوا ى طيبه لابيضاء عطبول ومنيتى عينها الزرقاء لا النيل (٢)

أفصح عن موضوع قصيدته وأن حبيبه فى طيبة وهى المدينة المنورة وبذلك أوضح عن ممدوحه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ارتفع بمدائحه عن أن يجعل مطالعها تشبيبا بمحاسن النساء لأنه يشبب بطيبة التى هى أعلى وأسمى منهن .

ويقول فى مطلع موشحه الذى عارض به الموشحات الأندلسية المينيات .

حى ياسعد قبابا بالحمى تحتها ربع المنى لم يدرس

جاده الغيث اذا الغيث همى لا زمان الوصل بالأندلس

نلاحظ أن الشاعر قد افتتح المطلع بكلمة " حى " وهى كلمة خفيفة وشيقة فى معناها ومبناها والمطلع بمعناه جيد بعيد عما يستكره .

ومطلع موشحه الذى عارض به الموشحات السبع لعلماء دمشق يقول فيه :

لست أنسى زمنا قد سلفا فيك يا مكة بالعيش الهنى

اذ من العروة أسعى للصفا وبذات الخال وجدى عنى

فنحن نلاحظ أيضا اجادته لهذا المطلع باختياره كلمات بعيدة عما يشين الغرض الاصلى أو يعيبه .

---

(١) سنفصل الكلام عن هذه النقطة عند الكلام عن معارضات النبهانى فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) الزرقاء اسم عين ماء فى المدينة المنورة والعين الزرقاء ففيها تورية ..

ومن مطالع قصائده التى لم يجعل لها مقدمات تقليدية قوله فى مطلع رائيته الكبرى :

بربك ذكرهم عسى تنفع الذكرى فكن نعم أجدى وكم منهم أجرى

وأعظمها دين النبى محمد هو النعمة العظمى هو المنة الكبرى

فهو قد جعل المطلع فى البيت الأول توطئة وتمهيدا لبيان أن الاسلام من أعظم النعم الالهيه وفى هذا مدح للرسول صلى الله عليه وسلم حيث صرح باسمه بقوله " دين النبى محمد " وفى المقابل فيه تعويض بالديانات الأخرى التى ألغاها الاسلام وبذلك صرح عن موضوع القصيدة فى مطلعه .

ويقول فى مطلع رائيته الصغرى فى ذم البدعة ومدح السنة الغرا

هو الله لا نحصى لالائه شكرا له الحمد فى الأولى له الحمد فى الأخرى

وكيف نؤديه بشكر حقوقه ونعمته بالشكر تستوجب الشكرا

وفى مطلع التخاميس السبعة التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم نلاحظ أن النبهانى قد وفق فيها كل التوفيق اذ سرعان ما يقف القارى على موضوع القصيدة بعد قراءتها وهى :

التخميس الأول :

عج بالمدينة تلق ثم كريما خير الورى نسبا وأكرم خيما (١)

هو من غدا بالمؤمنين رحيما هو خيرة الله القديم قديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

التخميس الثانى :

سيد الرسل قدره معلوم اين منه المسيح أين الكليم

أين نوح وأين ابراهيم كلهم عن مقامه مفطوم

فعليه الصلاة والتسليم

---

(١) الخيم السجية ..

التخميس الثالث :

أموا المدينة حيث جل المغنم حيث الهدى حيث النبى الاكرم (١)

ومتى فقدتم عينها فتيمموا بمديحة وتنعموا وترنموا (٢)

بحياته صلوا عليه وسلموا

التخميس الرابع :

مقام اجل الرسل اعلى واعظم فماذا يقول المادحون ومن هم

نعم جئت أحكى بعضها نحن نفهم لكيما يصلى سامح ويسلم

عليه عباد الله صلوا وسلموا

التخميس الخامس:

اى مدح خير الخلق صعبا فاحجما وقادته انوار المعانى فاقدما

بدا بدر هو الكون يعبس مظلما فبث به نور الهدى فتبسما

على ذاته الرحمن صلى وسلما

التخميس السادس :

أقبل على مدح النبى مفخما ومنصفا ومخصصا ومعمما

ومبجلا ومفضلا ومعظما ومحييا ومصليا ومسلما

الله قد صلى عليه وسلما

التخميس السابع :

الى م وحتى م هذا المقام فقم وارح لليعملات الزمام

وسر نحو طيبه دار الكرام ففيها المشفع خير الانام

عليه الصلاة عليه السلام

---

(١) اموا اقصدوا المغنم الغنيمة قال صلى الله عليه وسلم من زار قبرى وجبت له شفاعتى .

(٢) الى م الى متى حتى م حتى متى اليعملات الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة والجمل يحمل والزمام المقود وهو الخطام .

(٣) تيمموا اقصدوا وفيه تورية بالتيمم بالتراب اذا فقد الماء والترنم ترجيع الصوت بالغناء ونحوه .

وقال فى مطلع مولده صلى الله عليه وسلم الذى سماه " النظم البديع فى مولد الشفيع صلى الله عليه وسلم :

الحمد لله على الآئه ... حمد امرئ أخلص فى أدائه

أحمده والحمد من نعمائه ... ان خصنا بخير أنبيائه

محمد سيد كل عبد

وقال فى مطلع " أحسن الوسائل فى نظم أسماء النبى الكامل " صلى الله عليه وسلم :

الحمد الله الغنى الأحد ... الواحد الفرد العلى الصمد (١)

السيد المطلق خير سيد ... مولى أسامى عبده محمد

خير الورى ذاتا ووصفا وسما (٢)

وقال فى مطلع المزدوجة الغرا فى الاستغاثة بأسماء الله الحسنى :

باسم الاله وبه بدينا ... ولو عبدنا فيره شقينا

ياحبذا ربا وحبذا ... وحبذا محمد هادينا

لولاه ماكنا ولا بقينا

وبعد الاستعراض العام لمطالع مدائح النبهانى نلاحظ ما يأتى :-

١ - الحسن والعذوبة فى اللفظ وفى المعنى مع البراعة والجودة .

٢ - المعنى واضح ولاغموض فيه ولا صعوبة فى فهم معناه مع القوة والجزالة .

٣ - ليس فيه ما يتطير به أو يستجفى من الكلمات كذكر البكاء والحزن ووصف البكاء على الشباب ونعى الزمان وذمه .

كل هذا يقودنا للقول بأن الشاعر كان موفقا فى مطالع مدائحه كل التوفيق .

هـ - ختام القصيدة :-

هو اشعار بنهاية المطاف وكثيرا ما يكون تركيز الفكرة العامة وتجميعا للغرض من القصيدة لأنه آخر ما يطرق الأسماع فيستقر بالنفس ويعلق بالذهن لذلك اعتنى

---

(١) الصمد السيد الذى انتهى اليه السودد

(٢) سما لغة فى اسم .

الشعراء بختام قصائدهم واهتموا به .

وقد اهتم الشيخ النبهانى بختام قصيدته وضمنه خلاصتها ففى قصيدته " طيبة الغراء " فى مدح سيد الأنبياء " جعل لختام قصيدته فصلا مستقلا بلغت أبياته ثلاثة وستين بيتا خلاصة قصيدته كلها فقد افتتح الختام بقوله :

سيد العالمين يابحر جود ... قطرة من سخائه الأسخياء

هذه طيبة بمدحك قد طا ... لت وطاب الانشاد والانشاء

كلها وهى الف بيت قصور ... عنك ضاقت وانها فيحاء

سكنتها أبكار غر المعانى ... منك فهى المدينة العذراء

وهكذا يستمر النبهانى فى بيان أهمية قصيدته التى تقصر عن احتواء فضل الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه صب بالغ فيه فلن يظفر من صفاته اكثر من قوله :

واعتقادى أن لو مدحت بسفر ... عرضه الأرض كلها والسماء

ماحوى من غزير فضلك الا ... مثل ماحاز عن بحار ركاء

مثلى فيك فى مديحى كما لو ... وصف العرش ذرة عشواء

وصفت ما رأته منه ولكن ... فاق منه العلو منك العلاء

ثم يشكو الشاعر من الزمن وأهله وكيدهم له وأنه لم ولن يستسلم لهم وسيمضى فى بغضهم ومحاربتهم مادامو ا يبغضون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتدرج لانهاء القصيدة فينهيها بهذه الأبيات :

قد أجزت المداح قبلى فكانت ... سنة اقتدى بك الكرماء

فأجزنى بما تطيب به نفسك فضلا يا سمح يا معطاء

لست أبغى قدرى ولا قدر شعرى ... قدر جود المعطى يكون العطاء

وبحسبى صلاح دينى ودنيا ... ى وحسن الختام فيه اكتفاء

فعليك الصلاة تبقى من الله ... كما شاء كثرة وتشاء

وعليك السلام منه على قد ... رك قدر لا يعتريه فناء

وعلى الأولياء آلك والصحـ ... ـب ومن للجميع فيه ولاء ...

ماقضى الله فى الورى لك مدحا ولله الحمد كله والثنـــــاء

فنحن نلاحظ فى الأبيات الأخيرة أن الشاعر — وقد شارف على الانتهاء من قصيدته — ختمها بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم وبالدعاء لآله وأصحابه أجمعيـــن

وفى قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " التى بلغت أربعة وأربعين وماثة بيت بدأ فى انهائها فى الأحد عشر بيتا الأخيرة التى يقول فيها :—

أتاك كعب وقد جلت جنايتـــه وكاد يغتال من ذنبه غـول (١)

وقام ينشد لم تملل مدائحـــه غير الكريم لديه المدح ممـــــول

فآب بالبردة الحسناء مشتمـــلا وعاد وهو ببرد العفو مشمـــــول

ولست مثلا له لكن حالتـــــه لها بحالة هذا العبـد تمثيـــل

ان كان متبول قلب يوم أنشدكم "بانت سعاد "فقلبى اليوم متبـــول

ويقول فى الثلاثة الابيات الأخيرة بعد أن يذكر فضله واجادته على كل من عارضـــوا قصيدة الـــبردة :

أستغفر الله كل قد أجاد وهـــم كل ورؤوس لهم بالفوز تكليـــــل

لكن لكعبك باحبر الانام علـــى رؤوسنا ثابت فضل وتفضيـــــل

عليك أزكى صلاة الله وهى لنـــا مسك الختام بها للخير تكميـــل

وفى قصيدة " القول الحق فى مدح سيد الخلق " يظهر الشاعر انتهاءه من القصيدة فى الأبيات التسعة الأخيرة ذاكرا تشرفه برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم فى النـــوم ثم يقول فى الأبيات الثلاثة الأخيرة :

ولست بحاجة للمدح لكـــــن لنا حاج وليس سواك مولـــــى

ولم تنفك للرحمن سيفـــــا وقد يستحسن السيف المحلـــــى

وصحبك كنت انت فانت عبـــد وعز الله مولانـــا وجـــــلا

ونلاحظ أنه لم يختمها بالصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم كما هى عادة مداح الرسول صلى الله عليه وسلم بل ختمها باظهار عظمة الرسول وغناه عن المـدح

---

(١) كل ما اغتال الانسان فاهلكه فهو غول ..

وقد شبهه بالسيف و لسيف المزركش يكون جميلا ومن هنا جاء مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يخاطب الرسول بأنه مهما بلغ من العظمة والرفعة لهو عبد الله عز وجل •

ويقول فى ختام موشحه الذى عارض به الموشحات الأندلسية السينيات :

لا تدعنى سيدى مهتضما ... ليس عندى من سهام أو قسى
كل من حاربنى أو ظلما ... ما وفى حق الجناب الاقدس (١)
ياعمادى أنت أدرى بالزمان ... ما لأهليه وفاه وعهود
كلما اخترت فتى للصدق مان ... قابلوا المعروف منى بالجحود
ضعف الايمان فيهم والأمان ... ودهم مذق وجدواهم وعود (٢)
ليس يجدينى جداهم انما ... أجتدى من جودك المنهجسى (٣)
فاجبنى واجرنى كرما ... يا ملاذ البائس المبتئسى

ونلاحظ أنه ختم موشحه بالشكوى من أحوال عصره الذى لم يقدره اذ يجب عليهم احترام الشاعر وتقديره لأنه يمدحه للرسول صلى الله عليه وسلم أصبح محسوبا عليه كما فى البيت الثانى من الخاتمة •

وختم موشحه الذى عارض موشحات علماء دمشق بقوله :

سيدى يا أيها المولى الملاذ ... يا حبيب الله يا خير رسول
كل جاه فى البرايا ذى نفاذ ... فعليه جاهك الضافى يطول (٤)
ليس لى غيرك فى الخلق معاذ ... ولحالى سيدى شوح يطول (٥)
ادرك ادركنى فصبرى قد عفا ... وغدا ربع الصفا كالدمن (٦)

---

(١) الجناب الجانب الاقدس الاطهر والمراد به جانب النبى صلى الله عليه وسلم •

(٢) المذق الخلط • الجدوى العطية •

(٣) يجدينى يفيدنى الجدى العطية اجتدى طلب انهجس الماء انفجر •

(٤) الضافى السابغ الساتر الطويل ببطول يغلب فى الطول •

(٥) يطول يصير طويلا فبينها وبين يطول السابقة جناس تام •

(٦) عفت الدار فى اثرها الربع المنزل الدمن اثار الديار جمع دمنه •

عبدك الدهر بحقى أجفا ... ونفى عنى لذيذ الوسن
ولكهن حاجة فى خلدى ... انتدبها وما عنك استنار
انا فى الدارين أبغى رشدى ... منك فى الدنيا وفى دار القرار
لا تخصصنى بخير سيدى ... عم أهلى واجنبا منك الجوار
وأبحنا من حماكم كنفا ... واقيا من شر كل الفتن
حسبنا الله الها وكفى ... بك للمحسوب اقوى ركن (١)

فقد ختم موشحه بالتجائه للرسول صلى الله عليه وسلم ثم دعا لأهله بالخير وأنه حسبه الله وهو محسوب على رسول الله لمدحه اياه .

وختم رائيته الكبرى فقال :

عليه من الرحمن اسنى صلاته ... وأكثرها عدا واعظمها قدرا
بأعداد ذرات الوجود وعظمه ... تدوم دوام الله لا تقبل الحصرا
ولله كل الحمد فى كل لحظة ... يضاعف لايفنى بدنيا ولا أخرى

ونلاحظ انه ختمها بالصلاة والسلام على رسول الله باعداد ذرات الوجود دائما وأبدا .

وختم رائيته الصغرى فقال : ـ

وانى وان كانت ذنوبى كثيرة ... ولا وزر من توبتى يدفع الوزرا
فعفوك اكسير اذا ذر ذرة ... عليها استحالت نارها جنة خضرا
وقد تم لى احدى وستون حجة ... بفضلك اسلامى بها لم يشب كفرا
وان فاتنى ما حازه كل صالح ... يكنز من الأعمال قد ذخر الاجرا

---

(١) حسبنا كافينا المحسوب أى المعدود من جملة المنسوبين الى خدمتك واستعطاله بهذا المعنى عوفى وحسنه هنا جناس الاشتقاق بينه وبين حسبنا .

فتوحيدك اللهم خير ذخائرى وحسبى بجاه المصطفى بعده ذخرا
عليه صلاة منك مسك ختامها يضمخ كل المؤمنين به عطرا

ونلاحظ أنه يطلب العفو والغفران لكثرة ذنوبه وقد بلغ من العمر واحدا وستين عاما وقلبه خال من الشرك ثم ختمها بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن خلال استعراضنا لخاتمة مدائح النبهانى نلاحظ أنه لم يلتزم منهجا ثابتا فى انهاء قصائده بل كان يترك شاعريته طليقة حيث تنتهى دون أن يقيدها بأسلوب ما وهذا منهج عام لدى المتصوفة فى كل ما يكتبون من شعر أو نثر اذ أن كتابتهم لا تكون منهجية بمقدار ما تكون تعبيرا عن مواجيدهم لذلك تراهم لا يقيدون هذه المواجيد بأى قانون أو ضابط بل يعتقدون أن ما تأتى به يكون الهاما وتلقيا لا جهد لهم فيه وما يتلقونه بالالهام يعد توفيقيا لا يجوز تعديله ، وبهذا تستطيع ان نفسر عدم التزام النبهانى منهجا معينا فى انهاء مدائحه .

و — القافيـــة : —

الأحرف التى استعملها النبهانى قوافى لمدائحه محدودة ذلك أن معظم قصائده مطولات والقوافى التى استعملها خفيفة على اللسان والسمع وهى " الهمزة واللام واللام ألف والراء " أما باقى قصائده فهى عبارة عن أرجوزة على قافية الراء والباقى تخاميس تتعدد فيها القوافى وله ايضا ثلاث موشحات عارض فى الأولى الموشحات الأندلسية السينيات وفى الثانية عارض موشحات علماء دمشق وفى الثالثة عارض موشح أبى عبيد

وفى الموشحات تتعدد القوافى حسب نمط خاص .

وله قصائد صغيرة لا تتجاوز العشرة الأبيات كتبها على بعض كتبه واستعمل فيها قافية التاء والميم مع الألف والراء واللام ألف واللام .

ونحن نلاحظ أن النبهانى قد ابتعد عن القوافى الثقيلة مثل الخاء والصاد والعين والثاء والذال والزاى والشين والطاء والظاء . غير أنه كتب قصائد معشرات قوافيها حسب الأحرف الهجائية من الهمزة الى الياء ومنها قوله فى قافية الثاء : -

وصل السراة وأنت ماكث ... أأمنت احداث الحوادث

سحرتك دنيا لم تزل ... أنفاس زهرتها نوافث

لم لا تسير لخير ... خلق الله أفضل كل حادث

المصطفى من آل سام ... مع بنى حام ويافث

هو أول والشمس ثا ... نى نوره والبدر ثالث

وقوله فى قافيه الخاء :

كم دون طيبة من فراسخ ... وشوامخ تتلو شوامخ

فأرحل بعيس لا يرى ... فيها لدى الفلوات رابخ (١)

خير الخلائق صفوة الـ ... ـخلاق عالى القدر شامخ

---

(١) العيس الابل البيض وربخت الابل اشتد عليها السير فى الوطى ويستعمل بمعنى بركت .

شمس الوجود لظلمة الطغيان والأدبان ناسخ
شرف علا السبع العلا وأساسه في الأرض راسخ

فنحن نلاحظ من خلال الشواهد التي أوردناها لقوافيه الثقيلة أن ثقلها كان خفيفا - نوعا ما - في وقعه لأنه استعمل الكلمة التي تحمل القافيه في موضعها الحقيقي وقد كان وضعها في مكانها بل هي لازمة ومتممة للكلام الذي قبلها مثلا قوله في حرف الثاء :

وصل المراة وأنت عاكث أأمنت احداث الحوادث

فان لكلمة الحوادث مرتبطة وملازمة مع ما قبلها بكلمة " أمنت " فان الأمان لا يحصل الا من الحوادث والمصائب ثم استعمل كلمة " أحداث " فزاد من ثبوت كلمة " الحوادث " وأبعد قافيتها عن النبو والثقل لأنه مهد لها الأسماع لتلقيها بل توقعها وانتظارها وهذا ما نقوله مع باقي الشواهد .

والذي ينبغي ذكره أن النبهاني لم ينظم قصائده لاظهار مقدرته الشعريه بمقدار ما قصد الى التفنن في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتغني بجوده وآثره وهو ما حدا به أيضا لأن يصوغ مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على أوزان بحور الشعر الستة عشر.

كل هذا يدلنا على مقدرة الشاعر وتمكنه من شعره .

ز - التصريع :

وهو تقفية العروض بقافية الضرب ليكون المطلع كالتمهيد الموسيقي يسترعي به الشاعر انتباه سامعيه . وقد التزم الشعراء هذا في معظم قصائدهم والتزمه النبهاني في جميع قصائده التزاما تاما الا في القليل جدا ، ومنها قوله في مطلع قصيدته " طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء " :-

نور الكل والهوى أجزاء يا نبيا من جنده الأنبياء

ويقول في مطلع قصيدته " سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد " .

هواى طيبة لا بيضاء عطبول ومنيتي عينها الزرقاء لا النهل

ويقول فى مطلع قصيدة القول الحق فى مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم:

لمن ربع بأكناف المصلى ... علا السبع العلا شرفا وفضلا

ويقول فى مطلع رائيته الكبرى :

بربك ذكرهم عسى تنفع الذكرى ... فكم نعم أجدى وكم منن أجرى

ويقول فى مطلع قصيدته الرائية الصغرى :

هو الله لا لا نحصى لآلاءه شكرا ... له الحمد فى الأولى له الحمد فى الأخرى

ويقول فى مطلع قصيدته البائية :

الحمد لله حمدا أستمد به ... لنصرة الحق كى أحظى بمطلبه

ويقول فى مطلع قصيدته التى مدح بها الشيخ محى الدين بن العربى :

يانسيما سرى الى تاسيونا ... حى حيا بسفحه مدفونا

وقد التزم النبهانى بالتصريع فى قصائده المعشرات التى جعل قوافيها على الحروف الهجائية مما قاله فى مطلع قافية التاء :

طال شوقى لطيبة الطيبات ... موطن المكرمات والبركات

وهكذا بقية المعشرات . "

وقد التزم الشاعر التصريع أيضا فى مدائحه التى قالها على أوزان بحور الشعر مع أنه لم يقل فى الوزن الواحد أكثر من بيتين مثل قوله فى وزن البحر البسيط

للمصطفى ملة دانت لها الملل ... وشرعة أشرقت من نورها السبل

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعل ... بحر بسيط به بحر الورى وشل

وهكذا باقى أوزان بحور الشعر . "

أما مالم يلتزم فيه التصريع من مدائحه فهو قليل مثل قوله فى مثال نعله الشريف صلى الله عليه وسلم :

مثال حكى نعلا لا شرف مرسل ... تمنت مقام الترب منه الفراقد

ضرائرها السبع السموات كلها ... غيارى وتجان الملوك حواسد

وقوله أيضا :

على رأس هـذا الكون نعل محمد ... علت فجميع الخلق تحت ظلاله
لدى الطور موسى نودى أخلع وأحمد ... على العرش لم يؤذن بخلع نعاله

وقوله :

ولما رأيت الدهر قد حارب الورى ... جعلت لنفسي نعل سيده حصنا
تحصنت منه في بديع مثالها ... بسور منيع نلت في ظله الأمنا

وكذلك لم يلتزم بالتصريع في بعض القصائد التي كتبها على ظهر كتبه مثل قوله فيما كتبه على ظهر " سعادة الدارين " في الصلاة على سيد الكونين صلى الله عليه وسلم" ..

كتاب سعادة الدارين سفر ... بديع عز بين الكتب مثلا

وقال في كتابه " وسائل الوصول الى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم :

يا حبيب الاله يا سيد الرسـ ... ـل ويا أفضل الخلائق طرا

وفي بعض القصائد التي كتبها على ظهر كتبه التزم بالتصريع مثل ما كتبه على ظهر كتابه " جواهر البحار في فضائل النبي المختار صلى الله عليه وسلم" .

للمصطفى نصبت للمجد رايات ... من تحتها الخلق أحياء وأموات

وبعد كل هذا نلاحظ أن التزام الشاعر بالتصريع في معظم مدائحه لم يكن التزاما صارما فقد كان يطلق شاعريته لتقول بدون التزام لأنه لم يكن يقصد الجودة والاتقان في شعره قصدا ذويا بمقدار ما كان يقصد به التعبير الوجداني لعواطفه وأحاسيسه في اتجاه شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الخامس

معارضاته ونقائضه فى المدائح النبويـــة

قصائده المعارضه :

عارض الشيخ النبهانى كثيرا من المدائح النبوية شأن شعراء عصره فهذا شوقـى يعارض البوصيرى فى بردته وهمزيته وهذا البارودى يعارض بردة البوصيرى أيضا مما يدل على أن معارضة القصائد المشهورة فى المديح النبوى هو اتجاه شعراء المديح فى عصر النهضة ، وتكاد معارضات النبهانى تستوعب ثلث ديوانه المسمى " العقود اللؤلؤيـة فى المدائح النبوية ، وهى :-

١ ـ الهمزية الألفية المسماة طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم والتى بلغت ألف بيت مطلعها :

نورك الكل والورى أجـــزاء بانبيا من جنده الأنبيـــاء (١)

عارض بها همزية البوصيرى أمام شعراء المدائح النبوية التى مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سمـــاء (٢)

وقد بلغت همزية البوصيرى ٤٥٨ بيتا ، وطيبة الغراء (١٠٠٠) بيت .

٢ ـ قصيدة : " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " وقد بلغت ١٤٤ بيتـــا ومطلعها :

هواى طيبة لا بيضاء عطبـــول ومنيتى عينها الزرقاء لا النيـــل

عارضها قصيدة كعب بن زهير رضى الله عنه المسماة " البردة " التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبـــول متيم أثرها لم يفد مكبـــول (٣)

وقد ذكر النبهانى فى المجموعة النبهانية ثلث وعشرين قصيدة فى موازنـــة " بانت سعاد " (٤) .

٣ ـ موشح عارضه الموشحات الأندلسية السينيات مطلعه :

حى يا سعد قبابا بالحمـــى تحتها ربع المنى لم يـــدرس (٥)

٤ ـ موشح عارضه الموشحات السبع لعلماء دمشق ومطلع موشحه :

لست أنسى زمنا قد ســـلفا فيك يا مكـــة بالعيش الهـــنى (٦)

---

(١) الديوان ص ١٢ .

(٢) الديوان ص ٤٩ .

(٣) الديوان ص ٩٠ .

(٤) بانت انفصلت . تبله الحب أسقمه تيمه الحب استعبده مكبول مقيد .

(٥) المجموعة النبهانية جـ ٣ ص ٣٨ ـ ١٧٦ .

(٦) الربع المنزل وهو هنا حجرته صلى الله عليه وسلم ودرس محى أثره .

وقد بلغت أبيات الموشح بيتين ومائة بيت والموشحات السبع التى عارضها وقد شبيت بحدائق ورياض دمشق والنبهانى شبب بمعالم الحرمين هى الموشح الأول للشيخ عبد الغنى النابلسى حيث يقول :

فى رياض الشام لطف وصفا ... وسرور طارد للحزن (١)
ويصفو من لها قد وصفا ... صادق فى وصفه لم يمن (٢)

وقد بلغت أبيات هذا الموشح ٧٧ بيتا .

الموشح الثانى للسيد عبد الكريم أفندى الحمزاوى الدمشقى ومطلعه :

يا زمانا بالتهانى سلفا ... فى ربا جلق ذات الحسن
لم أجد بعدك يوما خلفا ... لا عدت ذكراك رطب الألسن (٣)

وقد بلغت أبياته أربعة وسبعين بيتا .

الموشح الثالث للشيخ يعقوب الكيلانى الشامى ومطلعه :

بارعى الله أوقات الصفا ... فى غياض الشام ذى الروض السنى (٤)
كم قطعنا زهر أنس ووفا ... واغتنمنا صفو عيش الزمن

وعدد أبياته واحد وستون بيتا .

الموشح الرابع للشيخ صادق الخراط الدمشقى ومطلعه :

جاد غيث الشام غيث وكفا ... وسقى عهدى بتلك الديم (٥)
لم يكن الا وصالا ووفا ... واختلاسا من ايادى الزمن

وقد بلغت أبياته سبعة وستين بيتا .

الموشح الخامس للشيخ سعدى العمرى الدمشقى المشهور بابن عبد الهادى ومطلعه :

---

(١) الصفا ضد الكدر

(٢) وصف من الوصف المين الكذب .

(٣) عدت تجاوزت .

(٤) غياض جمع غيضة وهو الشجر الملتف السنى من السنا وهو الضياء .

(٥) الديم المنزل وكف قطر عهدى زمنى الزمن أثار الديار .

يارعى الله زمانـــا ســـلفا فى رياض الشـــام بالعيش الهـــنى
كم حللنا من رياه غرفـــــا قلد تنـــا بعقود المنـــــن

وقد بلغت أبياته سبعة وستين بيتـــا .

الموشح السادس للشيخ عبد الرحمن البهلول ومطلعه :

غنياني بســـعاد وصفـــــا مطلع الشـــام يعني حســـن
دار أنس وسعـــود وصفـــا جنـــة الأرض عروس المـــدن

وقد بلغت أبياته سبعة وستين بيتـــا .

الموشح السابع للشيخ عبد الرحمن بن عبد الرزاق الدمشقى ومطلعه :

كم جنينا زهـــر أنـــس وصفـــا فى روابى الشـــام ذات الأعـــين
واجتنينـــا مـــن أوقـــات الوفـــا شمس أفراح لدى عيش هـــنى

وعدد أبياته سبعة وسبعون بيتـــا .(١)

٥ ـ موشح عارض به موشح أبى عبيد ومطلع موشحه يقول الشيخ النبهانى :

أرولـــــــــــــــى مدح النـــــبى الخاتـــم الأول
واجـــــــــــل لـــــى كأسى الصفا من حبه قد ملـــى (٢)

وقد بلغت أبياته سبعة وسبعين بيتا .

وموشح أبى عبيـــد مطلعـــــــه :

لـــــذ لـــــــــــــى مدح النبى المصـــطفى المرســـل
فاجتلـــــــــــــــى عرائســـا من مدحه تتجلـــى (٣)

وبلغت أبياته سبعة وأربعين بيتـــا .

هذه مدائح النبهانى التى عارضها غيره من شعراء المدائح النبوية .

---

(١) وقد أثبت النبهانى الموشحات السبعة فى مجموعته جـ ٤ ص ٤٠٦ ـ ٤٣٦ .
(٢) الديوان ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠ .
(٣) المجموعة النبهانية ص ٤٤٥ ـ ٤٤٨ .

أما نقائضه فله قصيدة مطلعها :

الحمد لله حمدا أستعد به ... لنصرة الحق كى أحظى بمطلبه
بك استعنت الهى عاجزا فأعن ... أبغى رضاك فأسعفنى بأطيبه
فان تمن شعلبا يسطو على أسد ... أو تخذل الليث لا يقوى لثعلبه
واننى عالم ضعفى ولا عجل ... عندى يفيد ولا علم أصول به
ورأس مالى جاه المصطفى فيه ... أدعوك يارب ايدنى له وبه (١)

وبلغت القصيدة مائة وثلاثة وخمسين بيتا وقد انتصر فيها للامام تقى الدين السبكى الذى كان يخالف الامام ابن تيمية فى مسائل فقهية وله كتاب " شفاء السقام فى زيارة خير الأنام " وقد نظم الامام السبكى أبياتا بلغت خمسة عشر بيتا مدح فى أولها كتاب " منهاج السنة " للامام ابن تيمية ، واعترض عليه فى المسائل التى خالفه فيها ومما قاله :

لو كان حيا يرى قولى ويسمعه ... رددت ما قال ردا غير مشتبه
كما رددت عليه فى الطلاق وفى ... ترك الزيارة اقفو اثر سبسبه
وبعده لا أرى للرد فائده ... هذا وجوهره مما أضن به
والرد يحسن فى حالين واحدة ... لقطع خصم قوى فى تغلبه
وحالة لانتفاع الناس حيث به ... هدى وربح لديهم فى تكسبه (٢)

وقد عارضه اثنان من أنصار الامام ابن تيمية الأول أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود العبادى ثم المقيلى السرمرى نزيل دمشق والقصيدة بلغت ستة وثلاثين ومائة بيت مطلعها :

الحمد لله حمدا استعين به ... فى كل أمر أعانى فى تطلبه

والثانى وهو أبو عبدالله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعى اليمنى والقصيده بلغت واحدا وتسعين بيتا مطلعها :

الحمد لله حمدا أستزيد به ... فضل الاله وآتى ما أمرت به

---

(١) الديوان ص ٤٠٥ .
(٢) أورد هذه الابيات الاستاذ محمود شكرى الالوسى فى كتابه غاية الامانى فى الرد على النبهانى جـ ١ ص ٣٢٩ ولم يورد المصدر الذى نقلها عنه .

فكانت قصيدة النبهانى مناقضة لهاتين القصيدتين واحياء للنقائض الأدبية ولكنها اتخذت من الحجة والدليل مادة لها وهى تختلف عن نقائض جرير الفرزدق ، والأخطل التى اتخذت من المثالب والأنساب مادتها .

ملاحظات : حول همزيتى النبهانى والبوصيرى رحمهما الله

المقدمة :

لقد فضلت أن أضع ملاحظات عامة حول هاتين الهمزيتين دون سائر معارضات وموازنات النبهانى ، ذلك لأن همزية البوصيرى هى أطول مدائحه النبوية اذ بلغت ثمانية وخمسين وأربعمائة بيت وهذا يمكنه من اعطاء المعانى حقها من التعبير بمقدار أفضل مما لو كانت أبياتها أقل ، وكذلك نجد أن همزية النبهانى التى بلغت ألف بيت هى أيضا أطول مدائحه . وقد اخترت الامام البوصيرى للموازنة مع النبهانى لأن البوصيرى هو امام المدائح النبوية تاريخيا دون منازع وهو الذى جعل من المدائح النبوية غرضا مستقلا من اغراض الشعر بعد أن كان مضمنا فى أغراض أخرى ، ولأن النبهانى فى خاتمة همزيته يقر باقتفائه أثر الامام البوصيرى معترفا له بالفضل والسبق حيث يقول :

سرت فيها بأثر شيخ امام ... قد أقرت بسبقه الشعراء
ويحسبى أنى المصلى وأن المنشد ... بها كأنهم قراء

ويشرح النبهانى معنى " شيخ امام " فى الهامش فيقول " هو شرف الدين الأبوصيرى صاحب الهمزية والمدائح الفائقة النبوية رضى الله عنه " وهذا يدل دلالة صريحه على اقتفاء النبهانى أثر البوصيرى فى همزيته واعترافه بفضل الأول ولا أستبعد أن يكون هذا تواضعا وأخلاقا من النبهانى فهو دائما لا يعترف لنفسه بفضل بل يدعى التقصير ، ومما يؤيد قولى هذا قوله معترفا بهمزيته :

لو رآها كعب لقال سعاد ... أمة من اماتها سوداء

ويقول أيضا :

كلها وهى ألف بيت قصور ... عنك ضاقت وانها فيحاء
سكنتها أبكار غر المعانى ... منك فهى المدينة العذراء
كل معنى بلقيس والبيت صرح ... ومن الدر لا الزجاج البناء (١)

---

(١) الديوان ص ٨٦ .

والنبهانى يبرز المعنى نفسه فى قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد" حيث يقول فى خاتمتهـــا :

وربّ سباق فضـل عارضوه بهـــــا ... أنا الأخير بهم غرّدها ليـــــل (١)
خاضوا بمدحك هذا البحر ما بلغـــوا ... كما فعادوا لهم بالعجز تخجيـــل
ان وازنتها وما وازت قصائدهـــــم ... فربما وازن الـــدر المثاقيـــــل
وللقريض تفاعيـــل توازنـــــه ... هى القريض وهاتيك التفاعيـــــل
أستغفر الله كل قـد أجاد وهـــــم ... كـل رؤوس لهم بالفوز تكليـــــل(٢)

هذا مع العلم بأن كعب بن زهير قد وضع حجر الأساس لغرض المدائح النبوية حيث ان مدائح شعراء الاسلام كانت تأتى غالبا ضمن أغراض اسلامية أخرى كالرد علـــى شعراء قريش أو مدح الاسلام وغيره ، أما قصيدة كعب بن زهير " البردة " فقد جـــاءت مدحا خالصا للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومما رغبنى فى اختيار البوصيرى أيضا أنه ينطلق فى مدائحه من مفهوم صوفـى ، وهو المنطلق الخاص للشيخ النبهانى مما يقارب بين مفهومهما لصفات الرسول صلى اللـه عليه وسلم ومزاياه . (٣)

ومما رغبنى فيه كذلك أن كلا من البوصيرى والنبهانى عرف بمدائحه النبويـــة واشتهر بها فى عصره فاذا كان البوصيرى شاعر المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى وطغت شهرته على هذا اللون من الأدب فيما بعده من قرون فان الشيخ النبهانى قـــد عـــرف بمدائحه النبوية المنظوم منها والمنثور فى عصره ـ دون منازع ـ حتى عرف كل منهما

---

(١) الذهاليل جمع ذهلول وهو الفرس الجواد .

(٢) الديوان ص٩٨ .

(٣) كتب الاستاذ الشرتونى مقالا فى المقتطف ج ٣٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٣ بعنـــوان المفاضله بين الشعراء جاء فيه "٠٠ واما التقارب فى الطبقة فانما كان مجـــال المفاضلة وداعى الموازنه لخفائه الا على أهل الخبرة بجيد الشعر وردئـــه " هذا وقد فضل الاستاذ الدكتور عبد اللـه كنون فى طنجه المقارنة بين النبهانـى والبوصيرى بدلا من شوقى لاختلاف منهج شوقى عن النبهانى حيث ورد تـــنى منه رسالة فى ٢ جمادى الاول ١٣٩٧ هـ .

بالآخر فالشيخ النبهانى قد احتل شهرة عصره بشكل خاص مع بقاء شهرة البوصيرى – من حيث هو امام للمدائح النبوية بشكل عام ، وأما كون النبهانى لم يشتهر فى عصره بما يستوجب ما خلفه من تراث فى أدب المدائح النبوية فذلك لأنه حديث العهد حيث توفى سنة ١٩٣٢ وذلك بالاضافة الى عوامل أخرى مقصودة اقتضتها الظروف الاجتماعية والسياسية مما ستوضحه فى الفصل السادس من هذا الباب .

والملاحظة الأولى :

أن أبيات همزية البوصيرى تبلغ ثمانية وخمسين وأربعمائة بيت وأبيات همزية النبهانى تبلغ ألف بيت وهما من بحر الخفيف وقافيتهما الهمزة .

والملاحظة الثانية :

أن البوصيرى لم يحسن الانتقال بين المعانى الكلية بل سرعان ما كان ينتقل الى معنى كلى آخر انتقالا مفاجئا دون أن يشعر القارئ أو يمهد الشاعر للمعنى الجديد فهو بعد أن تكلم عن تتبع سراقة للرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه أبى بكر الصديق اثر خروجهما من مكة تراه ينتقل فجأة ليتكلم فى الاسراء والمعراج حيث يقول :

واقتفى اثره سراقة فاستهـ ـوته فى الارض صافن جرداء (١)
ثم ناداه بعدما سيمت الخسـ ـف وقد ينجد الغريق النداء (٢)
فطوى الأرض سائرا والسماوات الـ ـعلا فوقها له اسراء
فصف الليلة التى كان للمخـ ـتار فيها على البراق استواء

أما النبهانى فقد وضع عنوانا بارزا لكل معنى من معانى السيرة النبوية فهو بعد أن جعل لقصيدته مقدمة طويلة فى شئون مختلفة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وضع عنوانا بارزا هو " مولده وجعله من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم " ثم تكلم عن شئون الرسول صلى الله عليه وسلم الروحية ومنها أنه نور الأنوار وأبو آدم منه جميع المخلوقات وأن الله اصطفاه من خيار الناس ، ثم تكلم عن القبائل التى منها جدود الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تكلم عن مولده وما رافقه من آيات ومعجزات وقد انتشر

---

(١) استهوته : هوت به والصافن / الفرس الكريم جرداء قصيرة الشعر .
(٢) سيمت الخسف اى قاربت الفرس أن يخسف بها وتغوص فى الارض وكانت غاصت الى ركبها .

خير مولده فى جميع الأرجاء حتى تحدث بها الملاح فى البحر والحداء فى البر ، ثم تكلم عن تشقق ايوان كسرى وعن رؤيا الموبذان ثم انتكاس الأصنام وكان فى مفتتح هذا العنوان يقول :

هو نور الأنوار أصل البرايا ... حين لا آدم ولا حواء (١)
هو فرد بالله والكل منه ... ليس ثان هنا وليس ثناء

ويقول أيضا :

فهو للكل والد وأبو الخلق جميعا وهم له أبناء
حل نورا بآدم فاستنار الصلب منه والجبهة الغراء

ويقول أيضا :

وله الأمهات كل حصان ... تتباهى بمجدها الرحماء (٢)
حبذا أمهات خير نبى ... شرف الكون حبذا الآباء

---

(١) نور الأنوار الذى خلقت منه جميع الأنوار .
(٢) الأحماء أقارب الزوج مفردها حمو .

ويختتم هـذا الفصل بقوله :

ويميلاده تنكست الاصـــنام جنت أم مسها اغمـــاء
حل فيها داء الردى فأساء الشـــرك داء أودت به الشـــركاء (١)

وبعد أن استوفى ما شاء أن يقول فى ولده صلى الله عليه وسلم وضع عنوانـا جديدا وهو " رضاعته صلى الله عليه وسلم " وتكلم فيه ما شاء ثم وضع عنوانا آخـر هو " شق الملائكة صدره الشريف صلى الله عليه وسلم " وهكذا الى آخر حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والملاحظة الثالثة :-

أن البوصيرى لم يلتزم فى همزيته الترتيب التاريخى لما ذكره من حوادث عامـة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو قد تحدث عن هجرة الرسول صلـى الله عليه وسلم ، ثم عن مدح الجـن له ثم عن الاسـراء والمعراج ثـم عـن الصعوبات التى كان يلاقيها فى دعوته ، ثم عن مقاطعة قريش للرسول وأهله فـى أحد شعـاب مكة ثم عن أذى أبى جهل وأبى لهب وامرأته ، ثم فتح مكـة ثم مناقشة اليهود ، والنصارى .

ونحن نلاحظ أن هذا الترتيب لم يكن تاريخيا حيث ان الاسراء والمعـراج كان قبل هجرة الرسول وقبل مدح الجـن له كذلك الصعوبات التى لاقاها الرسـول كانت فى العهد المكى أما العهد المدنى فقد كان الرسول حاكم مجتمعـه وهـو الآمر الناهى فيه كذلك مقاطعة قريش للرسول وأهله كانت قبل الهجرة وكذلـك أذى أبى جهل وأبى لهب وامرأته حمالة الحطب .

ومن ذلك قوله :-

أخرجوه منها وآواه غـــار رحمته حمامـة وقـــاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفتـه الحمامـة الحصـداء (٢)

---

(١) أودت هلكت الشركاء جمع شريك وهو هنا بمعنى الصنم على اعتقـاد الجاهلية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(٢) الحصـداء - كثيرة الريش

واختفى منهم على قرب مرآ ... ه وعن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا ... قت اليه من عكة الانحاء(١)
وتغنت بمدحه الجن حتى ... أطرب الانس منه ذاك الغناء
واقتفى اثره سراقة فاستهـ ... ـوته فى الارض صافن جرداء
ثم ناداه بعد ما سيمت الخسـ ... ـف وقد ينجد الغريق النداء
فطوى الأرض سائرا والسما ... ت العلا فوقها له استواء
فصف الليلة التى كان للمخـ ... ـتار فيها على البراق استواء
وترقى به الى قاب قوسيـ ... ـن وتلك سيادة القعساء(٢)
رتب تسقط الأمانى حسرى ... دونها ما وراء هن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا ... اذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب ... أو يبقى مع السيول الغثاء(٣)

أما الشيخ النبهانى فقد كانت الحوادث التاريخية لديه مرتبة ومتسلسلة كما وردت فى كتب السير والأخبار ، وقد رتب العناوين البارزة كما يلى " مولده وجملة من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم " رضاعه صلى الله عليه وسلم " شق الملائكة صدره الشريف صلى الله عليه وسلم " موت أبويه ثم احياؤهما وايمانهما به صلى الله عليه وسلم " حالة الأديان وقت بعثته صلى الله عليه وسلم " "بدء الاسلام ووصف القرآن " السابقون للاسلام " عداوة قريش له ولاصحابه صلى الله عليه وسلم " انشقاق القمر بدعائه صلى الله عليه وسلم " عرضهم عليه وتمليكه عليهم صلى الله عليه وسلم " دخوله مع قومه الشعب صلى الله عليه وسلم وفاة أبى طالب " وفاة السيدة خديجة وفضائلها رضى الله عنها " خروجه صلى الله عليه وسلم الى الطائف " " فى توحيد الله تعالى " الاسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم " " مبايعة الأنصار له صلى الله عليه وسلم " " هجرته

---

(١) نحا : قصد .

(٢) قاب قوسين ما بين مقبضها عند الرمى وهو وسطها وبين آخرها اى المحل الذى يشد فيه الوتر فلكل قوس قابان القعساء الثابتة الدائمة .

(٣) ديوان البوصيرى ص ٥٣ - ٥٤

الى المدينة صلى الله عليه وسلم وصوله الى المدينة المنوره ومدح أصحابه صلى الله عليه وسلم "، " اذ ن الله له ولأصحابه بالقتال صلى الله عليه وسلم "، " غزوة بدر الكبرى " ، " غزوة أحد " ، " غزوة المريسيع لبني المصطلق من خزاعه " ، " غزوة الأحزاب " ، " فزوة الحديبية " ، " عمرة القضاء " ، " غزواته صلى الله عليه وسلم لليهود " ، " الفتح الأعظم فتح مكة زادها الله شرفا " ، " غزوة حنين " ، " غزوة الطائف " ، " غزوة تبوك " ، " غزواته التى لم يحارب فيها صلى الله عليه وسلم " ، " مراسلاته للملوك صلى الله عليه وسلم " ، " وفود رؤساء القبائل عليه صلى الله عليه وسلم " ، " حجه صلى الله عليه وسلم " ، " حجة الوداع " ، وفاته صلى الله عليه وسلم " ، " فصل فى جملة من معجزاته صلى الله عليه وسلم " ، " فصل فى شمائله الشريفة صلى الله عليه وسلم ، وتفضيله صلى الله عليه وسلم فى مواطن القيامة "، " فصل فى التوسل اليه بمن يعز عليه وبعد هذا النظم من الله على بزيارته صلى الله عليه وسلم " ، " خاتمة " ، من هذا نلاحظ أن ترتيبه للموضوعات جاء ترتيبا تاريخيا وكما ورد فى كتب السير وقد أشار النبهانى الى هذا فى تنبيه أثبته على أول صفحة جاء فيه يقول ناظمها قد وازنت بهمزيتى هذه همزية الامام البوصيرى " أم القرى فى مدح خير الورى " عالما أن الفضل للمتقدم وأنه بمنزلة المعلم وأنا بمنزلة المتعلم وان كانت هذه قد حوت أضعاف ما حوته تلك من السير النبوية والفضائل المحمدية وامتازت عنها بحسن التقسيم والترتيب حتى صارت بفضل الله فريدة فى بابها لا نظير لها فيما أعلم بين أترابها حرية بتدريسها وحفظها أو الاعتناء بشرح معناها ولفظها لمن يهمه مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة سيرته وفضائله ومعجزاته وشمائلها لأنها أقوى أسباب محبته وقوة الايمان به صلى الله عليه وسلم (١) .

والملاحظة الرابعة :

أن من يقرأ همزية البوصيرى رضى الله عنه يجد أنه لم يستوعب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لم يتكلم عن وفاة زوجته خديجة وعمه أبى طالب

---

(١) الهمزية الألفية المسماه طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء المطبعة الأدبية ١٣١٤ بيروت ص ١ .

اذ كان لوفاتهما رنة أسى وحزن كبير فى قلب الرسول حتى سمى هذا العام عام الحزن وفى هذا العام لقى الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف العذاب والاضطهاد من قريش حتى انه خرج الى الطائف فقوبل بالانكار وخرج من الطائف وصبيانها يرمونه بالحجارة ولم يستطع أن يدخل مكة الا فى حراسة المطعم بن عدى وأولاده حيث دخل فى جواره وكذلك لم يتكلم عن جدود الرسول وأمهاته وتنقله من الأصلاب الطهار الى الأرحام الاطهار ولم يذكر وصول الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة وملاقاة أهلها له بالترحاب كذلك لم يذكر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده وكذلك لم يذكر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانتقاله الى الرفيق الأعلى أما الشيخ النبهانى فقد استوعب فى همزيته جميع جوانب السيرة النبوية بما فيها من مآثر وبطولات وتضحيات منه صلى الله عليه وسلم ٠

والملاحظة الخامسة :

أن البوصيرى لم يراع التوازن بين الجوانب التى ذكرها من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تكلم عن الاسراء والمعراج فى ستة أبيات فقط وتكلم عن الهجرة فى ستة أبيات أيضا مع أنه ناقش اليهود والنصارى فى شؤونه صلى الله عليه وسلم فى سبعين بيتا وقد تطرق الى واقعة كربلاء فى عشرة أبيات وكان الأولى به رحمه الله أن يطيل فى حادث الاسراء والمعراج لأنه حدث لم يحصل لأى نبى قبله كذلك هجرته صلى الله عليه وسلم وما رافقها من أحداث كان يجب أن تسترعى انتباه الشاعر لأنها كانت نقطة تحول فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان فى مكة مجرد داعية لدين الله والشرك هو الحاكم والمسيطر ، أما فى المدينة فقد أصبح الرسول قائد دولة ومنظم مجتمع وما كان له أن يطيل فى مناقشة اليهود والنصارى هذه الاطالة لكون غرضه هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه أطال فى وصف كربلاء كثيرا مع أن هذه الغرض لا يمس مدح الرسول الا من باب العاطفة والحزن على آل بيته وكان الأولى ألا يدخل هذا الباب الواسع ٠

أما الشيخ النبهانى رحمه الله فقد كان أقرب الى الاعتدال والموضوعية فلو لاحظنا المواقف نفسها التى لاحظناها على الامام البوصيرى لوجدنا أن النبهانى قد تكلم فى الاسراء والمعراج فى ثلاثين بيتا وفى الهجرة فى ثمانية وعشرين بيتا وتكلم عن وصول الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وملاقاة الأنصار له ومدح الأنصار

ومدح المهاجرين ثم بين التغير الواضح فى مجتمع المدينة قبل الهجرة وقد كان مجتمعا جاهليا وبعد الهجرة حيث أصبح مجتمعا اسلاميا وقد أطال فى مدح الأنصار والذين آووا الرسول والمهاجرين فى بيوتهم وجعلهم حماة الاسلام وسيف الرسول وأنهم عدول ثقات وهم صلحاء الأمة وقد كان اهتمام النبهانى بالأنصار والثناء عليهم ضروريا لأنهم استقبلو الرسول فى بلدهم وجعلوها أرض الدعوة وأبدوا استعدادهم لأن يتحملوا المصائب فى سبيل هذه الدعوة وهم يعلمون أن خصمها الأول هو قريش سيدة القبائل ومكة سيدة المدن ، ولذلك كان النبهانى مقدرا لهم جهادهم فى الاسلام .

وقد قال البوصيرى رحمه الله فى فتح مكة اثنى عشر بيتا فقط فى حين أن فتح مكة يمثل التغلب على العقبة الكئود أمام انتشار الدعوة الاسلامية أما النبهانى فقد قال ثلاثة وستين بيتا حيث أعطى هذه المناسبة حقها من الأهمية .

هذا والنبهانى لم يجعل جميع المناسبات فى حياة الرسول واحدة فى الأهمية فقد كان يفاوت بينها حسب أهميتها فهو يقول ثلاثة وستين بيتا فى " فتح مكة " فى حين يقول فى غزوة العريسيع ثلاثة أبيات ويقول فى غزواته لليهود ستة أبيات ويقارب فى عدد الأبيات بين المناسبات المتشابهة أو المتقاربة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى غزوة بدر الكبرى يقول ثمانية وعشرين بيتا وفى غزوة أحد يقول اثنين وثلاثين بيتا وهذا التقارب لأهمية الغزوتين فاذا كانت غزوة بدر هى التجربة العسكرية الأولى لصحة الاسلام وصلاحه لتعمير النفوس كذلك كانت غزوة أحد درسا عظيما للمسلمين ليطيعوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ويمتنعوا عن مخالفته ولعل جرح الرسول وكسر رباعيته واستشهاد حمزة عم الرسول وغيره من الصحابة دعت الشاعر أن يطيل فى غزوة أحد قليلا .

والملاحظة السادسة :

أن الامام البوصيرى اهتم بمناقشة اليهود والنصارى فى همزيته اهتماما بالغا حتى بلغت الأبيات التى ناقشهم بها سبعين بيتا فى حين أن النبهانى لم يناقش اليهود والنصارى فى همزيته مطلقا ولعل الحياة الثقافية فى عصر البوصيرى كانت تملى عليه ذلك ومن يقرأ ديوان البوصيرى يلاحظ اهتمامه بمناقشة اليهود والنصارى

كثيرا فى مدائحة النبوية [١] أما الشيخ النبهانى فنلاحظ أنه ناقش اليهود والنصارى مناقشة طويلة فى (الرائية الكبرى فى الكمالات الالهية والسيرة النبوية ووصف الملة الاسلامية والملل الأخرى) التى يثبت من عنوانها أن من أهم أغراضها مناقشة أصحاب الديانات الأخرى ولم تخل مدائح النبهانى الأخرى من مناقشة اليهود والنصارى والتعرض لهم ولكنها مناقشة عابرة ٠

وقد كان عصر الشيخ النبهانى الثقافى والسياسى يملى عليه مناقشتهم لنشاطهم التبشيرى الذى اتخذ من بيروت ـ موطن النبهانى ـ مقرا له ربما يكون اقلال النبهانى من مناقشتهم فى مدائحه النبوية بسبب انصرافه الكلى الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم الذى هو موضوع القصيدة مكتفيا بما كتبه فيهم من الكتب فى المناسبات المختلفة فى مؤلفاته ٠ أما الامام البوصيرى فلم يكن له مؤلفات يكتب فيها أفكاره غير شعره ٠

والملاحظة السابعة :

أن الامام البوصيرى رحمه الله قد تعرض لأمور دقيقة فى العقائد وذهب وراءها بعيدا حتى ليخيل للقارئ أنه على غير عقيدة أهل السنة والجماعة ذلك أنه فى أثناء توسله بالرسول صلى الله عليه وسلم واقسامه عليه بآل بيته ذكر استشهاد الحسن والحسين وخيانة الذين جاءوا من بعده لعهد وذمة الحسن والحسين ثم بكى كثيرا على كربلاء وما جرى فيها حيث يقول :

يا أبا القاسم الذى ضمن اقسا ... ـ ـ ـ

ومسير الصبا ينصرك شهـــــــرا ... فكأن الصبا لديك رخـــــــاء
وعلى لما تفلـت بعينيـــــــــ ... ـه وكلتاهما معا رمـــــــد اء
فغدا نـــاظرا بعيني عقـــــاب ... في غرة لها العقاب لـــــواء (١)
وبريحانتين طيبهمـــا منـــــــ ... ـك الذي أودعتهما الزهـــــراء
كنت توفيهما اليك كمـــــــا آ ... وت من الخط نقطتيها اليـــــاء
من شهيدين ليس ينسـيني الطـــ ... ـف مصابيهما ولا كربـــــلاء
ما رعى فيهما زمامـــــك مرء ... وس وقد خان عهدك الرؤســـاء
أبدلوا الورد والحفيظة في القـــر ... بى وأبدت ضبابها النافقـــاء (٢)
وقسمت منهم قلـوب على مـــــن ... بكت الأرض فقدهـم والسمـــاء
فأبكهم ما استطعت ان قليـــــلا ... في عظيم من المصاب البكـــاء
كل يوم وكل أرض لكـــــــرب ... منهم كربلا وطاشـــــوراء (٣)

وهكذا يستمر البوصيري في بكاء كربلاء وشهيدها ولم يكن في هذا غرابة حيث كثيرا ما يدفع حب آل البيت الى بكاء كربلاء أما أن يقول في البيتين التاسع والعاشر ـ مما استشهدنا به ـ ان الخلفاء لم يراعوا زمامك في الحسن والحسين وانهم أخرجوا ما في صدورهم من غل دفين بايذائهم للحسن والحسين فهذا لم يقبله أهل السنة خصوصا أن الشاعر لم يوضح من هم الرؤساء ؟ هل هم الخلفاء الراشدين وماذا يقصد بالنافقاء التي هي جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها لا شك أنه يقصد الأمويين والذي يرجح أنه لم يكن شيعيا في موقفه هذا أنه مدح الصحابة والخلفاء الراشدين فقال عن أبي بكر :

بأبي بكـــر الذي صح للنبـــــ ... ـس بـه في حياتك الاقتـــداء

ويقول عن عمـــر :

وأبي حفص الذي أظهر اللـــــ ... ـه به الدين فارعوى الرقبـــاء

---

(١) العقاب طائر والعقاب الثانية اسم لراية النبي السوداء .

(٢) وقوله ابدلوا الورد فيه أشارة الى آيـة " قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى " سورة الشورى آية ٢٣ الضباب الغل الداخل راجع أساس البلاغـة للزمخشري باب الضاد " الضاد مع الباء " .

(٣) ديوان البوصيري ص ٦٩ ـ ٧٠ .

ويقول عن عثمان :

وأين عفان ذى الأيادى التى طـا ... ل الى المصطفى بها الاسـداء

ويقول عن علـى :

وعلى صنو النبى ومن ديـ ... ـن فؤاد وداده والمـولاء (١)

وفى البيت الذى يمدح به الامام عليا يصرح أنه يوالى الامام عليا وقد كان النبهانى أكثر دقة وأبعد عن الحرج عندما توسل للرسول صلى الله عليه وسلم بولديه الحسن والحسين اذ يقول :

وأهل العبـاء أنت علـى ... حسـن والحسين والزهـراء

وبنوهم ومن تناسـل منهـم ... فلهم حكم من حواه العبـاء

أذهب الله رجسهم فهم مـن ... كل عيب عاب الورى أبريـاء

حبهم جنة المحب اذا لـم ... تصحبه لصحبك البغضـاء ؟

سادتى بابنى النبى تسـداء ... من عبيد يرضيه هذا النـداء

سادة الناس أنتم باتفـاق ... وخلاف فى غيركم أو خفـاء

ما ادعيتم فضلا على الخلـق الا ... سلمته الأعداء والأصدقـاء

انما يحصر الامامة باثنـى ... عشر الخاطئون وهو خطـاء (٢)

فلقد قل ألف ألف امـام ... منكم جائز بهم الاقتـداء

أنتم كلكم أمان لأهـل الـ ... ـأرض ان زلتم أتاها الفنـاء

وبكم تؤمن الضلالة كالقـ ... ـآن فيكم للمقتدين اهتـداء

أنتم للنجاة خير سـفين ... كلما خاض فى البرايا البـلاء

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٧١ .

(٢) الأئمة الاثنا عشر هم أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأبناه الحسن والحسين وابنه على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق وابنه موسى الكاظم وابنه على الرضى وابنه الجواد وابنه على التقى وابنه الحسن العسكرى وابنه محمد المهدى رضى الله عنهم .

أنتم بضعة النبي فكونوا ... كيف كنتم فمالكم أكفاء
جدكم شاء أن تكونوا كما كا ... ن يعيش وهو الكفاف الكفاء (١)
لو أراد الغنى لأنبت الأر ... ض نضارا وأمطرته السماء
فتأسوا بسادة سبقوكم ... فارقوها ومنية النفس ماء (٢)

فنحن نلاحظ أن النبهاني يواسي آل البيت بما لحقهم من ادبار الدنيا عنهم بأن جدهم الرسول صلى الله عليه وسلم كانت غايته الكفاف من دنياه .

وقد كان النبهاني موفقا كل التوفيق عند كلامه عن الخلاف بين الامام علي ومعاوية أثناء مدحه للصحابه في قصيدة " سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد " حيث يقول :

هم الهداة فان ضلت بهم فئة ... فقد يغص بعذب الماء مغلول
بئس الشقي شقى كان قسمته ... من معدن الرشد اغواء وتضليل
كل عدول وكل عادلون وما ... فيهم فتى عن طريق الحق معدول
لكنهم درجات بعضها عليت ... والبعض أعلى وما فيهن تسفيل
أعلاهم الخلفاء الراشدون على ... ترتيبهم وسواهم فيه تفضيل
كالشمس في الأفق الأعلى أبو حسن ... ومن معاوية في الأرض قنديل
أكرم بأصحابه أكرم بعترته ... نور ان منه فموصول ومفصول
جميعهم زين الله الوجود بهم ... يا حبذا فاضل منهم ومفضول
منهم شموس ضيا منهم بدور علا ... منهم نجوم هدى منهم قناديل
عدو قوم عدو الآخرين فلا ... يخدعك من عنده للبعض تبجيل (٣)
فأحبب الكل تجعل يا فتى معهم ... ان المحب مع الأحباب مجعول (٤)

---

(١) الكفاف من الرزق ما كف عن الناس وأغنى والكفاء هو المكافئ كقولهم أحمد كفاء الواجب .. أي : مكافئ له فالمراد بالعيش الكفاء الذي يكون قدر الحاجة لا يزيد ولا ينقص فيكون بمعنى الكفاف تأكيد له وانما اختار صلى الله عليه وسلم الكفاف لاهل بيته لئلا تلهيهم الدنيا عن الآخرة .

(٢) تأسوا اقتدوا والسادة هنا هم سيدنا الحسين وجماعته رضي الله عنهم ديوان النبهاني ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) البعض هم الشيعة .

(٤) الديوان ص ٩٦ ـ ٩٧ .

والأبيات تدل على أن النبهانى كان حريصا على ألا ينقص من قدر أى صحابى مع التصريح بوجود تفاضل بينهم .

والملاحظة الثامنة :

أن الروح الصوفية غالبة على همزية البوصيرى مع قلة استعماله للألفاظ والتعابير الصوفية استعمالا مباشرا ربما لقلة ثقافته فى علم التصوف[1] وقد وجدت له أربعة أبيات استعمل البوصيرى فيهن التعبير الصوفى وهى :

ان من معجزاتك المجزء ... ـفك اذ لا يحده الاحصاء (٢)

وقوله :

أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر الا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ ... ـب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر الكون تختـ ... ـلك الأمهات والآباء (٣)

أما الشيخ النبهانى فتظهر ثقافته الصوفيه عميقة وواضحة فى همزيته وفى جميع مدائحه النبوية ومطلع همزيته الألفية يدل على أثر التصوف فى عقيدته وأفكاره وأنه ينظر للرسول نظرة صوفية خالصة ولذلك خرجت مدائحه مغرقة فى التصوف وأنه ليقول فى مطلع قصيدته :

نور كل الكل والورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء
علة الكون كنت أنت ولولا ... ك لدامت فى غيبها الأشياء (٤)

وقوله :

جزت قدرا فما أمامك خلـ ... ـق فوقك الله والبرايا وراء (٥)

---

(١) راجع الديوان ص ١٧ ـ ٢٠ .
(٢) ديوان البوصيرى ص ٧٦ .
(٣) ديوان البوصيرى ص ٥٠ .
(٤) الديوان ص ١٢ .
(٥) المصدر السابق .

وقولـــــــه :

وهو ساربين العوالم لم تحـــــ ـــصره من روض قبره أرجـــــاء
فلديـه فوق السماء وتحـــت الـــ أرض والعرش والحضيض ســـواء (١)

وقولـــــــه :

هو حي في قـــبره بحيـــــاة كل حي منها له اســـتملاء (٢)
ملا الكون روحه وهو نـــــور ويه للجنان بعد امتـــلاء (٣)
هو أصل للمرسلين أصيـــــل هم فروع له وهم وكـــــلاء (٤)

وقولـــــــه :

أفرغ الله فيه كل العطايـــــا والبرايا منه له استعطـــاء (٥)
يرجع الحب منه فيه الى اللـــــ ـــه تعالى ومنه فيه القـــلاء

وتظهر صوفيته صريحه كالشمس في قوله :

قل لمن يسأل الحقيقـــة لا ينـــ ـــفك منه عن أحمد استفتـــاء (٦)
هي سر يعلمه استأثر اللـــــ ـــه وحارت في شأنها العقـــلاء
قد علمناه عبد مولاه حقـــــا ليس لله وحده شـــــريك
ثم لسنا ندري حقيقة هـذا الـــ ـــعبد لكن من نوره الأشـــياء
صفه وامدح وزك واشرح وبالـــ وليمنك الصاقع البلغـــاء
فمحال بلوغك الحد مهمـــا قلت أو شئت من غلو وشـــاء وا

الى أن يقول :

هو والله فوق كل مديـــح أنشدته الرواة والشعـــراء

---

(١) الديوان ص ١٦ .
(٢) الديوان ص ١٧ استملاء استمداد .
(٣) ملا الكون روحه لان الخلائق خلقت كلها من نوره صلى الله عليه وسلم .
(٤) الديوان ص ١٦ ـ ١٧ .
(٥) الاستعطاء طلب العطاء .
(٦) قال في لسان العرب الحقيقة ما يصير اليه حق الأمر ووجوبه وبلوغ حقيقة الأمر أي يقين شأنه وفي شرح المواهب للزرقاني عند قوله أبرز الحقيقة المحمدية نقلا عن لطائف الكاشي يشيرون بالحقيقة المحمدية الى الحقيقة المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة للحقائق والسارية بكليتها في كلها سريان الكلي في جزيئاته .

هو منه مثل الندى سيق للبحـــ ـر وأين البحار والأنـــداء
ليس يدرى قدر الحبيب سوى اللـــ ـه فماذا تقوله الفصحـــاء (١)

وتكاد أربعة أخماس القصيدة تكون بهذه المعانى ، وكل هذا يدلنا على تضلـــع النبهانى فى المعارف الصوفية .

والملاحظـة التاســعة :

أن الدراسة الحالية لا تسعفنا لعمل موازنة دقيقة بين القصيدتين لأن هـــذا يستوجب حيزا كبيرا لا يسمح به البحث حيث انه يستوجب بحثا كاملا لأن القصيدتـــين طويلتان ولكن سنقوم بدراسة موازنة لبعض النقاط التى أهما المطلع .

يقول البوصيرى فى مطلع قصيدته :

كيف ترقى رقيـــك الأنبيـــــاء يا سماء ما طاولتها ســـــماء

ومطلع قصيدة النبهانـــــى :

نـورك الكل والورى أجـــــزاء يا نبيا من جنـده الأنبيـــاء

ونحن نلاحظ أن البوصيرى استخدم أسلوب الاستفهام "كيف" وهذا الاستفهام يحمل فى معناه الانكار وشيئا من التعجب فهو يستفهم ويتعجب منكرا أن يصل ورقـى الأنبياء الى رتبته ومقامه صلى الله عليه وسلم ثم فى الشطر الثانى ـ العجز ـ شبـــه الرسول بسماء عالية لا تصل اليها أى سماء أخرى ونحن نلاحظ أن معنى الشطـــر الأول هو معنى الشطر الثانى نفسه وهو بيان فضل الرسول على سائر الأنبيـــاء أما الشيخ النبهانى فقـد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم مشعا وله نـور وهـــو الكل .. أى : الأصل والورى .. أى : الخلق : أجزاء فلا شك فى أن الكـــل أفضل من الجزء والأصل أفضل من الفرع وفى الشطر الثانى ـ العجز ـ جعل الرســول صلى الله عليه وسلم قائدا والأنبياء جنوده ولا شك أن القائد يكون أكرم وأفضل مـــن جنوده ونستطيع أن نقول ان البوصيرى فى الشطر الثانى من المطلع استعمل الأسلـوب التقريرى أما النبهانى فقـد استعمل الأسلوب التعبيرى .. أى : انه عبر عن فضـل الرسول بجعله قائدا والأنبياء جنوده ففهم هذا الفضل دون أن ينص عليه وهـــذا أقرب الى الأدب الرفيع وأسمى .

---

(١) الديـــوان ص ١٩ .

ونحن نلاحظ أن استعمال النبهانى الكلمة (نورك) فى أول المطلع أضاف اليها نورا على نورها اذ أنها أول ما يصدم القارئ فيبهره وأتبعها بكلمة الكل " فأدخل الرهبة والخشوع فى القلب وفى قوله " الورى أجزاء " يجعل القارئ ينبهر ويدهش ممن جعل الشاعر نوره الكل وجميع الخلق أجزاء وفى الشطر الثانى يفصح عن اجمال الشطر الأول فابتدأ بقوله " يا نبيا " وهو مقابل لقوله فى الشطر الأول "نورك" وجعل قوله فى الشطر الثانى " من جنده الأنبياء " مقابلا لقوله فى الشطر الأول "والورى أجزاء" .

والشاعر بهذا التقسيم والمقابلة أزال اللبس وهون على القارئ انبهاره من الشطر الأول حيث وضع يده على الحقيقة التى يريد أن يقولها بطريقة نورانية توقع الرهبة فى قلب القارئ وهى أن النبى الذى من جنده الأنبياء هو المقصود من قوله " نورك الكل والورى " أجزاء " .. كما نلاحظ من هذا المطلع أن النبهانى افتتح قصيدته باشراقة صوفية حملها وعبر عنها بعد أن تمرض لنفحاتها طويلا ثم اختزنها فما كاد يطلق لشاعريته العنان حتى سبقت غيرها فانطلقت منها كانطلاق النور الذى لا يسبقه غيره فكان أول ما بدأ به قصيدته قوله " نورك " لأنه كان أسرع فى الخروج والوصول الى الظهور وهذا المطلع يوضح أثر الثقافة الصوفية فى مدائح النبهانى النبوية ويبين أنه لم يقل قصيدته هذه الا بعد معاناة صوفية ولدت انفعالا صوفيا فكانت القصيدة أثرا وناتجا لها ، ومن هنا نجد أن الشاعر يكتب عن امتلاء ، وكلما زاد فى الكتابة كلما خفت عنه آلام المعاناة ولعل هذا يفسر لنا طول نفس الشاعر فى جميع مدائحه وبالذات همزيته هذه حتى بلغت ألف بيت .

المقدمة :

لقد جعل كل من البوصيرى والنبهانى قصيدتيهما سجلا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ومآثره من مولده حتى وفاته وقد دخل كل منهما بمقدمة للغرض الأساسى وهو تسجيل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت عند البوصيرى اثنى عشر بيتا خلص بعدها الى الموضوع فذكر مولده صلى الله عليه وسلم ومن قوله فى المقدمة .

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ... رك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل الا ... بشرت قومها بك الأنبياء

تتباهى بك العصور وتسمو ... بك عليا بعدها عليـاء
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه ... قلدتها نجومها الجوزاء
هذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء (١)
ومحيا كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء (٢)
ليلة المولد الذى كان للدين ... سرور يومه وازدهاء (٣)

أما الشيخ النبهانى فقد جعل مقدمته من سبعة عشر ومائة بيت وقد نظمها على ثلاثة مراحل المرحلة الأولى التى افتتح بها القصيدة وهى عبارة عن أبيات مدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى شبيهة بأبيات البوصيرى المتقدمة وهى معان صوفية خالصة وهى قوله :

نورك الكل والورى أجزاء ... يا نبيا من جنده الأنبياء
رحمة الكون حيث أنت ولولا ... ك لدامت فى غيها الأشياء
منتهى الفضل فى العوالم جمعا ... فوقه من كمالك الابتداء
لم تزل فوق كل فوق مجدا ... بالترقى ما للترقى انتهاء
جزت قدرا فما أمامك خلق ... فوقك الله والبرايا وراء
خير أرض ثوى بها خير سماء ... بك طالت على الأنام سماء

ثم يخلص الى المرحلة الثانية التى جعلها فى التشوق والحنين الى ربوع الحبيب وفيها يصف الناقة والسفينة ووصف رفاقه من المحبين ونحول أجسادهم ثم يصف فيها لواعجهم ونفحات القبول التى هبت عليهم فرنحتهم ثم يرسل تحياته الى ديار حبيبه مثل المنحنى والمصلى والنقا والبقيع وغيرها ثم يخلص الى مدح حبيبه والتصريح به حيث يقول :

---

(١) العصماء : البيضاء .
(٢) أسفرت اضاءت الغراء البيضاء المقمرة وهى ليلة ميلاده صلى الله عليه وسلم .
(٣) ازدهار خفة الطرب الديوان ص ٥٠ .

حيث ربع الحبيب يعلوه من نـــو ر قبـاب أقلها الخضـــراء (١)
حيث يثوى محمد سيد الخلـــــ ـق وفى بابه الورى فقـــــراء

وقد بلغت أبيات هذه المرحلة ستة وخمسين بيتا .

أما المرحلة الثالثة من المقدمة فهى ما تبقى من الأبيات حيث بلغت خمسة وخمسين بيتا وقد ضمنها خلاصة مدائحه النبوية بمعانيها الصوفية التى منها قوله :

ليس يدرى قدر الحبيب سوى اللـــ ـه فماذا تقوله الفصحـــاء
غال مهما استطعت فى النظم والنثـ ـر وأين الغلو والغلـــواء ؟
ما بتطويل مدحه ينتهـى الفضـ ـل فقصر أو قل به ما تشـــاء
عظم الله فضله عظم الخلـــــ ـق ومنه بعمره ايـــلاء (٢)
فمديح الأنـام من بعد هـــذا خبر صح منتهاه ابتـــداء (٣)

الموضـــوع :

وهو عبارة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع مراحلها وقد أدمج البوصيرى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده حتى وفاته فى نفس واحـــد فهى تبدو قصيدة واحدة ولكن معالم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تبدو بـــارزة بحيث يمكن فصلها مستقلة عن غيرها متميزة عما سواها بحيث يمكن وضع عنـــوان بارز للأبيات التى تتكلم عن أية ناحية من نواحى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مثلا يتكلم عن رضاعته عليه السلام مبتدئا بالبيت التالى :

وبدت فى رضاعـه معجـــزات ليس فيها عن العيون خفـاء (٤)

وعن شق الملائكة لصدر الرسول صلى الله عليه وسلم يهتدئ بقوله :

شق عن قلبه وأخرج منـــه مضغة عند غسله ســـوداء

---

(١) ربع الحبيب داره اى قبره الشريف صلى الله عليه وسلم والخضراء القبة التى فوقه .
(٢) عظم الله فضله فقال تعالى : وكان فضل الله عليك عظيما ، وعظم الخلق قال تعالى : وانك لعلى خلق عظيم ، وبعمره حياته والايلاء الاقسام قال تعالى " لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون " .
(٣) الديوان ص ٥١ .
(٤) الديوان ص ٥١ .

وعن عبادته يبتدى بقوله :

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلا وهكذا النجباء

ولكن هذا ليس مطردا فقد مهد لكلامه عن الهجرة النبوية بالكلام عن الهدى وأنه يكون من الله وحده فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء .. حيث نطقت الجمادات للرسول صلى الله عليه وسلم بالشهادة مع انكار فصحاء قريش لدعوته صلى الله عليه وسلم وأن الفيلة أبت هدم الكعبة فى حين أن صاحبها رام هدمها وأن قومه قد هجروه وابتعدوا عنه فحن اليه الجذع ووادى الغرباء ، وهذه المعانى ضمنت فى قوله :

رب ان الهدى هداك وآياتك نور تهدى بها من تشاء

كم رأينا ماليس يعقل قد ألـ ـهم ما ليس يلهم العقلاء

اذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيـ ـل ولم ينفع الحجى والذكاء

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء

وسلوه وحن جذع اليه وقلاه ووده الغرباء

ثم يتكلم الامام البوصيرى عن هجرته صلى الله عليه وسلم بعد هذه المقدمة .. فيقول :

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء

وكفته بنسجها عنكبوت ماكفته الحمامة الحصراء (١)

واختفى منهم على قرب مرأ ى ومن شدة الظهور الخفاء (٢)

أما الشيخ النبهانى فان موضوع قصيدته قد قسم حسب المعالم التى طرقها من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فهمزيته عبارة عن مجموعة قصائد عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أظهر الموضوع الذى يتكلم فيه غالبا فى البيت الأول أو الثانى مثل قوله فى عنوان " رضاعه صلى الله عليه وسلم " .

جاء كالدرة اليتيمة فردا يتم الكون حسنه الوضاء

فأبته كل المراضع لليتـ ـم وقد ذل فى الورى اليتماء (٣)

---

(١) الحصداء كثيرة الريش .

(٢) الديوان ص ٥٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥ .

وقوله فى عنوان " شق الملائكة صدره الشريف صلى الله عليه وسلم " :

شق منه جبريل ـ أقديه ـ صدرا قد وعى العالمين منه وعاء (١)

وقوله فى " موت أبويه ثم احيائهما وايمانهما به صلى الله عليه وسلم " :

ماتت أم النبى وهو ابن ست وأبوه وبيته الأحشاء (٢)

وفى قوله " حالة الأديان وقت بعثته صلى الله عليه وسلم " :

قبله عمت البرايا جهالا ت وضل المرؤس والرؤساء (٣)

من هذا نلاحظ أن النبهانى لم يمهد للمواضيع التى طرقها من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بل دخل فى الموضوع مباشرة • والذى نلاحظه أيضا أنه جعل مما كتبه فى المواضيع الجزئية قصائد مستقلة بغرضها ولم يتطرق لغيرها •

الخاتمة :

لم يجعل الامام البوصيرى خاتمة منفصله لهمزيته وانما يظهر اقترابه من انهاء القصيدة حيث بدأ يستغيث بالرسول صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر بأنه قارب على فراقه بانتهاء مديحه له بعد مسيرة طويلة فى هذا المديح حيث تعرض لحياته صلى الله عليه وسلم ومختلف شؤونه حتى وفاته ، ونستطيع أن نجعل الخاتمه تبدأ من قوله :

يا نبى الهدى استغاثة ملهو ف أضرت بحاله الحوباء

يدعى الحب وهو يأمر بالسو ء ومن لى أن تصدق الرغباء (٤)

وقد بلغت الخاتمة خمسة وثلاثين بيتا ضمنها حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وعظم ذنوبه ثم يقرر أنه يرتاح لأنه بيت الرسول صلى الله عليه وسلم شكواه وهو طبيب لا يخفى عليه داء القلوب حيث يقول :

هذه علتى وأنت طبيبى ليس يخفى عليك فى القلب داء

---

(١) المصدر السابق •

(٢) الديوان ص ٢٦ •

(٣) الديوان ص ٢٧ •

(٤) الرغبة فى التوبة •

ثم يظهر فخره بمدائحه وأن مداح الرسول صلى الله عليه وسلم قد سلموا اليه الامامة فى المديح النبوى ثم يظهر تحسره على مدائح الغير لانه يغار على الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يحب أن يناقسه غيره فى مديحه صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

حق لى فيك أن أساجل قوما ... سلمت منهم لدلوى الدلاء
ان لى غيرة وقد زاحمتنى ... فى معانى مديحك الشعراء (١)

ثم يفتخر بمدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

ولقلبى فيك الغلو وأنى ... للسانى فى مدحك الغلواء؟ (٢)
فأثب خاطرا يلذ له حمد ... حك علما بأنه الملاء (٣)
حاك من صنعة القريض بروداً ... لك لم تحك وشيها صنعاء (٤)
أعجز الدر نظمه فأستوت فيـ ... ـه اليدان الصناع والحرقاء
غاضه أفصح امرئ نطق الضا ... د فقامت تخار منه الظباء (٥)

ثم يظهر عجزه عن ايفاء الرسول حقه فى مديحه حيث يقول :

أبذكر الآيات أوفيك مدحا ... أين منى وأين منها الوفاء

ثم يظهر عجزه عن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بما يستحقه حيث يقول :

ان من معجزاتك العجز عن وصـ ... ـفك اذ لا يحده الاحصاء
كيف يستوعب الكلام سجايا ... ك وهل تنزح البحار الركاء؟ (٦)
ليس من غاية لوصفك أبغيـ ... ـها وللقول غاية وانتهاء
انما فضلك الزمان وآيا ... تك فيما تعده الآناء

---

(١) الديوان ص ٧٥ .
(٢) الغلواء والغلو مجاوزة الحد .
(٣) اللاء الفرح التام .
(٤) البرود جمع برد وهو الثوب المخطط .
(٥) الديوان ص ٧٦
(٦) الركاء جمع ركوة وهو اناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء .

غير أني ظمآن وجد ومالي ... بقليل من الورود ارتواء

ثم ينهى الخاتمة بالصلاة والتسليم على الرسول صلى الله عليه وسلم حيث فيقول :

فسلام عليك تترى من الله ... ه وتهفى به لك البأواء (١)
وسلام عليك منك فما غير ... ك عنه لك السلام كفاء
وسلام من كل خلق الله ... ه لتحيا بذكرك الأسلاء
وصلاة كالمسك تحمله الري ... ح شمال اليه أو نكباء (٢)
وسلام على ضريحك تخضل ... ل به منه تربة وعساء (٣)
وثناء قد ت بين يدي نجوا ... ي اذا لم يكن لدي ثراء (٤)
ما أقام الصلاة من عبد الله ... ه وقامت بربها الأشياء (٥)

أما الشيخ النبهاني فقد جعل لهمزيته خاتمة مستقلة بلغت ثلاثة وستين بيتا والمعاني في خاتمة همزية الشيخ النبهاني تشبه الى حد بعيد المعاني التي طرقها البوصيري ، فالنبهاني يفتخر ويعتز بقصيدته هذه مشيدا بمنزلتها حيث يقول : ـ

سيد العالمين يا بحر جود ... قطرة من سخائه الأسخياء
هذه طيبة بمدحك قد طا ... لت وطلب الانشاد والانشاء
كلها وهي ألف بيت قصور ... عنك ضاقت وانها فيحاء (٦)
سكنتها ابكار نعم المعاني ... منك فهي المدينة العذراء (٧)
كل معنى بلقيس والبيت صرح ... ومن الدر لا الزجاج البناء (٨)

---

(١) الباواء الفخر .
(٢) النكباء الريح الشمالي ريح مهبه مابين مطلع الشمس ومنات نعش .
(٣) وطاء الربلة اللينة تخضل : تبتل .
(٤) النجوى المناجاة
(٥) الديوان ص ٧٦ـ٧٧ .
(٦) القصور العجز وجمع قصر ففيه توريه الفيحاء الواسعة .
(٧) المدينة والعذراء من اسماء مدينة صلى الله عليه وسلم والمدينة في الاصل المصر الجامع والعذراء البكر ففيها توريه رشحها تسميه هذه القصيدة عليه .
(٨) بلقيس ملكة سبأ والصرح القصر .

ثم يصرح باقتفائه طريق البوصيرى فى قصيدته مقرا بفضله وتقدمه حيث يقول :

سرت فيها بأثر شيخ امام ... قد أقرت بسبقه الشعراء
وبحسبى أنى المصلى وأن المنشد ... فيها كأنهم قراء (١)

ثم يظهر منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم وغناه عن المديح حيث يقول :

أنت عنى وعن ثنائى غنى ... ما لعلياك بالثناء اعتلاء
انما أنت سيد اريحى ... لك قبلى بالمادحين احتفاء (٢)

ثم يفتخر بمعنى طالما ردده كثيرا وهو كونه حسان الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

واذا لم أكن بمدحك حسانا ... فما فهذى قصيدتى حسناء
لو رآها كعب لقال : سعاد ... أمة من امائها سوداء
عالها فى الكرام غيرك كفو ... بان عنها الأكفاء والإكفاء (٣)
لم تزد قدرك الرفيع سوى ما ... زاد فى الشمس من سناها البهاء

ثم يظهر عجزه عن ايفاء الرسول صلى الله عليه وسلم حقه فى المدح وأن المداح — مجتمعين — عاجزون عن ذلك فيقول :

هى أوصافك الجميلة ان كنت ... قصيدا أو لم تكنه سواء (٤)
انا ادريك سابق المدح منها ... بالغت فى مديحك البلغاء
لا وصول لغير مهد اليك ... وما للعقول بعد ارتقاء

ثم يطرق معنى جديدا لم يورده البوصيرى فى خاتمته وهو أن الذين يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم لا فضل لهم ولا جهد لأن الرسول هو الذى يمدهم بالمعانى والنفحات فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يمدح نفسه لأنه لا أحد يقوى على مدحه غيره حيث يقول :

أنت أزكى الأنام فى كل خير ... للمزكين منك جاء الزكاء

---

(١) المصلى الفرس الذى يأتى بعد السابق وهو فى الصلاة ففيه تورية .
(٢) اريحى كريم .
(٣) الأكفاء جمع كفوء وهو الذى ليس فيه الإكفاء من عيوب الشعر لافساد فى آخر البيت بمخالفة الاعراب وغيره .
(٤) القصيد الشعر ثلاثة أبيات فصاعدا .

في ثناء المثنين نعماء لكن ... للمزكين منك جاء الزكاء
لم يزاحم مداحك البعض بعضا ... أنت بحر والمادحون دلاء
وعجيب دعواهم فيك مدحا ... منك فيه الامداد والامداء
كان منهم انشادهم حين يسري السـ ... ـر فيهم فينشأ الانشاء (١)

ثم يكرر المعنى الذي قاله البوصيري سابقا حيث يقول النبهاني :

واعتقادي أن لو مدحت بسفر ... عرضا الأرض كلها والسماء
ما حوى من غزير فضلك الا ... مثل ما حاز من بحار ركاء

وقد أجاد في تشبيهه قصوره عن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

مثلي فيك في مديحي كما لو ... وصف العرش ذرة عشاء
وصفت ما رأته منه ولكن ... ناق منه العلو منك العلاء

الى أن يقول في اعانة الرسول صلى الله عليه وسلم له على مدحه :

لم أكن أستطيع لو لم يعنني ... منك سر وسيرة حسناء

ثم يخلص الى بث شكواه من الزمان وأهله طالبا من الرسول صلى الله عليه وسلم كل عون ومساعدة وهذا لم يذكره البوصيري في خاتمته .. يقول النبهاني : —

وأجرني وعترتي من زماني ... فداوهيه كلها دهياء
عاد فيه الدين المهين كما قلـ ... ـت غريبا وأهله غرباء
فتداركه قبل أن تخطر الأخـ ... ـطار فاليوم مسه الاعياء
وتكرم بشده فقواه ... نالها بالشدائد استرخاء
صار للشوك في أذاه اشتراك ... حين ما للنفاق عنه انتفاء (٢)

ثم يظهر الشاعر مدى تحسره على ما أصاب الدين من هوان ومن تلون الناس ونفاقهم فيقول :

---

(١) رأيتني في المنام اياما اشتغالي بنظم هذه القصيدة طيه الضراء اقول انما يؤلف المؤلفين في شؤونه صلى الله عليه وسلم اذا غلبت روحانيته عليهم فهو الذي يؤلف في شؤون نفسه في الحقيقة .

(٢) انتفاء : تنحية ....

كم أبو جهل استطال على الـــ ـــدين وكم ذا ازرت به الجهـــلاء
ولكم فى ثيابـه ابن ســـلول شاكه من نفاقه ســـلاء (١)
ما اغتراري بمن تلون منهـــم والافاعى شرها الرقطـــاء

ثم يظهر الشاعر موقفه من عصره وأهله مصورا عناده واصراره على محاربتهـــم وعدائهم فيقول : ــ

ملء قلبى محبة لحبيـــ ـــك وان قل فى فؤادى الصفـــاء
وارتياحى فى بغض قوم لديهـــم لك ياسيد الورى بغضـــاء
لا أوالـيهم الزمان ولاهـــم لى عاذر شارق أوليـــاء (٢)
لا يرانى الرحمن الا عـــدوا لأعاديك أحسنوا أم أســـاءوا
رضى الله عن رضيت ومن لـــم ترضى عنه فالله عنه بـــراء

ثم يطلب الشاعر من الرسول صلى الله عليه وسلم العطاء والمكافأة على مديحـــه له يقول الشاعـــر : ــ

قد أجزت المداح قبلى فكانـــت سنة واقتدى بسك الكرمـــاء
لست أبغى قدرى ولا قدر شعـرى قدر جود المعطى يكون العطـــاء
وبحسبى صلاح دينى ودنيـــا ى وحسن الختام فيـه اكتفـــاء

هذا ولم ألاحظ فى خاتمة البوصيرى أنه طلب العطاء والمكافأة من الرسول صلى اللـــه عليه وسلم كما فعل النبهانى ولا شك أن لهذه الظاهره فى مدائح النبهانى دلالات نفسية واجتماعية مهمة جدا فى شخصية الشاعـر لا يسعنا بحثها الان ولعـــل أهم سبباتها أسرة الشاعر المغمـورة فى بلده ــ اجـزم ــ وطموح الشاعـــر وبعد همته جعله يطلب ويطمع فى المزيـد وهو فى مدحه لأحمد عزت باشا العابـد الكاتب الثانى للسلطان عبد الحميد رحمه الله لم ينسى أن يذكر الممدوح بطلباتـــه ويجعلها آخر ما يقول فى القصيدة ليكون آخر ما يقرؤه أو يسمعه الممدوح حـــتى

---

(١) عبد الله بن سلول رأس المنافقين . السلاء شوك النخل الواحدة سلاءة .

(٢) ذر طلع شارق الشمس .....

لا ينساه حيث يقول مخاطبا الممدوح :

يا بهجة العصر يا زين الزمان وما ... بحر المكارم لا تنفك توليها
أتعبتني فائد لا تولني نصبا ... جديدة قد كفاني عنك ماضيها
عجزت والله عن شكري لسالفها ... فكيف امكان شكراني لآتيها
هذي مكارمك الأولى وفت وكفت ... والآن نفسي التفات منك يكفيها (١)

والحقيقة ان هذه ظاهرة عامة في مدائح النبهاني تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث أما البوصيري فلم اجد له مثل هذا وأخيرا ينهي النبهاني خاتمة المدحة النبوية بالصلاة والسلام على خير الأنام كعادة شعراء الصوفية حيث يقول : ـ

فعليك الصلاة تبقى من الله ... ـه كما شاء كثرة وتشاء
وعليك السلام منه على قد ... رك قدرا لا يعتريه فناء
وعلى الأولياء آلك والصحـ ... ـب ومن للجميع فيه ولاء (٢)
ما قضى الله في الورى لك مدحا ... وله الحمد كله والثناء (٣)

ونحن نلاحظ على خاتمة كل من البوصيري والنبهاني الملاحظات الاتية : ـ

الملاحظة الاولى : ـ

أن النبهاني استفاد كثيرا من المعاني التي طرقها البوصيري مثل قول البوصيري

ان من معجزاتك العجز عن وصـ ... ـفك اذ لا يحده الاحصاء
كيف يستوعب الكلام سجايا ... ك وهل تنزح البحار الركاء؟

فيقول النبهاني في المعنى نفسه : ـ

واعتقادي أن لو مدحت بسفر ... عرضه الأرض كلها والسماء
وما حوى من غزير فضلك الا ... مثل ما حاز من بحور ركاء

الملاحظة الثانية : ـ

يكثر النبهاني من استعمال ضمير المتكلم اكثر من الامام البوصيري

---

(١) الولاء الحمد والنصرة
(٢) الديوان ص ٨٦ ـ ٨٩
(٣) من قصيدة مخطوطة .

الملاحظة الثالثة : ـ

طرق النبهانى فى خاتمته معانى لم يطرقها البوصيرى وقد نبهنا عليها آنفا .

الملاحظة الرابعة : ـ

يستعمل النبهانى التشبيه لتقريب المعانى أكثر من البوصيرى مثل قوله :

مثلى فيك فى مديحى كما لي ... وصف العرش ذرة عشاء (١)
وصفت ما رأته منه ولكن ... فاق منه العلو منك العلاء

الملاحظة الخامسة : ـ

المبالغة واضحة فى أسلوب البوصيرى والنبهانى ويبدو النبهانى اكثر مبالغة .

الملاحظة السادسة : ـ

تظهر النظرة الميتافيزيقية واضحة فى خاتمة النبهانى أكثر من خاتمة الامام البوصيرى مثل قوله : ـ

أنت شمس وفى سناك ظهورى ... غير مستغرب لأنى هباء

وقوله : ـ

وعجيب دعواهم فيك مدحا ... منك فيه الامداد والاملاء
كان منهم انشاده حين يسرى الـ ... ـسر فيهم فينشأ الانشاء

الملاحظة السابعة : ـ

تلاحظ أن البوصيرى ختم همزيته وهو خائف منقبض يحدوه الرجاء والأمل فى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد افتتحها بقوله : ـ

يا نبى الهدى استغاثة ملهو ... ـف أضرت بحاله الحوباء

ثم يستشعر الندامة والاسى مظهرا أنها السبب فى حجب رؤياه للرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

---

(١) ذرة : النملة الصغيرة : عشاء ضعيفا لبعد .

ان يكن عظم زلتي حجب روئيـــــا ك فقد عز داء قلبـــي الـــدواء

ثم يحدو ما لرجـاء والأمـل فيقول :

كيف يصدأ بالذنب قلب محـــب ولـه ذكرك الجميـل جـــلاء
هذه علتي وأنت طبيبـــي ليس يخفـى عليك في القلـب داء
وسنا لفوز أن أبثـك شكـــوى هي شكوى اليك وهي افتضـــاء

فالامام البوصيري عـد همزيته هذه شكوى يرفعها للرسول صلـى اللـه عليه وسلـم لما ألـم به ، علما بأنه في مقدمة همزيته لم يظهر عليه الضيق والانقباض وان لـم يكن هناك ما يدل دلالـة واضحة على أنبساطه وانقباضـه في مقدمـة القصيـدة كما يظهر في الخاتمة ولكننـا نستشـف حالته النفسية من الكلمات الموحيه الـتي استعملها فهو مثلا يفتتح همزيته بالاعجـاب والاكبـار للرسول صلى الله عليه وسلـم وهذا لا يصدر الا من نفس منبسطة ومنشرحة حيث يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاء؟ يا سماء ما طاولتها سمـــاء
لم يساووك في عـلاك وقد حـا ل سنا منك دونهم وسنـاء
انما مثلوا صفاتـك للنـا س كما مثل النجـوم المـاء

فهذا الاكبار والاطراء للرسول صلى الله عليه وسلم ثم استعماله كلمـات " النجـوم والماء " ثم قوله :

أنت مصباح كل فضل فما تصـ ـدر الا عن ضوئك الأضـواء

ثم قولـه : ـ

تتباهى بك العصور وتسمـو بك عليا ء بعدهـا عليـاء

كل هذه الكلمات توحي بأن الشاعر كان في مقـام البسط كما يقول الصوفية .

أما الشيخ النبهاني في مقدمة قصيدته فيبدو مغايرا للبوصيري حيث تظهـر عليه علامات القبض والضيق والشعور بالذنب والتقصير فيعزو ما قصـر به عن الوصـول الى آمالـه في القرب الى كثرة ذنوبه وتكدّر قلبه وهو وان افتتح قصيدته بما يوحـي بالبسط والانشراح بقوله :

نورك الكل والسوى أجـزاء يا نبيا من جنده الأنبيـاء

ولكن هذا سرعان ما يظهر عليه الخبو والضعف في البيت الثاني مباشرة بقوله :

علة الكون كنت انت ولولا ... ك لدامت في غيبها الأشياء

واستعماله كلمتي " علة " و " غيبها " يدل على أنه بدأ يعمق فكره ويدقق نظره ، وهذا نتيجة لخفوت عاطفة البسط والأمل التي تستدعي سطحية في التفكير لأن التفكير العميق أقرب الى الانطوائية من التفكير السطحي الذي يستخدم الحواس في التعبير كما في استعماله كلمة " نور " ويظهر القبض أكثر وضوحا في قوله :

وعدتني نفسي الدنو ولكن ... أين مني وأين منها الوفاء
غادرتها الذنوب عرجاء والقف ... ر بعيدا ما تنفع العرجاء

ويظهر أيضا في وصفه رفاق طريقه لزيارة الحبيب صلى الله عليه وسلم اذ يقول :

في رفاق من المحبين كل ... فوقه من غرامه سيماء
جسدنا حل وطرفه قريح ... ظل يهمي وهامة شعثاء
اضرموا الوجد ناره بحشاهم ... ولثقل الغرام ناحوا ونائوا
شربوا دمعهم فزادوا أوامـا ... ما بدمع لعاشق ارواء

كل هذه الاوصاف تعد انعكاسا لنفسية الشاعر لأن شعره مرآة وجدانه خصوصا في المدائح النبوية التي تكون صادقة في التعبير الوجداني من تجربة ومعاناة وأخيرا يظهر انقباضه ولوعته صريحين واضحين في قوله :

عيني ابكي سحا استطعت وماذا ... لو أدمت لبكا يغني البكاء
لو بكيت العقيق بالسفح باكا ... ن لوجدي غير اللقاء شفاء
لو أرادوا لواصلوني ولكن ... أحسنوا في قطيعتي ما أساءوا

ويقول أيضا :

لست أهلا لوصلهم فظلامي ... حائل أن يحل منهم ضياء
هجروني ولست أنكر أني ... لم أزل مذنبا وكلي خطاء
غير أني التجأت قدما اليهم ... وعزيز على الكرام التجاء
ان أكن مذنبا فهم أهل عفو ... وعلى الكون ان رضوني العفاء
أو أكن أكدر المحبين قلبا ... فلمثلي منهم يكون الصفاء

أو يكن فى الفؤاد داء قديم ... فلديهم لكل داء دواء
أو أكن فاقدا فعال محب ... فلقلبى على الوداد احتواء
أو يرونى أفلست من عمل البر ... فمنهم نال الغنى الاغنياء (١)

فى كل هذا دلالة واضحة على انتهاض نفس الشاعر فى مقدمة قصيدته .

أما فى الخاتمة فقد تغيرت حالة البسط فلو نظرنا الى الأبيات الخمسة الأولى لوجدناها بمفرداتها ومعانيها تدل على تفتح نفسية الشاعر وارتياحه وتفاؤله فكانت تعابيرها انعكاسا لما فى قلبه من معان حيث يقول : ـ

سيد العالمين يا بحر جود ... قطرة من سخائه الأسخياء
هذه طيبة بمدحك قد طا ... بت وطاب الانشاد والانشاء
كلها وهى الف بيت قصور ... عنك ضاقت وانها فيحاء
سكنتها أبكار غر المعانى ... منك فهى المدينة العذراء
كل معنى بلقيس والبيت صرح ... ومن الدر لا الزجاج البناء (٢)

فالكلمات الموحية بالتفاؤل مثل قوله " بحر جود ، سخائه الأسخياء ، طيبة ، طابت ، الانشاد ، قصور ، فيحاء ، ابكار غر المعانى والمدينة العذراء ، بلقيس والبيت صرح والدر ، الزجاج وفى شكوى الزمن وأهله للرسول صلى الله عليه وسلم .. كل هذا فيه دلالة واضحة على اطمئنان الشاعر فى حضرة الرسول وانفتاح نفسيته وشعوره بالأمن والقبول فتفقد نفسه ويث شكواه ، وفى طلبه المثوبة والجزاء من الرسول صلى الله عليه وسلم على مدحه اياه : نوع من الشعور بالرضا عن النفس لما قامت به من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فطلبت الجائزة دلالة عن الرضا والتقدير لما قامت به .

وبعد كل هذا نستطيع أن نقرب نفسية كل من البوصيرى والنبهانى فى ابتدائه فى همزيته وانتهائه منها فالبوصيرى ابتدأ همزيته ونفسيته منبسطة وختمها ونفسيته منقبضة ، ولقد قالوا عن يزور مكة المكرمة : انه يدخلها حزينا فيخرج منها فرحا لأن فى مكة تغفر الذنوب بالطواف والسعى وشرب ماء زمزم والصلاة فى مقام ابراهيم فاذا خرج منها الزائر شعر بالانبساط والارتياح وهذه من بشائر المغفرة وعن زائر المدينة

---

(١) بلقيس ملكة سبأ الصرح القصر .
(٢) الديوان ص ١٣ ـ ١٥ ..

المنورة قالوا :انه يدخلها منبسطا ويخرج منقبضا لأنه ينجذب الى روحانية الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يود مغادرة المدينة حيث عاش الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ومشى فى شوارعها حتى اذا اضطر لمغادرتها شعر بالانقباض والحسرة

والنبهانى فى همزيته شبيه بزائر مكة المكرمة والبوصيرى شبيه بزائر المدينة المنورة ولعل اطالة النبهانى فى همزيته الى ألف بيت وتطرقه لمختلف شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم حتى انه لم يترك معجزة أو مأثرة وردت فى كتب السيرة الا ذكرها وشعوره عن نفسه بالرضى والارتياح هو الذى أثر فى نفسيته فختم قصيدته ونفسيته مرتاحة لما قدم أما الامام البوصيرى فهو لم يتطرق الى كل ما فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه لم يرتب الموضوعات التى طرقها بل ترك قريحته تقول على سجيتها دون ضوابط أو تحديد وترتيب فهو قد بدأ قصيدته منبسطا فرحا لاقدامه على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حتى اذا تشبعت قريحته بالقول أنهى قصيدته انهاء لا شعوريا .. ولذلك لا نجد خاتمة واضحة لقصيدة البوصيرى وانما بحثنا عنها فرضا وعددناها آخر ما قاله — فلم يستشعر عظمه العظيم والفضائل التى ذكرها للرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشعر بالبسط لقيامه بهذه الساعة .

هذا ونحن لا ندرى مدى عناية البوصيرى بهمزيته ومعاودته لها بالتنقيح والتهذيب والمدة التى استغرقها فى نظمها ، .. فهو لا شك عاود تنقيحها ولعله كان تنقيح اعراب أو وزن حيث لا يستغرق وقتا طويلا .

ولو استغرق فى نظمها وقتا طويلا لأعاد ترتيب افكارها أو كان متريثا فى مشاعره وعواطفه ولظهرت أكثر منطقية .

أما النبهانى فيقول : عن تنقيحه قصيدته ومعاودته لها بالتهذيب" الحمد لله رب العالمين قال ناظمها قد مضى من شروعى فى نظمها الى ختام طبعها سنتان لم أخل فيها من تهذيب وتنقيح وزيادة ونقص فى الفاظها ومعانيها حتى جاءت لعين كل مؤمن يحمد الله ويركة مدوحها قرة وفى جبين هذا العصر غرة [1] وقد جعل ابن الأثير المعاودة والتنقيح والتأنق فى النظم دلالة على براعة الشاعر وتقدمه . [2]

---

(١) طيبة الغراء فى مدح سيد الانبياء ص ١٠٤ المطبعة الادبية ببيروت ١٣١٤

(٢) راجع الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الاثير ص ٢٣ .

الباب الرابع

مدائحه النبوية

الفصل السادس

رائد المدائح النبوية

بعد دراسة ما تقدم من الجوانب المختلفة من حياة الشيخ النبهاني وأدبه وفكره وضح لي أن الشيخ النبهاني بما قدمه من نتاج فكري – نظما ونثرا – وفي مجتمع تتصارع فيه تيارات مختلفة من الاستعمار الصليبي الحديث المقنع بالحرية والتقدم الحضاري الذي اتخذ من بيروت مركزا لانطلاقه في الشرق العربي . فقد وقف النبهاني يقود حملة عنيدة للدفاع عن الاسلام ورد الافتراءات عنه وقد كان صوت النبهاني هو الظاهر المؤثر وكأنه أمة مجاهدة وحده ، وقد اتخذ من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم سلاحا يدافع به عن الاسلام ضد خصومه ومرشدا للمسلمين ينبههم للاسلام الكامل الذي لا يتأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد تعرض رحمه الله لحملات مضادة عنيفة حاولت عزله من وظيفته وملاحقته وايذاءه حسيا ومعنويا ولكنه لم يهن وبقي صامدا حتى توفاه الله وقد سخر كل فكره وأدبه لخدمة الرسول صلى الله عليه وسلم والكتابة في شؤونه المختلفة فلم يكتب في شؤون أخرى من مجالات الأدب مع مقدرته واجادته حتى انه أوصى بطمس شعره الذي قاله في صدر شبابه يمتدح به بعض شخصيات العصر أمثال السلطان عبد الحميد وابي الهدى الصيادي وأحمد عزت باشا العابد وغيرهم وآثر ألا يروى عنه الا ما قاله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه ظاهرة لم يسبق اليها النبهاني في تاريخ الأدب العربي في مختلف عصوره – فيما أعلم – لهذا ولغيره عددته رائد المدائح النبوية بلا منازع هذا واليك كلمة في هذا الشأن :–

ريادته للمدائح النبوية :

هناك معالم وظواهر مختلفة الاتجاهات تدل على أنه الأديب المجلي في تلك الحلبة ، والشاعر المنفرد في ذلك المجال .. ومنها :–

أولا : قصره أدبه وشعره على شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم :

فالشيخ النبهاني رحمه الله قال قصائد عدة في مدح شخصيات عصره ـ أوضحنا دوافعها عند الكلام على " شعره وفنونه " في الفصل الثاني من الباب الثالث ـ ولكن النبهاني ما ان حقق ما يصبو اليه حتى عاد الى حقيقة شخصيته وفكره فطمس كل ما قاله من أشعار في غير مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار النبهاني الى هذا بقوله " اعلم أنه قد سبق مني قصائد مدحت بها بعض الاكابر من أهل العصر ولم أدونها لانني ان لم أكن آثما بها فلا أحسبها من أعمال البر وكان الحامل عليها الدنيا لا الدين في استعطاف بعض أكابر المسلمين لقضاء حاجاتي ومساعدتهم ، بمهماتي ولم آخذ من أحد منهم جائزة على شيء من ذلك ولست بحمد الله ممن يتخذ الشعر صنعة أو يأخذ عليها الجوائز ، وقد أغناني الله بفضله عن استجداء الناس بالشعر وغيره حيث سهل لي تعالى اسباب الرزق منذ نشأتي ولم يحوجني الى شيء من ذلك اذ أن والدي ، حفظه الله وجزاه عني خير الجزاء تكفل بكفايتي في صغري ومدة مجاورتي في الجامع الأزهر ثم توجهت الى القسطنطينية مرتين أقمت فيها في كل مرة أكثر من سنتين فيسر الله لي مطبعة جريدة الجوائب فكنت آخذ منها في كل شهر عشر ليرات أجرة التحرير والتصحيح ولا أشتغل في ذلك الا نحو ساعتين أو ثلاث غالبا وكان ذلك بطلب من صاحبها أحمد أفندي فارس والحاجة بحيث كان يعدني من اكبر النعم عليه وأظهر الاسف الشديد لخروجي حينما توظفت في الحكومة وقد عرض علي أن أشاركه فيها أو يزيد في أجرتي فلم اقبل مع أنني كنت في مدة اقامتي في القسطنطينية في احتياج الى النفقة فيسرها الله لي بغاية الاعتزاز والاكرام الى ان سافرت منها في المرة الأولى الى العراق بقضاء " كوي سنجق " في ولاية الموصل ثم رجعت وسافرت منها في المرة الثانية سنة ١٣٠٠ هـ حيث عينت برياسة محكمة الجزاء في اللاذقية من سواحل الشام ثم بعد الاقامة فيها خمس سنوات نقلتني الدولة ـ نصرها الله بواسطة [1] من قدّر الله لي الخير على أيديهم بدون طلب ولا علم مني ـ الى رياسة محكمة الحقوق في بيروت ، وذلك في سنة ١٣٠٥ هـ مع زيادة المعاش نحو ضعفيه حيث كان في اللاذقية والقدس [2]

---

(١) أشرنا مرات الى أن هذا التعبير خطأ ، والصواب : بوساطة ، د / سرحان

(٢) لم يذكر القدس اثناء شرحه السابق ولعله نسيها .

١٤٠٠ قرش فصار فى بيروت ٣٥٠٠ قرش ولكنهم بعد نحو عشر سنوات من اقامتى فيها نقصوا معاشات الحكام عموما فجعلوا معاشى ٢٥٠٠ قرش والحمد لله على كل حال ، ولقلة أشغال هذه الوظيفة الهمنى الله الاشتغال بالتأليف الى الآن وقد صار لى فيها تسعة عشر عاما بهذه السنة ١٣٢٤ هـ وفى أثناء هذه المدة عادانى وأذانى بعض أكابر الأشرار فسعوا فى عزلى والمبالغة فى ضررى وتكرر منهم ذلك حتى فى هذه السنة فحمانى الله من شرهم بفضله وكرمه وكرامة لحبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

فان قال قائل ان قصائدك التى ذكرت أنك مدحت بها بعض الاكابر ولم تلتزم فيها الصدق والحق فهى سيئات لا حسنات فى صحيفة أعمالك مرقومة ومثالب لا مناقب فى جملة آثارك مرسومة قلت نعم لو كان القصد منها وصف الممدوحين بحقيقة تلك الأوصاف لكان الأمر كما ذكرت ولكن الشعر صنعة من أدق الصنائع والماهر فيه يجتهد فيه بقدر حذقه فى بهرجة الفاظه والمبالغة فى معانيه وبقدر استطاعته يجتهد فى تحسين صنعته ليظهر المهارة والحذق لا ليخبر بالحق والصدق ومثل هذا يعفى عنه ان شاء الله تعالى ومع ذلك فأنا أقر واعترف بأني لا ورع عندى يحجزنى عن المحارم والشبهات ، ولو كان لما نظمت تلك القصائد فانى لو تحريت فيها الصدق فيما أصف به الممدوحين لكانت من أبرد الشعر وأركه اذ الشعر صنعة لا يحسنها الا الكذب والمبالغة فيه فقد قيل "اكذب به أعذب" اللهم الا أن يكون فى مدح الأنبياء والأولياء والصالحين ولا سيما اذا كان فى مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فانه مهما بالغ الشعراء لا يصلون الى ما يجب له عليه الصلاة والسلام فضلا عن أن يكذبوا ، أما مدائح غيرهم فلا يحسنها الا المبالغة فى الكذب ولخوفى من تبعة تلك القصائد لم أجمعها فى ديوان كعادة الشعراء ولم أذكر شيئا منها فى كتاب من هذه المؤلفات الدينية التى أعدها ان تقبلها الله بفضله من الاعمال الصالحات غير أنى ارجوا ان تكون من المباحات لا من الحسنات ولا من السيئات وهى لا تتجاوز خمس عشرة قصيدة سوى المقاطيع وكلها أو جلها طبعت كل واحدة منها وحدها ولم يكن شىء منها فى مدح أحد من الكفرة ولم أهج أحدا معينا من المسلمين ولا غير المسلمين الا أن يكون ذلك فى القصائد النبوية فى ذم أعدائه صلى الله عليه وسلم (١) وما كان فيها من وصف الخمر

---

(١) اشار الى هذا ايضا الاستاذ ادهم الجندى فى كتابه اعلام الادب والفن جـ ٢ ص٣٤٢

فهو جار على عادة الشعراء والا فوالله الذى لا اله الا هو لم يدخل فمى ولا جوفى فى شىء منها ولا من غيرها من جميع أنواع المسكرات وقد كنت فى صغرى أنظر الى من يقال عنه انه يشرب الخمر كنظرى الى الكفار أو قريبا منهم والحماية حماية الله والحمد لله رب العالمين حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده .

وقد ذكرت هذا البحث هنا لئلا يسيىء الظن بى من اطلع على شىء من تلك القصائد المطبوعة وبالفاتى فيها فيحسبها من الأباطيل التى لا تقال والمثرات التى لا تقال فيقل اقباله على كتبى النافعة فيحرم خيرا كثيرا واحرم انا الاجر الذى يترتب لى على انتفاعه بها " (١) .

ففى ديوانه لم يذكر سوى ما قاله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقصيدة فى مدح الشيخ محيى الدين بن العربى يقول فى شأنها " قد مدحته فى قصيدة ختمت بها ديوان " العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية " ولم اذكر فيه مدحا لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى هذه القصيدة لاعتقادى أن ذلك يرضى الله تعالى ويسر رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٢)

هذا وقد كان تمسك النبهانى بمدائحه النبوية فقط من أشعاره معروفا ومشهورا ، فقد اجتمعت بالشيخ توفيق الطيبى (٣) فى فندق حجار فى سوق الغرب ـ أحد مصايف لبنان ـ فى ١٩٧٤/١١/١٢ م . فسألته عن مدائح النبهانى فقال " " الحاج عبد الهادى عبد الهادى والدعونسى عبد الهادى " معاصر للشيخ يوسف النبهانى .. وقد جمعهما مجلس واحد فى حيفا فأنشد عبد الهادى شيئا من شعر الشيخ يوسف النبهانى ، فقال الشيخ يوسف النبهانى : لا تذكرنى بهذه السيآت .

واجتمعت بالأستاذ أكرم زعيتر سفير الأردن فى بيروت فى ١٩٧٤/٨/١٠ م فقال " سمعت الأستاذ اسعاف النشاشيبى يقول " لولا ضيق أغراض الشعر عند النبهانى

---

(١) اسباب التأليف من العاجز الضعيف ص ٣٩٠ ـ ٣٩٣ .
(٢) الدلالات الواضحات ص ١٤٧ .
(٣) لقد رجانى الشيخ توفيق الطيبى ألا اكتب ضد هذا العلامة أى الشيخ النبهانى والشيخ توفيق الطيبى اشتغل قاضيا فى صفلوحيفا .

لجاز أن يوضع مع شوقي في دبياجته وقوة تعبيره " علما بأن الاستاذ اسعاف النشاشيبي مثل فلسطين في حفل تنصيب شوقي أميرا للشعراء [١] وهو ممن يجلون شوقيا ويعظمون شعره .

واجتمعت بالأستاذ أمين النبهاني ابن عم الشيخ يوسف النبهاني في بيته في دمشق في ١١/١٠/١٩٧٤ م . فقال : انه حضر مجلسا للشيخ يوسف النبهاني وكان من الجالسين صالح محمد من مشاهير عكة وتوفيق حماد من مشاهير نابلس والحاج نصر النابلسي والشيخ الشنقيطي وكان يلبس عمامة طربوشها من حصير ملون وقد حضر الى اجزم ليأخذ احاديث عن الشيخ يوسف النبهاني وقد ذكر السيد توفيق الشيخ يوسف بقصيدة قالها في وصف الخمرة يقول فيها :

" وان رمت فاشدخ رأسها بابن مزنه تريك دموعا مثل در القلائد " [٢]

وقال انه رواها عن السيد عبد الهادي عبد الهادي الذي يشغل وظيفة مستنطق في المحكمة التي يرأسها الشيخ يوسف النبهاني في بيروت وبعد سماع الشيخ يوسف لما قال توفيق حماد أجابه بلهجة الغاضب وقال : اني أوصيت عبد الهادي وغير عبد الهادي الذين يحتفظون بمثل هذه القصائد أن يتلفوها ، واني لا أسامح من يحتفظ بمثل هذه القصائد ولا يحرقها ، لأني قلتها في وقت الشباب فقال السيد توفيق حماد بأن السيد شكيب أرسلان يحتفظ بمثل هذه القصائد ويقول ان للشيخ يوسف بيتا من الشعر لو لم يكن له غيره لكان أمير الشعراء وقد ذكر البيت أمام الشيخ النبهاني ولكن الاستاذ أمين النبهاني لم يحفظه " وقد أشار الاستاذ محمود عويدات البدوي الملثم — الى مثل هذا فقال في ترجمة النبهاني " ترك النبهاني مجموعة من الاشعار النبوية الجامعة بين الفصاحة والبلاغة . والمحسنات البديعة ولو زاول الأدب مع تبحره فيه وتمكنه منه نظما ونثرا — لكانت لأدبنا المعاصر ثروة ضخمة [٣] .

---

(١) " العربية وشاعرها الأكبر " الأستاذ اسعاف الشاشيبي ص ٢٠ .

(٢) نطقه الأستاذ أمين النبهاني — كما نقل الباحث — هكذا " وان عصت فاشدد في رأسها بابن فرنة " ولكنه خطأ وقد أصلحناه ، د / سرحان

(٣) مجلة الاديب البدوي الملثم ص ١٢ عدد يناير ١٩٦٥ ج ١ سنة ٢٤ .

وهذا وقد أشار المقاد الى بعض من أتلفوا شعرهم فى أخر حياتهم من شعراء الجيل الماضى ثم قال معقبا .... وفى هذه القصة بيان آخر لمكان الشعر فى رأى أبناء ذلك الجيل فهو عندهم شىء لا يجمل بالحسيب ولا بالتقى الورع، وقد قيل: ان شاعرا آخر من النابهين فى الجيل الماضى وهو الشيخ على الليثى قد لعن من يطبع ديوانه المخطوط لأنه يخشى حسابه على يد الملكين لا لأنه يخشى حسابه على يد النقاد وانما القدوة عند القوم فى ذلك ما يروى عن الامام الشافعى حيث يقول .

ولولا الشعر بالعماء يزرى ... لكنبت اليوم أشعر من لبيد

وهذا أيضا نظر الى وظيفة الشعر حيث انه يتسع للدعابة والمجون وابتذال الكرامة بالمدح والهجاء لا من حيث انه يعبر عن النفس الانسانية . ويمثل الحياة فى شتى أنواعها وشكولها يستحق من التقويم والتقدير ما تستحقه النفس وتستحقه الحياة " (١)

أما أدبه المنثور فقد قصر أدبه وفكره على شؤونه صلى الله عليه وسلم ولم يكتب فى غيره وتعد كتب النبهانى دائرة معارف محمدية كاملة لأنه لم يدع جانبا فى شؤونه صلى الله عليه وسلم الا كتب فيه وللشيخ النبهانى مؤلفات فى شؤونه صلى الله عليه وسلم تعد مصدرا فى موضوعاتها مثل كتابه " سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين " و " الانوار المحمدية " و " حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين " وغيرهما كما شارك فى بعض المسائل الخلافية فى شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الاستغاثة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بحث هذه المسائل بحثا عميقا ورد على من يمنعون الاستغاثة والزيارة فى كتابه " شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم " وقد قرظ كتابه هذا كبار علماء المسلمين فى مصر والشام والمغرب ذكرهم جميعا فى مقدمة كتابه . كما أنه دافع عن الصحابة فى كتابه " الأساليب البديعة فى فضل الصحابة واقناع الشيعة " وللشيخ النبهانى كتاب جمع فيه كرامات الأولياء سماه " جامع كرامات الأولياء " جمع فيه كرامات ما يقع من ١٣٧٣ وليا فى عصور واماكن مختلفة وقد جعل النبهانى جمعه لكرامات الأولياء زيادة فى قدر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول " .... فكرامات اولياء

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٨٩ ــ ٩٠ .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هى كلها معجزات دالة على صدقه وصحة دينه عليه الصلاة والسلام ، وهذا المعنى هو الحامل لى على تأليفى هذا الكتاب ليكون بمنزلة الذيل لكتابى " حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين " صلى الله عليه وسلم وليس المقصود منه مجرد نقل الأخبار التاريخية والحكايات المروية للتفكه بتلك الكرامات التى أجراها الله على أيدى خواص عبيده من ساداتنا الصوفية " (١) .

ثانيا المجموعه النبهانية :

جمع الشيخ يوسف النبهانى مدائح نبوية كثيرة لاشهر مدلح الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتاب سماه " المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية " وقد رتبها حسب قوافيها على حروف المعجم وقد تكلم النبهانى عن جمعها وما لاقاه من صعوبات فقال " قد اكثر اكابر الاولياء والعلماء وافاضل الشعراء البلغاء سلفا وخلفا من مدحه صلى الله عليه وسلم على أنواع شتى لمقاصد جميلة قصدوها وحاجات جليلة ارادوها فوردوها وكلهم معترف بكمال العجز عن بلوغ ما يليق من المديح بكريم ذاته الشريفة وعظيم صفاته المنيفة وقد وفقنى الله وله الحمد والمنة للحصول على كثير من جواهر مدائحهم النبوية بعد أن بذلت جهدى لاستخراجها من كنوز الكتب والدواوين والمجاميع وطالعت فهارس كتب القسطنطينية ومصر وغيرهما الخطية وغيرها وكاتبت للحصول عليها البلاد البعيدة والقريبة كالحرمين الشريفين والقسطنطينية ومصر والشام وحلب والعراق واليمن والمغرب ونشرت ذلك فى صحف الأخبار حتى حصلت من بحرها الطامى وأفقها السامى على مقادير وافرة من دررها الزاهية ودراريها الزاهرة اخترت منها بحكم الذوق والاجتهاد وما أثبته فى هذا الكتاب البديع ، والمجموعة التى لا أعلم لها نظيرا فى المجاميع ، اعلم أنى قد بذلت جهدى فى تصحيحها حتى جاءت على احسن وجه أمكننى وساعدنى على ذلك تعدد النسخ فى أكثرها ومعرفتى والحمد لله تعالى بجيد الشعر ورديئه فاذا اختلفت النسخ فى بعض الالفاظ أرجح منها ماهو الراجح ولم أتصرف من عندى الا فى الفاظ قليلة لم يمكن تصحيحها على أصلها .. لانفراد نسختها وعدم صحتها فمن وقع له بعد هذا نسخة محققة الصحة ـ كأن تكون بخط مؤلفها ـ ووجدها مخالفة لما هنا فى بعض ألفاظها فليصحح عليها ولو فرض ذلك لا تكون المخالفة الا فى النادر ان كانت ، وربما يكون اللفظ الذى اثبته مثل الاصل وخيرا منه ولا يخفى

أن تداول أيدى النساخ على الشعر يوقع الخلل فى بعض الفاظه ومعانيه لأن جلهم أو كلهم ليسوا شعراء فلا يدرون أوزانه وكثيرا من معانيه . واعلم أنى قد افتتحت هذه المجموعة بنظم الصحابة فيه صلى الله عليه وسلم اهتماما بشأنهم وليكون كلامهم مجموعا فى مكان واحد وقسمته الى قسمين الاول (المراثى) والثانى (المدائح) سوى " بانت سعاد " (فانى ذكرتها فى أول حرف اللام لتكون مع نظائرها فى محل واحد ثم رتبت مدائح من عداهم على حروف المعجم وان كان لى مديح فى حرف اذكره فى آخره وذكرتها مرتبة بحسب أزمانها غالبا بعد افتتاح كل حرف بمديح الائمة الا بوصيرى فالبرعى فالصرصيرى ان كان لهم كلام لأنهم أشهر مداحه صلى الله عليه وسلم وان كان قد أتى من أئمة المشارقة والمغاربة من هو مثلهم أو أعلى نظما من بعضهم كما ستقف على ذلك فى كلامهم ان شاء الله تعالى . ومن هنا تعلم أيها الفاضل ما كابدته فى جمع هذه القصائد وتصحيحها فضلا عن ترتيبها وشرح غريبها (١) .

ومن هذا نلاحظ أن المجموعة النبهانية تعد فريدة فى موضوعها اذ لم يسبق النبهانى أحد فى جمع المدائح النبوية بالكم الذى جمعه ـ فيما أعلم ـ كما أنه قد توصل الى قصائد فى المديح النبوى لم تتوفر لغيره خصوصا المخطوط منها حيث انه أعلن فى صحيفة " ثمرات الفنون " ثلاث مرات والعنوان " اعلان عن القصائد النبوية (" ونص الاعلان " سأجمع مجموعا حافلا من المدائح النبوية انتخبه من غرر قصائد فحول الشعر وقد استحضرت منها الى الآن مقدارا وافرا من الجهات البعيدة والقريبة ولما كانت القصائد النبوية كثيرة لا يمكن حصرها وقلما يخلو منها مسلم فى سائر الاقطار والأعصار اما أن يكون ناظمها أو كاتبها أو حافظها فأرجو من كل من اطلع على اعلانى هذا من المسلمين المحبين للحضرة النبوية أن يمدوا الى يد المساعدة فى ذلك بقدر معرفته واستطاعته وأن يرسل الى ما يقدر للحصول عليه من المدائح النبوية وله الأجر الجزيل والشكر الجميل وانى اتعهد له بكل ما يصرفه من ثمنها أو اجرة نسخها مع أجرة " البوسطة " وان سمحت نفسه بارسال ذلك ان كان ديوانا او مجموعا

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٣١ ـ ٣٢ .

ولو " بالبوسطة " فاني آخذ حاجتي منه وأعيده اليه واذا فقد فعلى الضمان ولا يلزم ارسال شيء من القصائد المأخوذة من الديوان والكتب المطبوعة لأنها موجودة عندي " التوقيع يوسف النبهاني رئيس محكمة الحقوق في بيروت .

هذا وقد نشر هذا الاعلان في مجلة ثمرات الفنون عدد ١٢٣٤ هـ ص ٨ الاثنين ٤ صفر ١٣١٧ هـ ، وأعيد الاعلان في عدد ١٢٣٥ الموافق ١١ صفر ١٣١٧ وفي عدد ١٢٣٧ الموافق ٢٥ صفر ١٣١٧ هـ .

ونظرا للمكانة العلمية والاجتماعية التي كان يحتلها النبهاني في العالم الاسلامي جاءته قصائد كثيرة اختار منها النبهاني ـ حسب معرفته بالشعر ما أثبته في مجموعته هذه .

ولذلك سأعتمد على ما ورد في المجموعة النبهانية من مدائح في كلامنا عن ريادة النبهاني للمدائح النبوية .

والنبهاني بعد اطلاعه الواسع على قصائد كثيرة في المدائح النبوية وتخصصه في هذا اللون من الأدب نظما ونثرا يعترف أن أئمة المديح النبوي هم الامام شرف الدين البوصيري المصري فالامام عبد الرحيم اليمني فالامام يحيى الصرصري البغدادي ، وقد نص على هذا أيضا مظهرا اطلاعه على مدائح غيرهم مقوما كل ما اطلع عليه حيث يقول :

" أعلم أن مدائح النبي صلى الله عليه وسلم هم في كل عصر ومصر كثيرون ولا يحصيهم عد ولا يحيط بهم حد ، ولو جمعت مدائح أهل عصر واحد منهم لبلغت عدة مجلدات ، وكثير منهم نظموا دواوين على أنحاء مختلفة ، وبعضهم التزم في شعره أمورا لا تلزمه كالوتري والطرائفي والفازازي ومن تبعهم كالشهاب أحمد المنيني الشامي فقد نظموها عشرات وعشرينات على حروف المعجم والتزموا أن يكون أول حرف في كل بيت كحرف القافية ، وبعضهم جعل جميع القصيدة حروفا مهملة والبعض جعلها على عدة قوافٍ ، وغير ذلك من تفننات الشعراء فجاءت قصائدهم في الغالب غير سالمة من وصمة التكلف .

أما ائمة هذا الشأن كالامام شرف الدين الأبوصيرى المصرى والامام عبد الرحيم البرعى واليمنى والامام يحيى الصرصرى البغدادى [1] ومن جاء بعدهم كالشهاب محمود الحلبى وجمال الدين بن نباته وبرهان الدين القيراطى وشمس الدين النواجى والحافظ ابن حجر والصفى الحلى وابن مليك الحموى والشيخ عبد العزيز الزمزمى وغيرهم من أفاضل المشارقة والامام لسان الدين بن الخطيب وغيره من أئمة المغاربة الذين عبق بنشرهم نفح الطيب وغير هؤلاء من فحول الشعراء وأئمة الادب وأصحاب المعرفة والاتقان والاذواق السليمة فانهم لم يلتزموا فى قصائدهم سوى جزالة الالفاظ وسهولتها ورقة الأساليب ورشاقتها ودقة المعانى ووضاحتها ولم يراعوا الا مقتضيات الفصاحة والبلاغة كعادة العرب المتقدمين قبل الاسلام وبعده فى اشعارهم وانما حدثت تلك التكلفات بعد ذلك .

---

(١) البوصيرى : ترجم له صاحب الاعلام بما يلى " محمد بن سعيد بن حماد ابن عبد الله الصنهاجى البوصيرى المصرى شرف الدين ابو عبد الله شاعر حسن الديباجيه مليح المعانى نسبته الى بوصير (من اعمال بنى سويف بمصر) أمه منها وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببنى حبنون ومولده فى بهشيم من أعمال البهنساوية له ديوان شعر مطبوع وردت ترجمته فى فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٢٠٥) ، والوافى بالوفيات (جـ ٣ ص ١٠٥ ــ ١١٣) .

وعبد الرحيم البرعى : منسوب الى برع (كعمر) جبل بتهامه وهو شاعر متصوف من سكان النيابتين فى اليمن أفتى ودرس راجع الاعلام جـ ٤ ص ١١٨ هدية العارفين جـ ١ ص ٥٥٩ هذا وقد تضاربت الآراء حول العصر الذى عاش فيه فقد ذكر صاحب معجم المطبوعات أنه عاش فى القرن الخامس الهجرى (جـ ١ ص ٥٥٠) وذكر ذلك الشيخ يوسف النبهانى فى عدة مواضع من المجموعة النبهانية منها (جـ ١ ص ١٠) وذكر صاحب " ملحق البدر الطالع " ص ١٢٠ أنه توفى عام ٨٠٣ هـ وقد حقق الأستاذ حامد حفنى داود وفاته فرجح أن تكون فى عام ٨٠٣ هـ وقد اكد كل من الشيخ زاهد الكوثرى والأستاذ أحمد خيرى بك هذه الرواية راجع الرسالة (جـ ١٩ ص ٣٧٤) .

ويحيى الصرصرى : هو " جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام البغدادى الوزير الحنبلى اللغوى المعروف بالصرصرى الملقب بسيد الشعراء (هدية العارفين جـ ٢ ص ٥٢٣) ووردت ترجمته أيضا فى (النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٦) .

نعم قد نظم الامام الصرصرى قصائد التزم فيها ما لا يلزم ، ومنها قصيدة جمع فيها فى كل بيت منها حروف المعجم وأخرى على عدة قوافٍ فتأخر فيهما عن باقى قصائده وكثير من المشارقة أكثروا — مع جودة المعانى والألفاظ — من المحسنات البديعية فى أشعارهم بخلاف المغاربة فقد أقلوا منها وجعلوا محط انظارهم البلاغة والفصاحة وهما اذا اجتمعتا مع المحسنات البديعية فياحبذا هى والا فلا خير فيها .

وقد انتخبت فى هذه المجموعة كل ما وقفت عليه من غرر قصائدهم النبوية ومدائحهم المصطفوية وأخذت من ديوان الصرصرى اكثره ولم ترك من ديوان البرعى الا ما لم يقع عليه اختيارى ، وهو أقل القليل أما الامام الا بوصيرى والنواجى فلم أترك لهما شيئا وكأنى لم أترك شيئا من ديوان الشهاب محمود المسمى " أهنا المنائح فى أسنى المدائح " لقلة ما تركته أمنه وكله فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ووقع لى منه نسختان ونسخة من ديوان النواجى " المطالع الشمسية فى المدائح النبوية " ومن ديوان الأبوصيرى نسخة ، ومن ديوان الصرصرى ثلاث نسخ مخطوطة ومن ديوان البرعى نسخة خطية سوى المطبوعة وهذه الثلاثة اكثرها مدائح نبوية وربما أذكر لغيرهم ما هو أقل جودة مما تركته لهم لقلة مدائح ذلك الغير ، أما الوترى ومن شاكله ممن نظموا دواوينهم على الحروف معشرات وغيرها فانى لم أكثر الأخذ من كلامهم لشهرته ولم أذكر شيئا من مدائح التخميس والتشطر لانى أرى بقاء الشعر على حالته الأصلية التى اختارها ناظمه خيرا من تخميسه وتشطيره فانه يقع بذلك الخلل فى فصاحته وبلاغته وتحصل التفرقة فى معانيه ومناسباتها ، نعم ان كان التخميس أصليا كالمزدوجات يكون حسنا ولا يترتب هذا المحذور ، وكذلك لم أذكر فيه شيئا من الموشحات ، ولعلى أجعل لهذه المجموعة ذيلا [1] أذكر فيه شيئا من ذلك ومما يفوتنى ذكره فيها من المدائح التى ربما أطلع عليها بعد طبعها أو اطلعت عليها ولم أختر ادخالها فيها فبقيت عندى الى أن ييسر الله غيرها فأجعلها من التخاميس والتشاطير والتواشيح ذيلا لها ان شاء الله تعالى [2] .

---

(١) ذكر الموشحات فى نهاية الجزء الرابع من المجموعة النبهانية .

(٢) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ١٥ — ١٧ .

هذا وقد اعتنى الشيخ النبهاني بترتيب مجموعته فجعل لها فهرسا وألحق بها رسالة سماها " الخلاصة الوفية في رجال المجموعة النبهانية ومقدار ما لكل واحد منهم فيها من المدائح النبوية " حيث يقول وقد ذكرت الصحابة منهم بحسب ذكرهم فيها من غير ترتيب وأرخت وفاة من ذكر وفاته منهم ابن الاثير في كتاب أسد الغابة في أسماء الصحابة " أما غير الصحابة فكما رتبت مدائحهم في المجموعة على حروف المعجم رتبت ذكرهم هنا على الحروف بحسب ما اشتهروا به من أسمائهم أو القابهم أو نسبتهم لتسهيل مراجعة من يراد مراجعة اسمه منهم ، وأرخت وفاة من استحضرت تاريخ وفاته منهم واتفق ذكر الامام البوصيري وهو امام هذا الشأن بحسب هذا الترتيب في أولهم وذكر جامعها الفقير يوسف النبهاني في آخرهم وهو اتفاق حسن رحمهم الله أجمعين وحشرني في زمرتهم تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وقد اطلقت لفظ القصائد على ما بلغ السبعة أبيات [1] فأكثر والمقاطيع على ما دون ذلك والله الهادي وعليه في كل الأمور اعتمادي " [2] .

وقد أورد من شعر الصحابة ٤٦١ بيت لأربعة وثلاثين صحابيا . أما غير الصحابة فقد ذكر منهم ١٦٠ شاعر ذكر أسماءهم وتاريخ وفاة كل واحد منهم وعدد الابيات التي استشهد له بها في كل حرف وتسعة عشر شاعرا مجهولين لا تعرف أسماؤهم وقد ذكر الشيخ النبهاني أن مجموع الأشعار لغير الصحابة في مجموعته بلغ ٢٤٦٠٨ بيت وتقدم أن مدائح الصحابة بلغت ٤٦١ بيت فيكون جملة ما اشتملت عليه هذه المجموعة من المدائح النبوية للصحابة فمن بعدهم ٢٥٠٦٩ بيت ويكون مجموع الشعراء الذين ذكر لهم أشعارا في هذه المجموعة ٢١٣ شاعرا .

ويقول الشيخ النبهاني " واعلم أن هذه المجموعة مختصة بمن عدا الأحياء من أهل العصر من مداحه صلى الله عليه وسلم ، وأما الأحياء الموجودون الآن فلم يذكر فيها لأحد منهم سوى جامعها شيء وان في نيتي أن أذكر هم مع غيرهم في ذيل المجموع الذي

---

(١) كذا كتب النبهاني وهو تعبير غلط ، والصواب : السبعة الأبيات أو سبعة الأبيات والناس جميعا يقعون في هذا الغلط الآن ، د / سرحان .

(٢) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٤ .

سأجمعه ان شاء الله تعالى فمن عنده شيء من فصيح المديح النبوى له أو لغيره ... فليرسله الى وله الأجر والشكر والحمد لله رب العالمين " (١)

بعد كل هذا يتبين لنا مدى اهتمام وعناية الشيخ النبهانى بشعر المدائح النبوية وتعلقه بالرسول صلى الله عليه وسلم ومدى الجهد الذى بذله والصعوبات التى لاقاها حتى خرجت هذه المجموعة فريدة فى نوعها ، ولا أعلم أن أحدا غير النبهانى جمع المدائح النبوية كما جمعها الشيخ يوسف وقيد شرحها شرحا وافيا يدل على مقدرته اللغوية وفهمه لمعانى ومقاصد مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدى اهتمامه بتيسير المعانى للقارىء لترغيبه فيها .

وقد نبه الشيخ النبهانى لهذا فقال " بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . وصلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فاعلم أنى رأيت أن تمام النفع فى هذه القصائد النبوية والمدائح المصطفوية موقوف على شرح غريب ألفاظها اللغوية لأن اكثر الناس ليس لهم علم بالشعر ومعانيه وغريبه وحوشيه فابتدرت الى شرح ما يحتاج منها الى الشرح مقتصرا على مالابد منه من الغريب بحيث يغنى ذلك عن وضع شرح مستقل لكل قصيدة منها عند الذكي اللبيب واعتمدت من اللغة على لسان العرب والقاموس والمصباح ومختار الصحاح ، وربما راجعت بعض شروح بانت سعاد وهمزية الامام البوصيرى وبردته ، ولم أطلع على شرح لغيرها من قصائد هذه المجموعة وسميت هذه التعليقة — التى هى بالقبول ان شاء الله تعالى حقيقة — " تقريب الغريب ، من مدائح الحبيب " صلى الله عليه وسلم ولم أكرر لفظ قوله كذا مع كل لفظ كما اعتاده مؤلفو الحواشى بل وضعت أعدادا فى أواخر الأبيات المشتملة على الألفاظ المراد تفسيرها وذكرت مثل تلك الاعداد فى الحاشية لتسهل مراجعتها (٢) .

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ١٦ .
(٢) المجموعة النبهانيه جـ ١ ص ٣٣ .

هذا وقد ساعد النبهاني بمجموعته على نهوض " المدائح النبوية " حيث أصبحت مجموعته مصدرا لها لا يستغني عنها الباحث ، ويبدو أن النبهاني استطاع أن يصل الى قدر وافر منها لم يتيسر لغيره فساعد الباحثين على استكمال ما فاتهم فهذا محقق ديوان البوصيري الأستاذ محمد سيد الكيلاني وجد في لامية البوصيري المثبته في المجموعة النبهانية خمسين بيتا زيادة عما في مخطوطة الديوان فأثبتها عند طبعه (١) وهذا الدكتور سامي الدهان يتحدث عن عدم انقطاع المدائح النبوية بعد حسان بن ثابت وأن الشعراء اتجهوا الى الدين والى النبي كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ، ونالتهم المصائب والكوارث ، وفي الهامش يوصي بالرجوع الى المجموعة النبهانية لمعرفة ما قاله الشعراء من المدائح النبوية بعد حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث يقول " الذين يريدون أن يعرفوا ما كان للمدائح النبوية من ثروة ضخمة كبيرة يحسن أن يعودوا الى كتاب " المجموعة النبهانية في المدائح النبوية " لاسماعيل النبهاني (٢) كما أن الدكتور محمد كامل الفقي جعل " المجموعة النبهانية " مصدره في الكتابة عن المدائح النبوية (٣) هذا وستبقى المجموعة النبهانية مصدرا غزيرا وخصبا لكل باحث في المدائح النبوية حيث انها تيسر له الاطلاع على قصائد كثيرة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لمختلف الشعراء الذين لا يتسنى له الاطلاع على مدائحهم الا بشق الأنفس ، ذلك لأنهم لم يشهروا اما لبعدهم عن ميادين الظهور وانقطاعهم للعبادة أو لبعدهم عن أبواب السلاطين والحكام ، لذلك بقوا بعيدين عن الشهرة والظهور فبقيت قصائدهم يبتدأولها أمثالهم من المتصوفة وتقرأ للبركة ، وفي حلقات الذكر الى أن جمعها الشيخ النبهاني من جميع الاقطار الاسلامية ولم يكن جهده فيها أنه أثبتها في مجموعة فقط بل كثيرا ما كان يصحح القصائد على عدة نسخ من المخطوط كما في قصائد الاملم الصرصري .

---

(١) ديوان البوصيري ص ٤٧ .

(٢) المديح للدكتور سامي الدهان ص ٨٣ اخطأ الدكتور الدهان في مؤلف المجموعة النبهانيه والصحيح انه يوسف بن اسماعيل النبهاني .

(٣) الاستاذ الدكتور محمد كامل الفقي استاذ في كلية اللغه العربيه له مذكرات في المدائح النبوية لطلبة الدراسات العليا قسم الادب والنقد عام ١٩٧٣ وقد حاولت الاطلاع عليها فلم استطع لان نسخها فقدت ولا يحتفظ المؤلف لنفسه بنسخة .

يقول النبهانى فى ذكره : لهمزية الامام الصرصرى التى عارض بها همزية الامام البوصيرى : " قال الامام جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصرى المراقى الضرير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ شهيدا . قتله التتر فى بلدة صرصر وقد صححتها كجميع قصائده الموجودة فى هذه المجموعة على ثلاث نسخ من ديوانه اثنتان منهما قديمتان احداهما لعلها كتبت فى عصر المؤلف " (١) .

وفى تقديمه لهمزية الامام البرعى يقول : " وقال الامام عبد الرحيم البرعى اليمنى رحمه الله تعالى فهو من أهل القرن الخامس وقد صححتها كسائر قصائده الموجودة فى هذه المجموعة على نسختين من ديوانه احداهما بخط القلم ووجدت بعض قصائده فى بعض المجاميع فصححتها عليها أيضا " (٢) .

وفى تقديمه لهمزية الشهاب محمود الحلبى يقول : " وقال الشهاب محمود الحلبى رئيس ديوان الانشاء بالشام المتوفى سنة ٧٧٥ هـ رحمه الله تعالى وصححتها على نسخة من ديوانه مقابلة على نسختين من مكاتب القسطنطينة المحمية احداهما فى مكتبة جامع أيا صوفيا والاخرى فى مكتبة عاشر أفندى رئيس الكتاب " (٣) .

وهكذا فعل مع سائر شعراء المجموعة النبهانية .

وكل هذا يدلنا على جهد النبهانى رحمه الله فى تمحيص وتنقيح قصائد مجموعته وأنه لم يذكرها كما وجدها بل رجع الى نسخ أخرى ، واذا تصورنا الوقت الذى طبعت فيه هذه المجموعة وهو عام ١٣٢١ هـ وهو وقت مبكر حيث بدأت تتوافر وسائل النهضة الأدبية الحديثة أدركنا الجهد العظيم الذى بذله النبهانى رحمه الله مع مشاغله الأخرى حتى أخرج هذه المجموعة النادرة ووضعها بين أيدى الباحثين .

ومن آثار المجموعة النبهانية على الأدب العربى أنها يسرت للباحث الاطلاع على المعارضات والموازنات التى حدثت لأشهر القصائد فى المدائح النبوية مثل قصيدة

---

(١) المجموعة النبهانيه جـ ١ ص ١١٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٩ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٢ .

" البـردة " لكعب بن زهير رضـى الله عنه الـتى أنشدها فـى حضرة الرسـول صلى الله عليه وسلم ـ ومطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ∴ متيم أثرها لم يفـد مكبـول

فقد ذكر ثلاثا وعشرين قصيدة فى موازنتهـا لثلاثة وعشرين شاعرا وهم البوصيرى والصرصرى ، والأبيوردى ، والزمخشرى ، وعبد المحسن التنوخى ، والشهاب المرازى ، وأبو حيان ، وابن سيد الناس ، وأبو الحسن التميمى ، وابن نباته ، وابن جابـر ، والقيراطى ، والزمردى ، وعز الدين الموصلى ، وابن أيبك والفيروز ابادى ، وابن ظهيرة ، والقلقشندى ، والنواجـى ، والبهاء الباعونى ، وابن مليك ، والعارف النابلسـى ، والنبهانـى .

وبعد جمع هذه القصائد وتنقيحها عملا أدبيا رائدا فى موضوعـه وهذه القصائد كافية لعمل فنى أدبى يقدم كاطروحة لاعلى الدرجات العلمية .

ومما يزيد فى أهمية المجموعة النبهانية فى الأدب العربى أن الشيخ النبهانـى قد شرحها فى الهامش شرحا وافيا ولهذا الشرح أهميـة قصوى .

ذلك أن الشيخ النبهانى صاحب المدائح النبوية الكثيرة كان ذا مقدرة كافيـة على فهم المدائح النبويـة ومقاصد شعرائها خصوصا أن جميعهم صوفيون لهم رموزهم وعباراتهم الخاصة بهم التى لا يعرفها تمام المعرفة الا من شرب من مراشف الكـأس التى شربوا منها ونهل من ذلك النبع الذى ارتووا منه .. أما بردة البوصيرى فلم يـرد من موازناتها فى المجموعة النبهانية سوى معارضـة ابن معتوق ـ المتوفى سنـة ١٠٨٧ هـ ـ التى مطلعها :

لا يـر فى الحب يا أهل الهوى قسمى ولا وفت للملا ان خنتكـم ذممـى
وان صبوت الى الاغيار بعدكـم فلا ترقت الى هاماتها همـمـى (١)

---

(١) المجموعة النبهانيه جـ ٤ ص ١٥ ـ ١٦ .

ويبدو أن بردة كعب بن زهير رضى الله عنه قد حظيت باهتمام شعراء المدائح النبوية أكثر من بردة الامام البوصيرى رحمه الله ولعل من أسباب ذلك أن كعب بن زهير هو أحد الصحابة الاجلاء وأنه أنشدها فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم وأن الرسول اجازه ببردته التى كان يلبسها عند انشادها .

كل هذا كان فى اليقظة أما بردة الامام البوصيرى فمن أسباب شهرتها رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام ، ومسحه على الجزء المثلوج من جسم البوصيرى وشفاؤه وأما علة تسميتها البردة فهناك أسباب كثيرة غير متفق عليها ذكرها محقق ديوان البوصيرى (١) ، ولعل من أسباب شهرة بردة كعب بن زهير رضى الله عنه ـ أيضا ـ أن من عارضوها أو وازنوها كانت قصائدهم على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة ـ لأن كعبا قالها فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم أما البوصيرى فقد قالها فى النصف الثانى من القرن السابع فجاءت موازناتها على مستواها ، ولما كان اختيار النبهانى لقصائد مجموعته على أساس الجودة أكثر من موازنات بردة كعب بن زهير رضى الله عنه .

وقد ختم النبهاني مجموعته فى المدائح النبوية بقوله : " يقول جامعها الفقير يوسف النبهانى ـ عفا الله عنه ـ الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات قد تمت بعونه تعالى وحسن توفيقه هذه المجموعة الفريدة على أكمل وجه قدرت عليه بعد تحمل المشقات العظيمة فى جمعها واتقان وضعها وتصحيح طبعها حتى جاءت بالاتفاق سيدة المجاميع على الاطلاق ، ولا شك أنه لم يجمع الى الآن مجموعة فى المدائح النبوية مثلها او قريب منها من وجوه كثيرة لا تخفى على الخبير ، والله ولى التيسير ، وقد اشتملت على ٢٥٠٦٩ بيت وعدد رجالها ٢١٣ رجل وكان تمام جمعها وطبعها فى ربيع الأول ١٣٢١ هـ" (٢) .

ثالثا : تفوقه على ائمة المديح النبوى :

أ ـ كثرة مدائحه النبوية :

ذكر الشيخ النبهانى رحمه الله فى عدة مواضع من مقدمة مجموعته أن أئمة المديح

---

(١) ديوان البوصيرى ص ٢٨ ـ ٣١ .
(٢) المجموعة النبهانيه جـ ٤ ص ٤٦٧ .

النبوى هم الامام البوصيرى فالامام البرعى فالامام الصرصرى [١] كما نص على أن امام المديح النبوى هو الامام البوصيرى [٢] ، ولا شك أن النبهانى لم يعتمد على الترتيب الزمنى لكل منهم لأن الامام البوصيرى توفى سنة ٦٩٦ هـ والامام الصرصرى توفى سنة ٦٥٦ والامام البرعى توفى فى القرن الخامس الهجرى أو فى القرن التاسع الهجرى ـ كما تقول بعض الروايات ـ ولو اعتمد على الترتيب الزمنى لكانت أولويتهم كالآتى : الامام البرعى فالامام الصرصرى فالامام البوصيرى ، ولكنه اعتمد على الجودة أساسا للمفاضلة بينهم .

ولنعد الى مدائح كل امام منهم فنقول :ـ

الامام البوصيرى : (٦٠٨ ـ ٦٩٦ هـ) .

ذكر النبهانى رحمه الله فى مجموعته من مدائح الامام البوصيرى عشر قصائد ـ مجموع أبياتها ١٦٢١ بيت [٣] ، وبعد البحث فى ديوان الامام البوصيرى وجدت له بعض القصائد فى المديح النبوى لم يذكرها النبهانى فى مجموعته ، وهى القصيدة التى مطلعها :ـ

مدح النبى أمام الخائف الوجل ... فامدحه مرتجلا او غير مرتجل [٤]

وعدد أبياتها عشرة أبيات .

والقصيدة التى مطلعها :

يارب صل على المختار من مضر ... والانبيا وجميع الرسل ما ذكروا [٥]

وعدد أبياتها تسعة وثلاثون بيتا :

والقصيدة التى مطلعها :

محمد أشرف الاعراب والعجم ... محمد خير من يمشى على قدم [٦]

---

(١) راجع المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٣٢ هـ ١٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .
(٣) المجموعة النبهانية جـ ١ ص ٥ .
(٤) ديوان البوصيرى ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٥) الديوان ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ .
(٦) الديوان ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

وعدد أبياتها ستة عشر بيتا

وللقصيدة التى مطلعها :

الصبح بدا من طلعتـــــه والليـل دجا من وفرتـــــه [١]

وعدد أبياتها ثمانية أبيات .

ونلاحظ أن مجموع الأبيات التى لم ترد فى المجموعة النبهانية هى ١٠ + ٣٩ + ١٦ + ٨ = ٧٣ بيتا فيصبح مجموع ما للامام البوصيرى فى المدائح النبويـــة هو ١٦٢١ + ٧٣ = ١٦٩٤ بيت .

الامام البرعسى :

له ديوان مطبوع طبعه محمد على صبيح بمصر وكذلك طبعته دار العهـــد الجديد للطباعة بمصر وهى التى اعتمدنا عليها وقد ذكر النبهانى رحمه الله فى مجموعته أن مجموع ما للامام البرعى من المدائح النبوية عشرون قصيدة ومربعة ومقطوعة . ومجموع أبياتها ١٠٢٩ بيت [٢] وبعد مراجعة ديوان الامام البرعى وجدت له عدة قصائـــد فى المديح النبوى لم تذكر فى المجموعة " النبهانية " وهى مخمس مطلعـــه :

بمحمد خطر المحامد يعظـــم وعقود تيجـان القبول تنظـــم [٣]

وعدد الأبيات ثمانية وسبعون بيتا وقولـه :

من قصيدة مطلعها :

يا صاحب القبر المنير بيثـــرب يامنتهى أملى وغـاية مطلبـــى [٤]

وعدد الأبيـات ٣٩ بيتا .

وقصيدة مطلعهـا :

يارب صل على النبى المجتبـــى ما غردت فى الايك ساجعة الربـا [٥]

---

(١) الديوان ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ وفرته الشعر المجتمع على الرأس او ما سال علـــى الاذنين منه او ما جاوز شحمة الاذن .

(٢) خطر المحامد اى قدرها ومنزلتها الديوان ص ٤٧ .

(٣) الديوان ص ٦٣ ــ ٦٥ .

(٤) الديوان ص ٦٥ ــ ٦٧ .

(٥)

وعدد الأبيات ١٧ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

أفي نيابتي برع تقيم ... وقد رحل الأحبة يا ند يم (١)

وعدد الأبيات ٤٢ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

الحب مسألة بغير جواب ... فاذا دعوت دعوت غير مجاب (٢)

وعدد الأبيات ٤٥ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

أرياح نجد تمس الهابا ... وتقطعي طرق الحجاز ذهابا (٣)

وعدد الأبيات ٢٧ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

لاقيت يانفس حقا ما حكى الحاكي ... فامضي لشأنك اني لست الحاك (٤)

وعدد الأبيات ٥١ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

صدوا عن الصب الكئيب وعرضوا ... والهجر أطول ما يكون وأعرض (٥)

وعدد الأبيات ٣١ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

دمى طلل بين الطلول بحاجر ... فلا تعجبوا من عبرة بمحاجر (٦)

---

(١) الديوان ص ٧٩ ـ ٨٢ نيابتي /اسم بلدة في اليمن يسكنها الشاعر اسمها النيابتين .
(٢) الديوان ص ٨٢ ـ ٩١ .
(٣) الديوان ص ٩١ ـ ٩٢ .
(٤) الديوان ٩٠ ـ ٩٦ .
(٥) الديوان ص ٩٧ ـ ٩٩ .
(٦) الديوان ص ٩٩ ـ ١٠٢ الحاجر الارض المرتفعة ووسطها منخفض وما يمسك الماء من شفه الوادي محاجر جمع محجر وهو من العين ما دار بها بيدا من البرقع وما يظهر من نقابها .

وعدد الأبيات ٤٥ بيتا .

وقوله فى قصيدة مطلعها :

حروف معان أو عقود جواهر تحاكى مصابيح النجوم الزواهر (١)

وعدد الابيات ٤٣ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

هى العيس توليها الحنين فتسعد وتزجرها نحو الحبيب فتصعد (٢)

وعدد أبياتها ٤٤ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

هم الأحبة ان جاروا وان عدلوا فليس لى معدل عنهم وان عدلوا (٣)

وعدد أبياتها ٣٧ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

قف بذات السفح من اضم وانشد السارين فى الظلم (٤)

وعدد أبياتها ٤٨ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

ابنى دونك عبرتى وتنهدى كمدا عليك فكم أعيد وأبتدى (٥)

عدد أبياتها ٣٣ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

مثل لعينك خدرا فى الحمى ضربا وانشد فؤادا مع الأحباب مغتربا (٦)

---

(١) الديوان ص ١٠٣ ـ ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ١٦٣ ـ ١٦٧ الاسعاد المساعدة بالبكاء وكان من عادة النساء فى الجاهلية .

(٣) الديوان ١٦٧ ـ ١٦٩ .

(٤) الديوان ص ١٧٣ اضم جبل والوادى الذى فيه المدينة المنورة يسمى القناة ومن اعلى منها عند السير الشظاه ثم ما كان اسفل ذلك يسمى اضما .

(٥) الديوان ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٦) الديوان ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .

وعدد أبياتها ٤٠ بيتا .

وقصيدة مطلعها :

ياراحلين الى منى بقيادى هيجتمو يوم الرحيل فؤادى [١]

وعدد أبياتها ١٥ بيتا .

ومجموع ابيات هذه القصائد = ١٠٨٣ بيت ولو أضفنا ماله من الأبيات في المجموعة النبهانية وهو ١٠٢٩ بيت يصبح مجموع أبيات المدائح النبوية للامام البرعي هو ٢١١٢ بيت .

الامام الصرصري [٢] ٥٨٨ـ ٦٥٦هـ :

لا يوجد ديوان مطبوع للامام الصرصري فقد ذكر الأستاذ خير الدين الزريكلي صاحب كتاب "الاعلام" أن له ديوان شعر مخطوطا صغيرا ومنظومات في الفقه وغيره ومنها الدرة اليتيمة والحجة المستقيمة مخطوط وهي في الفقه الحنبلي وتبلغ ٢٧٧٤ بيت شرحها محمد بن أيوب التاذفي في مجلدين و " المنتقى من مدائح الرسول " مخطوط ، و " عقيدة " مخطوطة . وقصيدة في كل بيت منها حروف الهجاء كلها أولها

" أبت غير شج الدمع مقلة ذي حزن " [٣]

وترجم له صاحب النجوم الزاهرة فقال " ..... ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد لا تدخل تحت الحصر كثرة ، " وقد قيل ان مدائحه في النبي صلى الله عليه وسلم تقارب عشرين مجلدا " [٤] وترجم له صاحب " البداية والنهاية " فقال " .... معظم شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وديوانه في ذلك مشهور معروف غير منكر .... واما مدائحه في رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال انها تبلغ عشرين مجلدا وما اشتهر عنه أنه مدح أحدا من المخلوقين من بني آدم الا الأنبياء [٥] .

---

(١) الديوان ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢) الصرصري " جمال الدين ابو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام البغدادي الضرير الحنبلي اللغوي المعروف بالصرصري الملقب بسيد الشعراء .

(٣) الاعلام جـ ٩ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ الطبعة الثانية .

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٦

(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١١ .

وقد أشار الشيخ النبهاني الى أنه أثبت في مجموعته من ديوان الصرصري اكثره لذلك نقرر أن ما ورد للامام الصرصري من قصائد في المجموعة النبهانية هو ما نعول عليه الآن لعدم توفر ديوانه بين أيدينا .

وقد ذكر النبهاني للامام الصرصري ستين قصيدة مجموع أبياتها ٣٠٦٣ بيت وهو اكثر شعراء المجموعة النبهانية شعرا (١) .

ومن هنا نلاحظ أن اكثر أئمة المدائح النبوية شعرا في الرسول صلى الله عليه وسلم هو الامام الصرصري ويليه الامام البرعي وأخيرا الامام البوصيري ... أما الشيخ النبهاني فان عدد أبيات ديوانه المسمى " العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية " ٤٨٠٠ بيت ، وهي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أو في الدفاع عنه وتمجيده سوى قصيدة واحدة في مدح الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه بلغت واحدا وثلاثين بيتا فاذا أنقصناها من الديوان يصبح مجموع أبياته الخالصة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ٤٧٦٩ بيت ، وعليه يعد الشيخ النبهاني رحمه الله اكثر أئمة المديح النبوي شعرا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

ب ـ طول النفس :

يعد طول النفس للشاعر في القصائد ميزة حسنة اذ يعبر عن مقدرته الشعرية ، وثروته اللغوية ويدل على تشبعه بالموضوع الذي يعبر عنه وتمكنه منه والشعراء الذين نظموا في المدائح النبوية تمتاز قصائدهم بطول النفس اجمالا لانهم وجدوا في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل معاني المديح بالاضافة الى أن عاطفتهم الدينية التي بها أقدموا على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم عاطفة صادقة بعيدة عن المادة واغراءاتها التي كثيرا ما تؤثر على صدق العاطفة واخلاصها للفكرة مما يشوه العمل الأدبي ، ولهذا كان الشاعر يقدم على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تملأت عاطفته بحبه وتهيأت شاعريته للقول فيه مختارة ودون اكراه ولا ينهى شاعر المدائح النبوية مديحه الا بعد أن يشعر بالارتياح وذهاب المعاناة العاطفية التي هيأته للقول .

---

(١) المجموعة النبهانيه جـ ١ ص ١٢ .

وبأنه قد قال كل ما يستطيع قوله ، ولذلك كان فى طول النفس فى المدائح النبوية دلالة على قوة الشاعر التعبيرية والعاطفية ، وأني له أن يقول قصيدة من مئات الأبيات وبدونهما .

وقد لاحظت خلال دراستى للمدائح النبوية أن النبهانى كان طويل النفس فى قصائده التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل خاص أما قصائده التى قالها لأغراض دنيوية فى مدح شخصيات عصره فكان طول النفس فيها بدرجة أقل .

وقد تهيأت للنبهانى رحمه الله مؤهلات النفس الطويل فى المدائح النبوية فمقدرته التعبيريه وثروته اللغوية مشهود له فيهما وهما يتبادران للذهن عند قراءة قصيدة واحدة من شعره ، أو متابعته فى مناقشته لمسألة خلافية وما كثرة الصور والتشبيهات فى مدائحه الا لتمكنه من التعبير عن عاطفته بصور محسوسة وملموسة .

والنبهانى له قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهى المعروفة باسم " طيبة الغرا فى مدح سيد الأنبياء " بلغت ألف بيت من البحر الخفيف وقد عارض بها همزية الامام البوصيرى رحمه الله وقصيدة "سعادة العباد فى موازنة بانت سعاد" التى عارض بها قصيدة البردة لكعب بن زهير رضى الله عنه .

وأبياتها أربعة وأربعون ومائة بيت كما سبق .

وقصيدة القول الحق فى مدح سيد الخلق " صلى الله عليه وسلم : وقد بلغت ثلاثة عشر ومائة بيت .

وله موشح فى مدحه صلى الله عليه وسلم عارض به الموشحات الأندلسيه السينيات وقد بلغت أبياته بيتين ومائة بيت .

وله موشح آخر بلغت أبياته بيتن ومائة بيت .

والقسم الثالث من ديوانه جعله فى القصائد المطولات يقول فى توضيح هذه القصائد " فى القصائد المطولات التى وقع فيها مع مدحه صلى الله عليه وسلم الرد على أعدائه

اللئام من الكفرة وجهله الاسلام " [١] والقسم الثالث يتكون من اربع قصائد الاولى " الرائية الكبرى فى الكمالات الالهية والسيرة النبوية ووصف الملة الاسلامية والملل الاخرى وأبياتها خمسة وعشرون وسبعمائة بيت . والثانية " الرائية الصغرى فى ذم البدعة ومدح السنة الغراء وأبياتها خمسون وخمسمائة بيت . والثالثة : قصيدة بائية فى نصرة الامام السبكي والرد على ابن تيمية . وقد كتب الشيخ النبهانى ملاحظة قدّم بها للقصيدة جاء فيها " ..... وأنا من المحبين له رضى الله عنه لشدة محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاماته عن شرفه المحمدى بتأليفه كتاب " شفاء السقام فى زيارة خير الانام عليه الصلاة والسلام " الذى رد فيه على ابن تيمية وغيره من مبتدعة الاسلام ، فرد عليه جماعة من أتباعه نظما ونثرا ورموه بسهام المذام فانتصرت له رضى الله عنه فى كتابى " شواهد الحق " وردت على نحورهم تلك السهام محبة فى الحق وخدمة لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام . [٢]

وبهذا نستدل على أن القصيدة كتبت فى مسألة تتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وفيها تعظيم ومدح له صلى الله عليه وسلم .

وقد بلغت ثلاثة وخمسين بيتا ومائة بيت [٣]

والرابعة : فى مدح الشيخ محيى الدين بن العربى . وقد استبعدت أن تكون من المدائح النبوية الخالصة .

هذا مجمل المدائح النبوية للنبهانى ولم اذكر المولد النبوى ولا التخاميس السبعة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نظم أسماء الرسول ولا أرجوزته فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولا المعشرات التى نظمها على أحرف الهجاء لكل حرف عشرة أبيات ولا المقاطيع والقصائد التى كتبها على ظهر مؤلفاته والذى استشهدت به هو القصائد البارزة فى مدائحه النبوية .

---

(١) الديوان ٢٩١ .
(٢) الديوان ص ٤٠٣ .
(٣) الديوان ص ٤٠٤ ـ ٤١٩ .

أما المدائح النبوية المطولة النفس التى جاوزت المائة البيت لدى أئمة المديح النبوى فهى لدى الامام البوصيرى :

أولا: همزيته المشهورة وعدد أبياتها ستة وخمسون وأربعمائة بيت .

ثانيا : قصيدتاه من قافية الباء ومطلع الأولى :

وأفاك بالذنب العظيم المذنب خجلا يعنف نفسه ويؤنب (١)

وعدد أبياتها عشرة ابيات ومائة بيت .

ومطلع القصيدة الثانية :ـ

بمدح المصطفى تحيا القلوب وتغتفر الخطايا والذنوب (٢)

وعدد ابياتها خمسة أبيات ومائة بيت .

ثالثا : قافية اللام وله فيها قصيدتان الأولى " ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد ومطلعها :

الى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول (٣)

وعدد أياتها اربعة أبيات ومائتا بيت .

والثانية مطلعها :

جاء المسيح من الاله رسولا فأبى اقل العالمين عقولا (٤)

وعدد أبياتها اثنان وتسعون ومائتا بيت .

رابعا : قافية الميم وله فيها قصيدة البردة المشهورة التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم (٥)

وعدد أبياتها ستون ومائة بيت .

---

(١) الديوان ص ٨٣ ـ ٨٩ .
(٢) الديوان ص ٨٩ ـ ٩٥ .
(٣) الديوان ص ٢٢٠ ـ ٢٣٣ .
(٤) الديوان ص ١٧٥ ـ ٢١٩ .
(٥) الديوان ص ٢٣٨ ـ ٢٤٩ .

الامام البرعى :

ليس له قصائد طويلة النفس بلغت أبياتها المئة بل معظم قصائده دون الثمانين بيتا .

والامام الصرصرى :

ليس له ديوان مطبوع ونعتمد على ما ورد لديه من مديح فى المجموعة النبهانية فقد أورد له النبهانى فى الالف المقصورة قصيدة بلغت تسعة وعشرين ومائة بيت مطلعها :

ما بين قرب وبعاد وقلى ... وبين ليت ولعل وعسى
ضاع زمانى ووهت شبيبتى ... وصوح المخضر منها وذوى (١)

وله قصيدة فى قافية الياء عدد أبياتها ستة واربعون ومائة بيت مطلعها :

جاد مشعنجر الحيا الوسمى ... فسقى دارة الحمى النجدى (٢)

وهناك قصائد اخرى ذوات نفس طويل وصلت الى الثمانين بيتا والخمسة والتسعين بيتا ولكن لم يصل الى المائة منها الا هاتان القصيدتان .

بعد كل هذا نلاحظ أن النبهانى رحمه الله كان اطول نفسا بمدائحه النبوية جميع أئمة المديح النبوى وهم الامام البوصيرى والامام البرعى والامام الصرصرى رحمهم الله ، كما نلاحظ ان أطول الأئمة الثلاثة نفسا بعد النبهانى هو الامام البوصيرى ثم الصرصرى .

جـ ـ تصويره حياة مجتمعه فى مدائحه :

من المعروف ان الشاعر الحق هو الذى يكون شعره انعكاسا لحسه ووجدانه

---

(١) وهت ضعفت صرح يبس ذوى جف اعلاه المجموعه النبهانيه جـ ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٨ .
(٢) المشعنجر السائل الحيا المطر الوسمى المطر الاول الذى يسم الارض ويعلمها بالنبات الدارة الدار الحمى المكان المحمى . المجموعة النبهانيه جـ ٤ ص ٣٠٩ ـ ٣٢٢ .

المتأثر بما فى مجتمعه من خير أو شر ، والشاعر ابن بيئته ومجتمعه المعبر عن مفاهيمه وقيمه " والشعر الصادق هو ما كان مرآة لعصره وسجلا لبيئته وديوانا لآلامه وتعبيرا عن أحاسيس قائليه وصدى لمشاعر قارئيه " . (١)

وشاعر المدائح النبوية المتجه بأحاسيسه ووجدانه إلى خير الخلق صلى الله عليه وسلم بأدب وخشوع طالبا العفو والشفاعة لا ينسى ما يجده فى مجتمعه من بعد الناس عن الدين وشيوع المفاسد الاجتماعية فتراه يذكر هذه الأمراض الاجتماعية فى مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم طالبا منه المساعدة على تجاوزها ، فمثله كمثل من يزور صديقه الطبيب اذ سرعان ما يجد ها فرصة مواتية لعرض أمراضه وعلله عليه فالشاعر المرهف الحس الصادق الشعور يكون وجدانه صورة لما عليه مجتمعه ولكن هذه الصورة تكون ملونة بثقافته واتجاهه الفكري ، فاذا أنشد شعرا كان شعره نفحات من وجدانه .

والنبهانى رحمه الله كان يسبح مع مدائحه النبوية فى بحر من المفاهيم الصوفية الخالصة منصرفا بذهنه الى استكمال صورة مدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم بما لا ينتهى من المحاسن والصفات ، وكان كلما استغرق فى سبحاته الصوفية هذه وجد امامه متسعا للقول فينطلق بمدائحه ثابت الخطأ تسعفه ثروة عظيمة من اللغة والتعبير والثقافة ولكنه فى النهاية كان لا ينسى ما عليه حال المسلمين من هوان وتأخر ومن تغير الأحوال وشيوع الكذب والخيانة فيطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشمل بعفوه ونظره المسلمين ويصلح أحوالهم لعجز المسلمين عن اصلاح أحوالهم ، وتكاد هذه الظاهرة تشيع فى مدائح النبهانى رحمه الله . ولكننى لم أجد مثل هذا فى مدائح الأئمة الثلاثة فقد عارض الامام البوصيرى والامام الصرصرى والنبهانى بردة كعب بن زهير . فلو استعرضنا ما قاله الامام البوصيرى لم نجد اثرا لمجتمعه فى قصيدته فى حين أنه عاصر الغزو المغولى فى القرن السابع وكان الناس يعيشون فى حالة اجتماعية سيئة ظهرت آثارها فى عدة قصائد من ديوانه ، أما أحوال مجتمعه فلا تكاد نحسها فى مدائحه النبوية ، وهذه همزيته التى بلغت ستة وخمسين وأربعمائة بيت

---

(١) التجديد فى الادب المصرى الحديث ص ١٢٠ .

كل ما فعله فيها أنه شكا للرسول صلى الله عليه وسلم كثرة ديونه وتشدد الغرماء في مطالبته مبديا قوة أمله في الرسول صلى الله عليه وسلم ويظهر هذا في قوله :

أوثقته من الذنوب ديون ... شددت في اقتضائها الغرماء
ماله حيلة سوى حيله المر ... ء ثقى اما توسل أو دعاء
راجيا أن تعود أعماله السو ... ء بغفران الله وهي هباء (١)

وتحدثه عن خصوصياته الشخصية هذه يتخلل معاني همزيته بشكل بارز والبوصيري بهذا استخدم مائحه النبوية سلما للمثول أمام حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم معبرا عن نفسه فقط ناسيا مجتمعه وما كانت عليه حالة المسلمين .

وفي قصيدته التي عارض بها بردة كعب بن زهير رضي الله عنه طلب الغفران والعفو من الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه حيث يقول :

رجوت غفران ذنب موجب تلفي ... له من النفس املاء وتسويل (٢)
وليس غيرك لي مولى أؤمله ... بعد الاله وحسبي منك تأميل

ويقول أيضا :ـ

نذرت ان جمعت شملي ببابك أو ... شفيت فؤادي به قوداء شمليل (٣)
أبل من طيبة بالك مع طيب ثرى ... لغاتي وغليلي منه تبليل (٤)

ولو رجعنا الى معارضة الامام البوصيري لبردة كعب بن زهير لوجدنا انه لا أثر لحالة عصره ومجتمعه فيها بل كان يكثر من الالتزام بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين ، وقلما يلتفت لنفسه وفي نهاية القصيدة يتذكر نفسه طالبا لها العون والمساعدة منه صلى الله عليه وسلم حيث يقول مختتما قصيدته .

---

(١) الديوان ص ٧٣ .
(٢) امليت له في غية اطلت وسولت له نفسه كذا زينت .
(٣) القوداء الناقة العظيمة الشمليل الناقة السريعة .
(٤) الغله شدة العطش الغليل حرارة الحب والحزن الديوان ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

لكننى ان يك التسويف قصّر بى ... وقيل انك مبعوث ومسئول
أقول للواعظ المُهدِى نصيحتَه ... أقصر فلى شافع فى الحشر مقبول
محمد خيرُ مبعوث بمرحمة ... وجاهه الغمر للراجين مبذول (١)
فاشفع لى الآن فى اطلاق نفسى من ... وثاقها فقرين النفس مكبول (٢)
وفى المعاد فسل حسن الخلاص لها ... اذ كل عبد بما يعنيه مشغول
عليك أزكى صلاة الله باقية ... بقاء دار اليها أنت منقول (٣)

أما الامام البرعى فليس له معارضة لبردة كعب بن زهير رضى الله عنه ولنأخذ أى قصيدة من مدائحه النبوية التى ذكرها النبهانى فى مجموعته مثل رائيته التى مطلعها :

فؤادى بربع الظاعنين أسير ... يقيم على آثارهم ويسير (٤)

وقد بلغت القصيدة ثمانية وخمسين بيتا .

وهو لم يذكر فيها شيئا من أحوال عصره ومجتمعه ، بل ركز على المدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتخللها الكلام عن خطاياه وذنوبه وختمها بطمعه فى العفو والمغفرة من الله حيث يقول :

امولاى قم بى فى الخطوب فأن لى ... تجارة مدح فيك ليس تبور
عرائس لا ترضى بغيرك صاحبا ... لهن عزيزات المهور مهور
علت وغلت الا عليك فارخصت ... ليرخص حور فى القصور قصور (٥)
مؤلفها عبد الرحيم كأنها ... كواكب فى جو السماء تنير
لبسن معانيها بمدحك بهجة ... فلاح لها نور وفاح عبير (٦)

---

(١) الغمر الكثير .
(٢) المكبول المقيد .
(٣) المجموعة النبهانية جـ ٣ ص ٣٠ .
(٤) المجموعة النبهانية جـ ٢ ص ٩٢ ــ ٩٦ .
(٥) القصور العجز .
(٦) العبير اخلاط من الطيب تجمع بالزعفران وقيل الزعفران وحده .

فقل أنت فى الدارين فى حزبنا ومن ... يليك صغير سنه وكبير
وصلى عليك الله واختص واجتبى ... فأنت هدى للعالمين ونور (١)

ونلاحظ أن الامام البرعى طلب مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم ليخلصه من خطوبه فى البيت الأول ثم يفتخر بمديحه النبوى ثم يسأل الرسول أن يقبله حتى يكون فائزا فى الدارين ثم يطلب لأهله صغارا وكبارا ما طلبه لنفسه ويختلف الحال لدى النبهانى رحمه الله فهو يبث شكواه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قصيدة ففى همزيته الألفية " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " . يشكو زمانه وتغير أحوال المسلمين فى اثنى عشر بيتا أولها قوله :

وأجرنى وعترتى من زمانى ... قد واهيه كلها دهياء
عاد فيه الدين المبين كما قلـ ... ـت غريبا وأهله غرباء (٢)

وفى قصيدته " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " يخصص ثلاثة عشر بيتا لشكوى زمانه حيث يقول :

أشكو اليك زمانى شاكرا نعما ... ما عند مثلى لها لولاك تأهيل
فقد بليت بعصر كله فتن ... فيه أخو الحق مغلوب ومغلول

الى أن يقول :

فأنظر لامتك الغراء قد لعبت ... بها عراقيل تتلوها عراقيل (٣)
كم قابلتها بما تخشى فراعنة ... وكم لها من شرار الناس قابيل
عجل بقهر أعاديها فليس لها ... فى الخلق غيرك يا مأمون مأمول (٤)

---

(١) المجموعة النبهانية جـ ٢ ص ٩٦ .
(٢) الديوان ص ٨٨ .
(٣) العراقيل صعاب الأمور .
(٤) الديوان ٩٧ .

وهكذا الى آخر الأبيات . وفى ارجوزته التى مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلها تخميسا يشكو من كثرة المصائب وتغير الزمان وأهله وانقياد الأمور الى غير أهلها وظهور البدع والمحدثات فى الدين فيقول :

صرنا من المحنة فى غمار ... من كثرة المصائب الطوارى (١)

---

(١) المحنة الابتلاء . الغمار جمع غمر وهى الشدة الطوارى الحادثات .

في زمن دبر بالادبار الليث فيه انقاد للحمار (١)
والخير مغلوبا غدا للشر
رمت لظى الالحاد بالشرار والدين ان يسلم من الكفار
تؤذيه منا عصبة الأغمار فاحرسه يارب من الأشرار (٢)
من أهل بدعة وأهل كفر (٣)

وفي موشحه الذي مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم معارضا الموشحات الأندلسية السينيات يشكو زمانه بحرارة طالبا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيره ويحميه من الناس الذين تبدلت صفاتهم الحميدة الى ذميمة حيث يقول :

يا أبا الزهراء كن لي مددا فلقد أوهى زماني جلدي (٤)
لست أبغي من سواك المددا أنت من بين المدا معتمدي

الى أن يقول :

يا عمادي أنت أدرى بالزمان ما لأهليه وفاء وعهود
كلما اخترت فتى للصدق مان قابلوا المعروف مني بالجحود
ضعف الايمان فيهم والأمان ودهم مذق وجدواهم وعود (٥)
ليس يجدي جداهم انما أجتدي من جودك المنبجس (٦)
فأجرني وأجرني كرما يا ملاذ البائس المبتئس (٧)

---

(١) الأدبار ضد الاقبال .
(٢) العصبة الجماعة الاغمار للجهال جمع غمر .
(٣) البدعة الامر المحدث في الدين بالديوان ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٤) الجلد القوة .
(٥) مذق خلط الجدى المطية .
(٦) يجدي يفيدني . الجدى المطية اجتدى طلب انبجس الماء انفجر .
(٧) أجرني أمني ومئس فهو بائس اذا نزل به الضر واشتدت حاجته من الفقر ونحوه . المبتئس الكاره الحزين .
الديوان ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

من هذا نلاحظ أن النبهاني عاش مشاكل عصره وتفاعل معها وأثرت فيه وانعكست على مدائحه النبوية التي جعل منها طريقة لاصلاح مجتمعه والتنبيه على بدعه ومحدثاته ولعل السبب الرئيسي الذي نعلل به ظهور أحوال المجتمع في مدائح النبهاني دون أئمة المديح النبوي هو أن النبهاني فوق أنه ألف الكثير من المدائح النبوية نظما ونثرا فقد كان له عمل اجتماعي يشغله في عصره فقد عايش الناس وعاملهم وعرف نفوسهم وظهر التبشير المسيحي فوقف ضده وأخذ يؤلف الرسائل والقصائد محذرا من خطره ورأى ظهور جيل جديد من ناشئة المسلمين ممن تأثروا بالثقافة المصرية الغربية فصهرت عاداتهم وتقاليدهم في بوتقتها متناسين أنهم مسلمون مطالبون بتعاليم الاسلام وكان بعضهم له حظ من الثقافة الاسلامية بالاضافة الى ثقافته الغربية فأخذ يظهر الفتاوى والتجوزات في الدين بحجة أن الاسلام ملائم لكل زمان ومكان وظهر غير هؤلاء وهؤلاء ممن نبذوا آراء الأئمة والمجتهدين السابقين وأخذوا يستنبطون الأحكام الشرعية من القرآن والسنة مباشرة . كل هذه الأمور وجدت لها في مدائح النبهاني مكانا فهو بعد أن يروي ظمأه من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينسى أن يبثه همه ويشكو اليه أحواله ، ذلك لأنه عايش أحوال عصره فبقيت عالقة في ذهنه فاذا كان يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ليرتاح وجدانه ويتقوى يقينه فانه يشكو للرسول صلى الله عليه وسلم ويطرح له ما يلاقيه من مصائب ومصاعب من مجتمعه لمحبته للرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه لتعاليمه .

يقول الدكتور عبد الرحمن شهبندر في بيان أثر البيئة الاجتماعية على الأدب والشعر : " ... ولعمري ان المرء ليستطيع أن ينسلخ من جلده ، ولا يستطيع أن ينسلخ من تأثير العقل الاجتماعي الأدبي حواليه ، وما نحن في الواقع الا سمك يعوم في لجة هذا البحر الذي يحيط بنا من كل جانب ولا هون على المرء أن ينكر فعل الأجواء والأهواء والأنهار والجبال والوهاد والوديان في جسم المرء من أن ينكر فعل الأدب في عقله [1] .

ويقول أيضا " ولعلماء التربية والاجتماع اهتمام خاص بتاريخ الأدب وذلك لأنهم يرون فيه ميدانا متسعا لنشر التربية الاجتماعية والتثقيف الفني، والأدب مرآة تتجلى

---

(١) المقتطف جـ ٨١ ص ٥٣١ .

فيها صورة المجتمع وتكون هذه الصورة على أحدث طراز لأن الأدب يتوقف في شكله ومادته على الأحوال الاجتماعية المستجدة فالشعراء هم أشعر الناس بالطوارئ وقلوبهم أوتار حساسة ما أسرعها الى الاهتزاز برجات الانقلاب والثورة ، وكما أن الشعر صورة الشاعر بل الشاعر — كما قال الاستاذ بايندر — نقطة الاحتراق تلتقي فيه جميع الأشعة المنتشرة من الحياة الاجتماعية المضيئة حواليه فيكسبها شكلا فنيا وبيانا لفظيا بما تحلت به شخصيته ، من الميزات وسواء أكان الشعر غنائيا أم قصصيا أم تمثيليا فنجاحه في التأثير في قلوب الناس يتوقف على الأحوال الاجتماعية التي يعيشون تحت سمائها " (١) .

وقد شهد المستشرق كارل بروكلمان لأدب النبهاني وتمثيله لعصره أصدق تمثيل فقال : " وانما يتمثل الأدب العربي في سورية في ظل عبدالحميد بيوسف ابن اسماعيل النبهاني رئيس محكمة الحقوق في بيروت حتى عام ١٩٢٦ ، الذي كان صديقا لأبي الهدى الصيادي امام السلطان عبدالحميد والذي تكشف عن نشاط أدبي خصب جدا صادر عن روح الاسلام القديم ابتغاء وقايته من تيارات أوروبة المسيحية (٢) .

ومثل هذا شهد به الأستاذ فكري سويدان حيث يقول " من الأسماء التي كانت رائجة في هذه المرحلة وكان لابد لها من أن تنظم القول شعرا والا فلن تجد أحدا يؤمن بقوتها اللغوية .. لأن نظم الشعر كان دليلا من أدلة النبوغ اللغوي آنذاك ودليلا من أدلة الوجاهة العلمية في هذه المرحلة .. ومن الذين وجدنا لهم شعرا في هذه الفترة يحمل طابع تلك المرحلة في حياة البلاد الياس مروة ، الذي كان قسا ناصريا .. ووجدنا شعرا من هذا النوع للشاعر يوسف النبهاني وكان من شيوخ الدين .. الخ (٣)

كل هذا يدلنا على أن شعر الشيخ النبهاني ومدائحه كانت تحمل طابع عصره بما فيه من مؤثرات لغوية واجتماعية .

---

(١) المقتطف جـ ٨١ ص ٥٣٢ .

(٢) الاسلام في القرن التاسع عشر ص ١٠٠ وقد كرر الكلام نفسه وأضاف اليه أنه يعتبره آخر ممثلي العصور الأدبية الماضية وهو من رجال الأدب العربي القديم راجع

(٣) تاريخ الجمعية الأرثوذكسية ص ٦٥ .

أقول : فلما حقق النبهاني في مدائحه النبوية الصورة الحقيقية للشاعر بتصويره لأحوال مجتمعه وشؤونه في مدائحه النبوية كان حريا أن يكون رائدا لها .

رابعا : تشبهه بحسان بن ثابت :

حرص الشيخ النبهاني رحمه الله على التشبه بحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم ودفاعه عنه ولعل في مؤلفات النبهاني العديدة التي حصرها في شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم المنظوم منها والمنثور ما جعل هذه الفكرة تستقر في نفسيته وتثبت . فقد ذكر تشبهه بحسان بن ثابت رضي الله عنه في دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة مواضع من مؤلفاته ، ومنها ما ذكره في كتابه " نجوم المهتدين ورجوم الممتدين في دلائل نبوة سيدنا محمد سيد المرسلين والرد على أعدائه اخوان الشياطين" حيث ألف هذا الكتاب ردا على كتاب ألفه أحد النصارى في الهجوم على الرسول صلى الله عليه وسلم والاسلام .

يقول الشيخ النبهاني رحمه الله " ... ولكن أباطيل ذلك الكافر الأفاك أظهر من أن يحتاج ردها الى كثرة العلم وحدة الفهم ، وكل من دافع عن دين الله الأقوم دين الاسلام ، ونافح عن رسوله الأكرم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فهو موعود منه صلى الله عليه وسلم بتأييد الله تعالى له حيث يقول " ان الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله " ، وروح القدس هو جبريل عليه السلام ومعنى نافح دافع ، قال ابن الأثير في "النهاية" : ومنه الحديث أن جبريل مع حسان ما نافح عني " والظاهر ـ والله أعلم ـ أن ذلك التأييد ليس خاصا بحسان رضي الله عنه بل ان كل من نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل التوحيد يكون له من الله تعالى ذلك التأييد ، ولاشك في أنه حصل لي ذلك في تأليف هذا الكتاب والحمد لله المنعم الوهاب .. فاني حينما كنت أكتب الرد على ذلك الجحود كنت ربما أكتب كراسة أو قريبا منها في نحو ساعتين أو ثلاث بقلم الرصاص ويدي في غاية السرعة في الكتابة حتى كأن مليا يملي علي ذلك ، بل لو أملى علي لما بلغ الأمر تلك السرعة ولا أعلم لذلك سببا الا التأييد بالامداد والالهام . الذي ذكره لحسان النبي عليه الصلاة والسلام .

ومن اطلع على كتابي هذا وعلم حالي وقلة بضاعتي في العلم والفهم مع كوني لم أشتغل في تأليفه الا في أول النهار غالبا وقد تم في نحو أربعة أشهر مع كثرة عوائقي وعلائقي : يتيقن صحة الحديث الوارد في حق حسان وأنه ليس خاصا به بل هو لكل من نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلم أو اللسان والحمد لله ولي الاحسان [1] .

وقد أظهر هذا المعنى في عدة مناسبات من مدائحه متشبها بحسان بن ثابت في كونه شاعرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبهاني أيضا يمدح ويدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أورد النبهاني هذا المعنى كثيرا في مدائحه التي منها قوله :

أنا عبد لسيد الأنبياء ... وولائي له القديم ولائي [2]
أنا عبد لعهده ولعبد الـ ... ـعبد عهد كذا بغير انتهاء
أنا لا أنتهي عن القرب من با ... ب رضاه في جملة الدخلاء [3]
أنشر العلم في معاليه للنا ... س وأشدو به مع الشعراء [4]
فعساه يقول لي أنت سلما ... ن ولائي حسان حسن ثنائي [5]

وقوله في خاتمة الرائية الكبرى :

فهاك أيا خير الحسان قصيدة ... تجدد من حسان في عصرنا ذكرا
تنافح عن خير الأنام ودينه ... وتكشف عن أديان أعدائه السترا

الى أن يقول :

ولست على الأقران مفتخرا به ... ولكن لي في خدمة المصطفى الفخرا
أنافح عن خير الأنام ودينه ... وملته والناس قد رهبوا الكفرا

---

(١) نجوم المهتدين ورجوم المعتدين ص ٨ ـ ٩ .
(٢) الولاء النصرة وخص في الشرع بولاء المعتق .
(٣) الدخيل الملتجئ الى القوم وليس من نسبهم .
(٤) المعالي المراتب العلية وشدا بالشعر ترثم به .
(٥) الديوان ص ١٠٧ .

وليس لخير الخلق حسان واحـــد ... يدافع عنه الافك والشرك والشـــرا
ولكن له فى كل عصر جماعـــــة ... وانى بهذا العصر منهم ولا فخـرا (١)

هذا وقد رسخت فكرة تشبيه بحسان بن ثابت رضى الله عنه حتى عد نفســـه محسوبا على الرسول صلى الله عليه وسلم اتجاه الغير مما يستوجب اكرامه وعدم اساءته لمدائحه النبوية • فحرمته من حرمة الرسول عليه السلام يظهر هذا فى قوله فـــى موشحـــه :

أنا والله ضعيف وفقـــــير ... باحتياج زائـــد للمـــدد (٢)
أنا والله ذليل وحقـــــير ... انما عزى أتـــى من سيـــدى
ليس لى غيرك فى الناس مجـــير ... أنت بعد الله أقوى ســـند
لا تدعنى سيدى مهتضمـــــا ... ليس عندى من سهام أو قســـى
كل من حاربنى أو ظلمـــــا ... ما وفى حق الجناب الأقـــدس (٣)

ويظهر هذا أيضا فى مناقشته لمحمود شكرى الألوسى صاحب كتاب " غايـــة الأمانى فى الرد على النبهانى " : وذلك حيث يقول :ـ

غدا لفتى تيمية أى ناصـــــر ... فهلا استحق المصطفى عنده النصرا ؟
وهلا عنا لذ نسب بزعمـــــه ... لخدمتنا روح الوجود أبا الزهرا ؟ (٤)

ولم يقف النبهانى عند التشبه بحسان بن ثابت فقط اذ تشبه أيضا بكعـــب ابن زهير رضى الله عنه فى قصيدته " زاد المعاد فى معارضة بانـــت سعـــاد " حيث يقـــول :

كم خائف حصل التأمين منـــك لـــه ... وآمن كان منه فيـــك تأصيـــل
أتاك كعب وقد جلت جنايتـــــه ... وكاد يقتاله من ذنبه غـــول (٥)

---

(١) الديوان ٣٤٥ ـ ٣٤٦ •
(٢) المدد الاعانة والتقوية •
(٣) الجناب الجانب الأقدس الأطهر والمراد به جانب النبى صلى الله عليه وســـلم
(٤) الديوان ص ٣٠١ •
(٥) كل ما اغتال الانسان فأهلكه فهو غول •

وقام ينشد لم تمل مدائحه ... غير الكريم لديه المدح ممطول
فآب بالبردة الحسناء مشتملا ... وعاد وهو ببرد العفو مشمول (١)
ولست مثلا له لكن حالتنا ... لها بحالة هذا العبد تمثيل
ان كان متبول قلب يوم أنشدكم ... " بانت سعاد " فقلبي اليوم متبول (٢)
وربّ سباق فضل عارضوه بها ... أنا الأخير وهم غر ذهاليل (٣)
خاضوا بمدحك هذا البحر ما بلغوا ... كعبا فعادوا لهم بالعجز تخجيل (٤)
ان وازنتها وما وازت قصائدهم ... فربما وازن الدر المثاقيل (٥)
وللقريض تفاعيل توازنه ... هي القريض وهاتيك التفاعيل
أستغفر الله كم قد أجادوهم ... كل رؤوس لهم بالفوز تكليل (٦)
لكن لكعبك يا خير الأنام على ... رؤوسنا ثابت فضل وتفضيل

ومما يثبت تشبه النبهاني في مدائحه بحسان بن ثابت ما كان يخبر به من منامات رأى فيها الصالحون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " النبهاني حساني " ومنها ما ذكره في مقدمة ديوانه " العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية " باسم " مبشرة جليلة " : لما رجعت من مصر الى بيروت في هذه الأيام في أوائل شهر جمادى الأول سنة ١٣٢٩ هـ جاء لزيارتي في بيتي قاضي فاس العلامة التهامي ومعه الشيخ الفاضل السيد عبد القادر بن سودة فأخبراني أنهما قادمان من المدينة المنورة قافلان من الحج والزيارة متوجهان الى " فاس " وبشراني بأن الأستاذ العلامة المدرس في المسجد النبوي الشيخ حمدان المغربي الجزائري رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقول " النبهاني حساني " . ثم جاء لزيارتي على أثرهما العالم الفاضل الشيخ محمد خرما البيروتي والشيخ محمد الطرابلسي القادمان من المدينة المنورة أيضا فأخبراني بهذه الرؤيا ثم بلغني أن رائي هذه الرؤيا هو بعض الصالحين في المدينة

---

(١) مشمول من الشمول أي شمله العفو ومشمول تشبيه بالحوض الذي هبت عليه ريح الشمال ففيه توريه .

(٢) يقال قلب متبول اذا غلبه الحب .

(٣) ذهاليل جمع ذهلول وهو الفرس الجواد .

(٤) البحر المعروف والبحر أيضا بحر البسيط من العروض وهو بحر هذه القصيدة ففيه توريه وفي لفظ كعب توريه .

(٥) الموازنة المحاذاة والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم .

(٦) الرؤوس جمع رأس وهو السيد والرأس المعروف ففيه توريه التكليل التتويج .

المنورة وان الشيخ حمدان رواها عنه وعلى كل حال حصل لى بها غاية السرور والحمد لله رب العالمين " (١) ، ومثلها ما ذكره الشيخ ابراهيم عطوه عوض فى تقديمه لكتاب " جامع كرامات الأولياء " للشيخ النبهانى قال " ... ومما يحسن ذكره فى هذا المقام ما حدث به صديقنا الأكبر السيد الطبيب البارع المؤمن الصادق الدكتور ابراهيم حسن مدير مستشفى جامعة عين شمس قال : أخبرنى صديق لى مصرتقى ورع يقيم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام قال : من عجيب ما وقع لى أنى كنت أرى النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا كثيرا ثم انقطعت عنى رؤياه فحزنت لذلك حزنا شديدا ثم رأيته صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بمدة فسألته عليه الصلاة والسلام عن الحجاب الذى حال بينى وبينه فقال : كيف ترانى وعندك هذا الكتاب الذى يطعن فيه صاحبه على حبيبنا النبهانى ؟ قال : فلما أصبحت أحرقت الكتاب فعاد لى شرف رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو كتاب " غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " (٢) .

وفى مقابلة الشيخ النبهانى للخديوى عباس حلمى باشا الثانى فى ربيع ١٣٢٩هـ اثر اقالته من رياسة محكمة الحقوق فى بيروت فى رمضان ١٣٢٩ ذكر الشيخ النبهانى شيئا من ظروف هذه المقابلة فهو لم يمدحه بقصيدة شعرية كعادة الشعراء فى مقابلاتهم للملوك بل جعل مؤلفاته فى الرسول صلى الله عليه وسلم هى وسيلته لمقابلة الخديوى عباس .. يقول النبهانى فقد قصدته فى ربيع هذا العام ١٣٢٩ حينما بلغنى من بعض جلسائه الكرام أنه أثنى على وأعجبته مؤلفاتى فى حق سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وهذا الوصف الجميل نادر فى الملوك ولا سيما فى هذا الزمان ولذلك لم أتخذ عنده وسيلة من الشفعاء سوى سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم فهو الذى توسلت به لفضله فقضى حاجتى لأجله ، وقد أذن لى حبا فيه صلى الله عليه وسلم بالاجتماع عليه والمثول بين يديه ، ولولا نسيتى لخدمته عليه الصلاة والسلام لما تواضع لى كل هذا التواضع وأكرمنى كل هذا الاكرام (٣) .

---

(١) الديوان ص ٧ .

(٢) جامع كرامات الأولياء جـ ١ ص ٧ .

(٣) الديوان ص ٤ .

بعد كل هذا نلاحظ أن الجو العام الثقافي حول النبهاني كان يدل على شهرة النبهاني في المدائح النبوية هذه الشهرة التي رشحته لأن يكون حسان الرسول صلى الله عليه وسلم في العصر الحديث ، والنص الذي استشهدنا به من مقابلة النبهاني للخديوي نستدل به على أن النبهاني ترفع بشاعريته أن تمدح أحدا غير الرسول صلى الله عليه وسلم حيث انه قابل الخديوي لأول مرة وهو في أمس الحاجة للمساعدة بعد أن عزل من وظيفته التي لم يكن له غيرها مصدرا للرزق ، ومع هذا قابله النبهاني معتزا بمدائحه النبوية من أن يقول فيه قصيدة طويلة في مدحه كعادة الشعراء ولكن النبهاني منذ أن شهر بمدائحه النبوية أقلع عن مدح الأشخاص مهما علت منزلتهم ومقابلته للخديوي كانت برهانا على اخلاصه لفنه وأدبه أن يخوض في غير مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقد ذكر النبهاني بعض ما دار بينهما من الحديث فقال " ومما لا طفني به هذا الملك الجليل قوله لي ما سألت عنك أحدا الا أثنى عليك الثناء الجميل ، وبلغني من بعض حاشيته الأمناء أنه سأل عني كثيرا من العلماء والفضلاء فأجابوه بالمدح والثناء حتى بالغ بعضهم فقال له هو حسان زمانه [1] .

كما التقيت يوم ١٦/ ٥/ ١٩٧٥ م . بالشيخ عمر الملاحفجي مدرس سجون حلب في مبنى مجلة " المسلم " التي تصدرها المشيرة المحمدية في القاهرة وتباحثنا بصدد أن تعارفنا في شؤون الشيخ النبهاني فأخبر الشيخ الملاحفجي أنه سمع الشيخ سليم السروجي وقد كان كاتبا في محكمة الشيخ النبهاني يقول انه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله عن الشيخ يوسف فقال الرسول صلى الله عليه وسلم النبهاني حساننا " .

وقد حلف الشيخ الملاحفجي أنه سمع هذا من الشيخ سليم السروجي [2] وكنت قبلها قد زرت في ٢٠/ ٤/ ١٩٧٥ م . فضيلة الشيخ محمد زكي ابراهيم رئيس المشيرة المحمدية ورئيس تحرير مجلة " المسلم " وسألته عن الشيخ يوسف النبهاني ومدائحه

---

(١) الديوان ص ٥ .

(٢) وقد ذكرت مجلة المسلم خبر زيارة الشيخ عمر الملاحفجي وزيارتي للمجلة في العدد الخامس والعشرين جمادى الأولى سنة ١٣٩٥ هـ .

النبوية فكان مما قال : " أدركت بعض العلماء وأنا فى الأزهر اذا قالوا المحب لا تنصرف الا للنبهانى . وكان والدى الشيخ ابراهيم الخليل بن على الشاذلى يعد النبهانى قطب وقته وأنه وارث القدم المحمدى حبا وعملا وكانت بينهما مكاتبات وعندما زار مصر فى آخر مرة نزل فى البيت عندهم وكانت كتب النبهانى يتهادأها العلماء فيما بينهم وأن المرحوم الشيخ محمود أبو العيون قد أهدانى فى مناسبة سياسية فى عيد الجهاد .. أهدانى كتاب " جامع الثناء على الله " للنبهانى وهى متداولة وبين العلماء وتلاميذهم . كما وردت رسالة للشيخ النبهانى من الشيخ على الحبشى رحمهما الله ذكر فيها الأبيات التالية :

لك بالسبق أذعن الشعراء ... يا محيا قد صح منه الولاء
شاقنى فى المديح ما حررته ... منك فى المصطفى اليد البيضاء
أنت تروى والعاشقون ظماء ... ليت شعرى بالشرب زاد الظماء

وقال كاتب الأبيات " فان أحببت أن ترقمها على ظهر تلك القصيدة الفريدة ـ طيبة الغراء ـ فانها برزت منى فى ساعة سعيدة "(١) .

نلاحظ أن الشاعر فى الأبيات الماضية قد وصف النبهانى بقوله يا محيا .

كل هذا يوضح لنا شهرة النبهانى بمدائحة النبوية ومدى تعلقه بالرسول صلى الله عليه وسلم وشيوع محبته له حتى أصبحت مصطلحا تدل عليه .

ريادة النبهانى لدى علماء عصره :

لم يحظ النبهانى بدراسة فنية لأدبه وشعره وكل ما وجدته فى كتب التراجم لا يتعدى التعريف به وبوظائفه وأسفاره ومؤلفاته وبعضهم ذكر ملاحظة عابرة عن أدبه وحياته الفكرية والمعلومات التى حصلت عليها من علماء عصره اما من مؤلفاتهم وهى غالبا تراجم لعلماء العصر أو من مقابلات شخصية لى معهم أما أصحاب المؤلفات فقد ترجم له الشيخ كامل محيى الدين الداعوق فى كتابه " علماؤنا " ، وجاء فى ترجمته : " كان نقادا جريئا فشن حملة شعواء على كثيرين من أعلام الاسلام

---

(١) جواهر البحار ج ٤ ص ٣٤٨ .

منهم ابن قيم الجوزية وابن تيمية والامام الألوسى والشيخان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وتبلغ تآليفه أكثر من ثمانية وأربعين كتابا جلها فى مدائح الرسول الأعظم وله قصائد شعرية كثيرة نفع الله بها الاسلام والمسلمين (١) .

واعترف الشيخ الحافظ محمد حبيب الشنقيطى بريادة النبهانى للمدائح النبوية اذ عده وارث حسان بن ثابت رضى الله عنه بما شهر به من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو بعد أن ذكر العلماء الذين رسموا مثال نعل الرسول صلى الله عليه وسلم قال ولشيخنا بالاجازة العارف بالله تعالى خادم الجناب النبوى وحسانه الثابت وارث حسان بن ثابت الشيخ يوسف النبهانى فى مثال النعال أبيات لطيفة ثم ذكر الأبيات (٢) .

وقد ذكر الحافظ الشنقيطى للنبهانى تقريظا لكتابه " زاد المسلم " وقدم لهذا التقريظ بقوله : " ومنهم محب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسانه الربانى وشاعره المجيد المرحوم الشيخ يوسف النبهانى فقد أجاز المؤلف وقرظ كتابه " زاد المسلم " وشرحه فى آخر عمره قبل وفاته بأقل من سنة حيث زاره المؤلف بقرية أجزم " بفلسطين واستجازه بلفظه وخطه وامضائه " (٣) .

وترجم له الأستاذ أدهم الجندى فى كتابه " أعلام الأدب والفن " وجاء فى ترجمته " كان شاعرا مجيدا قوى الأسلوب انحصر أكثر نظمه فى مدح الرسول الأعظم وآل بيته ولم يلوث شعره بالهجاء ولم يمدح لغاية خاصة وله قصيدة عارض فيها القصيدة الشهيرة " بانت سعاد " ، وكان تقيا زاهدا اشتهر بالعفة والنزاهة خلال مدة أعماله فى القضاء ومضرب المثل فى الجرأة وقوة الارادة وكان لا يقبل شفاعة أحد فى أحكامه ، زانه الله بالحصافة والمروة والهيبة (٤) .

ومما قاله صاحب " معجم الشيوخ " فى ترجمة النبهانى تحت عنوان " حاله " : " عالم مشارك فى كثير من العلوم العربية والفنون الأدبية ومداوم على المطالعة

---

(١) علماؤنا ج ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) زاد المسلم ج ٥ ص ٦٦ .

(٣) زاد المسلم ج ٥ ص ٥٦٠ .

(٤) علماؤنا ج ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

والجمع من غير ملل ولا سآمة يحسن ترتيب المسائل بتنسيق النقول وزاده ملكة واقتدارا على الكتابة والانشاء بعبارة عالية خالية من الركاكة اشتغاله مدة بتحرير جريدة "الجوائب" وتصحيح ما يطبع فيها من الكتب وذلك كله مما أعانه على مؤلفاته العديدة ولا سيما أشعاره النبوية العجيبة الجامعة بين الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية مع اشتمالها على الأوصاف المحمدية الجليلة والأخلاق الكريمة التي اختصها صلى الله عليه وسلم ولم يشتغل بالتأليف في العلوم الأدبية مع تبحره فيها وتمكنه منها نثرا ونظما بل اقتصر على الأمداح النبوية والموضوعات الدينية التي اختصر وهذب كثيرا من مؤلفات من قبله وجمع فيها ما كان متفرقا " (١) .

وترجم له الأستاذ محمود عيدات ـ البدوي الملثم ـ ضمن مجموعة من أدباء فلسطين الذين تدل آثارهم على مكانة أدبية عظيمة ولكن قلة المصادر عنهم أبقتهم في طي النسيان ، وقد جاء في ترجمته : (كان النبهاني الكبير هذا عالما مشاركا في كثير من الفنون وشاعرا مجيدا وزاده ملكة واقتدارا على الكتابة والانشاء بعبارة فصيحة عالية خالية من الركاكة اشتغاله مدة في تحرير جريدة الجوائب ولقد ترك النبهاني مجموعة من الأشعار النبوية الجامعة بين الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية) (٢) . ولو زاول الأدب مع تبحره فيه وتمكنه منه نظما ونثرا لكانت لأدبنا المعاصر (٣) ثروة ضخمة .

وترك كذلك قصائد في مدح بعض المسئولين نظمها في صدر شبابه واعتذر عنها بأن الشعر صنعة لاظهار المهارة والحذق لا للاخبار بالحق والصدق .

ومن القصائد العربية التي خلفها هذا الرائد العربي قصيدة مطولة نظمها بعد ايابه من استانبول ، وقد صور فيها الهوان والزراية التي يلقاها العربي في عاصمة الخلافة الاسلامية (٤) .

---

(١) معجم الشيوخ ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) يلاحظ أن العبارات التي بين القوسين منقولة حرفيا من عبارة مؤلف " معجم الشيوخ " السابقة آنفا . د . / سرحان .

(٣) ذكرنا سهوا أن هذه الكلمة خطأ شائع ، والصواب : أدبنا العصري ، د . سرحان

(٤) مجلة الأدب ص ١٢ يناير ١٩٦٥ الجزء الاول سنة ٢٤ .

وتكلم الأب أنهر خورى المقدسى عن الروح العربية الاستقلالية التى دعا اليها جماعة من مفكرى العرب وجعل على رأسهم ابراهيم البازجى وعبد الرحمن الكواكبى ، وتكلم باختصار عن أعمال كل منهما ثم قال : " ومن هذه الطبقة الشيخ يوسف النبهانى ونجيب الحداد الحازورى اللبنانى .. ثم قال : بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء أخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق"(١).

وترجم له الأستاذ أحمد الحلوانى فى كتابه " السمو الروحى فى الأدب الصوفى فقال : هو أحد علماء الشام الأعلام كان محبا للنبى عليه الصلاة والسلام فتفرغ لجمع آثاره النبوية وله كتاب " جواهر البحار" : وهو كتاب جليل يدل على غزير علمه وقوة محبته وعظيم صبره على استيعاب ما يتحصل له من شتات الكتب ، وله كتاب " المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية " وكتاب " فضائل الصلوات" وهى كتب تشهد له بالسبق فى هذا المضمار وأنه خدم الحضرة النبوية أجل خدمة وأنه فريد عصره جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء (٢) .

أما بروكلمان فيقول : " انه يمثل نهاية فترة أدبية قديمة مع أن حياته تمتد الى القرن العشرين فى شبابه وقد جمع ديوان أبى الهدى الصيادى امام عبد الحميد وألف فى المفهوم نفسه الهمزية التى اشتهر بها . وفى كتابه " الشرف المؤيد لسيدنا محمد " افتتح مؤلفاته المثمرة للغاية فى مجال اللاهوت حيث دافع فيها عن الاسلام ضد الحضارة المسيحية (٣) .

ومن ترجم له أيضا الدكتور ناصر الدين الأسد حيث يقول " .. وله أى النبهانى ـ قصائد مدح بها بعض الكبراء فى عصره واعتذر عنها " بأن الشعر صنعة لاظهار المهارة والحذق لا لاجبار بالحق والصدق " فتلك اذن موضوعات نظمه ، وهذا هو فهمه وفهم أهل عصره للشعر" صنعة تقوم على القدرة اللغوية والمهارة العقلية وكلام مرصوف منظوم قد يدل على أى شئ الا الشعر ومن ذلك فقد كان النبهانى

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ج ١ ص ٨٥ .

(٢) السمو الروحى فى الأدب الصوفى ص ٢٢٧ .

(٣) تاريخ الأدب العربى S II: 763 ترجمت النص فى معهد جوتة فى القاهرة .

يعد من أشعر شعراء العصر كما وصفه الأمير شكيب أرسلان وأورد له أبياتا من قصيدة مدح بها السيد أبا الهدى الصيادى امام السلطان عبد الحميد ، وذكر الأمير شكيب أنه قرأها فى صباه واستحسنها وطفق ينشدها فى مجالس بيروت وهى قوله :

ويممت دار الملك أحسب أنها ∴ ٠٠ الخ الأبيات (١) .

وترجم له الشيخ عبد الرازق البيطار فى كتابه حلية البشر فقال " ٠٠ ان هذا الامام والشهم الأديب الهمام قد طلعت فضائل محاسنه طلوع النجوم الزواهر وسعدت مطالع شمائله بآدابه المعجبة البواهر ، فهو الألمعى المشهود له بقوة الادراك واللوذعى المستوى مقامه على ذروة الأفلاك ، وله ذكاء أحد من السيف اذا تجرد من قرابه وفكر اذا أراد البحر أن يحكيه وقع فى اضطرابه ، وتثريه زرى بالعقد الثمين والدر المنثور ، وشعر يدل على كمال الادراك وتمام الشعور ٠ الخ (٢) .

أما أفضل من تطرق للنبهانى ومدائحه بالدراسة فهو الدكتور عبد الرحمن ياغى فى كتابه " حياة الأدب الفلسطينى " وقد جاء فيه : " ولعل المدح والثناء أن يكونا الغرض الذى يتوكأ عليه كل شاعر فى بدء النهضة ومن هذا النوع التقريظ ما نظمه " من تتحلى الطروس بنظمه وتتجلى الدروس بتعلمه الشيخ يوسف النبهانى الجزماوى من لواء عكة (٣) : وهو قوله :ـ

يا أيها المولى الأديب هدية	من بائس أهداكها مخجولا
قلت وجلت بالمديح وكم غدا	ذو قلة عند الجليل جليلا
فاسمح فديتك ما يروق فانى	بثنائك قد رتلتها ترتيلا

---

(١) الشعر الحديث فى فلسطين والأردن ٠ ص١٨ ـ ١٩ ٠

(٢) كتاب حلية البشر فى أعيان القرن الثالث عشر ج ٣ ص١٦١٢ لا تحصل ترجمة الشيخ البيطار للنبهانى معنى موضوعى هام ولكن لها دلالة تاريخية اذ أنها معبره عن مفاهيم الثناء والمدح فى ذلك العصر ٠

(٣) فى الأصل : " عكا " وهو خطأ مشهور صوابه ما أثبتناه ٠ د ٠ سرحان ٠

وقولـــه أيضـــا :ـ

الفضـل ما اتفقت عليـــه الحســـد ... ودنا لرفعته السـهى والفرقـــد
وتكفـلت بعلاه نفس حـــــرة ... طار الفخار بها وطاب المـــوعد
نفس كنفس أبي سـليم لم تـــزل ... تهنى ربوعا للعـــلا وتشـــيد
بطلا سـرى فوق الجوائب قاصـــدا ... سر الليالي وهو نصم المقصـــد (١)

ونحن بهذه القصيدة فى هـذه المرحلـة ازاء صـورة جديدة مـن صـور التقريظ تتعرض للجانب المعارض فتقذفـه بسهامها وتكاد تضع يدهـا على صـورة متماسـكة من صور النقد نتحاول أن تدعم رأيها ولكنها ما كادت تبـلغ هذا المبـلغ حتى ارتدت عنه بحكم قيـود العصر ومفاهيم الجيل فرجعت بالفكر عن وصف الفكـرة والمزايا الى المديح والثناء ولكنها على كل حال نفس جديـد ورصانة تشعرنا بشئ من رصانة المتنبى ، وتماسك فى الصـور ومتانـة فى التعبير تكاد تبعد بنا عن مطلـع النهضـة الى العصر العباسى دون أن نحس تقليـدا فاضحا وطول نفس لا تسمح فيـه لهاثا ولم يختم قصيدته بالحمد التقليدى وانما انتقل الى حياته الخاصه وحنينـــه الى وطنـه الصغير وبعد آماله وطموحه وهذه طريقـة لا نعهدها عند غيره مـــن روادنا فى مطلع هذه الرحلة من حياة الشعر فى هذا القطر .. وهو لون من ألـوان تلمس الشخصية نكاد نفتقده فى الشعر الذى سبق ثم يهيم الشيخ يوسف النبهانـــى بحب الرسول هياما يخرج به عن حد المألوف فأراد أن يمزج حياته وأن يقف نشاطـه كله على التأليف فى حياة الرسول فكتب فى ذلك الأنوار المحمدية ، الشرف المؤيد .. الخ " وكان نصيب الشعر فى هذه المؤلفات موفورا وحين كان لا يجد متسعا للشعـر فى كتاب من الكتب يصدره بأبيات ويختمه بقصائد كما فعل مثلا فى كتاب "الأنـــوار المحمدية " وكتاب " أفضل الصلوات على سيد السادات " .. الخ (٢) .

تلك هى الموضوعات الدينية التى طرقها الشيخ يوسف النبهانى فى شعـره أو هى معظمها وهى ثمرة ثقافتـه الأزهرية والثقافية التى ورثها عن والـده وعلـــى

---

(١) كنز الرغائب جـ ٤ ص ١٣١ ـ ١٣٣ قال النبهانى هذه الأبيات فى مدح أحمد فارس الشدياق .

(٢) ثم يذكر الكتب التى صدرت بأبيات أو قصائد مستعرضا بعض قصائـــده التى ذكرها فى كتبـــه .

الرغم من أنها جاءت في صياغة تقليدية ـ كانت ثورة الانفصال عن الحياة ـ الا أنهما لها الفضل في تطويع الشكل الشعري تطويعا عسما بحيث يشمل كل الأغراض ..... وعلى الرغم من أن تركيب القصيدة كان امتدادا للقديم الا أن هذه الافاضة وهذا النفس الطويل كانا يمثلان اتجاها دينيا في هذه المرحلة الأولى من النهضة في حياة الشعر ، فهذا التصدير الشعري للكتب وهذه الخاتمة الشعرية في مؤلفاته ظاهرة من ظواهر هذه النهضة كظاهرة تقاريظ الثناء ثم هذه التخاميس التي تستوعب الأغراض الدينية فيها صقله الشكلي مما يجعل الشعر أقرب ما يكون الى أنغام المتصوفة ، ولقد بلغ هياجه الديني حدا دفع به الى استعمال أغراض غريبة ـ كتعلل محمد ـ .. وقد استطاع الشكل الشعري أن يحمد له هذا الجدل الكلامي الذي جعله مدار شعره في مؤازرته للسبكي والرد على ابن تيمية وصاحبيه ، وكل هذه الموضوعات قديمة ولكن احياءها شعرا ليس بالأمر الهين وقصيدته الطويلة في معارضة " بانت سعاد " تحمل لنا المقدرة التعبيرية القديمة التي مضى عليها أجيال دون أن تظفر بشيء منها ... وكثرة تداوله هذه الأغراض في الشعر جعل الاطار الشعري لديه مرنا يتسع ويضيق كما يريد له اتساعا وضيقا ـ ولهذا ظهرت على أسلوبه الشكلي صنعة وجود ، عبارة وحصب في الألفاظ وتنوع في القوافي ولعل هذه الرياضة في تشكل المعاني حسب قوافي الأبجدية جعلته لا يحب ألفاظا هجرا ويطل أشكال تعبيرية عطاطة ، ومن هنا كانت أهميته رائدا عن رواد هذه النهضة .

والشيخ النبهاني نفسه حين خرج عن عزلته ومضى الى الآستانة واتصل بحياة الناس ولمس الصراع ولمع في ذهنه وهجس اتجاه جديد لم يخذله الشكل التعبيري بل أحسن أداءه كأنما هو غارق في هذا المتجه منذ مطلع حياته فقال يصف حالة العرب في الآستانة من قصيدة طويلة :ـ

ويمت دار الملك أحسب أنها	الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فألفيتها قد أقفرت من كرامها	ولم يبق فيها المجد الا توهما
وألفيت فيها أمة عربية	يرى القوم منها أمة الزنج أكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة	سوى أن خير الخلق لم يك أعجما

وبذلك أصبح يدرك أن " أمة عربية تتحكم في مصيرها التاريخي أمة تركية ، وسنجد أن هذه الوضعة كانت بداية مرحلة جديدة أو اتجاه جديد في حياة الشعر

... وسنراه يقوى ويشتد عوده فى المراحل القادمة ..." (١) .

* * *

وعن تعرض لمدائح النبهانى بصورة فنية الدكتور كامل السوافيرى فى كتابه " الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر" (٢) وهو قد استعرض نماذج من مدائح النبهانى من رائيته الكبرى وهمزيته الألفية ومعارضته لقصيدة " بانت سعاد " وأبياته فى القصيدة التى مدح بها أبا الهدى الصيادى التى مطلعها :

"ويممت دار الملك ... " الخ " الأبيات " .

وبعد كل هذا يقول : " ونقف الآن لحظة عند هذه النماذج لنلقى عليها نظرة فاحصة توضح لنا مدى قربها أو بعدها عن الشعر وما يكمن فيها من العناصر الأساسية للشعر ومدى تصويرها وتعبيرها عن أحاسيس وعواطف الشعراء الذين نظموه فالنبهانى فى همزيته المسماة " طيبة الغراء " يعارض الأباصيرى فى همزيته التى مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء ؟

ويعارض فى قصيدته " سعاد " المعاد " كعب بن زهير فى قصيدته التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم اثرها لم يغد مكبول

والتى يقول منها :-

ان الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

وفى قصائده الأخرى يتناول شرح جوانب الاسلام وكمال الذات الالهية وما تتصف به من وجود وقدم وبقاء ووحدانية وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده الى موته ومدح صفاته وشمائله وهو فى شعره الدينى الذى يتناول فيه العقائد وشعره النبوى الذى يتناول فيه حياة الرسول وشمائله ينأى عن روح الشعر ويغدو كلامه مجرد نظم يشبهه الى حد كبير تلك المنظومات التى تضمنت قواعد وأصول بعض العلوم كألفية ابن مالك وغيرها من المتون التى نظمها قائلوها ليسهل حفظها على الناشئة ، وقد أولى كل عنايته للزينة الخارجية وما تسميه البديع فأعترف فى الرائية الكبرى بأنه قلما يخلو بيت من أبياتها من النكت الأدبية

---

(١) حياة الأدب الفلسطينى ص ١٤٣ ــ ١٥٢ .

(٢) تعبير خاطئ وقع فيه الكثيرون ، والصواب : المصرى . د . / سرحان .

والمحسنات البديعة ، وقد اضطر لشرح بعض ما يلزمها لشرح من ألفاظها ولم ينبه على ما فيها من المحاسن البديعية مع كثرتها سوى التورية لعزتها في الكلام " (١)

ويقول أيضا : " ان النصوص النقدية الفاحصة الى النماذج التي أوردناها تبين لنا لأول وهلة أنها مجرد نظم ليس له من الشعر الا الأوزان والقوافي ولا أثر فيها لأحاسيس أصحابها وعواطفهم " (٢)

ويقول أيضا " اننا لا ننقض من قيمة الشعر الذي يناجي الذات العلية والمدائح النبوية قيمتان شعر في هاتين الناحيتين سما الى ذروة الجودة والقوة وعظمت قيمته من الناحية الفنية وهذه موضوعات لها جلالها وسموها ولكننا ننقد الأداء وطرائق التعبير " (٣)

ويقول أيضا " واذا انتقلنا الى الأساليب التي صيغت فيها هذه القصائد وجدنا التكلف باديا والصنعة واضحة والزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ، والنكت الأدبية هدفا يرمي اليه الشاعر ويعده ضربا من ضروب حذق اللغة والقدرة على التلاعب بالألفاظ ووجدناها خالية من الصور البلاغية الرائعة من تشبيهات واستعارات . (٤)

ويقول أيضا : " هذه النماذج كنا قررنا من قبل أنها نظم فقهاء ليس لها من الشعر الا الوزن والقافية وان كان الشعر وزنا وقافية ولكنه كما قال ابن حصين الصقلي :

وما الشعر ما يخلو من الكسر وزنه ولكنه سحر ونافثه فكرى

نظم فقهاء من حيث موضوعاتها ومن حيث اداؤها ونثريتها وخلوها من عواطف قائليها وافتقادها سمو الخيال وأساليبها مهلهلة النسيج ركيكة العبارة ، غثة الجمل . (٥)

---

(١) الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ص ٤٠

(٥) المصدر السابق ص ٤٢ .

ويقول أيضا " وبعد فلا نريد أن نحط من أقدار هؤلاء الشعراء(١) أو نضطهم حقوقهم ذلك لأن الشاعر في كل زمان ومكان نتاج مجتمعه ووليد ظروف حياته . وفي مثل هذه الحقبة من الزمن مثل هؤلاء الشعراء عصرهم وكانوا صورة منه في تلك الفترة التي تعد امتدادا طبيعيا (٢) لعصر الضعف والتخلف لا في فلسطين بل في الأقطار العربية بوجه عام "

ولكي ندافع عنهم نقول أن ثقافة معظمهم كانت دينية نهلوها إما من الازهر الشريف وإما من التلمذة على علمائه ولم تتجاوز هذه الثقافة الناحية الدينية واللغة العربية بما فيها من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع وأوزان للشعر . وكانت نظرتهم للشعر لا تعدو أنه مظهر للبراعة في اللغة والمهارة في استخدام مفرداتها وافتنان في المحسنات البديعية والنكت الأدبية .

ومن أسباب ضعف الشعر عند هؤلاء ضيق آفاقهم الفكرية وضآلة مقدار ما حصلوا عليه من الثقافة العامة وعدم اطلاعهم على ألوان الثقافة الغربية وبخاصة (٣) في الفنون وما طرأ عليها من أساليب الرقي وعدم اطلاعهم على تيارات النقد الحديث " (٤)

كل هذه الآراء النقدية التي ذكرها السواعيري يقصد بها النبهاني والشعراء الذين زاحموه من شعراء فلسطين ، أما الشيخ النبهاني بالذات فيقول عنه : ويهتف بنا العدل ان نسجل القدرة الفائقة لدى النبهاني على تطويع اللغة لموضوعات نظمه المختلفة في النواحي الدينية والتاريخية والمدائح النبوية وعلى التصرف في الأوزان والقوافي والبحور المتعددة التي نظم عنها ، ونحن نكبر فيه اتساع طاقته وطول نفسه في قصائده التي شهد بها معارضته للاسواعيري في

---

(١) يقصد الشعراء المعاصرين للنبهاني

(٢) كذا ، وهي نسبة خاطئة والصواب : طبيعية . د / سرحان

(٣) كذا وهو خطأ ـ والصواب : خاصة .. الخ د / سرحان

(٤) الاتجاهات الفنية ص ٤٣ ..

همزيته ولكعب بن زهير فى قصيدته " بانت سعاد " حيث بلغت الأولى ألف بيت وبلغت بعض قصائده خمسة وعشرين وسبعمائة بيت مع وحدة الوزن والقافية . (١)

وأخيرا يفصح الدكتور السوانيرى عن معيار الجودة فى الشعر عنده وهو اجادة لغة أجنبية والاطلاع على الثقافة الغربية حيث يقول " ترى لماذا كان السكاكينى (٢) والشاشيبى (٣) والفاروقى (٤) اجود شعرا أو ارقى مستوى فى قصائدهم من النبهانى واليعقوبى (٥) والحاش (٦) والريماوى (٧) ليس من شك فى أن هنالك عوامل جعلت شعر هؤلاء أعلى مستوى من شعر أولئك اذ تيسرت للسكاكينى وصاحبيه منابع الثقافة الحديثة وأتيح لهم قدر من الثقافة الغربية لم يتح للسابقين ولم تكن ثقافتهم دينية بحتة على الرغم من أن الشيخ سليمان الفاروقى درس فى باحات الازهر الشريف . وانما كانت ثقافة عامة شاملة مستوحاة من العصر وتقدم العلم والحضارة فيه ، " يضاف الى ذلك تأثرهم بالثقافة الغربية فقد كان السكاكينى يجيد الانجليزية وكان الشاشيبى والفاروقى يجيدان الانجليزية والفرنسية . (٨)

---

(١) الاتجاهات الفنية ص ٤٤ وعبارة السوانيرى : سبعمائة وخمسة وعشرين بيتا وهى خطأ .

(٢) ولد فى مدينة القدس سنة ١٨٧٨ وتوفى فى القاهرة عام ١٩٥٣ .

(٣) ولد فى القدس حوالى ١٨٨٢ وتوفى فى القاهرة ١٩٤٨ .

(٤) ولد فى مدينة الرملة البيضاء سنة ١٨٨٢ وتوفى فى القدس ١٩٥٨ .

(٥) اليعقوبى هو أبو الاقبال الشيخ سليم بن الشيخ حسن اليعقوبى . ولد فى مدينة اللد سنة ١٨٨٠ وتوفى بمكة المكرمة سنة ١٩٤٦ .

(٦) هو الشيخ عامر الحاشى احد علماء وأشراف مدينة نابلس تاريخ ولادته ووفاته مجهولان .

(٧) هو الشيخ على الريماوى احد علماء مدينة القدس ولد بها سنة ١٨٦٠ وكانت وفاته بها سنة ١٩١٩ والريماوى نسبة الى قريته (بيت ريما) الواقعة فى الشمال الغربى من القدس .

(٨) الاتجاهات الفنية ص ٥٥ .

آراء من قابلتهم في النبهاني : —

أما المقابلات الشخصية فقد أجريتها مع عدد من العلماء الذين عاشوا زمن الشيخ النبهاني في بيروت ودمشق حيث سجلت لهم بعض الملاحظات التي تساعدنا على جلاء الغموض الذي أحاط بالشيخ النبهاني وأدبه .

١ — ومن قابلتهم في بيروت . الأستاذ خير الدين الزركلي رحمه الله — صاحب كتاب الأعلام — اذ اجتمعت به في بيته في ١٩٧٥/١/١ وما أفادني به أن الشيخ النبهاني لم يشتهر في عصره بالشعر مثل بقية الشعراء بل اشتهر بكونه عالم دين وقد كان شخصية رموقة عند مختلف الأوساط " وبعد أن قرأ مقدمة قصيدة النبهاني في مدح أحمد عزت باشا العابد واستحسن الصور التي أوردها النبهاني قال : " ان قدرة الشاعر تظهر بمقدار نوعية الصور التي يأتي بها في شعره والشيخ يوسف النبهاني شاعر بكل ما تحوي هذه الكلمة من معان " وسألته عن طول شعر النبهاني في هذه القصيدة التي تجاوزت مائة بيت فقال : " لا يدل طول القصيدة على قوة الشاعر خصوصا أن قافيتها تساعد على ذلك " وقد تصفح ديوان النبهاني فوقع نظره على المزدوجة الألفية التي بلغت أبياتها ألف بيت فقال : " ان هذه القصيدة تشبه ملحمة سجل فيها النبهاني أشهر المواقع والمواقف الاسلامية وهي تشبه ملحمة الالياذة التي ترجمها الأستاذ البستاني الى العربية والحقيقة أن ملحمة الشيخ النبهاني هذه قد سدت فراغا في الشعر العربي عده كتاب الغرب نقصا في الأدب العربي لخلوه من الشعر القصصي (١) ويشبهه في هذا المقام الشاعر أحمد محرم . (٢) والنبهاني شاعر قدير وهو أديب مالك لناصية اللغة .

---

(١) لقد ثبت يقينا ان هوميروس أخذ نظام الملاحم عن شاعر عربي قديم نشأ في بابل واسمه جلجامش وملحمته في المتحف البريطاني . راجع قصة الحضارة ج٢ ص٢٣٩

(٢) ملحمة أحمد محرم لم تكن على وزن وقافية واحدة كما مزدوجة النبهاني فقد كانت على وزن وقافية واحدة .

أما عن عدم كتابة النبهاني في صحافة عصره فقد أعلن الأستاذ الزركلي بقوله: " ربما يكون السبب هو أن أصحاب هذه الصحف كانوا من مدرسة الافغاني التي يهاجمها (١) النبهاني ويقول الأستاذ الزركلي أيضا " للنبهاني ديباجة في المدائح يشبه بها البارودي ".

٢ ـ أما الأستاذ أكرم زعيتر سفير الأردن في بيروت فقد زرته في مكتبه في السفارة يوم ١٠/٨/١٩٧٤ ، والأستاذ أكرم زعيتر تلميذ الشيخ عبد الهادي عبد الهادي راوية شعر الشيخ النبهاني . وكان مما أفادني به " ان النبهاني من الطراز الأول . وأن الاستاذ اسعافا النشاشيبي أخبر الأستاذ أكرم زعيتر بأنه لولا ضيق أغراض الشعر لدى النبهاني لجاز أن يوضع في صف شوقي في ديباجته وقوة تعبيره وبيانه وتمكنه من اللغة " .

٣ ـ كما زرت الأستاذ محمد جميل بيهم يوم ١٥/١/١٩٧٥ وهو من أساتذة التاريخ الحديث المعدودين في العالم العربي ، وقد كانت معرفته بالشيخ النبهاني خفيفة حيث لم يحدث بينهما معرفة مباشرة ولكنه يقول : كان النبهاني معروفا بأنه عالم شاعر متدين يدعو الى التقوى " وكان كلامي معه يدور حول النواحي التاريخية للفترة التي عاشها النبهاني وهي من ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢م .

وكان مما قاله الأستاذ بيهم " ان القوميات العربية أنشئت بمساعدة دول الحلفاء للتفريق بين العرب والترك حيث ان الحلفاء كانوا يسلكون كل السبل للوصول الى هدفهم وهو التفريق بين العناصر العثمانية والأتراك الحاكمين . فكان من نتائج هذه السياسة أمران متناقضان :

الامر الاول : هو الخلاف ما بين الحاكم والمحكوم وهذا أمر سيئ جدا .

الثاني : افادة البلاد من الصحوات الأدبية والمادية وظهور

---

(١) ليس في اللغة : هاجم ولا داهم ، هجمه وهجم عليه ، ودهمه .

(١)

تباشير النهضة الحديثة •

ولما طالب العرب الأتراك في مجلس النيابة بحقوقهم واشتد النزاع بينهم وبين الأتراك وسلكت بقية الرعايا العثمانية هذا المسلك لجأت جمعية الاتحاد والترقي — التي كانت صبغة النفوذ في ذلك الوقت — الى الطورانية •• أي: الاتحاد العالمي التركي ، فكان هذا الفراق بين الحاكم والمحكومين سهلا للدعايات الأجنبية التي كانت تدعو بصورة سرية للتفريق بين العناصر العثمانية والدولة •

وقال أيضا : " في الأيام الأولى للدولة العثمانية كان العثمانيون يتمسكون بالاسلام وكان وضع غير المسلمين من رعاياهم هو وضعهم في عهد العباسيين ولكن لما أصبحت الدولة في حالة التأخر وتضافرت عليها الدول الأوربية وأعلنت الاتحاد المقدس ضد الدولة العثمانية تبدل شعورها ومعاملاتها لغير المسلمين بقدر ما أظهر هؤلاء من التمرد والولاء للاتحاد الاوربي المقدس • ولكن يصح أن يقال في الاجمال ان معاملة العثمانيين لرعاياهم لغير المسلمين كانت أفضل من معاملة الدول الأجنبية للرعايا المسلمين •

وقال الأستاذ بيهم أيضا : " السلطان عبد الحميد أنشا حوله أعداء من الأتراك انفسهم كجمعية الاتحاد والترقي الذين اصطنعوا هالة مظلمة حوله مع أنه كان في الواقع على غير ما وصفوه كما بينت ذلك في كتابي فلسفة التاريخ العثماني •

ثم قال : " ومن المؤسف أن هذه الدعايات ضد السلطان عبد الحميد انتقلت الى بلادنا وتبناها كثير من أدبائنا المعروفين فضلا عن أعداء الدولة العثمانية التقليديين " • (٢)

---

(١) أقول ومن هذا تظهر النية السيئة لحزب الاتحاد والترقي بتفريقه العناصر العثمانية التي يجمعها الاسلام عن الأمة العربية •

(٢) راجع الجزء الثاني من ذلك الكتاب •

وقال الأستاذ بينهم أيضا " كان وضع أعوان السلطان عبدالحميد من العرب لغاية سياسية كبرى فلما اطبقت أوروبة على السلطنة العثمانية الفقيرة بغية توزيع ارثها لجأ السلطان عبدالحميد الى وسيلة التلويح بالجامعة الاسلامية والتهديد بها ، وفي هذا السياق كان يقرب العرب ويتخذ منهم عصبيه له بسبل شتى " .

ان ما قاله الأستاذ محمد جميل بيهم — وهو الذي شاهد هذه الاحداث وأرخ لها — له أكبر الأثر في بيان مقصد الشيخ النبهاني من تصر مؤلفاته على شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن تغنيه بمحاسن الرسول وتمجيده في مدائحه النبوية اذ كان يحدوه هذا دعوة للشعوب الاسلامية للالتفاف حول الراية الاسلامية التي بها يفوت على المستعمرين الطامعين تفتيت الدولة العثمانية آخر معاقل الاسلام ، وبها أيضا يوجد الخلفية العقدية والثقافية للمسلمين لمقاومة التبشير المسيحي ومؤثراته من الحضارة الغربية النابعة من واقعهم الهادي المعادي لكل القيم الروحية .

وبهذا أيضا نفسر لماذا يعادي النبهاني كل اصلاح يتخذ المفاهيم الغربية أسلوبه و نهجه ، وقد أطلعني الأستاذ اكرم زعيتر على رسالة بعثها له الأستاذ عوني عبدالهادي عندما كان الباني بباريس يقول فيها " اجتمعت بالشيخ يوسف النبهاني في نابلس حيث كان يزور بعض رحمه . وهو ضد تعليم المرأة وهو متزمت وضد كل اصلاح . (١)

أما الشيخ طه الولي الذي قابلته يوم ١٩٧٤/١١/١٦ فقد أفادني بان الشيخ النبهاني كان من رجال القانون الاسلامي في عصره وله اسهام كبير في وضع المجلة العدلية وهي التي صيغت فيها الأحكام الشرعية بأسلوب عصري وللشيخ يوسف شروح على هذه المجلة . وكان له قيمة كبيرة لدى الأوساط

---

(١) مقابلة الاستاذ اكرم زعيتر في ١٩٧٤/٨/١٠ .

الاسلامية في بيروت ، وهو بمدائحه النبوية في عصره يعد ظاهرة تاريخية قلما تتوفر في غيره . ويمثل ظاهرة فكرية تقف بقوة ضد رشيد رضا والوهابية " .

٥ ـ ومن قابلتهم ـ أيضا ـ الشيخ محمد نمر الخطيب الذي قابلته يوم ١٩٧٤/١٢/٥ وما قاله : " والذي يظهر من قراءة ديوانه أن الرجل ـ أي النبهاني ـ كان يملك طبيعة عجيبة في الأدب وملكة واسعة في الشعر ، وبلغ بلغا عظيما من التحكم في ناصية اللغة ، وأكبر دليل على ذلك معارضاته لكبار الشعراء كـكعب بن زهير مع تميزه بالسلاسة والعذوبة وللشيخ يوسف النبهاني أشعار كثيرة في الغزل ومدح السلطان عبد الحميد ، والخلافة الاسلامية ومدح بعض الزعماء والعظماء في عصره وقد نشر بعض هذا ولكن الرجل عليه رحمة الله أراد ألا يظهر له شيء سوى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الزعماء الذين مدحهم السلطان عبد الحميد أبو الهدى الصيادي وأحمد عزت باشا العابد وكان مديح هؤلاء وسيلة لتسنمه بعض المناصب ودخوله في معترك الحياة .

وقد بلغ الشيخ يوسف النبهاني من الشهرة في العالم الاسلامي ما لم يبلغه رجل قط وخاصة عند الصوفية وأهل الطرق والصالحين خاصة في مجاهيل افريقية وفي الهند وأقاصي البلاد حيث تداول الناس كتبه بالمحبة وأعادة الطبع . وهذا بفضل حبه للرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول الشيخ الخطيب : وانا شخصيا قد اجتمعت بوزراء وعظماء من افريقية يعدون أنفسهم بيوسف النبهاني والآن أحد السفراء أو وزراء الخارجية في احدى الدول الافريقية يسمي يوسف النبهاني .

ثم قال : وقد اجتمعت بعديد من هؤلاء الأفارقة ووجدت عندهم محبة للشيخ يوسف النبهاني لا تقدر .. اجتمعت بهم في مكة المكرمة قبل خمس

سنوات وكان يهاديه سلاطين الملوك من المغرب والهند وكان رجلا معتمدا محبوبا من طبقات العلماء والفقراء والصوفية ".

٦ ـ أما الشيخ عبدالله العلايلي فقد قابلته يوم ١٩٧٥/١/٦ وهو اكثر وأدق في معلوماته عن قابلتهم لأنه كان له احتكاك باشر بالشيخ النبهاني وكانت تجري بينهما مناقشات حول بعض المسائل الخلافية ـ والشيخ عبدالله العلايلي يعرف في بيروت بأعجوبة الدهر لأنه يتقن عدة علوم اتقانا ممتازا وعندما زرته كان يضع قاموسا باللغة الفرنسية والعربية في أهم المصطلحات الفقهية .

ومما قاله عن الشيخ النبهاني : انه كان فقيها وكان رجعا كبيرا في الأحوال الشخصية ومجلة الأحكام العدلية ومرجعا من المراجع بخصوص مجلة الأحكام المدنية وهو متضلع في الأصول يعرف طرائق الاستدلال ، واستخراج الأحكام التفصيلية من أدلتها الاجمالية . عرفت ذلك من النوازل الحادثة في كثير من القضايا التي دار بيني وبينه نقاش فيها ، نعم يميل الى كثير من المتزمت مثل قضية التأمين كنت أذهب الى الحلية ما عدا التأمين على الحياة أما النبهاني فيحرم التأمين مطلقا فهو عنده غرر ، وكان يتمتع بملكة استحضار الى جانب ملكة الاستحضار ، وفي آخر أيامه انقطع للنبويات .. عند الأحناف الامتثال خير من الأدب والنبهاني يرجح أن الأدب خير من الامتثال . عظمته من الناحية الأدبية تجلت لأنه قمة من قمم الأدب الرفيع الذي عرفه القرن التاسع عشر لأن الصياغة الأسلوبية لم يأخذها من عصر التخلف وانما من المنابع الأصلية وشأنه في الأدب العربي أشبه بمحمود سامي البارودي ، بل لعله في مولده من أروع ما قيل ، يعتبر[1] أرفع من محمود باشا البارودي

---

(١) كلمة " يعتبر " خطأ شائع ، والصواب : يعد ، د . سرحان .

أصبح قمة فتح بها باب التجديد شأنه في الاحياء[١] شأن البارودي ، وشأنه في التجديد شأن اسماعيل صبري . وهو دون شوقي "

"ولما أخبرته أن الأمير شكيب أرسلان يقول عن النبهاني : " وكان من أشعر شعراء عصره " علما بأن النبهاني وشوقيا توفيا عام ١٩٣٢ م قال الشيخ عبد الله العلايلي : " الأمير شكيب يميل للتقريظ وعدم الأنانة في النقل . يساوي النبهاني شوقيا في دور الاسلاميات الدور الأخير، والمسرحيات لا يساويه كان أطوح وأعمق من البوصيري في الأغراض التي طرقها وهو متأثر " بالنقل منه ، وبالمقارنة بين ثلاث همزيات البوصيري والنبهاني وشوقي نجد البوصيري يكون قمة بسطلعها ويقترب النبهاني منه وشوقي كان على البركة . النبهاني جاري البوصيري مع الصدق الفكري المولد ، جلساتي معه كانت حوارية ومعظمها كانت تتعلق بالتصوف . كان متعلقا بالمنهج الصوفي ويقبل ما يروى عن الصوفية حتى ولو كان لا يقره فقيه وهذا ظاهر في كتابه " جامع كرامات الأولياء " . كان عنده دواية في الاعلام وقلما يخطئ في علم وعندي بعض كتبه وتعليقات بخط يده وعن النوادر كتاب للامام السيوطي اسمه لب اللباب وكثيرا ما يأخذ الشيخ يوسف على جلال السيوطي في بعض تعليقاته وهذا يدل على سعة اطلاعاته. [٢]

قال العلايلي : " ومما يدل على تبحره أني قرأت له كتاب الكليات لأبي البقاء الكفوي وقد وضع خطا تحت اسمه ولعندي كتاب خلاصة الأثر للمحبي وكتاب المرادي الذي هو تتمة لكتاب المحبي وتاريخ الخميس للديار بكري اربعة أجزاء طبع الآستانة . وكان مشاركا في فنون شتى من العقائد والأديان . كل انتفاضة على ما أعطى علما وثنا يعتبره حروبا وهو يعتبرهم

---

(١) يقصد بالاحياء اي أحياء الأدب الرفيع عقب عصر الانحطاط .

(٢) رأيت تعليقات النبهاني على كتاب " لب اللباب " للسيوطي حيث اخرجه الشيخ العلايلي من مكتبته وكان صديقنا الشيخ محمد نصر الخطيب .

المحراب فكل خروج عن سنتهم يعتبره موقفا عنده غزارة ووفرة فى الاطلاع • وقد أهملت شخصية النبهانى رغم مالها من التراث وقد قفز الشيخ يوسف بالشعر قفزة محسوبة " •

ثم سألته (١) عن المقارنه (٢) بين شعر النبهانى والشيخ ابراهيم الأحدب الذى له قصائد كثيرة نشرتها مجلتا "ثمرات الفنون" و"الجوائب" • فأجاب الشيخ الصلايلى : " ابراهيم الأحدب عنده أعمال كثيرة ولكنه تقليدى كثيرا وهو دون الشيخ يوسف كقمة (٣) وهناك عمر الأنسى فى ديوانه " المورد العذب " هو أيضا دون النبهانى " النبهانى تجىء طبقته بين البارودى واسماعيل صبرى ومن وقف شعره على الرسول صلى الله عليه وسلم الموزونى ولكن ليس بغزارة الشيخ يوسف • كان النبهانى رائدا فى المدائح النبوية فى عصر النهضة " •

وقال أيضا : " انه لم يستطع أن يكون صدى الأحداث فى عصره ، كان منزويا لخلجاته الخاصة جدا فى الجوانب الذاتية • (٤) وهو رجل طيب فى علاقته فى مجتمعه عاش فى برج عاجى لم يكن رنين الأحداث يجد لديه التجارب وهو قد عايش الأحداث الكبرى فى عصره فقابلها كأنه من الجيل الماضى " •

٧ ـ أما الشيخ مختار الصلايلى ـ أمين الفتوى فى لبنان فقد زرته فى بيته وكان

---

(١) وقد سألت الأستاذ خير الدين الزركلى فى أحدى زياراتى لمصر فى بيروت عن المفاضلة بين النبهانى والشيخ ابراهيم الأحدب والشيخ يوسف الأسير ففضل النبهانى عليهما بدون تحفظ ، وكلمات يعتبره ، ويعتبرهم ويعتبره" خطأ شائع فى المعنى المراد فيها ، ولكنه عم جميع الناس تقريبا ، د • سرحان •

(٢) الصواب الموازنة •• لا المقارنة !!! د / سرحان •

(٣) هذا تعبير غلط •• لان تشبيه الشيء بنفسه خطأ ، والصواب : القمة ، أو من حيث هو قمة •

(٤) هذه نسبة خطأ والصواب : الذوبة ، ولكن الكبار والصغار يقعون فى الخطأ دائما ، د / سرحان •

له معرفة شخصية بالشيخ يوسف النبهاني ، وبعد أن اتفاقه مع النبهاني في المنهج الصوفي ، لم يوجد بينهما اختلاف ، لذلك لم أحصل منه على معلومات كثيرة وكان ما أخبرني به عن أحوال النبهاني " أنه كان يأتي للصلاة في الجامع الكبير (١) وكان يجلس في دكان الشيخ سعد الحريري الذي كان دكانه أحد دكاكين وقف الجامع الكبير في بيروت والسبب في جلوسه هذا أن الشيخ سعد الله كان رجلا صالحا من الطريق النقشبندية ، وكان الشيخ يوسف كبيرا في وقته وكان يلبس قفازا أبيض على أصفر وأحمر ، كان رئيس محكمة الحقوق وكان محي الدين علم الدين كاتبا عنده ثم أصبح رئيس محكمة والشيخ محمد علي الأنسي الذي أصبح رئيسا الاستئناف في المحاكم الشرعية وكنت آخذ آخر الشيخ عبد الله العلايلي الى مسجد برج أبي حيدر (٢) ليعطي درسا والشيخ يوسف سمع به وأحب أن يراه وقد نصحه الشيخ يوسف ألا ينسى شيئا من القرآن لأنها كبيرة من الكبائر بل نسيان آية من القرآن كبيرة ألا يغتر بنفسه وأن يتقي الله فهو الذي يفيده في المستقبل .

٨ ـ " كما راسلت فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله كنون أسأله عما يعرفه عن الشيخ يوسف النبهاني حيث كانت له صلات بمولاي السلطان عبد الحفيظ وأخيه السلطان عبد العزيز وكانت المغرب سوقا رائجة لكتبه وأفكاره وأسأله ان كان عنده بعض قصائد الشيخ النبهاني في غير المدائح النبوية . والدكتور عبد الله كنون أستاذي في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية سنة ١٩٧٠ . وهو يسكن في طنجة في المملكة المغربية فقد وصلني منه رسالتان الأولى في صفر الخير ١٣٩٧ هـ وهذا نصها : ـ

---

(١) أحد مساجد وسط بيروت .

(٢) يقع مقابل بيت الشيخ يوسف حيث يفصلهما شارع .

أ ـ الحمد لله .. وصلى الله على سيدنا محمد وآله

طنجة في ٦ صفر الخير ١٣٩٧ هـ

محل الابن العزيز الأستاذ عيسى محمد على الماضي دام حفظه ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تسلمت خطابكم الكريم وسررت به جدا لما أفادني عن ترقيكم في مدارج المعرفة التي وصلتم الى قمتها زاد الله في فضلكم وأطفركم بمناكم .

وموضوع رسالتكم للدكتوراه موضوع مهم والشيخ يوسف النبهاني رحمة الله عليه في ميدان الشعر فارس لا يشق له غبار لا سيما في الأمداح النبوية وحقيقة أن كتبه كانت رائجة في المغرب لأن نزعته الصوفية كانت سائدة حينئذ في هذه البلاد ومن شجاعة علاقته بالسلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ فان شأن الملوك الاتصال بالمشايخ الذين لهم نفوذ روحي في نفوس رعاياهم ، وليس عندي شيء يتعلق بهذا الجانب كما أنني لا أملك شيئا من شعره في غير المديح النبوي المنشور ... هذا ولا أحالكم الا تعرضتم لمعاركه الكبرى مع علماء الاصلاح الديني في وقته من أجل تحامله على الامامين الصلحين ابن تيمية وابن القيم في كتابه " شواهد الحق " وعلى المفسر الكبير الألوسي ومقظ الشرق الأفغاني والشيخ الامام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا وغيرهم وذلك في رائيتيه الكبرى والصغرى وغيرها من مؤلفاته وقد ردوا عليه ردودا عديدة منها كتاب " غاية الأماني " للألوسي ، اننى أدعو لكم بالتوفيق وبالتفوق وسأسر مرة أخرى سرورا عظيما حين أسمع باجازة رسالتكم ..

وتحياتي مع مودتي الخالصة .

التوقيع عبد الله كنون

ثم أرسلت له رسالة ثانية أستشيره فى بعض الآراء النقدية حول مدائح النبهانى النبوية وامكان موازنتها بمدائح البوصيرى أو شوقى . وحول منازعة النبهانى لشوقى فى امارة الشعر بمقدار ما توفر لنا من شعر النبهانى سواء فى المدائح النبوية أم فى غيرها وأرفقت مع الرسالة قصيدة النبهانى فى مدح أحمد عزت باشا العابد راجيا ابداء وجهة نظره النقدية للقصيدة فأجابنى بخطاب هذا نصه .

ب ـ الحمد لله

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

طنجة فى ٥ ربيع الثانى ١٣٩٧ هـ

محل الولد العزيز الأستاذ الباحث المطلع عيسى الماضى ... دام حفظه ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وبعد فقد وفانى خطابكم الكريم وقصيدة الشيخ يوسف النبهانى فى مدح الوزير أحمد عزت باشا وهى حقيقة قصيدة عصماء تمثل شاعرية النبهانى أحسن تمثيل فى هذا اللون من الشعر أعنى المدح ، وهى كغيرها من شعره قمة فى البلاغة والاحسان ، ولا نزاع فى أن النبهانى رحمه الله كان من أكبر شعراء عصره وأبلغهم قولا وأحسنهم ديباجة وهو ما يدل على استكمال أدواته وفيض قريحته لكن ما يلاحظ عليه قلة ابداعه فهو يغرف من منهج الشعراء الذين تقدموه ويجيد فى ذلك غاية الاجادة ، من غير اضافة شىء جديد من المعانى التى طرحتها الحياة العصرية فى ساحة الفكر والعلم والأدب والمعارف الانسانية على العموم وبذلك فالمفارقة اذا تتضح .. بينه وبين أولئك الشعراء الذين كان يقتفى آثارهم ويترسم خطاهم وأخصهم البوصيرى فاذا قورن به جاز ذلك ويكون من باب وضع الشىء فى محله وانصاف الرجل وعدم التجاوز به مما قدر له . أما شوقى وحافظ فشىء آخر .. كان شوقى شاعر عصره بكل ما فى

الكلمة من معنى استوعب ثقافة القدماء المحدثين وخاطب جيله بما يتطلع اليه من أفكار وما ينتظره من مشاعر ويعيش زمنه وذلك في بلاغة وتمكن من ناحية القول لا يقلان عما كان للنبهاني من ذلك لكن النبهاني لا يحسن أن يقول مثل قول شوقي في المديح النبوي الذي هو فن النبهاني الذي اختص به وكاد يقصر نفسه عليه :

دع عنك روما وآثينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوم (١)

وحل كسرى وايوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم (٢)

واترك رعمسيس ان الملك مظهره ... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها القت يد السلم (٣)

ما غاورتها بيانا عند ماتئم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم (٤)

ولا احتوت في طراز من قياصرها ... على رشيد وأمون ومعتصم (٥)

وشوقي في قصيدته نهج البردة يقول :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم (٦)

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم (٧)

وهل يحسن النبهاني أن يقول ما قاله شوقي في رثاء الأندلس الجديدة :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام

ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والأيتام

يا حامل الآلام عن هذ البرى ... كثرت عليه باسمك الآلام

أنت الذي جعل العباد جميعهم ... رحما وباسمك تقطع الأرحام (٨)

---

(١) التوم جمع توم وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .
(٢) الايم الدخان (٣) السلم التسليم .
(٤) ملتأم مجتمع .
(٥) الطراز الجيد من كل شيء هذه الابيات موجودة في الشوقيات ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .
(٦) العمم ـ اسم جمع للعمامة (٧) الشوقيات جـ ١ ص ٢٥١ .
(٨) الشوقيات جـ ١ ص ٢٩٠ .

فاذا انتقلنا الى الموضوعات والأغراض العامة ولا سيما المسرحيات التى أضاف بها فنا جديدا الى الأدب العربى واجهنا ..... (١) مما لا الم للنبهانى به ولا تحويم له عليها ذن فلا مجال للمقارنة بينهما واحرى ان يقال انه يزاحم شوقى على امارة الشعر .

ومثل شوقى حافظ وان كان دونه بدرجات ولنقم موازنة بين عبرية حافظ فقط وما قاله النبهانى فى مدح الصحابة عموما نجد أن البون شاسع البعد ، بين الشاعرين فيما بينا ولأنه من معانى وأغراض وتجاوب حافظ مع معاصريه (٢) والحين الذى عاش فيه وبعد النبهانى عن ذلك ولذلك كان صدى النبهانى عظيما عند الأقوام الذين يقعوا على هامش الحياة العصرية وخاصة رجال الطرق وبعض أهل العلم الذين كانوا ينظرون الى الثقافة الحديثة نظرا شزرا وعليه فهو رحمه الله من الشعراء الذين تأخر بهم الزمن عن نظرائهم ولعله أن يكون خاتمتهم .

هذا ما أمكننى كتابته الآن على عجل وما أنا عليه من حالة مرض ولا أجد فيها نشاطا للتوسع أكثر وعسى أن يكون فى هذا القليل بلاغ وتعبير عن الرأى فى هذه القضية التى عرضتموها وتناولتموها فى بحثكم عن الشيخ النبهانى تغمده الله برحمته وجزاكم خيرا على الاعتناء به ووضع رسالتكم فيه .

وتقبلوا فائق التحية وخالص دعواتى لكم

بالتوفيق والنجاح والسلام ،،،

التوقيع

عبد الله كنون

---

(١) يوجد بعض الألفاظ التى لم أستطع قراءتها لأنها مكتوبة بالخط المغربى القديم .

(٢) خطأ شائع مع أنه غير موجود فى اللغة . ،، د / سرحان ..

٩ ـ كما قابلت الأستاذ محمد عزة دروزة يوم ٤/ ٢٨/ ١٩٧٤ في بيته بدمشق ثم قابلته عدة مرات في مصيف الزبداني حيث كان يقضي فصل الصيف وكان مما قاله عن الشيخ يوسف النبهاني " انه شاعر كبير يعتبر[1] أغزر شعراء فلسطين انتاجا وأطولهم نفسا ولكنه نظام أكثر منه شاعرا جماليا فنيا . كذلك حافظ ابراهيم فانه نظام أكثر منه شاعرا أما شوقي فانه شاعر أكثر منه نظاما والفرق بين النظام والشاعر أن الشاعر أعمق شعورا من النظام .

والنبهاني مالك لناصية اللغة واللغة طيعة له والألفاظ طيعة معه وشعره مستساغ وليس فيه تعقيد أو غموض لكنه يغلب عليه معنى النظامية بقدر ما هو مغرق في المديح النبوي عندما يشتم الناس يقذع اقذاعا عجيبا في ذم الأفغاني ومحمد عبده لدرجة الافتئات والنبهاني لم يكن منفردا في عدائه لمحمد عبده في وقت وجوده .

في أوائل القرن العشرين وجدت تيارات اسلامية محافظة تقليدية وتيارات مجددة ويمكن أن يعد محمد عبده والأفغاني ورشيد رضا من المجددين الاصلاحيين وليس هناك فيما قالوه وكتبوه مايبرد[2] الحكم بفسقهم أو خروجهم من ربقة الدين .

على كل حال كان يذكر محمد عبده وقوع حوادث كثيرة له مع الأزهريين مما يدل على وجود خصام فيتهمونه بالشذوذ وضعف الدين .

وفي ١٥/ ١١/ ١٩٧٤ قابلته في بيته في دمشق وناقشته في بعض المسائل فقال " النبهاني شاعر نظام ونفسه طويل ومالك ناصية اللغة وبرع في مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عصرنا الحاضر يعتبر الشيخ النبهاني أكثر شعراء عصره مديحا ولم يؤثر عن الشعراء مديح للرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما أثر عنه حينما يقارن بين ما نظمه الشعراء قديما وبين ما نظمه هو وذلك استنادا الى مجموعته التي أورد فيها كثيرا من قصائد السابقين .

نجد أنه أغزر مادة وأطول نفسا وأكثر قصائد مديح . وشوقي له قصيدة يعارض

---

(١) خطأ شائع صحته : يعد ، د . سرحان .

(٢) خطأ شائع أيضا والصواب : يسوغ ، د . سرحان .

بها البردة وهو أجـــود .

وقد سألت الأستاذ دروزة : " هل يصح أن تقول ان شوقيا كان محترفا للشعر لذلك كان شعره أجود فنيا أما النبهانى فكان غرضه التعبير عن المعانى فقـــط دون الالتفات الى فنيـة الشعر ؟ .

فأجاب " الشعراء الصوفيون لا يهمهم الفنية الشعرية بمقدار التعبـــير عن مواجيدهـــم " .

وسألته عن تفسير النبهانى للقرآن .

فأجاب : " يعتبر[1] تفسير الشيخ النبهانى أحسن ما كتب فى مثله وأقواه وفيه يتضح فهم الشيخ النبهانى للقرآن فهما عميقا دقيقا ، وهو شرح موجز للقـــرآن على طريقة البيضاوى والجلالين ولكنه أكثر ايجازا واختصارا منهما ، وشرح النبهانـــى شرح واضح يدل على فهمه الحسن لمعانى القرآن ولمراميه ولغته " [2] .

وفى مقابلة معه يوم ١٧/ ١١/ ١٩٧٤ أحضرت ديوان النبهانى وطلبت منه ،أن يقرأ مدائحه النبوية لعله يراجع قوله ان " النبهانى نظام أكثر منه شاعرا " فقـــال :

" النبهانى نظام أكثر منه شاعرا وهو نظام ماهر وليس صفات كلام ، شـــــاعر بليغ ولكنه من نوع الشعر الذى يفتقد جمال الشعرية عندما تقرأ للبحترى وابن الرومـــى تقرأ شعرا فيه جمال شعرى " ـ والنبهانى مقذع يستعمل ألفاظا مقذعة لا تليـــق بعالم متزن يشتم مدرسة الأفغانى شتائم عندما يقرؤها الانسان ويطلع على حصيلـــة أعمال مدرسة الأفغانى لا يسعه الا أن يتقزز .

يجوز أن يكون فيه ـ أى : النبهانى ـ شئ من الاندفاع الدينى . والنبى وصف المسلم بأنه ليس الطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذئ ، والخروج عن هذا الحديث خروج عن آداب الاسلام ، والله تعالى يقول " ولا تسبوا الذين يدعون مـــن دون اللـــه " [3] .

---

(١) استعمال شائع ولكنه خطأ ، والصواب : يعد ، أو يحسب ، د . سرحان .

(٢) علما بأن الاستاذ دروزة له تفسير للقرآن الكريم يسمى التفسير الحديث من اثنى عشـــر جزءا .

(٣) الآيـة ١٠٨ من سورة الأنعام .

هناك تياران تيار متجدد وتيار متمسك بالقديم تصادم التياران قبل أن يتصادم النبهاني مع الشيخ الأفغاني ، فانبرى لمحمد عبده وتياره علماء الأزهر وانتشرت هذه الظاهرة الى بلاد الشام فبدت الأفكار المستجدة مخالفة لما عليه الناس ، وانبرى المقلدون يفسقونهم وفي اعتقادي أنهم ليسوا على الصواب لأنهم لم يقرعوا الحجة ولم يلتزموا الانصاف . والنبهاني كان مرمى المركز ويهاب الناس لسانه ، كان جريئا في القول والطعن ، واندفاعه منبثق عن غيرة دينية في حين يعتقد أنهم منحرفون عن الاسلام ـ يجب أن ننصفهم من حملته عليهم ، كان عليه أن يأتي بأقوالهم ويفندها . وليس في ذهني أنه كان يمالئ السلطة القانونية العثمانية ضد الحركة الوطنية " ولم يهاجم الوطنيين كما فعل أسعد الشقيري وشكيب أرسلان ومعروف الرصافي وعبد العزيز شاويش . النبهاني كان دينيا أكثر منه سياسيا ، والذي يستقر في ذهني الآن أنه رجل اسلامي ديني وليس عثمانيا أو سياسيا . أعود وأكرر أنه أكبر شاعر فلسطيني من حيث النظم وليس في فلسطين شعراء لهم دواوين يضاهونه ، الشيخ يوسف فصيح انقادت له اللغة ولكنه ليس شاعرا جماليا " .

خلاصة القول :

هذا هو كل ما استطعت أن أجمعه من أخبار الشيخ يوسف النبهاني المدونة في الكتب أو المشافهة من العلماء الذين كانت لهم به صلة شخصية أو أدبية ويهمني أن أقرر أنني لم أسمع عن كتاب عنوانه للشيخ النبهاني بالحديث الا رجعت اليه وذكرت ـ خلاصته ، أما العلماء فلم يصل لعلمي أن هناك عالما ـ أستطيع مقابلته ـ ولديه معلومات عن الشيخ النبهاني الا بحثت عنه وزرته ومن لم أستطع زيارته راسلته مثل الدكتور عبد الله كنون الذي يعيش في طنجة بالمغرب .

والذي لا حظته على الكتب التي كتبت عن الشيخ النبهاني أنها ذكرته على سبيل الترجمة والتعريف المعتمد على شهرته ومكانته ، وأفضل من كتب عنه هو الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه " حياة الأدب الفلسطيني " والدكتور كامل السوافيري في كتابه " الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر " .

١ ـ فالدكتور ياغي ـ وان كانت دراسته للنبهاني دراسة جانبيه دون تقص واطلاع كامل على مدائحه النبوية حكم عليه من خلال موازين الأدب في عصره ، ومن هنا جاءت نظرته موضوعية ولكنها مشتتة حيث انه لم يكون فكرة متكاملة ـ كما ينبغي ـ

عن مدائح النبهانى النبوية لأنه اطلع عليها متفرقة ، كما يبدو أنه لم يطلع على ديوان النبهانى " العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية " لأنه لم يذكره فى مصادر القصائد ولو تسنى له الاطلاع عليه لتكونت لديه فكرة كاملة ـ عن مدائحه النبوية ـ تفيده وتفيد قارئه فى اعطاء النبهانى حقه بين شعراء عصره بشكل خاص ، وشعراء المدائح النبوية بشكل عام ، كما أنه لم يطلع من شعر النبهانى فى غير المدائح النبوية على غير الأبيات التى شهرت لأن الأمير شكيب أرسلان استشهد بها وهى قول النبهانى :

ويممت دار الملك أحسب أنها ... الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما

الى آخر الأبيات .

والدكتور ياغى يصرح بريادة النبهانى للشعر فى عصر النهضة معتمدا على أربعة أسباب كما يبدو مما كتبه وهى :

١ ـ تصدير مؤلفاته ثم ختمها بالشعر من حيث هو مظهر من مظاهر النهضة .

٢ ـ التخاميس التى تستوعب الأغراض الدينية .. فيما صقله الشكل مما يجعل الشعر أقرب ما يكون الى أنغام الصوفية .

٣ ـ المقدرة التعبيرية القديمة التى مضى عليها أجيال ، ويظهر ذلك فى قصيدته التى عارض بها " بانت سعاد " .

٤ ـ تطويعه الشكل الشعرى لشتى الأغراض كالجدل الكلامى وتشكيل المعانى حسب القوافى مما جعله لاعب ألفاظ ماهرا ويطل أشكال تعبيرية مطاطة .

٢ ـ وأما الدكتور السوافيرى فهو أيضا لم يطلع على ديوان النبهانى فكانت نظرته لمدائح النبهانى النبوية نظرة مشتتة كما أنه لم يطلع على قصائده فى غير المديح النبوى فكانت معرفته لشعر النبهانى ناقصة ولكن الدكتور السوافيرى نظر لمدائح النبهانى نظرة خارجة عن مفهوم الشعر فى عصر النبهانى اذ جعل السبب فى تأخر شعر النبهانى عن غيره أنه لا يتقن لغة أجنبية [1] وليس لديه اطلاع على الحضارة الغربية الحديثة وما انبثق عنها

---

(١) يبدو أن الدكتور السوافيرى متأثر بالشيخ محمد عبده الذى يقول " .. لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شئ من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى الا اذا كان يعرف لغة أوروبية " .
تاريخ الاستاذ الامام جـ ١ ص ١٠٥ ...

من نهضة اجتماعية .

وهو بهذا يحكم على شعر النبهانى بالجمود والاضمحلال وبأنه امتداد لعصور الانحطاط وأن شعره لا يزيد عن كونه منظومات خالية من العاطفة والشعور وهى شبيهة بالمنظومات التى قيلت فى النحو والفقه لتيسير حفظها على طلبة العلم وهو نفس ما ردده الدكتور ناصر الدين الأسد .

والمفروض فى الناقد أن يعيش عصر الشاعر ليحكم عليه من مفاهيم عصره ثم يتسلل الى عقليته وفكره ليدرس ذاته ووجدانه ليرى مدى صدقه العاطفى ، ولعل النظرة العاجلة من الدكتور السوافيرى لشعر النبهانى زينت له هذا الحكم . وهو لا يعلم أن النبهانى طمس كل أشعاره فى مدح سلاطين ووزراء عصره ليكون صادقا مع عاطفته فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأى عاطفة أصدق من عاطفة النبهانى عندما توجه الى الخديوى عباس حلمى باشا يطلب رفده - اثر عزل النبهانى من وظيفته - ولم يقدم بين يديه قصيدة فى مدح الخديوى بل قدم له مدائحه النبوية ، وأى عاطفة أصدق من تحمل النبهانى الاضطهاد والتهديد اثر مقاومته للتبشير المسيحى فى عاصمته بيروت وهو بمفرده بعيدا عن أهله ووطنه ثم يتحمل الديون لأجل طبع كتبه دون أن يحصل على ربح بل يجعل حق طبعها مشاعا لجميع المسلمين . وأى عاطفة أصدق ممن يصاول ويصادم مدرسة الأفغانى المسيطرة على عقلية الناشئة المسلمة فى وقتها .

كل هذا وغيره يبطل الحجة التى بنى عليها الدكتور السوافيرى حكمه على شعر النبهانى وكان الأحرى به أن يسير على أسس منطقية فى نقده .

يقول فرفوريوس تلميذ أرسطو : " من لم يؤمن بالميتافيزيقية فعليه أن يتفلسف ميتافيزيقيا - أى : من لم يؤمن بالميتافيزيقية وهى علوم ما وراء الطبيعة فعليه أن يبطلها بحجج ميتافيزيقية .

ويقول المناطقة : " الحكم على الشئ فرع عن تصوره " .

ورحم الله الامام الغزالى ، فهو عندما ثبت له بطلان دعوى الفلاسفة . كتب " مقاصد الفلاسفة " شرح فيه نظريات الفلسفة بأوضح وأفضل أسلوب ثم كتب كتابه الشهير " تهافت الفلاسفة " فكان الضربة القاصمة حتى قيل : ان الفلسفة لم تقم لها قائمة بعد كتاب الغزالى هذا . وقد لام بعض العلماء الامام الغزالى

على كتابه الأول .. لأنه وضح النظريات الفلسفية وجلاها أفضل من أصحابها ، وقالوا له " أشرحت مقاصدهم حاضرا وردت عليهم نسيئة " ، .. أى : أن شرحه لمقاصد الفلاسفة كان أقوى من رده عليهم . ولكن الغزالى نهج طريقا منطقيا ، ولذلك يؤثر عنه قوله : " من لا معرفة له بعلم المنطق لا يوثق بعلمه " .

ومثل هذا أيضا ما ذكره بعض الأكابر من أن بعض أهل الظاهر من عصر الحافظ بن حجر كتب على القصيدة التائية لابن الفارض شرحا وأرسله الى بعض علماء صوفية الوقت ليقرره فيه فأقام عنده مدة ثم كتب عليه عند ارساله اليه :

سارت مشرقة وسرت مغربة ... شتان بين مشرق ومغرب

فقيل له فى ذلك فقال : " مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدأ والخبر والجناس والاستعارة وما هنالك من اللغة والبديع ومراد الناظم وراء ذلك كله [1] .

والدكتور السوافيرى يعود ليثنى على مدائح النبهانى بقوله : " ويهتف بنا العدل أن نسجل لقدرة الفائقة لدى النبهانى على تطويع اللغة لموضوعات نظمه المختلفة فى النواحى الدينية والتاريخية والمدائح النبوية ، وعلى التصرف فى الأوزان ، والقوافى والبحور المتعددة التى نظم منها ، ونكبر فيه اتساع طاقته وطول نفسه فى قصائده التى تشهد بها معارضته للأبوصيرى فى همزيته ولكعب بن زهير فى قصيدته " بانت سعاد " حيث بلغت الأولى ألف بيت وبلغت بعض قصائده سبعمائة وخمسة وعشرين بيتا مع وحدة الوزن والقافية [2] .

ولو دققنا النظر للاحظنا أن ما ذكره الدكتور السوافيرى هنا هو النقاط الأربع التى ذكرناها للدكتور ياغى نفسها والدكتور السوافيرى غير دقيق فى حكمه على شعر النبهانى فهو يقرر أن شعر النبهانى بانتمائه للأمة العربية بدأ منذ قوله " ويممت دار الملك أحسب أنها .. الأبيات " .

---

(١) المناوى الكواكب الدريه ورقة ٣٥٤ ـ مخطوط ـ نقلا عن الادب الصوفى فى مصر ص ١١٠ .

(٢) الاتجاهات الفنيه ص ٤٤ ، وذكر العدد خطأ ، والصواب : خمسة وعشرين وسبعمائة بيت ، د . سرحان .

يقول الدكتور السوافيري : " .. والقصائد القليلة النادرة التي ارتفعت قيمتها الفنية في هذا الشعر والتي تتمثل في أبيات النبهاني عندما زار دار الملك فلم يلق فيها المجد الا توهما بدأ يحس بأنه من أمة عربية يرى العثمانيون الزنج أكرم منها " (١) .

أقول : ان النبهاني الذي مدح السلطان عبد الحميد الذي حمى البلاد العربية من هجمة الاستعمار الغربي قرابة ثلاثين عاما والذي فرط في عرشه مقابل عدم التفريط في شبر من أرض فلسطين ، والنبهاني الذي مدح أبا الهدى الصيادي العربي الحلبي وأحمد عزت باشا العابد العربي الدمشقي أيضا واللذين يمثلان النفوذ العربي في السلطنة العثمانية ثم النبهاني الذي قصر شعره وأدبه على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم النبي العربي كل هذا لم يحسب له انتماء لأمته العربية الا في قوله :

ويممت دار الملك أحسب أنها ... الأبيات " .

في حين أن هذه الأبيات قالها في قصيدة يمدح بها أبا الهدى الصيادي بعد عزل السلطان عبد الحميد .

ويبدو أن الأحوال قد تغيرت الى غير ما كان النبهاني يعرفه ، ولو لم يكن لدى النبهاني الاستعداد الديني والوطني فكيف يهجم العثمانيين وهو موظف في دولتهم ولا يملك من مصادر الرزق الا ما يتقاضاه منهم من مرتب ولو راجع الدكتور السوافيري مقدمة كتاب " النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي " للغمراوي التي كتبها شكيب أرسلان لعرف شخصية النبهاني العربية تمام المعرفة .

ان هذا كله يؤيد ما قلناه من أن الدكتور السوافيري غير دقيق علميا في أحكامه على شعر النبهاني بأنه مجرد نظم شبه منظومات الفقهاء لبعض العلوم . ومن يدقق في حكم الدكتور السوافيري على شعر النبهاني يلاحظ أنه قد أخذ من الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور عبد الرحمن ياغي حتى أنه استعمل نفس العبارات ونفس الألفاظ تقريبا دون أن يشير الى ذلك في مراجعه .

أما العلماء الذين نقلت عنهم أخبار النبهاني مباشرة وشخصيا فقد زرتهم في بيروت ودمشق ومعرفتهم للشيخ النبهاني معرفة عاطفية لما اشتهر عن النبهاني من أنه

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

حسان زمانه ، ولم تكن معرفة بحث ودراسة ، وأفضل من قابلته من هؤلاء العلماء رأيا هو الشيخ عبدالله العلايلي لأنه احتك بالشيخ النبهاني وكانت بينهما نقاط اختلاف وحصل بينهما نقاش حول بعض المسائل .. هذا الى سعة علم الشيخ عبدالله العلايلي وتنوع ثقافته واطلاعه على دواوين شوقي والبارودي واسماعيل صبري وغيرهم بالاضافة الى عقليته المتفتحه التي هيأت له نظرة موضوعية في مدائح النبهاني أفضل من غيرها .

أما الدكتور عبدالله كنون فقد كان عصريا ومنطقيا في نظرته لمدائح النبهاني فهو يعترف بفضل النبهاني وقوة شاعريته وأنه فارس لا يشق له غبار وأن مدائحه النبوية من قمم الأدب الرفيع (١) وقد كان منطقيا في تفضيله الموازنة بين النبهاني والبوصيري لا بين النبهاني وشوقي ـ لأن النبهاني والبوصيري كلاهما من مدرسة تقليدية واحدة أما النبهاني وشوقي فهما من مدرستين مختلفتين اذ أن شوقيا وان كان تقليديا في أسلوبه وتعابيره يعد عصريا بمعانيه وأفكاره لانه درس في فرنسة واطلع على الحضارة الغربية والموازنة عادة تكون بين الشئ ومثيله والدكتور عبدالله كنون أجاز الموازنة بين عصرية حافظ ابراهيم ومدائح النبهاني للصحابة من باب ضيق لأنهما تشابها في الموضوع الذي طرقاه ولكن نفسيتهما مختلفتان تماما اذ أن ، حافظ ابراهيم شاعر عصري اطلع على الثقافة المصرية اطلاعا واسعا فأثرت في عقليته وأسلوب تفكيره ، ولا شك أن هناك اختلافا واضحا وبينا بين نظرة النبهاني لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين نظرة حافظ ابراهيم . فالنبهاني كان بعيدا عن ثقافة عصره وعلومه حيث انه أخذ الثقافة العربية من مصادرها القديمة لذلك جاء شعره نمطا قديما غير متأثرا بالحالة الثقافية لعصره . وربما يكون بعد النبهاني عن ثقافة المصر لأن هذه الثقافة كانت تأتي من المدارس التبشيرية أو من الصحف التي تخرج أصحابها من هذه المدارس أو تلقوا علومهم في البلاد الأجنبية فجاءت أفكارهم غير نقية اسلاميا فيها الكثير من عصرية المفاهيم الاسلامية ، وربما يكون بعضها فيه مخالفة صريحة للأحكام الاسلامية ولكن النشأة التي نشأها هؤلاء جعلتهم يتقبلونها بلا غضاضة أو اكتراث وهذا عكس ما عليه الشيخ النبهاني الذي بقي معتكفا في قريته "اجزم" يتعلم على والده الأزهري القرآن والمتون بروح صوفية خالصة الى أن أصلب عوده فأرسله والده الى الأزهر فأخذ العلم عن مشايخ الأزهر الذين يشابهونه

---

(١) مما يعطي أهمية كبيرة لرأي الدكتور كنون أنه من المشتغلين بالأدب والنقد .

فى التفكير من أمثال الشيخ الشربينى والشيخ الأنبابى وغيرهما وجلس النبهانى الى الأفغانى ولكن سرعان ما اطلع الأول على أفكار الثانى فابتعد عنه وهجره لأنه تكلم بكلام لم يألفه أو نشأ وتربى على أنه خروج عن الدين ومن هنا نقول ان الذى صقل شخصية النبهانى وحدد مسارها هو والده الشيخ اسماعيل النبهانى رحمه الله وصدق أبو العلاء المعرى فى قوله :-

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه

وممن يجذب انتباهنا من العلماء الذين قابلتهم الأستاذ محمد عزة دروزة • فهو يحط من منزلة النبهانى فى الشعر ويعده ناظما لا شاعرا • والحقيقة أن الأستاذ دروزة كان منفردا فى حكمه هذا من بين جميع العلماء الذين قابلتهم •

وينبغى ملاحظة أشياء هى أن الأستاذ دروزة كان - يوم زرته - فاقدا لحاسة السمع تماما ، فكنت أسأله عن طريق الكتابة وهذا لم يتح لى فرصة أن أناقشه فى رأيه كما أنه لم يتصل بالشيخ النبهانى اتصالا مباشرا فمعرفته به كانت عن طريق شهرة النبهانى فى عصره •

والأهم من ذلك أن الأستاذ دروزة معروف بدراسته التاريخية والاسلامية ذات الصفة التاريخية وليس له مؤلفات فى الأدب ففى دار الكتب المصرية وجدت له واحدا وعشرين مؤلفا منها تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم - الدستور القرآنى فى شؤون الحياة حول الحركة العربية الحديثة ستة أجزاء - تاريخ الجنس العربى فى مختلف أطواره ثمانية أجزاء - تاريخ العرب والعروبة فى حقبة التقلب التركى من القرن الثالث عشر حتى القرن الرابع عشر الهجرى ثلاثة أجزاء - التفسير الحديث للقرآن الكريم اثنى عشر جزءا - عصر النبى عليه الصلاة والسلام وبيئته قبل البعثة - القرآن والمرأة - مأساة فلسطين - تركيا الحديثة - [1] مشاكل العالم العربى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية - فلسطين وجهاد الفلسطينيين فى معركة الحياة والموت ضد بريطانيا [1] - والصهيونية العالمية - عروبة مصر فى القديم والحديث وغيرها من الكتب وهو دائم البحث والتأليف وعندما زرته كان يعد كتابا للطبع عن الجهاد فى الاسلام • هذا والأستاذ دروزة من دعاة النهضة العربية الحديثة الذين

---

(١) فى الأصل : تركيا الحديثة وبريطانيا وهو خطأ نحوى صوابه ما أثبتناه ، د• سرحان •

خرجوا على الدولة العثمانية وهو يسير فكريا مع مدرسة الأفغانى ، ولذلك يوجد نفور نفسى بينه وبين أفكار النبهانى الصوفية كما أن الأستاذ دروزه لم يطلع على شعر النبهانى فى غير المديح النبوى ، وعلى أى حال فان رأى الأستاذ دروزه فى مدائح النبهانى النبوية من الناحية الفنية لا يقف أمام اجماع الآخرين على المكانة الأدبية الرفيعة لمدائح النبهانى النبوية بشكل خاص وشعره بشكل عام .

* * *

والى هنا ينتهى ما وفقنى الله تبارك وتعالى الى اتمامه ، والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه ، وأن يكتب لنا التوفيق والسداد انه أكرم من سئل وخير من أجاب

"الباحث"

عيسى محمد على منصور

القاهرة فى ١٥/ ٧/ ١٩٧٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى صفحة ١١٤٥
نحو تعميم صفحة

الخاتمـــة

حمدا لله الذى بفضله وتوفيقه تتم الصالحات ، وشكرا له سبحانه أن وفقنى لانهاء هذا البحث الواسع الفسيح الذى لم أدخر جهدا فى استكمال جوانبه على تعددها وانتشارها ، وأسأله تبارك وتعالى أن يتقبله خالصا لوجهه الكريم وحبا لرسوله الأمين : الذى لا تنتهى فضائله ولا تحصى مناقبه مهما بالغ الفصحاء أو أسهب البلغاء ـ وقد أثنى عليه مولاه حيث قال : " وانك لعلى خلق عظيم " .

وبعد : فهذا بحث مستقرئ مستكنه يدور حول الشيخ يوسف النبهانى ومدائحه النبوية وقد تم تكوينه وتلوينه من أربعة أبواب وعدة فصول وأجزاء .

أما الباب الأول " عصره وبيئته " : فقد كان هدفى الأول ابراز الأطوار التى مرت بها الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية التى أدت الى ضياع فلسطين وبالنسبة الى الحياة الاقتصادية تبين لى ضعفها الشديد شأن باقى الولايات العثمانية الأخرى وخاصة بعد الاحتلال الانجليزى الذى أرهق الاقتصاد الفلسطينى نتيجة للأعباء المالية التى فرضتها حكومة الانتداب والتى كانت تفوق أضعافا مضاعفة ما كانت عليه الحال فى سورية ولبنان .. بالاضافة الى القضاء على الصناعات الفردية التى هى القاعدة العريضة للصناعة وانحسار الصناعات الكبرى التى لا يملكها الا أفراد محدودون .

ونحن نلاحظ كثرة اللجان الاقتصادية التى كانت حكومة الانتداب تؤلفها لدراسة أسباب ضعف الاقتصاد الفلسطينى وكيفية النهوض به وقد اتفقت تقارير هذه اللجان فى توصياتها على ضرورة مساعدة الفلاح الفلسطينى ماليا وفنيا ليتمكن من اللحاق بالفلاح اليهودى ولكن حكومة الانتداب لم تنفذ أيا منها مما يؤكد لنا أن المقصود من هذه اللجان كان متابعة أحوال الضعف فى الاقتصاد الفلسطينى لاحكام الاجراءات الكفيلة باقامة الوطن القومى اليهودى المنصوص عليه فى صك الانتداب .

أما الحياة الثقافية فقد تكلمت فيها عما قبل الاحتلال البريطانى وما بعده وقد كانت مظاهر الحياة الثقافية متمثلة فى التعليم والطباعة والصحافة والأندية

والجمعيات الدينية والاذاعة وقد كان التعليم أكثرها أثرا وكانت العاطفة الدينية هي المسيطرة على الحياة الثقافية بجميع مظاهرها . فالتعليم العثماني بما يحمله من مظاهر الضعف كان مقصورا على المسلمين أما غير المسلمين فقد استفادوا من الامتيازات الممنوحة لهم لتحسين أوضاعهم التعليمية بصورة عصرية تحت رعاية الدول الغربية التي كانت تمدهم بالمعونات اللازمة . وكانت هناك مدارس أجنبية تعنى بلغتها الوطنية وكانت لا يلتحق بها الا أبناء الطوائف وأبناء وجهاء المسلمين كما أثرت الارساليات التبشيرية في مظاهر الحياة الثقافية حيث لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يتورعون عن الحاق أبنائهم بمدارس الارساليات التي تدخل الثقافة المسيحية ضمن العلوم العصرية الأخرى .

وفي فترة الانتداب البريطاني ظهر نشاط واضح في الحركة الثقافية عامة والتعليم خاصة حيث بنيت على أسلوب خاص بشكل هرمي فتوسعت دولة الانتداب في المدارس الابتدائية وقللت من المدارس الاعدادية ثم زادت الضغط في المدارس الثانوية وذلك حتى تخلق قاعدة عريضة من غير الأميين والموظفين الذين يستهلكون بضائعها دون أن يكون لهم ثقافة عالية تؤهلهم لقيادة شعبهم نحو الاستقلال وقد كانت هذه الخطة التعليمية مطبقة في فلسطين من بين سائر المستعمرات البريطانية. وفي عهد الانتداب البريطاني نشطت مدارس الطوائف والارسالية التبشيرية حيث أثرت في الحياة الثقافية عامة وجعلتها بعيدة عن الاسلام .

ويظهر هذا واضحا في المظاهر الأخرى للحياة الثقافية من صحافة وطباعة وجمعيات أدبية وثقافية فقد كانت جميعها بعيدة عن الاسلام متأثرة بالوضع الثقافي العام . كل هذا ولّد رد فعل شديدا لدى الشيخ النبهاني وأضرابه الذين وصف المستعمرون أفكارهم بالتعصب الديني .

أما الحياة السياسية فقد عاش النبهاني في أيام الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد بلغت منتهى الضعف وأصبحت هدفا للطامعين الذين اتخذوا من أكذوبة حماية الأقليات وفرية تحرير الشعوب حجة لتدخلهم توطئة لاقتسام أملاك الدولة العثمانية وهذا ما عرف في المحيط الدولي بالمسألة الشرقية وقد كانت حملة ابراهيم باشا التي احتل بها الجزيرة العربية وسورية وجزء من تركية اختبارا أخيرا

لقوة الدولة العثمانية التي استفادت من التنافس الاستعماري بين روسية وفرنسة وبريطانية في الحفاظ على حدودها السياسية ردحا من الزمن ، فلا تكاد أطماع فرنسة تظهر في بلد ما حتى تقف الدول الأخرى الى جانب الدولة العثمانية لمساعدتها ولكنها جميعا كانت تتفق في تحقيق أطماعها عن طريق علاقتها الدينية بالأقليات المسيحية في الدولة العثمانية وقد اضطرت هذه الدولة لمنح امتيازات عديدة لهذه الأقليات التي سيطرت على الحياة الثقافية والاقتصادية وكان نصيب المسلمين هو الفقر والجهل والمرض كما حرضت الدول الغربية شعوب البلقان على الثورة من أجل الاستقلال باسم الحرية الدينية أيضا وكان الرد العملي من طرف الدولة العثمانية هو اعلان " الجامعة الاسلامية " للاستفادة من العاطفة الدينية لدى المسلمين ولكن المسلمين كانوا في حالة من الضعف والتأخر لم تمكنهم من تقديم أي مساعدة عملية لدولة الخلافة . ومع هذا كان الانتماء للجامعة الاسلامية شعورا واضحا غلب على جميع التيارات السياسية في المنطقة .

وقد كان السلطان عبد الحميد آخر السلاطين الأقوياء في الدولة العثمانية ولهذا أطال عمر الدولة ثلاثين سنة بحنكته ودهائه . وقد وضحت الأسباب التي كونت سياسة عبد الحميد الخارجية والداخلية وهما نابعتان من الظروف العامة الخارجية والداخلية وكان أبرز ما يميز سياسة السلطان عبد الحميد هو اخلاصه لشعوبه وعدم تفريطه في شبر واحد الا مكرها ومرغما وهذا ما يفسر لنا وقوفه في وجه الضغوط الاستعمارية والصهيونية التي بذلت له كل غال ورخيص لجعل فلسطين وطنا لليهود ولكن السلطان عبد الحميد رفض كل ما أغرى به مع حاجة الدولة الشديدة للمال .

وقد عرضوا عليه بناء أسطول تجاري وآخر حربي للدولة العثمانية يهزم الأساطيل البريطانية في البحار وقد أوضحت الصورة التي تمت بها هذه العروض بالاضافة الى مساعي سفراء بريطانية وفرنسة وأمريكة ، وقد كان موقف السلطان عبد الحميد هذا حجة دامغة لكل من يشوه سيرة هذا السلطان الزاهد ، ولهذا احتسبته " ضحية فلسطين وشهيدها الأول " ثم بحثت الحركة العربية الحديثة موضحا المفهوم الواحد للعروبة والاسلام منذ أقدم العصور وأن من أسلم فقد أصبح عربيا ثم تكلمت عن أطوار الروح العربية من الوعي العربي ثم الوعي القومي ثم القومية العربية التي ظهرت

بعد اعلان سياسة التتريك التى أعلنها الاتحاديون وأشرت الى أن العرب لم يفاخروا بعروبتهم أيام السلطان عبد الحميد لأنه كان يرعاهم رعاية خاصة متميزة عن باقى الشعوب العثمانية الأخرى ثم وضحت أثر المدارس التبشيرية على نشاط الحركة الحديثة التى اتخذتها ـ المدارس ـ حجة للتفريق بين العرب والدولة العثمانية عن طريق الاهتمام باللغة العربية والتاريخ العربى ثم تكلمت عن ثورة الشريف حسين رحمه الله ومحافظته على الرابطة العثمانية التى لم يعلن الخروج عليها الا بعد أن ظهرت تباشير النصر الى جانب الحلفاء وأنه حقيقة لم يثق بوعود الانجليز ولكنه لم يكن له خيار ثم أوضحت الدوافع الخفية للموقف العدائى الذى وقفته بعض الشخصيات الوطنية من ثورة الشريف وأن هذا الموقف لم يقصد به الشريف وثورته فى الواقع بمقدار ما كان المقصود به الانجليز أنفسهم كما أوضحت تعلق المسلمين بدولة الخلافة حتى آخر لحظة وبينت أن نتيجة الحرب العالمية الأولى هى التى قررت سياسة المنطقة العربية كلها وليست مواقف الشريف حسين أو غيره ثم تحدثت عن " ضياع فلسطين " الذى كان أهم حدث تاريخى وسياسى فى المنطقة فقد كان وجود السلطان عبد الحميد وروسية القيصرية عقبتين أمام تحقيق المطامع اليهودية فى فلسطين أما معارضة السلطان فقد كانت الدوافع اسلامية واضحة أما معارضة روسية القيصرية فقد كانت للتنافس الاستعمارى على المنطقة وبزوال هاتين العقبتين أصبح الطريق ممهدا فصدر وعد بلفور فى ٢ تشرين الثانى ١٩١٧ .

كما وضحت الأهداف الاستعمارية البريطانية من اقامة الوطن اليهودى فى فلسطين وكان وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى هو بداية تنفيذ وعد بلفور بصورة عملية فاتخذت بريطانية كل السبل الاقتصادية والثقافية والسياسية لهذه الغاية ولكن الشعب الفلسطينى سرعان ما ثار على هذا الظلم الذى اتفقت عليه جميع دول العالم فقامت عدة ثورات منها ثورة ٤ أبريل ١٩٢٠ وثورة ١٩٢١ وغيرها وكانت الاضطرابات لا تهدأ فى جميع أنحاء فلسطين وكانت بريطانية تمتص الاضطرابات عن طريق عقد اللجان للدراسة والاطلاع أو اصدار التوصيات ولكن الهجرة اليهودية كانت مستمرة بلا انقطاع وهى تقصد من وراء هذا كله كسب الوقت لتمكين اليهود

المهاجرين من الاستيطان (١) وأخيرا ثبت اليهود أقدامهم بفلسطين وقامت دولة اسرائيل واعترف بها دوليا وكان الوفاق السوفيتي الامريكي الوحيد من نوعه .

هذا ما بحثته في الباب الأول وقد حاولت اعطاء مفاهيم غير تقليدية في الحياة الثقافية والسياسية الاقتصادية أبرزت المقاصد الاستعمارية البريطانية من جعل فلسطين وطنا قوميا يهوديا .

* * *

وتحدثت في الباب الثاني عن نشأته وحياته وهو يتكون من خمسة فصول .

الفصل الأول مولده وأسرته ووفاته وقد تكلمت فيه عن قريته " اجزم " وتاريخها وموقعها وعن أسرته العريقة وأثرها على طفولته وأثر والده عليه من ناحية وراثية وثقافية ثم تكلمت عن زوجته وولده الوحيد محمد شمس الدين وأولاده خير الدين ونور الدين وصلاح الدين ويوسف وقدمت نبذا عن تاريخ حياتهم حيث زرتهم في بيروت ثم تكلمت عن وفاته وما رافقها من كرامات .

والفصل الثاني تكلمت فيه عن مصادره الفكرية ومدد الدراسة والبحث في حياة الشيخ النبهاني وأدبه وجدت أن أهم مصادره الفكرية هو قريته " اجزم " التي بها ولد ونشأ حتى بلغ السابعة عشر وقد اكتسب منها العناد والطموح والتدين كما أشرت على أدبه بجمالها الساحر والمصدر الثاني كان والده وهو أزهري عرف بالتقوى والصلاح وقد كان الأستاذ الأول للشيخ النبهاني وكان له الأثر الأكبر في صقل شخصيته

---

(١) ما أشبه اليوم بالبارحة فهذه أمريكة التي تولت رعاية اسرائيل بدلا من بريطانية تتخذ الأسلوب البريطاني السابق من حيث عقد المؤتمرات واللجان وافتعال الأحداث السياسية في المنطقة لتؤجل البت في موقفها مظهرة حرصها على حسم الموقف ولا تقصد من وراء هذا الا تمكين اسرائيل من استكمال قوتها وبناء المستعمرات سرا وعلنا ولسان حال الزمن يقول :

" تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طغى الخطب حتى غاصت الركب "

وأفكاره واتجاهاته الثقافية والحيوية • والمصدر الثالث شيوخه في الأزهر وهم من كبار العلماء وكان اتجاه العلم في الأزهر اتجاها صوفيا ومن يستعرض أساتذته والكتب التي درسها عليهم يتأكد له سعة علمه وهو لم يحصل على شهادة دراسية لأن الشهادات لم تكن موجودة بل كانت الاجازات هي الشهادة العلمية وقد ذكر النبهاني العلوم التي حصل عليها والأساتذة الذين تلقى عنهم في كتابه " هادي المريد الى طرق الأسانيد " •

هذا وقد ذكرت مقدمة وخاتمة الاجازة حيث يظهر منهما الكفاءة العلمية للشيخ النبهاني ومن يستعرض هذه الاجازات يجد أنها قد استوعبت جميع علوم الشريعة واللغة وقد ذكرت اجازة الشيخ احمد حسن المطاوع مع الشيخ النبهاني مع طولها لأن الشيخ النبهاني ذكر اعتزازه بها أكثر من مرة دون غيرها من الاجازات كما أنها تحتوي على كثير من علوم الشريعة وعلوم البرزخ والحق أن هذه الاجازة تعد مرآة تنعكس عليها عقلية الشيخ النبهاني وثقافته ثم تكلمت عن تلاميذه الذين طلبوا منه الاجازة بمؤلفاته أو بما أجيز به وقد عددتهم تلاميذه لأنه لم يشتغل بالتدريس •

وفي الفصل الثالث " مكانته في المجتمع الاسلامي " : ـ بينت أن التوافق بين الاتجاه الديني للشيخ النبهاني واتجاه العصر الديني كان ذا أثر كبير في بروز مكانته الاجتماعية بالاضافة الى مؤلفاته التي زادت على الستين والتي طبعت جميعها في حياة المؤلف وبعضها طبع للمرة الرابعة وذلك يدل على اقبال المسلمين على هذا اللون من الأدب في مرحلة مبكرة من انتشار الطباعة وقلة المثقفين •

هذا وقد أوضحت العوامل المساعدة للنبهاني على اخراج تآليفه كما ذكرها في كتابه " أسباب التأليف من العاجز الضعيف " وهي نابعة من الاحساس بالتقوى وتوفيق الله وقد سجلت ما أفادني به بعض شخصيات عصره ممن رأوه وقد أجمعوا على سمو مكانته العلمية والاجتماعية الى حد بعيد •

وفي الفصل الرابع " شخصيته ومبادئه " • وقبل أن أتحدث عن أهم معالم شخصيته تكلمت عن مفتاح شخصيته ، وقد تبين لي أن الشيخ النبهاني كان يتصرف من واقع مؤثرات صقلت شخصيته ووضعتها في قالبها وهذه المؤثرات هي والده المعروف

بتقواه وصلاحه ، وقريته التي أكسبته العزة والاعتداد بالنفس فقد كانت هذه تحتل الصدارة التاريخية في المنطقة التي عرفت العناد والعزيمة والوفاء الذي تمثل في وده لأصدقاء طفولته .

هذا وقد كان لمكانة أسرته الاجتماعية الفير المرموقة ـ مع عزيمته وعناده ـ أكبر الأثر في سلوكه كل السبل نحو المعالي ، وقد ظهر هذا في مدائحه النبوية وغيرها فهو لم ينس نفسه خصوصا في مدائحه الفير النبوية التي كانت تظهر شخصيته فيها بالاعتزاز والتعالي وفي مدائحه النبوية بكثرة الاستغفار والتبتل والتواضع المعهود لدى الصوفية وخير دليل على وجود النوع الأول ما قاله في مدح أبي الهدى الصيادي الذي أظهر فيه شخصيته الطموح بعناداها وكبريائها حتى لقد تعلو وتشمخ على شخصية الممدوح كما يظهر في القصيدة وقد استشهدت بها كما وجدتها مخطوطة لدى الاستاذ أكرم زعيتر يقول فيها : ـ

وانى على وجدى بليلى وأرضها	أرى وصلها قبل المعالي محرما
وما أنا ممن يرتضي موطنا به	يجوز عليه أن يهان ويظلما
ورب نصوح قال لي وهو همتي	الك الله سافر تلق في الأرض مغنما
فطالبت عزمي بالرحيل ولم أكن	لأرجع عن عزم سوى أن أتمما
وقالت لي اللوام اياك والنوى	فما هي الا أن تسير فتندما
فقلت لهم كفوا فلست بمحجم	عن السير الا أن أرى الدهر أحجما
دعوني فلن أنفك أركب أدهما	من العمر يعدو بي وآخر أدهما
الى حين ادراك الأماني فأنثني	حميدا وقد أبدلت عيشي المذمما

والحقيقة أن ظاهرة الطموح التي يصحبها الاعتداد بالنفس والتي لا ينساها صاحبها حتى وهو يمدح الفير هذا الاعتداد الذي يعبر عنه الشاعر بطريقته الخاصة قد يزيد على ما ذكر الممدوح من صفات .

وهذه الظاهرة تحتاج الى مزيد من البحث والدراسة لأن نفسية النبهاني شبيهة بنفسية المتنبي وطموحه وفي شخصيته الدينية شبه بروح الغزالي اذ هناك الكثير من الاتجاهات الدينية التي عرف بها الامام الغزالي وهي نفسها موجودة في أفكار

النبهانى ومبثوثة فى أدبه المنظوم منه والمنثور .

هذا وقد ارتسمت شخصية النبهانى ومبادؤه فى أخلاقه التى اكتملت فى قريته " اجزم " ، ولهذا ابتعد عن الأفغانى بمجرد سطوعه لأفكاره التى لا تتفق مع ما تعلمه فى قريته وعلى يد والده . من التواضع والصراحة وتحرى الحق وعدم المجاملة فيما يتعارض مع أفكاره ومبادئه ، ولذلك كان لا يتحرج من نعت الخصوم بأشد الألفاظ وبالمقابل كان متواضعا شديدا للعلماء الذين يوافقونه أو العلماء الكبار الذين اهتزت بعض أفكارهم فى نظره مثل الامامين ابن تيمية وابن حزم وغيرهما وكثيرا ما كان يحمل أراءهم المخالفة له على حسن الظن .

كما تمثلت شخصيته فى أمانته العلمية فيما يستشهد به لتأييد أفكاره أو فى ايراد حجج الخصم .

وكذلك تمثلت فى ايمانه بالروحانيات ايمانا مطلقا فقد رأى رؤى منامية كثيرة ورؤيت له رؤى أخرى وكان يؤمن بها ايمانا عميقا ، ولذلك تكلم عن شرعيتها كثيرا فى كتبه وأطال كما تحدث عن كرامات الأولياء باسهاب وثقة .

وقد كان ذلك أمرا طبيعيا لمن يقتنع بالمنهج الصوفى .

وقد تكلمت عن الرؤيا وأهم المصادر التى بحثتها مشيرا الى اهتمام المسلمين بها فى القديم والحديث وربطت بين من يؤمن بالرؤيا من المفكرين المحدثين وبين المنهج الاسلامى الأصيل ، كما ربطت بين من لا يؤمن بالرؤيا ايمانا روحيا من المفكرين المحدثين وبين النظرة الغربية المادية التى يفسرون بها جميع مظاهر الكون والحياة .

ومن ظواهر شخصيته وتوابع مبادئه تقديسه لنظام الاسلام السياسى فهو من قرية " اجزم " المعروفة بولائها للحكم العثمانى فى أصعب المواقف ثم تربيته الاسلامية على يد والده الذى كان أول أساتذته ، دراسته فى الأزهر ، بالاضافة الى أن الرأى العام فى بلاد الشام ومصر كان ذا اتجاه اسلامى ثابت .

وقد كان معروفا أن من يعمل ضد الدولة العثمانية انما يعمل ضد الاسلام كما يظهر من أقوال الزعماء مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وأضرابهما . وقد كان الشيخ النبهانى يستمد مكانته الاجتماعية من مواقفه الاسلامية ، وقد ظهر هذا واضحا بعد خلع السلطان عبد الحميد حيث عزل النبهانى من وظيفته فى السنة نفسها ولكن ولاءه السياسى الاسلامى لم يتغير فقد بقى على الوفاء للسلطان عبد الحميد ورجاله بل لقد هجا الحكام الجدد ورماهم بالكفر فى قصيدة قالها فى مدح أبى الهدى الصيادى جاء فيها :ـ

ويممت دار الملك أحسب أنها	الى الآن لم تبرح الى المجد سلما
فألفيتها قد أقفرت من ربوعها	ولم يبق فيها الفضل الا توهما
حوت قوم سوء أسلموا أى نفوسهم	الى الكفر الا من له الله سلما

الى أن يقول :

بنو اللؤم انى ما تكلمت هاجيا	ولكن قلبى من جفاكم تكلما

وفى هذا يضرب النبهانى أروع الأمثال على الوفاء والالتزام بالمبادىء ولو تغيرت الأحوال والرجال .

كذلك تكلمت عن حالة النبهانى المالية وأوضحت أن أسرته لم تكن من الأسر الغنية فى قريته " اجزم " ولكن حالة والده كانت تسمح له بارسال ابنه الى الأزهر فى مصر ، والانفاق عليه هناك وبعد أن تخرج من الأزهر فتحت له أبواب الرزق فاشتغل فى تحرير جريدة " الجوائب " فى الآستانه ثم عين فى القضاء الى أن أصبح رئيسا لمحكمة الحقوق العليا فى بيروت ولا شك أن راتبه كان ممتازا وكافيا ولكن اقباله على التأليف وحاجته لطبع الكتب جعله يشكو دائما من عوزه للمال حتى ان بعض التجار كان يقدم له مساعدات مالية وكذلك السلطان عبد العزيز سلطان فاس وقتها كذلك كانت بعض كتبه تطبع على نفقة بعض المقدّرين لعلمه ولقد نفيت ـ فى هذا الشأن ـ نسبة بعض الأبيات التى قيل ان النبهانى امتدح فيها أعطية السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب اليه من سبعة وجوه عقلية ونقلية ، ووصلت بعد هذا الى أن الشيخ النبهانى كان رجل مبادىء وأخلاق ، وأنه قدم كل ما يملك من مال وجهد فى خدمة هذه المبادىء التى اعتقدها حتى اذا تغيرت الأحوال وخلع السلطان عبد الحميد

بقى ثابتا على ولائه وحبه للدولة العثمانية ورجالها ، بل لقد هجا رجال الحكم ومن بيدهم الصولجان آنذاك .

من هذا كله نعلم أن مديحه النبوى كان خالصا لوجه الله لم تملله الظروف السياسية الاسلامية عليه وأن النبهانى لم يستغل هذه الظروف لتحقيق أطماع شخصية ولكن ملاءمة تلك الظروف الاسلامية كانت عاملا مساعدا لشيوع مدائحه النبوية ورفعة مكانته الاجتماعية من تلك الناحية .

وفى الفصل الخامس " كفاحه الدينى " أثبت أن حياة النبهانى وآثاره الفكرية تؤكد أنه كان رجل مصادمات ومصاولات وقد تمثل كفاحه الدينى فى عدة مواقف منها وقوفه فى وجه التبشير المسيحى ومدارسه لأن تدخل الدول الغربية فى الشؤون الداخلية للدولة العثمانية حرك فى نفوس المسيحيين الروح الصليبية من جديد فأخذوا يعملون على اخراج المسلمين من دينهم ليصبحوا مسيحيين ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا اعترفوا به خلال مؤتمراتهم التى عقدوها فى القدس والهند اعترافا صريحا ، ومن هنا كان قرارهم الأخير هو محاولة هدم الاسلام فى قلوب المسلمين ليسهل احلال المسيحية العملية محله ، وقد اتخذوا من مدارسهم ومؤسساتهم الاجتماعية المختلفة وسيلة أولى لذلك ، وقد كانت بيروت مركز تبشيرهم ولم تكن نواياها خافية على علماء المسلمين فهذا الاستاذ محب الدين الخطيب يتابع مؤتمراتهم ويكشف نواياهم العدوانية على صفحات مجلة " الفتح " وقد حاربهم الشيخ النبهانى وحذر اعوانا وحذر المسلمين من مدارسهم فى مؤلفاته الكثيرة التى منها كتابه " ارشاد الحيارى فى تحذير المسلمين من مدارس النصارى " وكتابه " نجوم المهتدين ورجوم المعتدين فى اثبات نبوة سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين " وكان موقف النبهانى من التبشير المسيحى ومدارسه يتخذ اتجاهين :

الأول اثبات صحة دين الاسلام وموافقته للمعقول وملاءمته للحياة الانسانية فكرا وعملا ، وتمجيد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ولعل هذا السبب كان هو الدافع المباشر لمدائحه النبوية .

والثانى الهجوم على النصارى واليهود وبيان فساد دينهم والرد عليهم

فيما يهجمون به الاسلام . وقد تمثل هذان الاتجاهان في شعره ونثره والاتجاه الأول تمثل في جميع مؤلفاته ومدائحه النبوية والاتجاه الثاني يمثله " كتاب ارشاد الحيارى في تحذير المسلمين من مدارس النصارى " وكتاب نجوم المهتدين ورجوم المعتدين " ومواضع كثيرة من كتبه الأخرى ويصور هذا الاتجاه في شعره قصيدته " الرائية الكبرى " ومواضع متفرقة من مدائحه النبوية ، وقد كان اهتمام النبهاني بمناقشة دين النصارى أوسع وأهم من مناقشته لليهود ، لأن خطرهم على المسلمين كان أقل من خطر النصارى تبشيريا .

ولقد كان عداء النبهاني لمدرسة الأفغاني نابعا من اتجاهه الثقافي والديني فالنبهاني كان يرى الالتزام بما في الكتاب والسنة ، وبما قال به الأئمة الأربعة ولا يحبذ الخروج عليهم في حين أن مدرسة الأفغاني كانت تدعو الى الاجتهاد المطلق دون مراعاة شروطه ، بل وتدعو الى تجديد الدين واصلاحه مما دعا النبهاني وغيره لأن يشبهوا دعوتهم بدعوة مارتن لوثر الذي أنشأ البروتستانتية المنشق على الكاثوليكية بالاضافة الى بعض المواقف المتحررة التي كان النبهاني يأخذها على الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا مثل اباحة بعض أنواع الربا ولبس البرنيطه وانكار كرامات الأولياء والسماح لأولاد المسلمين بالتعلم في مدارس النصارى كما أخذ على الأفغاني ومحمد عبده التحاقهما بالماسونية التي تنكر جميع الأديان وأخذ على رشيد رضا انكار حديث سجود الشمس الذي رواه البخاري وقوله : " ان الرسول قد يخبر بغير الواقع " كما حمل الشيخ النبهاني على الآلوسي والدعوة الوهابية للأسباب نفسها ، ولأنها تخالف اتجاهه الصوفي كما اتهمهم جميعا بأكل أطعمة النصارى المحرمة ومشاركتهم في الشراب المحرم .

هذا وكثيرا ما كان الشيخ النبهاني يعتز بذكر كبار علماء الأزهر الذين يقفون مثل موقفه من مدرسة الأفغاني وتلامذته مثل الشيخ الشربيني والشيخ يوسف الدجوي والشيخ عليش والشيخ محمد بخيت المطيعي وغيرهم .

كذلك تحدثت في هذا الفصل عن تعرض النبهاني لأكبر الحركات الفكرية في عصره بالنقد اللاذع حينا والتسفيه والشتم حينا آخر ثم ظهور ردود فعل لهذا

التعرض من أصحاب هذه الحركات وأنصارهم الذين اكتفى بعضهم بالرد العلمي وبعضهم هدده بالأذى الجسدى • فقد رد النصارى عليه فى مجلة الشرق التى كان يصدرها الأب لويس شيخو اليسوعى اللبنانى وكانت ردودهم مجرد نفى التهم التى وجهها النبهانى للنصرانية ولم يكتفوا بذلك ، بل لقد سموا لمزله من وظيفته ولكن الله حفظه منهم • كما ردت مدرسة الأفغانى ردودا كثيرة على الشيخ النبهانى وقد كان رشيد رضا بمناره لسانهم المعبر وركنهم الشديد فقد وصف النبهانى بالدجل المطلق والجهل المطبق والحشو المرذول •

وقد قرر هؤلاء الأنصار ايذاءه جسديا اذا لم يرتدع ولعل حبسه فى المدينة المنورة بعد خلع السلطان عبد الحميد كان بمساعيهم •

ويبدو أن الشيخ النبهانى كان يتخوف من أذاهم فقد سجل لنا عدة رؤى رآها أو رؤيت له تدل على حماية الرسول صلى الله عليه وسلم له وكذلك بعض الأنبياء أيضا •

أما أهم الردود وأكثرها موضوعية فقد كان رد محمود شكرى الالوسى الذى رد على كتاب " شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق " بكتاب سماه " غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " وقد شنع فيه على النبهانى فى معتقداته وتصوراته • ثم رد عليه النبهانى فى رائية الصغرى معرضا بكتاب " غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " ففتح على نفسه بابا من الردود والشتائم وكتبت القصائد المناقضة للرائية الصغرى وكالوا له الصاع صاعين كما يقال انتصارا لمحمود شكرى الالوسى والوهابية ، ومن تلك الردود قصيدة الشيخ على بن سليمان اليوسف التميمى • وقصيدة الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم • وقصيدة الشيخ سليمان بن سحمان وقصيدة الاستاذ محمد بهجت البيطار • ثم رد محمود شكرى الألوسى على النبهانى بكتيب صغير سماه " الآية الكبرى على ضلال النبهانى فى رائيته الصغرى " •

هذا وقد كانت هذه الردود موجهة للشيخ النبهانى وان كانت لم تطبع فى زمنه لخوف أصحابها من السلطة العثمانية المؤيدة لأفكار النبهانى ويبدو أنه لم يطلع على هذه الردود لأنه لم يذكرها فى كتبه ولو اطلع عليها لذكرها فى مؤلفاته شجباً وتعليقا

كما فصل حين ذكر تأثره من كتاب " غاية الأماني في الرد على النبهاني " للألوسي في عدة مواطن من رد الألوسي : كقوله في الرائية الصغرى قوله :

وهلا عفا عنا لذنب بزعمه لخدمتنا روح الوجود أبا الزهرا

الى أن يقول :

كتاب عليه اللعن من كل سامع وصاحبه أيضا غدا ماطرا مطرا

ويبدو أن هذه المعركة الفكرية كانت تسترعي انتباه العالم الاسلامي في وقتها كما يبدو أن المسلمين عامة كان موقفهم الى جانب الشيخ النبهاني ولعل التشابه أو التماثل بين أفكار شاعرنا الصوفية والبيئة الثقافية الاسلامية مع تأييد السلطان عبد الحميد ودولته للنبهاني كان ذا أثر عميق في تأييد المسلمين له ، فهذه الرائية الصغرى طبعت أربع مرات في حياة النبهاني في بيروت والمدينة المنورة وتونس وقد أخبرني الشيخ زهير الشاويش أن الردود التي كانت تكتب ضد الشيخ النبهاني كانت تحرق في الهند .

أما مدرسة الأفغاني فقد كانت ردودهم على الشيخ النبهاني محدودة حيث انحصرت في دور السيد رشيد رضا فقط ولم أجد ردا للشيخ محمد عبده عليه . ولعل موقف النبهاني من مدرسة الأفغاني كان موقفا عاما غير متميز لذلك لم يشد الأفكار نحوه لأنه كان موقف الأزهر بعلمائه والمسلمين عامة .

* * *

وفي الباب الثالث " أدبه وفنونه " تحدثت في الفصل الأول " نثره وفنونه " عن استمداد النبهاني لون أدبه المنثور من ثقافته الأزهرية التي هي امتداد لثقافته من والده الشيخ اسماعيل النبهاني . وقد استقى ثقافته من المصادر الأصيلة التي ترجع به الى عصر الازدهار ، فتهيأت له مقدرة أدبية فائقة شهد له بها أعلام عصره مثل الأمير شكيب أرسلان والبدوي الملثم والشيخ عبد الله العلايلي وغيرهم .

هذا وقد حضر النبهاني في عصره نهضة أدبية اتخذت من الأساليب العربية القديمة مثالا رائدا لها فقد شاع السجع والمزاوجة بين الجمل والتراكيب آنذاك مع استعمال المحسنات اللفظية وقد ظهرت هذه الألوان والصور على أيدي الأدباء والعلماء مثل محمود شكري الألوسي والبارودي والشدياق وشوقي وغيرهم .

وقد تعمق هذا الطابع لدى العلماء ذوى الثقافة الأزهرية مثل الشيخ ابراهيم السقا والشيخ عبد الرحمن الشربينى والشيخ عبد الرحمن الرافعى هؤلاء هم أساتذة النبهانى وفى الرسائل المتبادلة بين الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى وبين الشيخ ابراهيم الأحدب خير مثال للنثر فى عصر النهضة الحديثة ، ولم يخل هذا العصر ممن يستهجنون استعمال الأساليب القديمة فى الكتابة مثل السادة اسعاف النشاشيبى وسلامة موسى والدكتور طه حسين وغيرهم . وقد كانت المعركة بين القديم والجديد فى الأدب تمثل المعركة بين المحافظة على التراث خوفا من غلبة التيارات الأدبية العامة عليه ثم ضياعه .. والانسياق وراء التيارات الأدبية الوافدة لهدم التراث القديم بكل ما فيه . وقد كان التمسك بالدين واحترام الشرق والنفور من الغرب وحضارته يظهر على أنصار الاتجاه الأول كما يظهر على أنصار الاتجاه الثانى عدم التمسك بالدين واحتقار الشرق وتقديس الغرب وحضارته . وقد كان الفريق الأول يمثل الثقافة العربية الأصيلة والفريق الثانى يمثل الثقافة الغربية بما فيها .

ولا شك أن موقف الفريق الأول كان من أثر الثقافة الأزهرية وموقف الفريق الثانى كان متأثرا بالثقافة المدرسية الحديثة التى رسمتها السياسة التبشيرية فى المجتمع .

ولا شك ـ أيضا ـ أن النبهانى بثقافته الأزهرية وقف مع الفريق الأول ولكنها كانت وقفة متميزة بالاشتقاق من المبادىء الصوفية ، والانعكاس من شخصيته الاصلاحية . فقد كان يرى أن علوم الأدب واللغة مجرد وسيلة ، وأنها من العلوم الآلية التى لا يحسن التعمق فيها بل يكتفى منها بما يقوّم اللسان والقلم ، وكان يدعو العلماء للقيام باصلاح الأمة وتبصيرها بدينها لأن النشاط التبشيرى لا يتعد اللغة بذاتها بل يقصد الى القضاء على الاسلام وقد اتخذ من اللغة وغيرها منفذا لافساد الاسلام نفسه ، ومن هنا اتجه النبهانى بفطرته السليمة الى المحافظة على الغاية بدلا من الوسيلة وقد عز هذا التنبه على غيره من علماء عصره ، ولم يفطن اليه كثير من الناس .

ولقد ظهر السجع فى أدب النبهانى خاصة فى مقدمات كتبه وفى تموجاته الوجدانية كما ظهر الترسل واضحا فى شرحه لأفكاره أو مناقشاته لخصومه وأعدائه .

وقد ظهرت الجملة القرآنية واضحة فى أدب النبهانى وكانت أثرا محتوما لثقافته ، ولئن كان الهجوم على القرآن فى مصر يتم بطريق غير مباشر انه كان يتم فى بلاد الشام بطريقة سافرة خصوصا فى بيروت مركز التبشير المسيحى المركزى فى الشرق ، ومن هنا كانت مهمة الشيخ النبهانى جدّ شاقة ولكنه اتخذ من مدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم سلاحا يدافع فى ثناياها عن الاسلام والقرآن . ولم أجد فى آثار النبهانى النثرية غير الأغراض الدينية مثل الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو تمجيد شخصيته صلى الله عليه وسلم أو توضيح معنى آية أو حديث أو غير ذلك من الأغراض ، أما أهدافه وغاياته غير الدينية فلم أجد له منها شيئا فى مؤلفاته وان كانت وجدت له صورة تظلم فى صحيفة " ثمرات الفنون " .

وفى الفصل الثانى " شعره وفنونه " تحدثت عن أن الشيخ النبهانى لم يثبت فى ديوانه أو مؤلفاته سوى ما قاله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أوصى باتلاف باقى شعره مع جودته .

والواقع أن هذه ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب العربى ، .. كذلك تحدثت عن أن شاعرية النبهانى التى تفجرت من نبع أسرته حيث أنه كان من بنى نبهان ، وهم فرع من قبيلة طىء التى ظهر منها أبو تمام والبحترى ، كذلك أثبت أن قريته " اجزم " ذات الطبيعة الساحرة كان لها أثر مباشر فى خصوبة تلك الشاعرية ، الى جانب ثقافته الأزهرية .

وقد مرت شاعرية النبهانى بأطوار ثلاثة :

اتجه فى أولها الى مدح شخصيات عصره من ولاة وحكام ليصل الى ما يرنو اليه وانطلق فى ثانيها الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم انطلاقا عجيبا حتى اشتهر بهذا اللون من المديح مع استمرار مدحه لشخصيات عصره ، وفى الطور الثالث اقتصر على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فقط ولم يقل قصيدة واحدة فى مدح غيره حتى انه لم يمدح الخديوى عباس حلمى باشا حين قدم عليه طالبا مساعدته المالية بل استشفع بمدائحه النبوية وحدها .

ولقد كانت شاعريته فى أطوارها الثلاثة مقيدة بمخافة الله وتقواه ولعل هذا

هو الذى حجبها عن أن تظهر مزيدا من الابداع .

وأهم ما تمتاز به شاعريته أنها غنية بألفاظها وتعبيراتها وصورها مع طول النفس وتلمس الشخصية . وقد ظهر غناها بالألفاظ والصور فى جميع قصائده وبالذات قصيدته التى عارض بها " بانت سعاد " بردة كعب بن زهير رضى الله عنه وفى قصيدته التى عارض بها همزية البوصيرى وفى قصيدته التى مدح بها أحمد عزت باشا العابد .

أما طول النفس فهذه ظاهرة فريدة للشيخ النبهانى لا ينازعه عليها غيره من الشعراء غير ما روى من قصيدة أبى العباس الناشىء الأكبر التى بلغت أربعة آلاف بيت على روى واحد (١) فقصيدته الهمزية بلغت ألف بيت وقصيدته الرائية الكبرى بلغت خمسة وعشرين وسبعمائة بيت والرائية الصغرى بلغت خمسين وخمسمائة بيت وليس له قصيدة أقل من أربعين بيتا فيما توصلت اليه من شعره فى المدائح النبوية وغيرها .

وقد تحدثت عن تلمس الشخصية عند النبهانى ، وأثبت أنها واضحة فى جميع أشعاره حيث أنه ولد والطموح جار فى دمه ، والأنفة سارية فى جبلته فهو من أسرة أصيلة عرفت بعلمها وفضلها ولكنها لم تكن ذات مكانة اجتماعية مرموقة تشبع طموحه وترفع هامه أو تعلى مقامه لذلك رأيناه يعتمد على شخصيته ـ فى تحقيق ذلك الطموح ـ اعتمادا كليا ، فاضطر لمدح السلاطين والولاة ملحا فى لفت الأنظار اليه كما فى مدحه لأحمد عزت باشا العابد والأستاذ احمد فارس الشدياق وفى مدائحه النبوية أيضا .

وكثيرا ما كان يستعمل ضمير المتكلم متحدثا عن نفسه فى جميع أشعاره ، ففى بعض مدائحه للشدياق والصيادى نراه يذكر نفسه أكثر من ذكره للممدوح ، وحتى فى مدائحه النبوية نراه يتحدث كثيرا عن عواطفه ووجدانه ، والنبهانى فى هذا الاعتداد

---

(١) راجع تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (حـ ٢ ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥) دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة .

بشخصيته يشبه المتنبى لأن كليهما كان ذا نفس طموح توافة للمعالى وتولى المناصب لأنهما كانا من أسرتين كريمتين ، وان كانتا مغمورتين فى المجتمع وكان هذا سببا فى شحذ عزائمهما ومدح الولاة والسلاطين فى عصرهما ارضاء لطموحهما وتعويضا عن عدم توليهما المناصب العالية وليس ذلك صغارا منهما أو رغبة فى الدنيا من حيث هى دنيا .

ولقد تحدثت بالتفصيل عن أغراض شعره ، وعن سيطرة العاطفة الدينية على تلك الأغراض عند النبهانى ولقد قسمنا الأغراض المباشرة فى شعره الى أغراض دينية وأغراض غير دينية .

أما الأغراض الدينية فقد استنفدت جميع ما وصلنا من شعره فى كتبه وفى ديوانه " العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية " حيث لم يثبت فيه الا ما قاله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه قصد ألا يؤثر له غيره وقد لاحظنا أن مدائح النبهانى النبوية ـ خصوصا المطولات ـ لم تقتصر على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فقط بل احتوت على أغراض اسلامية أخرى داخل اطار مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن هنا أمكننا تقسيم الأغراض الدينية التى جمعتها مدائحه النبوية الى الى عدة أقسام هى : ـ

١ ـ المحامد الالهية مثل الزدوجة الغرا فى الاستغاثة بأسماء الله الحسنى .

٢ ـ والمدائح النبوية أى أن القصيدة من أولها الى آخرها منصبة على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . مثل موشحاته التى عارض بها الموشحات الأندلسية أو الموشحات السبع لعلماء دمشق .

٣ ـ والتغزل فى الديانة الاسلامية وذكر محاسنها .

٤ ـ والسيرة النبوية .

٥ ـ والثناء على الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة .

٦ ـ وذكر الهجرة ومشروعية الجهاد .

٧ ـ ونظم أسماء النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك عددنا من الأغراض الدينية .

٨ ـ هجاء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا • حيث ان خلافه معهم كان لأسباب دينية بحته وهو فى هجائه لهم يذكر زلاتهم الدينية ثم يشنع عليهم انطلاقا من هذه المآخذ •

٩ ـ هجاء الوهابية •

١٠ ـ رثاء محمود شكرى الألوسى •

كذلك عددنا من شعره الدينى •

١١ ـ مدح الرسول صلى الله عليه وسلم • نعمل

١٢ ـ ومدح الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى •

١٣ ـ والانتصار للامام تقى الدين السبكى ضد خصومه الذين يحرمون زيارة القبور •

١٤ ـ كذلك تصديره كتبه بالشعر •

أما الأغراض غير الدينية لشعره : ـ فقد أثبتنا أن النبهانى قال الشعر فيها فى أول حياته حيث مدح شخصيات عصره مثل السلطان عبد الحميد والشيخ أبى الهدى الصيادى وأحمد عزت باشا العابد وأحمد فارس الشدياق • وقد أثبت النبهانى فى مواطن كثيرة من مؤلفاته اعتذاره عن هذا اللون من الشعر " لأن الشعر وسيلة لاظهار الحذق لا للاخبار بالحق والصدق " ـ ولهذا قصر شعره فى آخر حياته على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم • وقد أوصى قبل وفاته بطمس كل ما قيل فى غير مدح الرسول صلى الله عليه وسلم • ولهذا ضاع كل ما قاله من الشعر فى غير الأغراض الدينية وقد ذكر أنه قال خمس عشرة قصيدة من ذلك اللون وقد عثرت منها على قصيدة " عنوان التهانى ببلوغ الأمانى " التى مدح بها الأستاذ أحمد عزت باشا العابد كما عثرت على مقطوعات فى مدح أبى الهدى الصيادى وقصيدة فى مدح أحمد فارس الشدياق • وقد لاحظت أن الشخصيات التى مدحها الشيخ النبهانى كانت ذات مكانة مرموقة فى الدولة العثمانية بالاضافة الى أنها كانت تمثل النفوذ العربى فى السلطنة العثمانية فالنبهانى فى مدحه اياها كان ـ فى الواقع ـ يمدح العنصر العربى الأصيل الذى لم تشغله السلطة والجاه عن تنفيذ الكثير من المشروعات النافعة فى البلاد العربية كما كانت هذه الشخصيات الدين الأول أمام ذوى الكفاءات العربية لتسنم الوظائف فى الدولة •

وقد بينت أن النبهانى باعتذاره عن مديحه لهذه الشخصيات لم يسحب ثقته بهم بل كان ذلك من باب التورع لأن المدح مبنى على المبالغة ووصيته باتلاف هذه القصائد يمثل قمة الورع والتقوى التى تناسب ما وصل اليه من زهد وتصوف والا فان هذه القصائد لا تعيبه أصلا لأنها مدحت شخصيات خدمت أمتها وأخلصت لدينها فالأمة متجسدة فى هذه الشخصيات وقد اعتادت الأمم منذ فجر التاريخ أن تقدس أبطالها وقادتها ومفكريها وعلماءها ولقد أشرت الى أن النبهانى فى أول حياته كان بحاجة الى من يوصله ويرضى طموحه ، وما كان له أن يصل لو لم يمدح هذه الشخصيات المرموقة ومثله فى ذلك مثل شوقى الذى كان فى رعاية القصر وحافظ ابراهيم الذى كان فى حماية محمد عبده ثم الوزير حشمت ثم بيت محمود باشا سليمان وأبنائه والأسرة الأباظية ثم سعد زغلول والوفد وما كان لشوقى أن يصبح أمير الشعراء ولحافظ أن يكون شاعر النيل لو لم يجد الحماية والرعاية ممن بيدهم مقاليد الأمور ، وهذا محرم ونسيم لم يذع شعرهما ويشهر لأنه لم يكن لهما من الحماية ما كان لشوقى وحافظ أما النبهانى فان ممدوحيه كانوا يمثلون النفوذ العربى فى السلطنة العثمانية وكانوا الناطقين باللسان العربى لدى البلاط العثمانى بالاضافة للأعمال العظيمة التى خدموا بها دولتهم وأمتهم .

ولم أجد للشيخ النبهانى قصيدة يمدح بها السلطان عبد الحميد الا أحد عشر بيتا ذكرها فى مقدمة تحقيقه وجمعه لديوان أبى الهدى الصيادى ، ولا يعقل ألا يكون النبهانى قد اغتنم مناسبة ما ليهنىء بها السلطان عبد الحميد كما فعل غيره من الشعراء خصوصا أن السلطان عبد الحميد والنبهانى كانا متفقين فى منهجهما الصوفى والمحافظة على الرابطة الاسلامية ، والسلطان عبد الحميد كان معروفا بمحاباته للعرب حتى انه صاهرهم وجعلهم حرسه الخاص وولاهم الكثير من المناصب الرفيعة حتى الصدارة العظمى .

ولقد عجزت عن العثور على قصيدة للنبهانى فى موضوع الحنين للوطن ، وان كان قد ذكر وطنه كثيرا فى قصائده وهذا يؤكد وجود قصائد مستقلة فى هذا الغرض وقد وجدت لدى الأستاذ يحيى النبهانى ابن عم الشيخ النبهانى قصيدة مخطوطة مطلعها :

أى راح حادى المطى سقاها فانبرت تضرب الهرا بهراها
كأنها
يعملان فى سراب السدو سفن نجادها من حشاها

والقصيدة بلغت أربعة عشر بيتا ويبدو أنها ناقصة لأنها بدون خاتمة والنبهانى يصرح كثيرا فى قصائده بأنه ما فارق وطنه الا طلبا للمعالى .

وقد المحت الى أن الشيخ النبهانى يصرح فى مواطن كثيرة بأنه ليس ممن يتخذون الشعر وسيلة لكسب الرزق لأنه لم يحتج الى ذلك حيث ان والده كان ينفق عليه وهو فى الأزهر . وفى الآستانة عمل فى تحرير جريدة الجوائب فكان يتقاضى منها عشر ليرات كل شهر . ولكنى وجدت فى أوراق مخطوطة لدى المرحوم الاستاذ خيرالدين الزركلى ستة أبيات منسوبة للشيخ النبهانى موجهة للسلطان عبد الحفيظ يستقل فيها الأعطية وقد دللت على خطأ نسبة هذه الأبيات للنبهانى عند الكلام على حالته المالية فى الفصل الرابع من الباب الثانى .

ولقد ذكرت فى موطن الحديث عن المساجلات الشعرية أن الأمير شكيب أرسلان ذكر فى كتابه " السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين عاما " أنه أرسل للشيخ النبهانى أبياتا يمدحه بها لعل الأمير أن يفوز بشيء من شعر النبهانى فأرسل الشيخ النبهانى له أبياتا مطلعها : ـ

راقنى يا شكيب منك قصيد باتفاق هو البليغ الفصيح

وفى هذا دلالة على المكانة الأدبية والاجتماعية للنبهانى فى عصره .

كذلك أشرت الى أن غرض " شكوى الزمان " لم يرد مستقلا فى شعر النبهانى وان كان يظهر واضحا فى مدائحه النبوية وفى مدائحه لشخصيات عصره . والنبهانى لا بد أن يشكو حاله وغربته فى مجتمعه وما يلاقيه من ابتعاد الناس عن دينهم وكذلك فى مدحه لشخصيات عصره فهو يشكو لهم زمانه الذى قصّر به عن تحقيق طموحه وآماله والنبهانى فى شكواه زمانه يظهر لنا بصورة الشاكى الطموح لا الشاكى المتقاعس العاجز .

أما الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن " مؤلفاته وآثاره " وبينت أنه من المكثرين فى التأليف فى العصر الحديث فقد بلغت مؤلفاته واحدا وستين مؤلفا وهو بهذا يجدد

سيرة العلماء الأوائل المعروفين بكثرة مؤلفاتهم مثل الجاحظ والسيوطي والشعراني وغيرهم علما بأن مؤلفات النبهاني على كثرتها تدور حول موضوع واحد هو شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا اتجاه متميز بين سائر العلماء انفرد به الشيخ النبهاني الذي تطرق - بمؤلفاته - الى جميع جوانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك تعد مؤلفاته بحق دائرة معارف محمدية متكاملة ، وقد شرح النبهاني حاله في مؤلفاته في كتيب سماه " أسباب التأليف من العاجز الضعيف " ولكنه لم يعطنا صورة واضحة لمكانته العلمية لأنه كثيرا ما كان يسترسل في البيان والايضاح حتى يقطع الكلام بعبارات التواضع كيلا يداخله رياء أو حب الظهور ، فهو يعترف بقلة نصيبه من العلم وبأنه لا يعد متقنا لعلم واحد من العلوم النقلية أو العقلية ولكنه يعترف بمهارته من اجادة الشعر وقد رجع ذلك للطبع مع العلم بالأدوات اللازمة من العربية والفنون الأدبية وقد ذكر النبهاني الدافع له على الاقدام على التأليف وهو الدفاع عن الاسلام وتحذير المسلمين وأولادهم من التيارات الدينية الوافدة . ولو أنه وجد غيره من العلماء ألفوا في هذا المجال لما ألف هو فيه لأن المؤلفات تسبب معاداة الناس كما يقول .

والواقع أن الموضوعات التي طرقها النبهاني مثل محاربة التبشير المسيحي والتحذير من مدارسه ومحاربة دعاة التجديد ومدرسة الأفغاني والوهابية ومحمود شكري الألوسي . قد سببت له الكثير من المشاكل ولهذا رأيناه يشكو في مؤلفاته من كثرة أعدائه ومحاولاتهم الحاق الأذى به .

وقد بسط النبهاني أسباب كثرة مؤلفاته فجعلها توفيق الله أولا ومعرفة الشؤون المحمدية التي ألف فيها ، ثم قوة سليقته الشعرية وصحة فهمه ، وسلامة ذوقه ، واجادته التعبير عن المقصود بعبارة رشيقة خالية من الركاكة والغرابة ووفرة الكتب والمصادر عنده المطبوع منها والمخطوط . وكذلك شموله بالأنوار المحمدية لأنه جعل جميع مؤلفاته في شؤونه صلى الله عليه وسلم وكذلك تطوع بعض الكتاب - في محكمته - لمساعدته في نقل النصوص من الكتب ثم تسهيل طبعها وتوزيعها في أكثر البلاد الاسلامية وأخيرا جعل وجوده في بيروت حيث كثرة المطابع ووسائل المواصلات الى غيرها أيضا من أسباب كثرة كتبه .

والنبهانى فى مؤلفاته لا يكاد يذكر حديثا أو خبرا الا ويرجعه الى راويه ، ومن هنا يعد المدح أو القدح راجعا للعلماء الذين نقل عنهم . كما أنه يعد ظهور هذه الكثرة من المؤلفات على يديه من أكبر نعم الله على الأمة الاسلامية ، ولهذا لا يعد ذلك الفضل لنفسه لأن النواحى الاسلامية واسعة غير محدودة ويستشهد فى هذا بقول الشاعر :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فان ملكت لسانا قائلا فقل

ويعتذر النبهانى عما ورد فى مؤلفاته من الأخطاء ، ويعد ذلك أمرا طبعيا .. لأن الله سبحانه قد أبى العصمة لكتاب غير كتابه وقد لاحظنا غير ما تقدم ـ أن طريقته العلمية فى التأليف كانت موجهة بمشاعره الدينية فهى مؤلفات هادفة لغاية محددة . كمدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتغنى بمحامده ، أو توضيح معلومات خلافية ، أو رد شبهات دينية أو مدافعة من انتقص من الرسول صلى الله عليه وسلم أو القرآن .

هذا وقد اعتمدت فى جمع مؤلفاته على ما كان موجودا منها فى مكتبات بغداد ودمشق والقاهرة وعمان وقد رتبتها حسب تواريخ طبعها وعرّفت عن طريق ذكر عبارة من مقدمته لكل كتاب منها ، موضحا عن موضوع الكتاب والهدف منه .

ولقد تلقف العالم الاسلامى مؤلفاته كلها بالقبول والاقبال بشكل معدوم النظير فطبع بعضها فى حياته عدة طبعات خصوصا قصائده ولا شك أن حالة العصر السياسية واتجاه المسلمين بقلوبهم نحو دار الخلافة التى يؤيدها النبهانى ويدعو لها ـ فى الوقت الذى دهمت فيه الحضارة الغربية المسيحية جميع المسلمين فى بيوتهم وأبنائهم ـ جعلتهم يهطعون نحو كل ما من شأنه أن يدفع عنهم هذا البلاء وكانت من العوامل المساعدة على تقبل المسلمين تلك المؤلفات ، والنظر اليها على أنها حبل النجاة الموءملة فى تلك الظروف .

ولقد كان النبهانى صادقا مع مؤلفاته حيث وهبها كل أحاسيسه ومشاعره حتى ليكاد القارئ يجده شخصيا فى كل سطر منها ، والجميل أنه ـ مع هذا الجهد ـ لم يجن منها أى نفع مادى بل جعل طبعها حقا لجميع المسلمين وهو بهذه المؤلفات

يعد مصلحا اجتماعيا كبيرا وقف بشموخ وثقة أمام التيارات الوافدة المحاربة للاسلام ـ كما يقول بروكلمان ـ ولم يضعف أمام العقبات والعداوات التى كان يلاقيها من انتشار مؤلفاته . ولن ينسى له التاريخ الاسلامى وقفته البطولية الصامدة فى وجه التبشيريين والمبشرين فى عاصمتهم الأولى بيروت مع أنهم كانوا يحظون بتأييد النخبة المثقفة وحماية القناصل والثراء الكثير ، ولم يكن مع النبهانى الا الله وقلوب المسلمين .

* * *

وفى الباب الرابع " مدائحه النبوية " : تحدثت فى الفصل الأول عن نشأة المدائح النبوية وأطوارها : المختلفة وعرضت أقدم صور المديح التى وصلتنا فى ثياب محامد وتقديسات الهية اكتشفت على جدران المعابد فى مصر وفى مزامير داود ، وذكرت ما جاء فى القرآن عن بعضها (سورة الأنعام آية ٧٤ ـ ٧٩) فى المحاورة التى جرت بين سيدنا ابراهيم عليه السلام وأبيه آزر . وأشرت الى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم استحق بجهوده وجهاده فى أداء رسالته للناس كافة كل معانى الحمد والثناء ولكن المدائح النبوية لم تظهر واضحة فى العصر المكى لأن ظروف المسلمين آنذاك لم تكن مواتية لظهورها ، وان كان ابن هشام فى سيرته قد أورد قطعا شعرية لأبى طالب كلها ثناء واشادة واطراء للنبى صلوات الله وسلامه عليه ، وقد ذكرها النبهانى كما أورد فى هذا الموضوع مقطوعة لحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه . وكذلك قصيدة الأعشى التى قالها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يتمكن من الوصول اليه بها ، وقد أوضحت ما أحاط بها من أسباب منعت ذلك الاتصال ، .. فلما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وأصبح رئيس مجتمعها ، ووضع اللبنات التى قامت عليها دولتها المسلمة أطلت رءوس المديح النبوى وتفجرت ينابيعه وبرزت دواعى المديح أكثر من العصر المكى . ولما اندلعت معارك الحرب بين المسلمين وقريش ظهرت الى جانبها معارك الشعر التى كانت تستهدف الانتقاص من الاسلام وجهاد الرسول من جانب قريش والاشادة بالاسلام ونبيه صلوات الله وسلامه عليه .. الى جانب تسفيه أحلام قريش وأصنامها ، والهزء بها وبعبادتها ، .. ومن هنا ظهر مدح الرسول ضمن غرض الدفاع عن الاسلام وهجاء قريش ولم يظهر مستقلا الا فى قصيدة كعب بن زهير رضى الله عنه اذ كان غرضها مدح الرسول واستلال غضبه واظهار

التوبة والندم على ما زل به لسانه من قبل .

وقد كانت قصائد عبد الله بن الزبعرى رضى الله عنه بعد اسلامه أقرب صور المديح لأنه كان يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم شخصيا متبرئا مما بدر منه فى هجائه الاسلام والرسول ولما رقى الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ظهر غرض جديد من أغراض المديح النبوى ، فقد قيلت قصائد كثيرة فى البكاء عليه صلى الله عليه وسلم تمثل صورة مستوفية للمديح النبوى لولا أن فيها بعض المعانى التى تظهر اللوعة والحزن لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن فطانة المسلمين أنهم سموا ما قيل فيه بعد مفارقته الدنيا مدائح ـ الاقرانى ـ لأنه حى فى قبره فعاملوه معاملة الأحياء .

وفى عصر الخلفاء الراشدين لم نجد قصائد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لأن المسلمين كانوا مشغولين فى حروب الردة أيام أبى بكر وفى الفتوحات فى عهد عمر وفى زمن عثمان كان هناك فتوحات ثم ظهرت الفتنة ، وفى خلافة على شغل مع جيوشه فى حرب الخوارج ومعاوية . وقد رجحت أن عدم ظهور المدائح النبوية فى العصرين الاسلاميين الأول والثانى ارتبط بعدم حاجة المسلمين لذلك ، لأن معظم الصحابة كانوا لا يزالون أحياء كما أن الاسلام كان لا يشجع المديح بصورة عامة . ثم جاء العصر الأموى الذى عادت به الأغراض الجاهلية جذعة فوجدنا بعض صور المديح النبوى الغير المباشر تبرز ضمن أغراض سياسية تمثل الوقوف الى جانب آل البيت الذين لحقهم الأذى وحل بهم الهوان من بنى أمية ، وكانت محبة آل البيت أقوى سلاح يشهر فى وجوه الأمويين حيث استغله الكثيرون من ذوى الدعوات المشبوهة ، وفى هذا العصر ظهر الفرزدق بقصيدته التى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وأطل منها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدة أبيات وكان المقصود بها مدح على بن الحسين وكيد هشام بن عبد الملك الذى أنكر معرفته بعلى وسأل من هذا ؟ ، ثم ظهر الكميت بن زيد الذى اشتهر بهاشمياته واتخذ من محبته الصادقة لآل البيت منهجا لبيان مفاسد بنى أمية . وأشهر هاشمياته الميمية والبائيات الأولى والثانية والثالثة . وبعد العصر العباسى تحول التشيع الى محبة آل على الذين لم يتغير الحال عليهم

ـ بعد بني أمية ـ زمن بنى العباس ، وظهر دعبل الخزاعى بقصائده العلوية التى أشهرها التائية التى مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

والى هنا نلاحظ أن كل من قدمناهم من شعراء المديح النبوى لم يكونوا كذلك بالصورة الفنية الصحيحة لأن شعراء الاسلام الثلاثة حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ليس لهم مدائح نبوية مستقلة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فيما أعتقد ـ لم يكن يرضى للشعراء أن يمدحوه كما يمدح الملوك خوفا من أن يداخل المسلمين شيء من الريبة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جاء رسولا هاديا وليس ملكا عظيما ، وخوفا من أن يتخذ حكام المسلمين ذلك سنة لهم ، أسوة برسول الله فينصرفوا عن الغرض الأول من وظيفتهم وهى خدمة المسلمين ورعايتهم .

ولقد انتهيت الى أن الاسلام أوقف من عجلة الشعر السريعة فى ميادين الاسلام مؤقتا ، وشغل عنه قلوب عامة المسلمين خاصة بعد أن هجا شعراء المشركين ونفى الشعر عن القرآن ، ونفى الشاعرية عن الرسول بوحيان بمكانة الشعر وقدرته على التأثير فى النفوس ، وجذبها الى ناحيته فى يسر وسهولة ، ولهذا أمر الرسول شعراءه بالدفاع عن الاسلام والذب عن بيضة المسلمين فقاموا بمهمتهم خير قيام ، وبعد ذلك تغيرت مناهج الشعر وأبطلت صوره وألوانه حتى اذا جاء العصر الأموى ، وتقسم المجتمع الى أحزاب وشيع متنافرة متناكرة عاد الشعر الى نهجه القديم ، وانطلق الى جميع الميادين ، وكذلك بقى الأمر فى عهد العباسيين ، وان كان قد جنح بعض الشيء الى الدين ، ونادى بمبادئه السامية ، وظل الأمر كذلك حتى القرن السابع الهجرى حيث لمع البوصيرى ، وولدت المدائح النبوية ولادة فنية ، وأصبحت غرضا له كل الاستقلال وظل مستمرا الى يومنا هذا . والبوصيرى كان شاعرا كالشعراء فى عصره ولم يكن شعره ذا قيمة فنية عالية ولكنه اشتهر بمدائحه النبوية وبقصيدته " البردة " بالذات ، ولعل مناسبة نظمه لهذه القصيدة ـ حين رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام يلقى عليه رداءه ، فيزيح عنه ما ـ قد أعطاها شهرة عاطفية فى قلوب المسلمين وأسهم فى ذيوعها مع ما فيها من قوة العاطفة وحرارة الوجدان التى جعلتها ـ فيما بعد ـ أنشودة الصوفية وأغرودة الذاكرين وللبوصيرى ـ أيضا ـ قصيدته

الهمزية التى سماها " أم القرى فى مدح خير الورى " والتى بلغت ٤٥٨ بيتا مدح فيها الرسول وتعرض لسيرته ومغازيه وناقش اليهود والنصارى .

والمديح النبوى لم ينقطع فى عصر من العصور خصوصا فى الأزمنة التى تسوء فيه حالة المسلمين ويغلبوا على أمورهم ولكننى اكتفيت بالبوصيرى ـ مثلا فى هذا المجال ـ وقد عرف فيما بعد باسم المديح النبوى .

وقد انتقلت بالقارىء الكريم الى العصر الحديث الذى برزت فيه دواعى المديح النبوى حيث ساءت أحوال المسلمين الاقتصادية والثقافية والسياسية مع تنبه العاطفة الدينية التى قويت فى قلوب المسلمين ردا على التيارات والثقافات الكثيرة الوافدة حيث كانت تظهر دائما بمظهر دينى صليبى قاصدة الاسلام بالذات تارة باسم تحول وتغيير اللغة والأدب والبحث العلمى وأخرى باسم حرية الأديان وثالثة باسم المشورة الاقتصادية والسياسة وكل هذه الوسائل تهدف لغاية واحدة هى هدم الاسلام فى نفوس بنيهولم يحصل المسلمون على ذلك الرقى الحضارى كما حصل فى تركيا .

ومن أشهر الشعراء الذين برزوا بمدائحهم النبوية فى الساحة الأدبية محمود سامى البارودى بقصيدته التى عارض بها بردة البوصيرى وسماها " كشف الغمة فى مدح سيد الأمة " والذى قلده فى معانيه وتراكيبه وألفاظه ، ثم ظهر أمير الشعراء أحمد شوقى وعارض البوصيرى فى بردته وهزيته كلتيهما .

وقد أثبتنا أن مؤثرات العصر السياسية والثقافية والاجتماعية قد ظهرت فى مدائح البارودى وشوقى كما ظهرت فى مدائح البوصيرى ـ فهما بتقليدهما له فى ألفاظه ومعانيه الروحية لم يهملا الأهداف الأخرى التى يقتضيها العصر .

والحقيقة أنه ظهر فى العصر الحديث شعراء كثيرون مدحوا الرسول وتغنوا بمكانته وفضائله وأجادوا فى ذلك كل الاجادة ، ولكن البارودى وشوقيا هما اللذان برزا فى مدائحهما النبوية فى ميادين الشعر الأدبية وربما كان لمكانتهما السياسية والاجتماعية أقوى الأسباب فى هذا الظهور وتلك الشهرة .

وفى الفصل الثانى " مدائح النبهانى وبواعثها " : تحدثنا عن أنه لم يؤرخ مدائحه النبوية لنتبين انبعاث الأحداث فيها ولعله أراد بهذا أن تكون خالصة لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم والدفاع عن الاسلام أكثر من كونها شاهدا على أحداث العصر ولكن هناك بواعث عامة وجدنا صداها فى الصرخات المدوية التى كان النبهانى يطلقها مهيبا بالمسلمين أن يعودوا الى دينهم ليعود اليهم المجد والسؤدد الذى كان لأجدادهم .

ومنها : البواعث السياسية : كقوله : ـ

ونحن بنوهم كيف كنا فما لنا ... نحيد ولا نقفو لآبائنا اثرا

وما الفرق الا الدين قد كان عندهم ... قويا فنالوا منه من قوة شطرا

الى أن يقول :

الى الله كم أمسى وأصبح ساهرا ... فآونة نظما وآونة نثرا

أنادى بأعلى الصوت فى الناس صارخا ... لشدة وجد أججت فى الحشا الجمرا

أحذر قومى من عداة تألبوا ... علينا وسامونا ديننا الخسف والخسرا

والنبهانى لا يقصد الا روسية وفرنسة وبريطانية اللواتى تكالبن على دولة الخلافة وتهيئوا للاجهاز على " الرجل المريض " لاقتسام أملاكه .

ومنها البواعث الاجتماعية التى استرعت انتباه الشيخ النبهانى كثيرا بسبب معايشته للناس واطلاعه على دخائلهم ، ولهذا كان كثيرا ما يشكو زمانه وأهله وما استحدث فيه بمثل قوله :

وأجرنى وعترتى من زمانى ... فدواهيه كلها دهياء

وقوله أيضا :

كم أبو جهل استطال على الدين ... وكم ذا أزرت به الجهلاء

ولكم فى ثيابه ابن سلول ... شاكه من نفاقه سلاء

ما اغترارى بمن تلون منهم ... والأفاعى أشرها الرقطاء

وقوله كذلك : ـ

صرنا من المحنة فى غمار ... من كثرة المصائب الطوارى

فى زمن دبر بالأدبار الليث فيه انقاد للحمار
والخير مغلوب غدا للشر

وقد كان الباعث الديني هو المحرك الأول لكل البواعث اذ به ينظر النبهانى الى كل ما فى المجتمع من أحداث ، وهو كثيرا ما يصور أحداث عصره بما ينعكس على شخصه فكأنه هو المجتمع ويظهر هذا فى مخاطبته للرسول صلى الله عليه وسلم ذاكرا ما يلحقه من أذى واضطهاد لثباته على الدين القويم .

والحقيقة أن النبهانى كان لا يقصد الا المجتمع الاسلامى وما يلحقه من مصائب لأنه " مجتمع اسلامى " مثل قوله فى احدى موشحاته : ـ

يا عمادى أنت أدرى بالزمان ما لأهليه وفاء وعهود
كلما اخترت فتى للصدق مان قابلوا المعروف منى بالجحود
ضعف الايمان فيهم والأمان ودّهم مذ وجدوا هم وعود

وقد كان واضحا لدى الأوساط الأدبية أن أدب الشيخ النبهانى كان منبعثا من أحوال عصره ومقتضياته كما يظهر فى قول بروكلمان الذى جعل أدب النبهانى يمثل الأدب العربى فى سورية فى عصر السلطان عبد الحميد .

وهناك بواعث خاصة لمدائحه النبوية وهى ألصق به من البواعث العامة لأن البواعث الخاصة هى التى شكّلت شخصيته بالكيفية التى تجاوب بها مع البواعث العامة ، غير أن تلك البواعث الخاصة لم تَعْدُ مصادره الفكرية التى بسطت الحديث عنها فى الفصل الثانى من " الباب الثانى " وهى أسرة النبهانى ، ووالده الأزهرى ، وقريته " اجزم " وتعلمه فى الأزهر .

فهو قد استفاد من كونه " نبهانيا " الأصالة العربية بكل ما فيها من فصاحة لغوية ومقدرة بيانية ، كما ملك ناصية الشعر فلا تحس فى شعره أى أثر لتعمل أو تصنع والنبهانى بشاعريته النبهانية قفز بالمدائح النبوية قفزة واسعة وجديدة فى الأدب العربى ، فهو قد طوع هذا الغرض ليستوعب مشاكل المجتمع السياسية والاجتماعية بعد أن كان مقصورا على شخصية الممدوح صلى الله عليه وسلم .

ومن " والده الأزهرى " أفاد الشخصية الصوفية التى تعيش دنياها لآخرتها

وقد كانت شخصية والده هى التى حددت المسار الفكرى للشيخ النبهانى .

ومن قريته " اجزم " كسب روح العناد والاصرار على الخصومة وقد انبعثت هذه الظاهرة فى صياغة مدائحه النبوية على شكل قصائد مطولة بلغت ألف بيت وخمسين وسبعمائة بيت وخمسة وعشرين وخمسمائة بيت .

ومن " تعلمه فى الأزهر " التحف النظرة الاسلامية الصافية النابعة من الكتاب والسنة فقط ، وهذا يظهر واضحا فى مناقشته لمدرسة الأفغانى التى انبهت خلافه معها من مسائل دينية بحته مثل الدعوة الى الاجتهاد المطلق ومحو المذاهب الاسلامية واعتناق الماسونية وتعاطى المسكرات وغيرها وخلافه مع الوهابية بشأن زيارة القبور والتوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم . والتشبيه والقول بالجهة . وكذلك كان خلافه مع محمود الألوسى حول انتصار النبهانى للامام السبكى وانتصار الألوسى للامام ابن تيمية .

ومن هذا نلاحظ أن خلافه مع الآخرين كان قائما على دوافع دينية وقد كانت الفكرة الدينية متعمقة فى ذاته حتى انه تغزل فى جمال الشرائع الاسلامية ولطفها ورقتها .. مستحدثا غرضا جديدا من أغراض الشعر .

وينبغى أن نقرر ـ شاكرين ـ أن النبهانى فى مقدمة مدائحه النبوية انصرف عن الغزل بالنساء الى الغزل بالديار الحجازية حتى رجح تأخره فى محبوبه ـ بالمدينة المنورة ـ لكثرة ذنوبه ، وكل هذا يدل على تملك الاسلام لقلبه بلا منافس .

وفى الفصل الثالث " نماذج من شعره فى المدائح النبوية " أثبت أن قصائد المدائح النبوية للشيخ النبهانى فى ديوانه محدودة العدد ولكنها مطولة فكل واحدة لا تقل عن أربعين بيتا وبعضها بلغ المئات .. غير أنها متشابهة فى بواعثها ومقاصدها ، ولذلك اكتفيت بالاستشهاد بثلاثة نماذج منها مختلفة الأساليب .

النموذج الأول : من هذه القصائد قصيدته " القول الحق فى مدح سيد الخلق صلى الله عليه وسلم " ويقول فى مطلعها :

لمن ربع بأكناف المصلى ... علا السبع العلا شرفا وفضلا

رعاه الله مئية كل نفـــــس وحيّا الله تربتـه وأعلـــى
وبلغ من غوادى السحب عـنى قبا يقبا بسيل القطر سؤلا
ودام على المقيق عهاد غيث تروى روحه ســـلما وأثلا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة عشر ومئة بيت .

والنموذج الثانى التخاميس : وللنبهانى عدة تخاميس فى مدائحه النبوية منها تخميس يقول فى مقدمته : ــ

" منذ سنتين قلت هذه القصيدة لتقرأ وقت الزيارة فى مواجهته صلى اللـه عليه وسلم أو ليستحضر القارئ أينما كان أنه بحضرته يخاطبه بها عليه الصلاة والسلام مطلعها : ــ

يا نبيا لدى الاله عظيمـــا وحبيبا له وعبدا كريمـــا
أنت فقت المسيح فقت الكليما فقت نوحا وفقت ابراهيمـــا
يا رؤوفا بالمؤمنين رحيما

وقد بلغت القصيدة ثمانية وثلاثين مخمسا ... وفى ديوان النبهانى مخمسات أخرى .

والنموذج الثالث : الموشحات : التى عددنا منها ثلاثة فى مدح الرسول صلى اللـه عليه وسلم بأسلوبين مختلفين .

فمن الأسلوب الأول : الموشح الذى عارض به موشح أبى عبيد " ويقول فى مطلعه :

ارو لى ــــ مدح النبى الخاتـــم الأول
واجل لى ــــ كأس الصفا من حبه قد ملى
قد علا ــــ حتى رقى السبع الطباق العلا
وانجلى ــــ له مقام القرب فوق المـــــلا

وقد بلغ هذا الموشح سبعة وأربعين بيتا .

ومن الأسلوب الثانى : موشحتان يقول فى تقديم أولاهما : " قلت أمدحه صلى اللـه عليه وسلم معارضا الموشحات السبعة لعلماء دمشق وقد شبهوا بمتنزهات الشام وشببت بمعالم الحرمين الشريفين على مشرفهما الصلاة والسلام " . ويقول فى مطلعها : ــ

لست أنسى زمنا قد سلفا ... فيك يا مكة بالعيش الهنى
اذ من المروة أسعى للصفا ... وبذات الخال وجدى عمنى
حين أغدو طائفا من حولها ... أتهادى مثل صب ثمل
أبتغى عارفة من نولها ... وهى ترعانى تحت الحلل

وقد لاحظت أن النبهانى طوع الشكل الشعرى للمديح النبوى ونوع أساليبه مما يدل على أصالته فى الشعر وتمكنه من بحوره وأوزانه .

وفى الفصل الرابع " الخصائص الفنية فى مدائحه النبوية " : تحدثت عن العاطفة : وهى " انفعال شديد ينزع بصاحبه الى ميل نحو أمر من الأمور ملك عليه منافذ حواسه فلا يستطيع الانفلات منه ولا التخلى عنه " ، وللعاطفة أثرها فى خلود الأدب وبقائه متجددا على مر العصور لأن العواطف الانسانية نحو أمر ما تكاد تكون واحدة .

وقد تكلم النقاد عن دوافع العواطف الأدبية وجعلوا للمديح عاطفة الرغبة وقرروا أن أقواها تلك التى ترتبط بمقصد دينى يبعدها عن أطماع الدنيا التى تتنازع فيها الرغبات بين اقدام وجحام ، ومن هنا تعد المدائح النبوية قمة الشعر لصدق عاطفتها الموحية والشاعر حين يتهيأ لقول الشعر وتجتمع له أدواته لا يكون شاعرا اذا كان يصطنع كل بيت بوزنه ومعناه اذ لا بد أن يأتيه الشعر تلقائيا وكأنه يوحى اليه به ، ومن ثم قالت العرب : ان لكل شاعر شيطانا يوحى اليه به حسب استعداده الفنى .

وقد ذكرت أن النبهانى اكتشف ركيزة أخرى ـ غير العاطفة المشبوبة ـ لا بد من توفرها لشاعر المدائح النبوية وهو التوفيق الالهى لأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم عبادة وبهذا فسر النبهانى عدم قول أمثال المتنبى وأبى تمام والبحترى وغيرهم من فحول الشعراء أشعارا فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أثبت أن عاطفة النبهانى فى مدائحه النبوية لا يعوزها الدليل بل هى ظاهرة فى طول نفسه فى مدائحه النبوية عامة حتى ان بعض قصائده وصل الى ألف بيت . وكذلك فى قصره أدبه المنظوم والمنثور على شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم ومثله فى طمسه معالم قصائده فى غير المدائح النبوية مع جودتها ونيوعها وفى توصيته بجمع ديوانه مما قال

فى المدائح النبوية فقط ، وفى تعففه عن مدح أى شخص غير الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى آخر حياته ـ .

كل هذا كان معروفا عن النبهانى فى أيامه حتى أطلق عليه " حسان زمانه " وهناك الأدلة الكثيرة التى تثبت أن النبهانى عاش حياته مغنيا بمآثر الرسول ومحامده تارة بالثناء على الاسلام وأخرى بمحاربة التجديد المنحرف وثالثة بالهجوم على التبشير ومدارسه وقد عرّف بعض الصوفيين الشيخ النبهانى فقال : " كان نقطة محمدية " .

وكذلك أثبت أن الشيخ النبهانى شخصية واحدة لم تتغير منذ أن تخرج من مدرسة والده فى " اجزم " ولذلك كان ظاهره كباطنه دائما ولا شك أن عاطفته الدينية المشبوبة التى أثمرت هذه المؤلفات الضخمة حول شخصية الرسول والدفاع عن الاسلام لا يمكن أن يكون لها وجه آخر ، ولو كان لرأيناه ينعكس على مؤلفاته وسيرته وبعد مماته واذا كان هناك بعض الشعراء الذين أتهموا بازدواج الشخصية فذلك لوجودهم فى مواقف تخالف مواقفهم الأخرى مثل أبى العتاهية وأبى نواس وشوقى وغيرهم .

ولقد درست أفكاره ومنابعها فوجدت أن ثقافته الاسلامية الصوفية كانت هى المؤثر الأول فى نوعية أفكاره ومن يطالع مؤلفاته يجد أفكارها اسلامية بحته بعيدة عن كل جديد ، فهو لا يستدل على صحة كلامه بظاهرة كونية أو قانون للطبيعة بل يأخذ شريعة أفكاره من الكتاب والسنة وأقوال العارفين والأولياء ، ويظهر هذا واضحا فى كتبه التى يناقش فيها مسائل خلافية أو فى مناقشته للغير كما فى كتبه " شواهد الحق " و " سعادة الدارين " وغيرهما .

وقد كان للفكر الصوفى أكبر الأثر فى توجيه أفكاره وهذا ما نلمسه فى مدائحه النبوية ولعل ثروته العلمية الضخمة عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هى التى أغنت النبهانى فى مدائحه النبوية ولو التزم بما أتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الكتاب والسنة فقط لما ظهرت مدائحه النبويةبهذه القوة التى فاق بها غيره .

وقد كان دائما يعنى بترتيب أفكاره التاريخية حسب أزمانها كما يظهر فى تعرضه

لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك كان يلتزم فى تلك الأفكار بنصوص الكتاب والسنة أولا وبأقوال العارفين التى لا تتعارض معهما .

ويبدو أن تمكن النبهانى من فهم الكتاب والسنة جعله لا يشتط فى سبحاته الصوفية كما نجد عند غيره من رجالها مثل الشيخ عبد الكريم الجيل والحلاج وغيرهما ، ولعل اشتغال النبهانى بطلب العلم فى أول حياته ثم سعيه للحصول على وظيفة ترضى طموحه ثم اشتغاله بالتأليف واصطدامه بالتبشير ومدارسه والتجديد الوافد من الغرب وحرية كل هذا شغله عن الاستغراق فى العبادة والخلوة التى تثمر أفكارا تبدو شاذة لغير أهلها وقد صرح النبهانى بهذا متحسرا على عدم تمكنه من قيام الليل والاستغراق فى العبادة كغيره من الزهاد والعباد . لهذا عندما سمع بكتاب " غاية الأمانى فى الرد على النبهانى " للألوسى قال هذا رد على العلماء .

واذا كانت الحكمة دائما هى الخلاصة الايجابية لتجارب الأمم فان أى أدب لا يخلو من الحكم لأنه أداة التعبير عن هذه التجارب ولو رجعنا الى المعاجم لوجدنا مفهوم الحكمة يعنى العدل والحلم والنبوة والقرآن والانجيل ، وقد وردت كلمة " الحكمة " فى القرآن تسع عشرة مرة احداها فى قوله تعالى " يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " أما الحكمة بمعناها الفنى أى " القول المأثور " فنحن نلاحظ أن نصيبها قليل نسبيا فى مدائح النبهانى فيما يتوجه فيها لوصف وجدانه ومحبته للرسول صلى الله عليه وسلم .

أما مدائحه التى يتطرق فيها للوعظ والارشاد فهو يكثر فيها من الاتيان بالحكم والأمثال .

وقد توفرت له حصيلة وافرة من الحكم نتيجة ثقافته الواسعة فى الأدب ، والقرآن والحديث ، ولهذا استخلص مائة حديث نبوى وردت على صيغة الحكم سماها " نموذج الحكم النبوية " ، واذا استخلصنا معنى الحكمة من اللغة والقرآن والحديث وقلنا انها " الرأى السديد الذى يقود صاحبه لفهم تعاليم الاسلام فهما ايجابيا " فاننا نعد كل ما قاله النبهانى فى المدائح النبوية من الحكمة .

وقد عرضنا فى شعره الصورة الشعرية : وهى الطريقة التى يسلكها الشاعر

لعرض أفكاره وأغراضه عرضا أدبيا مؤثرا فهناك المعانى والأفكار والمشاعر وهى مادة ومضمون للصورة وهناك العبارات والألوان والرسوم المصورة لهذه المعانى والأفكار أو الصورة • ومعروف أنه كلما ازدادت حرارة المشاعر كلما زادت قيمة الشعر فالشعر الجيد طغت فيه المشاعر على المضمون لأن الشعر أقرب الى التعبير الوجدانى منه الى التعبير المنطقى ، ومن هنا كان الشعر لا يصلح لانهاض الأمم من كبوتها كما يصلح النثر •

ومعلوم ـ كذلك ـ أن حرارة المشاعر التى تصل الى درجة الانفعال ـ سخطا أو رضا ـ قادرة على الاستحواذ على المواطف أكثر من حالة هدوئها وسكونها ، والانفعال فى مدائح النبهانى ـ بنوعية ـ ظاهر فى تسخيره أدبه المنثور والمنظوم للطواف حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وفى قصر ديوانه على المدائح النبوية فقط فى طول نفسه فى المدائح النبوية وفى افتتانه بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث جعل مديحه من أغراض الشعر التى تتسع لعدة أغراض اسلامية ، ثم ان هذا الوله المحمدى للنبهانى الذى يظهر فى مدائحه النبوية : ما كان ليظهر لو لم ينفعل النبهانى انفعالا شديدا واذا كان الانفعال فى هذا الجانب قد ولد الرضى الذى أثمر هذا الوله التابل والشوق المشبوب فهو فى الجانب الآخر قد ولد السخط والغضب والهجاء لمن يختلف معهم فى شؤون محبوبه صلى الله عليه وسلم سواء بالاستغاثة أو الزيارة أو الدفاع عن دين حبيبه ضد التيارات الوافدة ودعاة التجديد ، ومن يقرأ قصيدة النبهانى الرائية فى هجاء مدرسة الأفغانى وغيره يلمس حرارة الانفعال نفسها التى وجدناها فى مدحه للرسول فهما وجهان مختلفان لعملة واحدة والنبهانى فى كليهما منطقى لأنهما صادران عن مؤثر واحد هو "الانفعال" •

وفى دراستنا الفنية لشعر النبهانى وجدناه يستعمل الحقيقة والمجاز فى التعبير عن المضمون فى صوره الشعرية كما يستعمل الكناية والتورية والصور المتحركة والمتتابعة حسب ترتيبها الزمنى ان وجد وكذلك كان يستعمل النظر العقلى والحجة أيضا •

كذلك وجدنا ألفاظ النبهانى فى مدائحه النبوية معبرة عن مدلولات وافية ملائمة للعاطفة والفكرة مثل "نورك" "نبياً" "رحمة الكون" "منتهى الفضل"

وغيرها من الألفاظ العاطفية ، ولكننا وجدنا نقيض هذه الألفاظ عندما يغضب أو يثور على من يحرمون زيارة القبور ونحوها حيث يستعمل معهم الألفاظ النابية المعبرة عن شدة غضبه وسخطه ، ومن هذه الألفاظ التي وردت في هجاء الأفغاني " الجاهلون " " أفظع الأمر " " شيخا مشردا " " قبح فعله " " الحاده " " فئران " وغيرها من الألفاظ النازلة .

والطابع العام للتراكيب في مدائح النبهاني هو الجزالة والقوة مع احكام المعنى ، كما يظهر في قصيدته " سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد " وفي الرائية الكبرى والرائية الصغرى والهمزية الألفية وغيرها ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن تراكيبه تضعف أحيانا عندما يتطرق للنواحي التاريخية من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي المسائل الخلافية التي تتخذ الطابع الجدلي ولكن دون أن يعتورها الوهن في الترابط ، بل تشعر بترابطها لحرارة النقاش وشدة الانفعال اللذين يظهران بوضوح تام كما في انتصاره للامام تقي الدين السبكي في شأن الزيارة والاستغاثة أو في نقاشه لليهود والنصارى .

أما تراكيبه الوجدانية التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم فتراها تنساب برقة سلسبيلة دون صنعة أو جهد .

وقد استعمل النبهاني جميع الأساليب البلاغية للتعبير عن المعنى المقصود ولكن دون أن يظهر عليه أثر الصنعة والتكلف لأنه لم يكن يقصدها لذاتها بل كانت تأتيه طيعة فقد ظهر في مدائحه الجناس بنوعيه والطباق والمذهب الكلامي وحسن التعليل وكان للمبالغة نصيب وافر من اهتمامه وقد تكلم عنها في مقدمة المجموعة النبهانية منبها الى أن بعض معاني المدح قد تكون مبالغة مذمومة اذا مدح بها غير رسول الله أما رسول الله فكل معاني المدح تعد مقصرة عن بلوغ حقيقته صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف حقيقته الا الله ولأن شعراء المدائح النبوية قد سجلوا موقفا متشابها عندما أقدموا على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في أول أمرهم ذلك أنهم تهيبوا مدحه لأنهم لم يجدوا من معاني المدح والثناء ما يليق بمقامه الى أن وفقهم الله تعالى الى مدحه فقالوا ما قالوا وهم يشعرون بالتقصير في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحقيقة أن معاني المبالغة التي مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم شائعة لدى

الصوفية ومقررة فى كتبهم بطريق النقل أو بالكشف ، وقد اكتسبت صفة المبالغة لأنها غير شائعة لدى علماء الشريعة ، أو من يسمونهم علماء الظاهر الذين يقفون عند ظاهر النص ، كما ظهر أيضا الترصيع ولكنه قليل جدا .

ولقد كان للظروف المكانية والزمانية التى عاشها الشيخ النبهانى أكبر الأثر فى توجيه مدائحه النبوية لأن تكون خالصة لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلها وسيلة لمعالجة مشكلات العصر السياسية والاجتماعية والثقافية ، فقد كانت بيروت مركز المسيحية ومنطلق التبشير المسيحى فى المنطقة العربية أثناء العصر الذى عاش النبهانى فيه من ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢ حيث خرجت النوايا الاستعمارية الصليبية من قمقمها الى حيز التنفيذ فانهارت الخلافة العثمانية على يد حزب الاتحاد والترقى الماسونى وألغى الاسلام نهائيا على يد مصطفى كمال أتاتورك وظهر الاستعمار الغربى وساعد الأقاليم العثمانية على الانفصال بأمل الاستقلال ، وظهر دعاة التجديد بزعامة جمال الدين الأفغانى وأوجدوا مفاهيم جديدة فى الدين لم تكن معروفة من قبل ، وظهر تأثير الاستعمار الغربى فى الحياة الاجتماعية والأدبية والخلقية عند المسلمين ..

كل هذا كان له أكبر الأثر فى توجيه مدائحه النبوية توجيها ايجابيا حيث انه لم يكتف بأن يتغنى بمحامد الرسول صلى الله عليه وسلم المجردة .. بل جعل من هذه المدائح تسجيلا لحياته من مولده حتى وفاته . ثم مدح الخلفاء الراشدين والصحابة والأئمة الأربعة ثم أثار مواضيع خلافية مثل زيارة الرسول والتوسل وشرحها وهجم من يحرمها كما توجه الى أفعال المسلمين المغايرة للاسلام ونقدها ، وهجم النصارى واليهود وبين أباطيلهم وحارب التبشير وحذر من مدارسه .

كل هذا ضمّنه النبهانى مدائحه النبوية لتبلغ بعضها المئات ، ومن هنا نعلم أن مقتضيات العصر هى التى حددت مواضيع مدائحه بالاضافة الى كونه رجل مجتمع ودولة وهو من الذين لا يعرفون للحياد معنى . ولكن النبهانى لم يخرج عن الغرض الأساسى وهو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الدفاع عن الاسلام وتبصير المسلمين بأمور دينهم هو فى حد ذاته مما يرضى الرسول ويقر عينه ولكن هناك بعض القصائد التزم بها النبهانى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم نسبيا مثل قصيدة " سعادة المعاد

فى موازنة بانت سعاد " وقصيدته " أحسن الوسائل فى نظم أسماء النبى الكامل " وغيرهمـــا ٠

وقد اعتنى الشيخ النبهانى بمطالع مدائحه النبوية فكانت معبرة عن موضوعها خير تعبير وهو ما يسمى " براعة الاستهلال " ففى قصيدته " طيبة الغراء فى مـــدح سيد الأنبياء " يقول فى مطلعها : ـ

نورك الكل والورى أجـــزاء يا نبيـا من جنده الأنبيـــاء

فقد استعمل كلمة " نورك " فى مفتتح الشطر الأول و " نبيا " فى مفتتح الشـطـر الثانى وكأنهما متقابلان وفى هذا البيت تظهر ثقافة النبهانى الصوفية العميقـة الـتى يتزود منها فى مدائحه النبوية منذ البيت الأول وهكذا باقى مدائحه النبوية ٠

وقد لاحظنا بعد استعراضنا لمطالع مدائح النبهانى ما يأتى : ـ

١ ـ الحسن والعذوبة فى اللفظ والبراعة والجودة فى المعنى ٠

٢ ـ المعنى واضح لا غموض فيه ولا صعوبة فى فهم معناه مع القوة والجزالة ٠

٣ ـ ليس فيه ما يتطير منه أو يستجفى من الكلمات كذكر البكاء والحزن ووصـــف القفـار والحزن على الشباب وفنى الزمان ٠

ولقد جعل النبهانى مقدمات قصائده تشبيبا بمعالم الديار الحجازيـة أو المدينة المنورة ولم يحبذ التشبيب بالنساء فى المدائح النبوية ـ كما اعتاد الشعراء ـ لأن هذا ضاف للأدب فى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك بعض القصائد للنبهانى لم يجعل لها مقدمة بل افتتحها بالمديح المباشر ٠

هذا وقد ذكر الشيخ النبهانى شرحا مطولا لآراء العلماء فى مقدمات قصائـد المديح النبوى فى مقدمة كتابه " المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية " ويغلـب فى شعره أن يجعل مقدمات مدائحه النبوية عاطفية وجدانية حتى اذا تم له ما شـــاء أن يقوله تعبيرا عن حبه وشوقه للرسول صلى الله عليه وسلم التفت الى التشبيب بمعالـم الحرمين الشريفين أو الديار الحجازية أما فى قصيدة " سعادة المعاد فى موازنـــة بانت سعاد " فقد كان مقلدا لكعب بن زهير رضى الله عنه ٠

ولقد أحسن النبهاني ـ في مدائحه النبوية ـ التخلص من التشبيب بالديار الحجازية الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم كما في قصيدته " سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد " وغيرها من القصائد التي جعل لها مقدمات تقليدية .

ونحن نلاحظ أن النبهاني لم يتكئ على كلمات محدودة للتخلص كما هو مألوف لدى الشعراء كأن يقولوا " دع ذا " أو " عد عن ذا " ولكن النبهاني اعتمد على تهيئة الجو والموقف واعداد الكلمات المناسبة توطئة للانتقال ، فهو في غزله بديار الحبيب تراه يتنقل في التشبيب هدالا ويمينا حتى اذا قارب الافصاح عن حبيبه تراه يرفع حرارة حبه وعشقه وتمنياته باللقاء حتى ليتوقع القارئ الافصاح عن الحبيب بعد بيت أو بيتين .

وقد اهتم الشعراء بخاتمة قصائدهم خصوصا ما كان في المديح لأنها الأبيات الأخيرة التي تسمع من القصيدة ، وفي المفهوم الصوفي لا بد أن تختتم قصيدة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بالصلاة والتسليم عليه وقد التزم النبهاني بهذا المفهوم في بعض قصائده ولكنه غالبا ما يختمها ببث شكواه وما يلاقيه من أعدائه الكثيرين مظهرا ثباته على محبة الرسول صلى الله عليه وسلم مهما لحقه من ضرر ، وفي بعض قصائده يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الجائزة على مدحه اياه ، وجائزته هي صلاح دينه ودنياه ـ كما يقول ـ وفي بعضها يصف حال الأمة وما وصلت اليه من هوان طالبا لها كل عون من الرسول صلى الله عليه وسلم .

والقوافي التي استعملها النبهاني في قصائده محدودة لطولها ومعظم قصائده معارضات لم يكن له جهد في اختيار قافيتها . وقد استعمل ما فيه الراء واللام ألفا كثيرا ، وله تخاميس تتعدد فيها القوافي ، وله قصائد صغيرة تبلغ عشرة أبيات جعل قوافيها حسب حروف المعجم .

وقد التزم النبهاني بالتصريع في جميع قصائده التزاما تاما لأنه كالتمهيد الموسيقي يسترعي به الشاعر انتباه سامعيه وهناك بعض الأبيات التي مدح بها نعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهي عشرة أبيات كل بيتين بقافية مستقلة ولم يلتزم فيها

التصريع ٠

وفى الفصل الخامس تحدثت عن معارضاته ونقائضه فى المدائح النبوية :

وبينت أن شعراء عصر النهضة اتجهوا الى المدائح النبوية السابقة ، ونظروا اليها بعين الاجلال والاكبار وعارضوا الكثير منها وقد نالت مدائح البوصيرى أهمية خاصة حيث عارضها شوقى والبارودى ٠

وتكاد معارضات النبهانى تستوعب أكثر من ثلث ديوانه فقد عارض همزية البوصيرى التى بلغت ثمانية وخمسين وأربعمائة بيت بقصيدة سماها " طيبة الغراء فى مدح سيد الأنبياء " أو " الهمزية الألفية " لأنها بلغت ألف بيت ٠ كما عارض بردة كعب بن زهير رضى الله عنه بقصيدة سماها " سعادة المعاد فى موازنة بانت سعاد " ٠ كما عارض الموشحات الأندلسية السينيات بموشح بلغت أبياته بيتين ومئة بيت ، وله موشح آخر عارض به الموشحات السبعة لعلماء دمشق الذين شببوا بمتنزهات دمشق ، وشبب النبهانى بمعالم الحرمين الشريفين ، وله موشح ثالث عارض به موشح أبى عبيد ٠

هذه معارضات النبهانى فى المدائح النبوية ، أما نقائضه فله قصيدة رد بها على كل من أبى المظفر العبادى السورى وأبى عبد الله محمد بن جمال الشافعى اليمنى ٠ اللذين ردا على قصيدة للامام تقى الدين السبكى التى يعترض بها على الامام ابن تيمية فى بعض المسائل الفقهية ، ومنها الطلاق وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ فكانت قصيدة النبهانى مناقضة لهاتين القصيدتين واحياء للنقائض الأدبية ، وان كانت قد اتخذت من الحجة والدليل مادة لها ولذلك تختلف عن نقائض جرير والفرزدق التى اتخذت من المثالب والطعن فى الأنساب مادتها ٠

وقد تمت بدراسة موازنة بين همزية البوصيرى وهمزية النبهانى ٠٠ لأن كلتيهما متأثرتان بالفكر الصوفى ، ولأن همزيتيهما تمثلان أطول القصائد لكل منهما وذلك بالاضافة الى أن كلا من البوصيرى والنبهانى عرف بمدائحه النبوية فى عصره حتى اشتهر بها ٠

وهناك ملاحظات على الهمزيتين كلتيهما تعطينا فكرة موازنة تقريبية ٠

الملاحظة الأولى : أن همزية النبهانى بلغت ألف بيت وهمزية البوصيرى بلغت ثمانية وخمسين وأربعمائة بيت ٠

الملاحظة الثانية : ينتقل البوصيرى بين المعانى الكلية انتقالا مفاجئا أما النبهانى فقد جعل عنوانا بارزا لكل معنى من معانى السيرة النبوية ٠

الملاحظة الثالثة : لم يلتزم البوصيرى الترتيب التاريخى فيما تطرق اليه من السيرة النبوية أما النبهانى فقد التزم بالترتيب التاريخى كما ورد فى السيرة النبوية ٠

الملاحظة الرابعة : لم يستوعب البوصيرى حياة الرسول فى همزيته حيث حذف بعض الجوانب الهامة من حياته صلى الله عليه وسلم أما الشيخ النبهانى فقد استوعب جميع الجوانب الهامة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

الملاحظة الخامسة : لم يوجد البوصيرى التوازن بين الجوانب التى ذكرها من حياة الرسول حسب أهميتها أما النبهانى فقد راعى الأهمية فى اعطاء الجوانب حقها من الاطالة ٠

الملاحظة السادسة : اهتم البوصيرى اهتماما خاصا بمناقشة اليهود والنصارى فى عقائدهم فى سبعين بيتا أما النبهانى فلم يناقشهم فى همزيته لأنه أفرد لها قصيدة الرائية الكبرى التى بلغت خمسة وعشرين وسبعمائة بيت ٠

الملاحظة السابعة : اشتط البوصيرى فى بعض المسائل الدقيقة فى القصيدة حيث هجا الخلفاء الذين جاءوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم خانوا عهد وذمة الحسين والحسن رضى الله عنهما أما النبهانى فقد كان موفقا جدا فى تعرضه لمثل هذه المسائل الخلافية الدقيقة من حياة الأمة الاسلامية ٠ دون أن يخدش منزلة أحد ٠

الملاحظة الثامنة : كانت الروح الصوفية مسيطرة على البوصيرى لكن استعماله للمصطلحات الصوفية قليل جدا مما يدل على ضعف ثقافته فى التصوف أما النبهانى فقد

أكثر من المصطلحات الصوفية مما يدل على ثقافته العميقة فى التصوف .

الملاحظة التاسعة : ولقد قمت ـ أيضا ـ بدراسة موازنة للهمزيتين راعيت فيها النقاط التالية المطلع ، المقدمة ، الموضوع ، الخاتمة وجعلت لها سبع ملاحظات . وقد تبين لى من خلال هذه المقارنة أن النبهانى قد أجاد فى كثير من المواطن أكثر من البوصيرى ولكن البوصيرى يبقى صاحب السبق التاريخى فى ابراز المديح النبوى غرضا مستقلا من أغراض الشعر ، ولعل اجادة النبهانى أتت من تمكنه من الاطلاع على مدائح من سبقه التى استفاد منها معنى ومبنى ولم يتسن للبوصيرى ذلك بالاضافة الى تمكن النبهانى من علم التصوف فهما وذوقا مما زوده بذخيرة من المعانى النبوية لم تتيسر للبوصيرى .

وفى الفصل السادس " رائد المدائح النبوية " : ـ تحدثت عن حياة النبهانى فى عصر تكالبت فيه على الاسلام تيارات صليبية اتخذت من اسماء الحرية والتقدمية شعارا لها ومن طلاب المدارس التبشيرية دعاة بدعوتها وقد كانت بيروت ـ التى عاش فيها النبهانى ـ قاعدة لهذه التيارات ومن هنا تحددت معالم كفاح وجهاد الشيخ النبهانى .

وبيد أن أحوال المسلمين كانت قد ساءت حتى أخذوا يبحثون عن القدوة الذى يجعلونه نبراسا لهم ، وقائدا يوجههم فأخذ النبهانى يتغنى بمآثر الاسلام وفضائل الرسول صلى الله عليه وسلم جاعلا من شخصيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ القدوة المنشودة .

وكان النبهانى يعمل فى اتجاهين الاتجاه الأول الاهتمام بنشر المدائح النبوية التى قيلت فى العصور الماضية والاتجاه الثانى الاكثار من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل مناسبة جاعلا من مدحه وسيلة لتنبيه المسلمين وعلاج مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والثقافية وفوق هذا وقف يرصد ما تنشره الجمعيات التبشيرية عن الاسلام ونبى الاسلام وكذلك الأفكار التى ينادى بها خريجو هذه المدارس من أولاد المسلمين وغيرهم .. تلك الأفكار التى كانت تلاقى صدى ورواجا لدى الناشئة من أولاد المسلمين المتطلعين الى حياة أفضل لبلادهم المشدوهين لما عليه الغرب

من تقدم وما عليه الشرق من تأخر .

وقد كانت مهمة هذه المدارس والجمعيات هى تفهيم المسلمين أن بعد الغرب عن الدين هو سبب تقدمه وتمسك الشرق بالدين هو سبب تأخره وقد تمثل هذا فى ظهور الجمعيات النسائية والأدبية والاجتماعية التى استبعدت الدين وتعاليمه من برامجها . وقد وجدت هذه الجمعيات رواجا وتغيرت أحوال المسلمين .

ومن هنا نلاحظ المهمة الصعبة التى تقع عاتق من ينادى بالاسلام وقد كان هناك علماء مخلصون فى بلاد الشام ومصر كشفوا حقيقة الفرنجة الحديثة محذرين منها ، وكان لكل منهجه ، أما الشيخ النبهانى فقد جعل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .. السلاح الذى يبطل كل دعاوى الفرنجة . وقد أخلص النبهانى لاتجاهه هذا فلم يؤلف فى غير المآثر المحمدية كما أنه أوصى باتلاف كل ما قاله من شعر فى غير هذا الغرض . ومن هنا عددته رائدا للمدائح النبوية ـ ولو كان زمنه متأخرا ـ لأنه نهض بها نهضة لم يسبقه اليها أحد من الشعراء فى تاريخ الأدب العربى فيما أعلم .

أما أهم معالم ريادته فهى : ـ

أولا : قصره أدبه وشعره على شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم : فالشيخ النبهانى لم يؤلف فى غير شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه لم يثبت فى ديوانه غير قصائده فى المديح النبوى وقد أوصى باتلاف ما قاله من شعر فى غير هذا الغرض . حتى انه عندما قدم على الخديوى عباس لم يمدحه بقصيدة بل قدم له ديوانه فى المدائح النبوية .

ثانيا : المجموعة النبهانية : لقد جمع النبهانى كل ما قيل فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم من زمن أبى طالب حتى عصره هو ، وقد تجمع له الكثير من قصائد المديح النبوى النادرة حيث انه أعلن عنها فى الصحف ومعظمها مخطوط وهى وهى تصلح لأن تقوم عليها عدة دراسات أدبية مقارنة وموازنة ، ولم يسبق لغيره أن جمع فى المدائح النبوية هذا الكم الذى جمعه فيما أعلم وكما قال الشيخ النبهانى نفسه .

ثالثا : تقدمه على أئمة المديح النبوى : ـ ذكر الشيخ النبهانى فى عدة مواضع من مقدمة مجموعته أن أئمة المديح النبوى هم الامام البوصيرى فالامام البرعى فالامام الصرصرى وقد قمت بدراسة مقارنة لما وصلنا من مدائحهم النبوية فوجدت أن الشيخ النبهانى قد سبقهم فى بعض النواحى من المدائح النبوية ومنها : ـ

أ ـ كثرة مدائحه النبوية : فقد أحصيت ما لأئمة المديح النبوى فوجدت أن الامام البوصيرى له ١٦٩٤ بيتا وللامام البرعى ٢١١٢ بيتا وللامام الصرصرى ٣٠٦٣ بيتا وللشيخ النبهانى ٤٧٦٩ بيتا .

ب ـ طول نفسه الشعرى :

ويمتاز النبهانى بطول النفس فى شعره عامة ومدائحه النبوية خاصة فله قصيدة الهمزية الألفية التى بلغت ألف بيت والرائية الكبرى ٧٢٥ بيتا والرائية الصغرى ٥٥٠ بيتا وله قصائد دون ذلك أما الامام البوصيرى فأطول مدائحه النبوية هى الهمزية التى بلغت ٤٥٦ بيتا وأما الامام البرعى فان أطول مدائحه النبوية بلغت دون الثمانين بيتا والامام الصرصرى أطول قصيدة له بلغت ستة وأربعين ومئة بيت وعلى هذا يكون النبهانى أطول أئمة المديح النبوى نفسا ...

ج ـ تصويره حياة مجتمعه فى مدائحه : ولقد ظهرت صورة المجتمع واضحة فى مدائح النبهانى النبوية مما يدل على أنه كان مشاركا لمجتمعه فى مشاعره ووجدانه وهو بهذا يمثل الشاعر الصادق فى أحاسيسه ومشاعره ولو راجعنا ما قاله أئمة المديح النبوى لما وجدنا لمجتمعهم أثر فى مدائحهم فقد استغلوا مدائحهم للرسول صلى الله عليه وسلم لطلب العفو والغفران لهم .

فقد عارض الامام البوصيرى والصرصرى والنبهانى بردة

كعب بن زهير . ولكنني ـ بعد الدراسة ـ لم أجد في شعر البوصيري أثرا لمجتمعه في قصيدته مع أنه عاش زمن الغزو المغولي في القرن السابع وكان الناس يعيشون في حالة اجتماعية سيئة ظهرت أصداؤها في عدة قصائد من ديوانه أما في مدائحه النبوية فلم أجد صورة لأحوال مجتمعه حتى في همزيته التي بلغت ٤٥٦ بيتا مع أنه قد اشتكى فيها من كثرة ديونه ومطالبة الغرماء له بالسداد .

والامام الصرصري لم أجد له أي أثر لمجتمعه في قصيدته التي وازن بها بردة كعب بن زهير بل استغرق في المديح الخالص للرسول والصحابة والخلفاء الراشدين مع أنه توفي مجاهدا يوم سقوط بغداد في يد التتار .

أما الامام البرعي فليس له موازنة لبردة كعب بن زهير ولو أخذنا قصيدته الرائية التي بلغت ثمانية وخمسين بيتا لما وجدنا أي أثر لمجتمعه فيها حيث انه استغرق في مدحه الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ذاكرا خطاياه وذنوبه .

أما الشيخ النبهاني فمشاكل مجتمعه مبثوثة في جميع مؤلفاته المنظوم منها والمنثور وهو كثيرا ما يقطع الكلام في موضوع لينبه المسلمين في أمر حادث مثل مدارس التبشير أو دعاة التجديد وقد شهد له بهذا الاستاذ شكري سويدان وبروكلمان .

رابعا : تشبيهه بحسان بن ثابت رضي الله عنه : ـ فقد حرص الشيخ النبهاني رحمه الله على التشبه بحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم ودفاعه عنه ، ولعل في مؤلفات النبهاني التي حصرها في شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم المنظوم منها والمنثور ما جعل هذه الفكرة تستقر في نفسيته وتثبت وقد تمثلت هذه الفكرة في تشبيهه بحسان بن ثابت في عدة مواضع من مؤلفاته وفي اعتبار نفسه محسوبا على الرسول

لمدحه له حيث جعل لنفسه حرمة مستمدة من حرمة الرسول صلى الله عليه وسلم تتمثل فى قوله من موشحه : ــ

كل من حاربنى أو ظلما ما وفى حق الجناب الأقدسى

ويقول ضوها برد الألوسى عليه :

وهلا عفا عنا لذنب بزعمه لخدمتنا روح الوجود أبا الزهرا

وتمثلت أيضا فى رؤية بعض الأدباء " للرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام يقول " النبهانى حسانى " وتمثلت فى مقابلة النبهانى للخديوى عباس وقد ساءت أحواله المادية فقصده طلبا للمساعدة ولكن النبهانى لم يمدحه بقصيدة كعادة الشعراء بل قدم له مدائحه النبوية وكأن النبهانى قد ترفع بشعره أن يقوله فى غير مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ــ آنذاك ــ بعد أن عرف به وفى الأوساط الصوفية كانت كلمة " المحب " اذا قيلت لا تنصرف الا للشيخ النبهانى .

هذه هى مظاهر ريادة النبهانى للمدائح النبوية المستقاه من آثاره ونتاجه الأدبى الغزير .

خامسا : ريادة النبهانى لدى علماء عصره : ــ

ولقد شهد للنبهانى معظم علماء العصر بريادة المدائح النبوية تصريحا أو تلميحا ، وقد كانت أحكامهم له فى كتاباتهم عنه تتفق ومدى اطلاعهم على مدائحه النبوية ، ومنهم الشيخ كامل محيى الدين الداعوق والشيخ الحافظ محمد حبيب الشنقيطى والشيخ عبد الحفيظ الفاسى والأستاذ محمود عويدات والأستاذ أحمد الحلوانى والمستشرق بروكلمان والشيخ عبد الرزاق البيطار والأمير شكيب أرسلان والدكتور عبد الرحمن ياغى .

وقد قمت أنا بمقابلات شخصية لبعض العلماء الذين عايشوا الشيخ النبهانى فى زمنه وكانت لهم به صلة علمية أو انطباع أدبى وهم الاستاذ خير الدين الزركلى فى بيروت صاحب كتاب " الاعلام " والاستاذ أكرم زعيتر سفير الاردن فى بيروت عام ١٩٧٤ وهو تلميذ الشيخ عبد الهادى

عبد الهادي راوية شعر الشيخ النبهاني والاستاذ محمد جميل بيهم في بيروت وهو من أساتذة التاريخ الحديث المعدودين والشيخ طه الولي الملحق الثقافي لسفارة تشاد في بيروت والشيخ محمد نمر الخطيب رئيس رابطة العلماء في بيروت والشيخ عبد الله العلايلي في بيروت المعروف بأعجوبة الدهر لاتقانه عدة علوم والشيخ مختار العلايلي أمين الفتوى في لبنان والدكتور عبد الله كنون حاكم طنجة سابقا حيث وردتني منه ثلاث رسائل حول الموضوع والاستاذ محمد عزة دروزة في دمشق .

هذا ويعد الدكتور عبد الرحمن ياغي أفضل من كتب عن مدائح النبهاني بصورة فنية كما يعد الشيخ عبد الله العلايلي أفضل من قابلتهم من الشخصيات لأنه احتك بالشيخ النبهاني وكانت بينهما مناقشات علمية حول بعض المسائل الدينية التي لها صلة بالشيخ النبهاني ومدائحه الحادثة بالاضافة الى تنوع ثقافته الأدبية حيث أفادني في أوجه المفارقة والموافقة بين النبهاني وشعراء العصر .

أما الدكتور عبد الله كنون فقد كان علميا ومنطقيا في اعطاء الشيخ النبهاني حقه من القدرة الأدبية .

ومن الذين كتبوا عن مدائح النبهاني من غير اعجاب وتقدير لمنزلته الفنية الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور كامل السوافيري . حيث ذكر الدكتور الأسد أن مدائح النبهاني النبوية بعيدة عن فنية الشعر وهي ليست أكثر من نظم لا يربط بين المعاني والأفكار غير الوزن والقافية . والدكتور الأسد يبدو لي أنه لم يكن جديّا في نظرته الى مدائح النبهاني النبوية ذلك أنه لم ينظر الى مدائحه نظرة شاملة لأنه لم يورد ديوان النبهاني في كتابته عن مدائح النبهاني مما يدل على أنه لم يطلع على الديوان بالاضافة الى أنه لم يطلع على شعر النبهاني في غير المدائح النبوية مطلقا حيث لم يشر اليها من قريب أو بعيد ، وهو قد أورد ما شهد به شكيب أرسلان للنبهاني حيث يقول " وكان من رؤوس الأدباء ومن الشعراء

المطلقين وله القصائد الطنانة التى يحفظ الناس كثيرا منها " ثم أورد أبيات النبهانى فى مدح أبى الهدى الصيادى وهى " ويممت دار الملك أحسب أنها ... الأبيات " وقول شكيب أرسلان أيضا " وله يتائم أقوال سائرة فى الأفاق ..... الشيخ يوسف النبهانى الذى هو من أشعر شعراء العصر ... " فالدكتور الأسد فى حكمه على مدائح النبهانى بأنها مجرد نظم فقط لم يحقق لنا فى شهادة الأمير شكيب أرسلان للنبهانى بأنه من رؤوس الأدباء ومن الشعراء المطلقين وأنه من أشعر شعراء العصر علما بأن النبهانى وشوقيا متزامنان حيث توفيا عام ١٩٣٢ م . ولعل حكم الدكتور الأسد على مدائح النبهانى بأنها مجرد نظم مستمد من الحكم الشائع على الشعر الدينى بشكل عام بأنه مجرد نظم لعدم توفر الصور الفنية فيه مع أن مدائح النبهانى النبوية مليئة بالصور الفنية المعبرة مما يؤكد لنا مرة أخرى أن الدكتور الأسد لم يطلع على ديوان النبهانى . ولم يكن جديا فى حكمه على مدائح النبهانى النبوية .

أما الدكتور السوافيرى فلم يضف جديدا حيث انه ردد ما قاله الدكتور الأسد بالألفاظ والعبارات نفسها ثم عاد مرة أخرى يلتمس الأعذار لجودة مدائح النبهانى النبوية مرددا ما قاله الدكتور ياغى بكل الألفاظ والعبارات علما بأن مقياس الجودة لدى الدكتور السوافيرى هو اتقان الشاعر للغة أجنبية !!! ولهذا حكم على شعر النبهانى وشعر اليعقوبى بالضعف وحكم لصالح الأستاذ السكاكينى لأنه يجيد الانجليزية !!! وللأستاذين النشاشيبى والفاروقى لأنهما يجيدان الانجليزية والفرنسية !!!

والذى لاحظته أن جميع من كتبوا عن الشيخ النبهانى لم يطلعوا على ديوانه حتى يستطيعوا تكوين نظرة جامعة شاملة عن مدائحه النبوية بل اطلعوا على قصائد متفرقة من هنا وهناك ولهذا جاءت نظرتهم مشتتة بالاضافة الى أنهم لم يطلعوا على شعره فى غير المدائح النبوية الا الدكتور ياغى الذى اطلع على مدائح النبهانى لأحمد فارس الشدياق الموجودة فى كتاب " كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب " ولذلك أظهر تقديره لشعر النبهانى ومقدرته اللغوية الفذة علما بأن مدائح النبهانى للشدياق لم تكن أجود مدائحه بل هناك قصائد فى مدح أبى الهدى الصيادى

والاستاذ احمد عزت باشا العابد التي هي أفضل منها فنيا ولغويا . أما الأمير شكيب أرسلان فقد كان حيا زمن النبهاني وكان بينهما صلات أدب وشعر . ويبدو أنه كان مطلعا على جميع أشعار النبهاني في المدائح النبوية وغيرها ولذلك كان أكثرهم تقديرا للنبهاني حيث جعله من أشعر شعراء العصر " وقد كان أمير البيان الصدر الوحيد الأبيات التي ظهرت من شعر النبهاني في غير المدائح النبوية وهي قوله " ويمم دار الملك أحسب أنها .... الأبيات " وهي التي نالت اعجاب الجميع حيث أصبحت أنشودة دعاة القومية العربية يرددونها في وجه دعاة التتريك أما الاستاذ أكرم زعيتر فيبدو لي أنه قد اطلع على كل أشعار النبهاني لأن أستاذه كان راوية شعر الشيخ النبهاني وكاتبا في محكمته فهو يقدّر شعر النبهاني تقديرا يصل الى درجة الاعجاب .

وبعد كل هذا أقول لو تيسر للأدباء والنقاد الاطلاع على كل ما قاله النبهاني من شعر كما اطلعوا على شعر غيره من الشعراء لأحدث هذا انقلابا في مكانة الشعراء الفنية .

المصادر والمراجع

أولا : المقابلات الشخصية :

١ ـ الاستاذ خير الدين الزركلى ـ صاحب الاعلام ـ فى بيروت

٢ ـ الاستاذ أكرم زعيتر ـ سفير الاردن فى بيروت ١٩٧٤ ـ فى بيروت

٣ ـ الاستاذ محمد جميل بيهم ـ المؤرخ ـ فى بيروت

٤ ـ الشيخ طه الولى ـ الملحق الثقافى فى سفارة تشاد فى بيروت ـ فى بيروت

٥ ـ الشيخ محمد نمر الخطيب ـ رئيس رابطة العلماء ـ فى بيروت

٦ ـ الشيخ عبد الله العلايلى ـ حجة الدهر ـ فى بيروت

٧ ـ الشيخ مختار العلايلى ـ أمين الفتوى فى لبنان ـ فى بيروت

٨ ـ الاستاذ محمد عزة دروزة ـ المؤرخ ـ فى دمشق

المراسلات

راسلت الاستاذ الدكتور عبد الله كنون حاكم طنجة سابقا وقد وردنى منه ثلاث رسائل الأولى مؤرخة فى ٦ صفر الخير ١٣٩٧ والثانية مؤرخة فى ٥ ربيع الثانى ١٣٩٧ والثالثة فى ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٩٧

ب

ثانيا : المخطوطات :

١ ـ مؤامرات ضد الأسرة المسلمة للاستاذ محمد عطية خميس . حصلت عليها من المؤلف

٢ ـ جوامع النسب فى قبائل العرب ـ مجلدين ـ للاستاذ على نصوح الطاهر . حصلت عليه من المؤلف

٣ ـ النباهنة فى منطقة غزة لعلى بن سالم بن ابراهيم بن سالم بن سلمان بن نبهان النبهانى كتب فى غزة فى ١٩٦٢/٨/٤ حصلت عليه من محمد خير النبهانى فى دمشق

٤ ـ قصيدتان للشيخ يوسف النبهانى فى مدح أبى الهدى الصيادى بخط يد الشيخ عبد الهادى عبد الهادى راوية الشيخ يوسف حصلت عليهما من الاستاذ أكرم زعيتر سفير الاردن فى بيروت عام ١٩٧٤ . والقصيدتان فى حوزتى

٥ ـ الاعشى صناجة العرب للدكتور عبد السلام سرحان حصلت عليه من المؤلف

٦ ـ قصيدة للشيخ على بن سليمان اليوسف التميمى فى الرد على رائية النبهانى الصغرى وهى موجودة فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد تحت رقم ٨٨٦٣

٧ ـ قصيدة للشيخ عبد العزيز بن ابراهيم فى الرد على رائية النبهانى الصغرى موجودة فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد تحت رقم ٨٧٢١

٨ ـ قصيدة للشيخ سليمان بن سحمان فى الرد على رائية النبهانى الصغرى موجودة فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد تحت رقم ٨٧٨٩

٩ ـ قصيدة للاستاذ محمد بهجت البيطار فى الرد على رائية النبهانى الصغرى موجودة فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد تحت رقم ٨٧٢١

١٠ ـ الآية الكبرى فى الرد على رائية النبهانى الصغرى للسيد محمود شكرى الألوسى موجودة فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد رقم ٨٧٢١

ج

ثالثا : المطبوعات العربية : (١)

حرف الألف:

١ ـ أبجد العلوم صديق البخارى القنوجى طبعة بهوبال الهند ١٢٥٩هـ

٢ ـ ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب زكي المحاسني مصر ١٩٥٦ ـ

٣ ـ الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث الاب أنيس خـــورى المقدسى الجامعة الاميريكية فى بيروت الطبعة الاولى

٤ ـ الاتجاه الروحى فى شعر شوقى احمد الحوفى معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٧

٥ ـ اتجاهات وآراء فى النقد الحديث محمد نايل طبعة الرسالة بمصر

٦ ـ الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر كامل السوافيرى مكتبة الانجلو المصرية

٧ ـ الاتجاهات الادبية الحديثة فى فلسطين والاردن ناصر الدين الاسد القاهرة ١٩٥٧

٨ ـ الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر محمد محمد حسين دار النهضة العربية بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٢

٩ ـ اتحاف ذوى العناية " ثبت السيد محمد العربى العزوزى الادريســى الحســنى مطبعة الانصاف بيروت ١٩٥٠

١٠ ـ اتحاف المسلم بما ورد فى الترغيب والترهيب من أحاديث البخارى ومسلم يوسف النبهانى مصطفى الحلبى الطبعة الاولى ١٩٥١

١١ ـ الآثار الفكرية لعبد الله باشا فكرى ؛ أمين فكرى باشا المطبعة الاميريــة ببولاق الطبعة الاولى ١٨٩٧

١٢ ـ الاحاديث الاربعين فى وجوب طاعة أمير المؤمنين يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت

---

(١) مرتبة حسب الأحرف الهجائية وقد حذفت الألقاب .

١٣ـ أحسن الوسائل فى نظم أسماء النبى الكامل يوسف النبهانى لا يوجد مكان وتاريخ للطبع ٠

١٤ـ الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه محمد مصطفى صفوت دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٢

١٥ـ احياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطبعة الاولى المطبعة العثمانية ١٩٣٣

١٦ـ الادب المفرد محمد بن اسماعيل البخارى المطبعة النازية الطبعة الاولى

١٧ـ الادب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى على صافى حسين دار المعارف بمصر ١٩٦٤

١٨ـ الاداب العربية فى القرن التاسع عشر الاب لويس شيخو مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٢٦

١٩ـ أربعون عاما فى الحياة العربية والدولية احمد الشقيرى مطبعة دار المودة بيروت

احمد بن احمد

٢٠ـ ارشاد السارى شرح صحيح البخارى القسطلانى لا يوجد مكان وتاريخ للطبع

٢١ـ ارشاد الحيارى فى تحذير المسلمين من مدارى النصارى يوسف النبهانى المطبعة الميمنية القاهرة

٢٢ـ الأزهر تاريخه وتطوره وزارة الاوقاف وشؤون الأزهر ١٩٦٤

٢٣ـ أساس البلاغة لابى أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى لا يوجد مكان وتاريخ للطبع

٢٤ـ الاساليب البديعة فى فضل الصحابة واقناع الشيعة يوسف النبهانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثالثة ١٩٦٥ القاهرة

٢٥ـ أسباب التأليف من العاجز الضعيف يوسف النبهانى دار الكتب العربية الكبرى بمصر

٢٦ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ابن الاثير طبع المكتبة الاسلامية بطهران

٢٧ـ أسرار الماسونية جواد رفعت أتلخان منشورات المختار الاسلامى القاهرة ١٩٧٥

٢٨ـ الاسلام فى شعر شوقى احمد الحوفى المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة

٢٩ـ الاسلام فى القرن التاسع عشر كارل بروكلمان ترجمة منير بعلبكى دار العلم للملايين بيروت
٣٠ـ الاسمى فيما لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الاسما يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت ١٣٢٣
٣١ـ الاشارات فى علم العبارات خليل بن شاهين الظاهرى مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٤٠
٣٢ـ الاشتقاق لأبى بكر محمد بن الحسن بن دريد تحقيق عبد السلام هارون مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٩٥٨
٣٣ـ الاصول العربية لتاريخ سوريا فى عهد محمد على باشا جمعها الدكتور أسد رستم طبع الجامعة الاميركية فى بيروت
٣٤ـ أطباق الذهب شرف الدين بن عبد المؤمن بن هبة المغربى الاصفهانى شرح يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت ١٣٠٩ هـ
٣٥ـ أعلام المراق محمد بهجت الاثرى المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٥ هـ
٣٦ـ أعلام الأدب والفن أدهم الجندى مطبعة الاتحاد دمشق ١٩٥٨
٣٧ـ الاعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشر الهجرية زكى مجاهد دار الطباعة المصرية الحديثة
٣٨ـ الاعلام خير الدين الزركلى الطبعة الثانية
٣٩ـ الاعلام بفضائل الشام احمد سامح الخالدى القدس ١٩٤٦
٤٠ـ الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى محمد عمارة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة
٤١ـ الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى دار الفكر ودار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٦
٤٢ـ أفضل الصلوات على سيد السادات يوسف النبهانى بيروت ١٣١٠
٤٣ـ أم القرى عبد الرحمن الكواكبى حلب ١٩٥٩
٤٤ـ الانوار المحمدية من المواهب اللدنية يوسف النبهانى طبع القاهرة ١٣١٢
٤٥ـ أهل العلم والحكم فى ريف فلسطين احمد سامى الخالدى منشورات دائرة الثقافة والفنون عمان
٤٦ـ أوليات سلاطين تركيا محمد جميل بيهم مطبعة العرفان صيدا ١٩٣١

٤٧ـ ايقاظ الهمم فى شرح الحكم العطائية احمد بن محمد بن عجيبة الحسنى مكتبة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الاولى ١٩٦١

((ب))

١ ـ البداية والنهاية عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن محمد بن كثير القرشى الدمشقى مطبعة السعادة بمصر

٢ ـ البرهان المسدد فى اثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت ١٣٢٤

٣ ـ البشائر الايمانية فى المبشرات المنامية يوسف النبهانى ـ ملحق بكتاب العقود اللؤلؤية مطبعة صبرا بيروت ١٣٢٩ هـ

٤ ـ بلاغة العرب فى القرن العشرين محى الدين رضا مصر ١٩٢٤

٥ ـ بلادنا فلسطين الاستاذ مصطفى مراد الدباغ دار العودة الطبعة الاولى بيروت

٦ ـ بوشكين أمير شعراء روسيا نباتى صدقى سلسلة اقرأ رقم ٢٨ القاهرة ١٩٤٥

٧ ـ البوصيرى حياته وشعره عبد الفتاح القباني دار المعارف بمصر ١٩٦٨

٨ ـ البيعات فى الدين والاجتماع والادب عبد القادر المغربى المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٤ هـ

((ت))

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام السيد رشيد رضا دار المنار بمصر الطبعة الاولى ١٣٥٠

٢ ـ تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبرى مطبعة الاستقامة ١٩٣٩ القاهرة

٣ ـ تاريخ بئر السبع وقبائلها عارف العارف مطبعة بيت المقدس ١٩٣٤

٤ ـ تاريخ بيروت صالح بن يحيى تحقيق لويس شيخو المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٢٧

٥ ـ تاريخ الجمعية الارثوذكسية شكرى خليل سويدان القدس ١٩١٠

٦ ـ تاريخ الدولة العلية محمد فريد مطبعة التقدم بمصر الطبعة الثالثة ١٩١٢

٧ ـ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر الفريد بلنت سلسلة اخترنا لك عدد ٦٩

٨ ـ تاريخ الشيخ ظاهر العمر ميخائيل نقولا الصباغ المكاوى مطبعة القديس بولص حريصا ـ لبنان

٩ ـ تاريخ الشيعة حسين على محفوظ مطبعة النجاح بغداد ١٩٥٨

١٠ ـ تاريخ الصحافة العربية فيليب طرازى المطبعة الادبية ١٩٢٦ بيروت

١١ ـ تاريخ الطباعة فى الشرق العربى خليل صابات القاهرة ١٩٥٨

١٢ ـ تاريخ العروبه والعروبة فى حقبة التغلب التركى محمد عزة دروزة المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع دمشق ١٩٦٠

١٣ ـ تاريخ العرب مطول فيليب حتى وجماعة مطابع غندور الطبعة الرابعة بيروت ١٩٦٥

١٤ ـ تاريخ فلسطين عمر صالح البرغوتى وخليل طوطح مطبعة بيت المقدس القدس ١٩٢٣

١٥ ـ تاريخ المساجد والجوامع الشريفة فى بيروت محمد طه الولى الطبعة الاولى مطابع دار الكتب بيروت

١٦ ـ تاريخ الناصرة أسعد منصور مصر ١٩٢٤

١٧ ـ تبديد الظلام أو أصل الماسونية (المخفى عن عموم العالم حتى عن عموم الماسون المعرب عوض بك الخورى مطبعة الاجتهاد بيروت ١٩٢٩

١٨ ـ التجديد فى الادب المصرى الحديث عبد الوهاب حمودة الطبعة الاولى دار الفكر العربى بمصر

١٩ ـ تحت راية القرآن أو المعركة بين القديم والجديد مصطفى صادق الرافعى المطبعة الرحمانية بمصر الطبعة الاولى ١٩٢٦

٢٠ ـ التحذير من اتخاذ الصور والتصوير يوسف النبهانى بيروت ١٣٢٤

٢١ ـ تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر جورجى زيدان مطبعة الهلال بمصر ١٩١٠

٢٢ ـ الترجمة الشخصية شوقى ضيف دار المعارف بمصر

٢٣ ـ تركيا الحديثة محمد عزة دروزة مطبعة الكاشف بيروت ١٩٤٦

٢٤ ـ التربية والتعليم فى فلسطين كاتول جبرائيل القدس ١٩٤٧

٢٥ـ التصحيف والتحريف لأبي احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري مطبعة الظاهر القاهرة ١٩٠٨

٢٦ـ تعطير الانام في تعبير المنام عبد الغني النابلسي مطبعة عيسى البابي الحلبي

٢٧ـ التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني نبيل أيوب بدران سلسلة الدراسات الفلسطينية رقم ٦٣

٢٨ـ تفسير الاحلام سيجموند فرويد ترجمة مصطفى زيور ومصطفى صفوان دار المعارف بمصر

٢٩ـ تفسير جزء عم يوسف النبهاني مكتبة الجندي القاهرة

٣٠ـ التفسير الكبير فخر الدين الرازي المطبعة البهية المصرية

٣١ـ تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩١٤

٣٢ـ تقرير سيمبسون القدس ١٩٣٠

٣٣ـ تقرير اللجنة اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب لتلك الحالة القدس ١٩٣٠

٣٤ـ التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة محمد رفعت دار المعارف بمصر ١٩٦٤

((ث))

١ ـ الثورات سلامة موسى دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٥

٢ ـ الثورة العربية الكبرى أمين سعيد مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٣٤

((ج))

١ ـ الجامع الأزهر نبذة في تاريخه محمود أبو العيون مطبعة الازهر ١٩٤٩

٢ ـ جامع البيان في تفسير القرآن أبو جعفر محمد بن جرير الطبري مطبعة مصطفى البابي الحبي بمصر ١٩٥٤

٣ ـ جامع الثناء على الله يوسف النبهاني مكتبة الجندي القاهرة
٤ ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ضياء الدين بن الاثير تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦
٥ ـ جامع كرامات الاولياء يوسف النبهاني مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر
٦ ـ جب يوسف الصديق وقبره الشريف عبد الله مخلص مصر ١٩٣٠
٧ ـ الجذور التاريخية للقومية العربية عبد العزيز الدوري سلسلة الدراسات القومية دار العلم للملايين بيروت
٨ ـ جغرافية فلسطين المصورة قسطنطين خمار المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع بيروت
٩ ـ جغرافية فلسطين محمد سلامة النحال دار العلم للملايين ـ بيروت
١٠ ـ جمال الدين الأسد أبادي المعروف بالأفغاني ابن اخته ميرزا لطف الله خان ترجمه عن الفارسية وقدم له صادق نشأت وعبد النعيم حسنين مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٧
١١ ـ جمال الدين الأفغاني عبد القادر المغربي سلسلة اقرأ رقم (٦٨) دار المعارف بمصر
١٢ ـ جمال الدين الافغاني محمد سعيد عبد المجيد دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧
١٣ ـ جمال الدين الأفغاني محمود أبو رية سلسلة نوابغ الفكر العربي دار المعارف بمصر ١٩٦١
١٤ ـ جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي نشر وتحقيق ا ٠ليفي بروفنسال دار المعارف بمصر

((ح))

١ ـ حاضر فلسطين الياهو جرانت ترجمة منير بعلبكي ١٩٣٩
٢ ـ حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين يوسف النبهاني مكتبة الجندي بمصر

٣ ـ حديث لهيئة الاذاعة البريطانية في لندن صباح يوم ٢٨/٢/١٩٧٧
٤ ـ الحرب الصليبية الاوروبية التاسعة محمد الفرحاني بيروت ١٣٩٣هـ
٥ ـ الحروب الصليبية رفيق التميمي المطبعة التميمية القدس ١٩٤٢
٦ ـ حزب الاستغاثات بسيد السادات يوسف النبهاني المطبعة الادبية بيروت ١٣٢٤
٧ ـ حسر اللثام عن نكبات الشام المؤلف مجهول القاهرة ١٨٩٥
٨ ـ حسن الشرعة في مشروعية صلاة الظهر اذا تعددت الجمعة وبيان حكم التعدد على المذاهب الاربعة يوسف النبهاني ١٣٢٤ هـ مكان الطبع مجهول
٩ ـ الحقائق الأصلية الأصلية في تاريخ الماسونية شاهين بك مكاريوس مطبعة المقتطف القاهرة
١٠ ـ حقيقة الماسونية محمد علي الزعبي مؤسسة معتوق اخوان بيروت ١٩٧٤
١١ ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عبد الرزاق البيطار تحقيق محمد بهجة البيطار الطبعة ١٩٦٣ مكان الطبع مجهول
١٢ ـ حول الحركة العربية الحديثة محمد عزة دروزة صيدا ١٩٥٠
١٣ ـ حولية الثقافة العربية ساطع الحصري طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ القاهرة
١٤ ـ حياة الأدب الفلسطيني حتى النكبة عبد الرحمن ياغي المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت
١٥ ـ حياة الشرق دوله وشعوبه وماضيه وحاضره محمد لطفي جمعة دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٣٢

((خ))

١ ـ خلاصة الكلام في ترجيح دين الاسلام يوسف النبهاني مصطفى البابي الحلبي القاهرة الطبعة الثالثة ١٩٦٥

((د))

١ ـ دراسات في الادب الحديث بشير الهاشمي دار مكتب الفكر طرابلس ـ ليبيا

٢ ـ دراسات فى النقد الادبى رشيد العبيدى مطبعة المعارف بغداد الطبعة الاولى ١٩٦٨

٣ ـ الدر الفريد الجامع لمتفرقات الاسانيد عبد الواسع بن يحيى الواسعى مطبعة حجازى القاهرة ١٣٥٧ هـ

٤ ـ دعبل بن على الخزاعى عبد الكريم الاشتر المطبعة العلمية دمشق الطبعة الثانية ١٩٦٧

٥ ـ دلائل الخيرات مع حاشيتها المسماة الدلالات الواضحات على دلائل الخيرات المشتملة على الفوائد المهمات وتفسير ما لا بد منه من المعانى واللغات يوسف النبهانى مصطفى البابى الحلبى مصر ١٣٣٨

٦ ـ دليل التجار الى أخلاق الأخيار يوسف النبهانى المطبعة الأدبية بيروت ١٩١٣

٧ ـ ديوان البوصيرى تحقيق محمد سيد الكيلانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية ١٩٧٣

٨ ـ ديوان الأعشى ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعيد لقبه الاعشى ويكنى أبا بصير مطبعة التقدم بمصر

٩ ـ ديوان حافظ ابراهيم مصر ١٩٣٩ مطبعة دار الكتب الجزء الاول

١٠ ـ ديوان حافظ ابراهيم الطبعة الاولى مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٣٧ الجزء الثانى

١١ ـ ديوان حسان بن ثابت مطبعة الامام بمصر ١٣٢١

١٢ ـ ديوان حسان بن ثابت مطبعة السعادة القاهرة

١٣ ـ ديوان شكيب أرسلان مطبعة المنار ١٩٣٥ القاهرة

١٤ ـ ديوان كعب بن مالك تحقيق سامى مكى العانى مطبعة النهضة بغداد ١٩٦٦

١٥ ـ ديوان الكاشف احمد بن ذى الفقار بن عمر الكاشف مطبعة جريدة الراوى الجزء الثانى ١٩١٣

١٦ ـ ديوان محرم مطبعة الفتوح بدمنهور ١٣٣٨ الطبعة الأولى الجزء الثانى

١٧ ـ ديوان مشاهد الحياة اسكندر الخورى القدس ١٩٢٧

((ر))

١ ـ الرائية الصغرى فى ذم البدعة ومدح السنة الغرا يوسف النبهانى الطبعة الرابعة لا يوجد مكان وتاريخ للطبع
٢ ـ رجال الفكر والدعوة فى الاسلام أبو الحسن على الحسنى الندوى مطبعة جامعة دمشق الطبعة الاولى ١٩٦٠
٣ ـ الرحمة المهداة فى فضل الصلاة يوسف النبهانى دار الدعوة حماة ـ سوريا
٤ ـ رسالة الاربعين فى فضائل القرآن الكريم يوسف النبهانى تحقيق محمد خير الزيتونى طبع فى حلب رمضان ١٣٩٢ هـ
٥ ـ رشيد رضا أو اخاء أربعين عاما شكيب أرسلان مطبعة ابن زيدون دمشق ١٩٣٧
٦ ـ روح المعانى محمود بن عبد الله بن محمود الألوسى البغدادى ادارة الطباعة المنيرية ١٣٤٥ هـ
٧ ـ رياض الجنة فى أذكار الكتاب والسنة يوسف النبهانى طبع مصطفى البابى الحلبى الطبعة الأخيرة ١٩٥٣

((ز))

١ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم محمد بن حبيب الله الشنقيطى مطبعة مصر ١٩٤٥ القاهرة
٢ ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث أحمد أمين مكتب النهضة المصرية ١٩٤٩ القاهرة

((س))

١ ـ سبيل النجاة فى الحب فى الله والبغض فى الله يوسف النبهانى مكتبة الكليات الازهرية القاهرة ١٩٧٢
٢ ـ سحر هاروت سليم المنحورى دمشق ١٨٨٥
٣ ـ السراج المنير شمس الدين محمد بن احمد الشربينى المطبعة الخيرية بمصر

٤ ـ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين يوسف النبهانى ١٣١٨ هـ
٥ ـ السمو الروحى فى الادب الصوفى احمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى مصر ١٩٤٨
٦ ـ السهام الصائبة لأصحاب الدعاوى الكاذبة يوسف النبهانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثالثة ١٩٦٥
٧ ـ السيرة النبوية محمد بن عبد الملك بن هشلم مطبوعات عبد السلام شقرون

((ش))

١ ـ شرح ديوان البرعى "عبد الرحيم البرعى" مكتبة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٨
٢ ـ شرح ديوان كعب بن زهير بن أبى سلمة للامام أبى سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله السكرى الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٠
٣ ـ الشرف المؤبد لآل محمد يوسف النبهانى مطبعة مصطفى الحلبى الطبعة الاولى ١٩٦١
٤ ـ شعراء الحماسة والمروءة فى بلاد الشام أمجد الطرابلسى معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٥٧
٥ ـ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى عباس محمود العقاد مطبعة حجازى القاهرة ١٩٣٧
٦ ـ الشعر الحديث فى فلسطين والاردن ناصر الدين الاسد طبع معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة
٧ ـ الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين محمد كامل السوانيرى القاهرة ١٩٦٤
٨ ـ شوقى شعره الاسلامى الدكتور طاهر حسن فهمى دار المعارف بمصر
٩ ـ شوقى أو صداقة أربعين عاما شكيب أرسلان عيسى البابى الحلبى مصر ١٩٣٦
١٠ ـ الشوقيات ـ مجموع شعر شوقى ـ مطبعة ـ مصر ـ القاهرة
١١ ـ شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق يوسف النبهانى مطبعة مصطفى الحلبى بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٥

١٢ ـ الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية فى فلسطين محمد توفيق جانسا دمشق ١٩٣٧

((ص))

١ ـ الصراع بين الموالى والعرب محمد بديع شريف القاهرة ١٩٤٥
٢ ـ صلوات الثناء على سيد الأنبياء يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت ١٣١٧ هـ

((ط))

طرف الاصحاب فى معرفة الأنساب السلطان الملك الاشرف عمر بن يوسف بن رسول تحقيق ك . وسترستين مطبعة الترقى دمشق

((ع))

١ ـ عبد الحميد ظل الله على الأرض آلما وتلين ترجمة راسم رشدى مطبعة دار النيل للطباعة مصر ١٩٥٠
٢ ـ عبد العزيز جاويش أنور الجندى سلسلة أعلام العرب رقم ٤٤

٣ ـ العربية وشاعرها الأكبر احمد شوقى اسعاف النشاشيبى مطبعة المعارف مصر ١٩٢٨
٤ ـ العروة الوثقى جمال الدين الافغانى ومحمد عبده المكتبة الاهلية القاهرة ١٩٢٧
٥ ـ عصر ورجال فتحى رضوان مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧
٦ ـ العقود اللؤلؤية فى المدائح النبوية يوسف النبهانى مطبعة صبرا ١٣٢٩ بيروت

٨ ـ العقد الفريد لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٢
٩ ـ عقائد الامامية محمد رضا المظفر القاهرة مطبوعات النجاح ١٣٨١
١٠ـ على هامش السيرة طه حسين الطبعة الاولى دار المعارف بمصر ١٩٣٣
١١ـ علماؤنا كامل محى الدين الداعوق الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٠
١٢ـ علماء الاسلام والوهابية حسين حلمى آيشيق بن سعيد استانبول الناشر مكتبة آيشيق ١٣٩٢ هـ استانبول
١٣ـ علوم البلاغة احمد مصطفى المراغى مطبعة محمد محمد مطر مصر ١٩١٧
١٤ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ١٩٦٣
١٥ـ عنوان التهانى ببلوغ الامانى يوسف النبهانى المطبعة الادبية ١٠ جمادى الثانية ١٣٢٠ بيروت
١٦ـ عيون أخبار الرضى لأبى جعفر محمد بن على بن بابوية القمى طهران ١٣١٨ هـ

((غ))

١ ـ غاية الأمانى فى الرد على النبهانى محمود شكرى الألوسى مطابع نجد التجارية الرياض
٢ ـ الغرر الحسان فى أخبار الزمان للأمير حيدر أحمد الشهابى عنى بطبعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور أسد رستم وفؤاد أفرام البستانى المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣

((ف))

١ ـ الفتح الكبير فى ضم الزيادة الى الجامع الصغير مصطفى البابى الحلبى القاهرة
٢ ـ فلسفة التاريخ العثمانى محمد جميل بيهم المطبعة التجارية بيروت ١٩٥٤
٣ ـ فن التمثيل فى خلال قرن يوسف أسعد داغر بيروت ١٩٤٩

٤ ـ الفنون الادبية واعلامها في النهضة الادبية الحديثة أنيس خوري المقدسي دار الكتاب العربي ١٩٦٣

٥ ـ فيض الخاطر أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤ القاهرة

٦ ـ في ظلال القرآن سيد قطب طبع دار الشروق بيروت

٧ ـ الفيض المحمدي والمدد الاحمدي ـ ديوان أبو الهدى الصيادي الرفاعي الحسني تحقيق وجمع يوسف النبهاني مطبعة الجوائب القسطنطينية ١٢٩٨

٨ ـ في الشعر الجاهلي الدكتور طه حسين مصر ١٩٢٦

٩ ـ في ملكوت الله مع أسماء الله الحسنى عبد المقصود سالم دار جماعة تلاوة القرآن الكريم القاهرة ١٩٦٥

((ق))

١ ـ القاموس المحيط مجدي الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي طبع مؤسسة الحلبي القاهرة

٢ ـ القانون الاساسي والنظام العام ـ المحفل الاكبر الوطني المصري لعشيرة البنائين الاحرار القدماء المقبولين مطبعة طه ابراهيم ويوسف برلادي مصر ١٩٢١

٣ ـ قرة العين من البيضاوي والجلالين طبع مصطفى البابي الحلبي ١٣٣٨ القاهرة

٤ ـ قضية فلسطين العربية وضع ونشر الهيئة العربية العليا مطبعة السعادة القاهرة

٥ ـ قطوف من ثمار الادب الدكتور عبد السلام سرحان الدار القومية العربية للطباعة الطبعة الثانية ١٩٧٢

٦ ـ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها محمد عزة دروزة مطبعة الاتحاد دمشق .

٧ ـ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور محمد جميل بيهم شركة فن الله للمطبوعات ١٩٤٠

٨ ـ القومية العربية مصطفى الشهابى القاهرة ١٩٥٩

((ك))

١ كتاب مفتوح الى اللجنة المالية الانجليزية محمد عزة دروزة مطبعة دار الأيتام الاسلامية فى القدس
٢ ـ الكشاف محمود بن عمر الزمخشرى المطبعة البهية ١٣٤٣ هـ القاهرة
٣ ـ كلمة فى السلفية الحاضرة يوسف الدجوى مكتبة القدسى والبدير ـ دمشق ١٣٤٨
٤ ـ الكميت بن زيد الاسدى عبد المتعال الصعيدى مطبعة الرسالة القاهرة
٥ ـ كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب سليم فارس الشدياق مطبعة الجوائب الآستانة الطبعة الاولى ١٢٩٥

((ل))

١ ـ لباب التأويل فى معانى التنزيل على بن محمد بن ابراهيم البغدادى مطبعة المويلحى ٢٧٨ هـ القاهرة
٢ ـ لبنان فى عهد الامراء الشهابيين حيدر احمد الشهابى المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣
٣ ـ لسان العرب لابن منظور دار صادر ودار بيروت بيروت ١٩٥٦
٤ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان محمد فؤاد عبد الباقى دار احياء الكتب بمصر ١٩٤٩

((م))

١ ـ الماسونية دين فينيقى جان أبو نعوم لا يوجد مكان وتاريخ للطبع
٢ ـ الماسونية فى العراء محمد على الزعبى مؤسسة معتوق اخوان الطبعة الاولى ١٩٧٢ بيروت

٣ ـ مثير الغرام بفضائل القدس والشام لأبى محمود بن هلال المقدسى تحقيق احمد سامح الخالدى يافا ١٩٤٩

٤ ـ مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان تعريب فيليب وفريد الخازن مطبعة صبرا ١٩١١

٥ ـ المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية يوسف النبهانى دار المعرفة بيروت ١٩٧٤

٦ ـ مجالى الدرر لكتاب القرن التاسع عشر جمعة يوسف صفير بعبدا لبنان ١٩٠٦

٧ ـ مجموع الاربعين أربعين يوسف النبهانى مصطفى البابى الحلبى القاهرة

٨ ـ محاضرات عن الامير شكيب أرسلان سامى الدهان طبع معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة

٩ ـ محمد عبده عباس محمود العقاد سلسلة أعلام العرب تصدرها وزارة الثقافة فى مصر

١٠ ـ محمد عبده عثمان امين سلسلة أعلام الاسلام دار احياء الكتب العربية القاهرة

١١ ـ محمود سامى البارودى على محمد الحديدى سلسلة أعلام العرب رقم ٦٥ القاهرة

١٣ ـ المحفوظات الملكية المصرية أسد رستم ١٩٤٠

١٤ ـ محب الدين الخطيب صلاح الدين القاسمى القاهرة ١٩٧٤

١٥ ـ المديح سامى الدهان دار المعارف بمصر الطبعة الثانية

١٦ ـ المديح النبوى فى القرن الاول الهجرى على صافى حسين المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة

١٧ ـ المدائح النبوية زكى مبارك دار الشعب القاهرة ١٩٧١

١٨ ـ مذكرات عرابى احمد عرابى كتاب الهلال فبراير مارس ١٩٥٣

١٩ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليافعى اليمنى المكى مؤسسة الاعلمى للمطبوعات بيروت

٢٠ـ المسألة الشرقية مصطفى كامل مطبعة اللواء القاهرة ١٩٠٩ الطبعة الثانية
٢١ـ مستقبل التربية فى العالم العربى فى ضوء التجربة الفلسطينية عبد القادر يوسف القاهرة ١٩٦٢
٢٢ـ مصطفى كمال جوبرت فون مكوشى تعريب كامل مسيحة بيروت ١٩٣٣
٢٣ـ مصطفى كامل عبد الرحمن الرافعى مطبعة الشرق بالقاهرة ١٩٣٩
٢٤ـ المطالب القدسية محمد حسنين مخلوف مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية ١٩٦٣
٢٥ـ المطلع التقليدى فى القصيدة العربية عدنان البلداوى مطبعة الشعب بغداد ١٩٧٤
٢٦ـ معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب عبد الحفيظ الفاسى المطبعة الوطنية ١٩٣١ الرباط المغرب
٢٧ـ معجم المطبوعات الياس سركيس مطبعة سركيس مصر ١٩٢٨
٢٨ـ مغنى الكروب ومفرح القلوب يوسف النبهانى مصطفى البابى الحلبى بمصر
٢٩ـ مقدمة ابن خلدون المكتبة التجارية الكبرى بمصر
٣٠ـ مقالات الكوثرى محمد زاهد الكوثرى مطبعة الانوار ١٣٧٣ هـ القاهرة
٣١ـ ملحق البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة الحسينى اليمنى الصنعانى الطبعة الاولى ١٣٤٨ مطبعة السعادة بمصر
٣٢ـ من تاريخنا محمود العابد المطبعة التعاونية عمان ١٩٦٤
٣٣ـ مناهج الدراسة الادبية فى الادب العربى شكرى فيصل مكتبة الخانجى مصر
٣٤ـ منتخب الكلام فى تفسير الاحلام محمد بن سيرين عيسى البابى الحلبى
٣٥ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية تقى الدين بن تيمية المطبعة الكبرى الاميرية بولاق بمصر الطبعة الاولى ١٣٢١
٣٦ـ منهل الوراد فى علم الانتقاد قسطاكى الحمصى مكتبة هندية مصر
٣٧ـ منهج الفن الاسلامى محمد قطب دار الشروق بيروت
٣٨ـ الموازنة بين الشعراء زكى مبارك مطبعة المقتطف والمقطم القاهرة

٣٩ــ منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين صلى الله عليه وسلم يوسف النبهانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ط الاولى ١٩٦٤

٤٠ــ الموجز فى تاريخ القضية الفلسطينية قسطنطين خمار المكتب التجارى بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٦

٤١ــ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين مصطفى صبرى مطبعة عيسى البابى الحلبى ط الاولى ١٩٢٥

((ن))

١ ــ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨

٢ ــ نجوم المهتدين ورجوم المعتدين فى دلائل نبوة سيدنا محمد سيد المرسلين والرد على أعدائه اخوان الشياطين يوسف النبهانى المطبعة الحميدية المصرية ١٣٢٢

٣ ــ النظرات مصطفى لطفى المنفلوطى الطبعة الثامنة مصر ١٩٤٠

٤ ــ النظام الاقتصادى فى فلسطين سعيد حمادة الجامعة الاميركية فى بيروت ١٩٣٩

٥ ــ نظرة عابرة محمد زاهد الكوثرى مطبعة أمين عبد الرحمن القاهرة

٦ ــ نفحة الشام فى رحلة الشام تأليف محمد عبد الجواد القاياتى طبع ١٩٠٨

٧ ــ النقد التحليلى لكتاب فى الادب الجاهلى محمد احمد الغمراوى المطبعة السلفية القاهرة ١٩٢٩

((هـ))

١ ــ هادى المريد الى طرق الأسانيد يوسف النبهانى مصطفى البابى الحلبى ١٣١٨ القاهرة

٢ ــ الهاشميون والقضية الفلسطينية أنيس الصايغ منشورات جريدة المحرر والمكتبة العصرية ١٩٦٦ صيد لبنان

٣ ــ هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين اسماعيل باشا البغدادى ١٩٥١ مطبعة وكالة المعارف استانبول

٤ ـ الهمزية الألفية ـ طيبة الغراء فى مدح سيد الانبياء ـ يوسف النبهانى المطبعة الادبية بيروت ١٣١٤

٥ ـ هل الادباء بشر اسحق موسى الحسينى بيروت ١٩٥٠

((و))

١ ـ الواسطة فى معرفة أحوال مالطة أحمد فارس الشدياق طبعة الآستانة

٢ ـ وثبة الشرق اسماعيل مظهر ١٩٢٩

٣ ـ الوحدة العربية محمد عزة دروزة المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر بيروت ١٩٥٨

٤ ـ وحى الشاطئ مصطفى درويش نابلس ١٩٥٩

٥ ـ الوسائل الادبية فى الرسائل الاحدبية للشيخ عبد الهادى بن السيد رضوان نجا الابيارى مطبعة الوطن القاهرة ١٣٠١

٦ ـ وسائل الاصول الى شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم يوسف النبهانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى

٧ ـ الوسيلة الادبية حسين المرصفى مطبعة المدارس الجزء الثانى ١٢٨٩

٨ ـ ولاية بيروت محمد رفيق ومحمد بهجت بيروت ١٣٣٥ هـ

((ى))

١ ـ اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الاكابر عبد الوهاب الشعرانى مصطفى البابى الحلبى الطبعة الاخيرة ١٩٥٩

٢ ـ اليوم والغد سلامة موسى مصر ١٩٢٧

ملاحظة : ـ عند ترتيب المطبوعات من المصادر والمراجع لم أستطع أن أستوفى المعلومات عن بعضها لكثرة القسائم المتجمعة عندى وهى : ـ

١ ـ الفكرة العربية فى مصر أنيس الصايغ

٢ ـ محاضرات فى نشوء القومية العربية

٣ ـ المسائل الكافية
٤ ـ مهذب الاغانى نصيف الخضرى
٥ ـ الوافى بالوفيات صلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدى
6) Tent work in palestine London 1912 .

خامسا : الدوريـــات :

١ ـ الاهرام ـ جريدة ـ أنشأها سليم وبشارة تكلا فى القاهرة
٢ ـ الاخاء ـ مجلة ـ أنشأها مسعودى فرهود فى طهران ـ ايران
٣ ـ الاستاذ ـ مجلة ـ أنشأها عبد الله النديم فى القاهرة
٤ ـ الاديب ـ مجلة ـ تصدر فى بيروت
٥ ـ التحرير ـ مجلة ـ أنشأها الماسون ـ أبناء العشيرة الحرة ـ فى حمص
٦ ـ التربية الاسلامية ـ مجلة ـ أنشأتها جمعية التربية الاسلامية فى بغداد
٧ ـ ثمرات الفنون ـ مجلة ـ أنشأها عبد القادر القبانى فى بيروت
٨ ـ الجمهورية ـ جريدة ـ فى القاهرة
٩ ـ الجوائب ـ جريدة ـ أنشأها احمد فارس الشدياق فى الآستانة
١٠ ـ الرسالة ـ مجلة ـ أنشأتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية فى بغداد
١١ ـ الزهرة ـ مجلة ـ أنشأها جميل البحرى فى حيفا
١٢ ـ صوت الاسلام ـ مجلة ـ أنشأها محمد عطية خميس فى القاهرة
١٣ ـ الضياء ـ مجلة ـ أنشأها ابراهيم اليازجى فى بيروت
١٤ ـ الطريق ـ مجلة ـ أنشأها عمر فاخورى فى بيروت
١٥ ـ الطليعة ـ مجلة ـ أنشأها رشوان عيسى فى بيروت
١٦ ـ العروة الوثقى ـ مجلة ـ أنشأها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ـ فى باريس
١٧ ـ العربى ـ مجلة ـ أنشأتها حكومة الكويت فى الكويت
١٨ ـ الفتح ـ مجلة ـ أنشأها محب الدين الخطيب فى القاهرة

١٩ـ الكشاف ـ مجلة ـ أنشأها مقر الكشاف العام في بيروت
٢٠ـ المشرق اليسوعية ـ مجلة ـ أنشأها لويس شيخو في بيروت
٢١ـ المقتطف ـ مجلة ـ أنشأها يعقوب صروف في بيروت
٢٢ـ المنار ـ مجلة ـ أنشأها السيد رشيد رضا في القاهرة
٢٣ـ المقتبس ـ مجلة ـ أنشأها محمد كرد علي في دمشق
٢٤ـ النفائس ـ مجلة ـ أنشأها خليل بيدس في حيفا
٢٥ـ النفائس العصرية ـ مجلة ـ أنشأها خليل بيدس في حيفا
٢٦ـ النفير ـ مجلة ـ أنشأها ايليا زكا في القدس
٢٧ـ هدى الاسلام ـ مجلة ـ أنشأتها وزارة الاوقاف والمقدسات الاسلامية في عمان
٢٨ـ الهلال ـ مجلة ـ أنشأها جورجي زيدان في القاهرة
29) Impact International fortnight London.

1) British Encyclopidia 1965

2) Carl Brochelman, Geschicht Der Arabischen Litterature Zweiter Band Leiden E.J.Brill 1949 Supplement Band.

3) Chain Weizman, Trialand Error New York 1949 .

4) Consul General on the Finances, administration, and condition of Egypt and the Soudon. Reports by His Majesty's agent .

5) David Lioyd George, War Memoirs London 1938 .

6) Government of Palestin, Survey of palestine 1946

7) Oliphant. L, Haifa of life in Modern Palestine London 1887 .

8) Leint. C.R. Conder, The Survey of Western palestine, committee of the palestine exploration fud, I Adom Street, Adelphi, London W.C. 1882 .

9) Palestine Superinted; Census of palestine Alexandria 1933 .

10) Tibow. A.L.; Arab education in Mandotary Palestin, London 1956 .

فهرس الجزء الثالث

الباب الرابع مدائحه النبوية	٧١٣
الفصل الاول نشأة المدائح النبوية وأطوارها	٧١٣ ـ ٨٠٤
مقدمـــــة	٧١٣
المدائح النبوية فى العصر المكى	٧١٥
المدائح النبوية فى العصر المدنى	٧٢١
الاسلوب الاول المدح التقليدى	٧٢٢
الاسلوب الثانى المدح المباشر	٧٢٦
الاسلوب الثالث الرثـاء	٧٢٩
المدائح النبوية فى العصر الراشدى والأموى	٧٣٤
الفرزدق	٧٣٤
الكميت	٧٣٦
المدائح النبوية فى العصر العباسى	٧٤٦
دعبل	٧٤٦
نظرة فاحصة على موقف الاسلام من المديح والشعر	٧٥٤
موقف القرآن الكريم	٧٦٤
موقف الرسول صلى الله عليه وسلم	٧٦٦
موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من الصحابة رضى الله عنهم	٧٧٠
موقف الامام الشافعى	٧٧٢
موقفى الشخصى	٧٧٣
البوصـــــيرى	٧٧٦
مدائحه النبوية	٧٧٦
البردة	٧٧٦
الهمزية	٧٨٣
المدائح النبوية فى العصر الحديث	٧٨٦
محمود سامى البارودى	٧٨٩
احمد شوقى	٧٩٤

الفصل الثانى : مدائح النبهانى وبواعثها	٨٠٥ـ٨٥٣
البواعث العامة	٨٠٥
البواعث الخاصة : قريته ، والده ، الأزهر	٨١٣
الفصل الثالث : نماذج من شعره فى المدائح النبوية	٨٥٤ـ٨٨٦
النموذج الاول	٨٥٤
النموذج الثانى	٨٦٥
النموذج الثالث	٨٧٣
الاسلوب الاول	٨٧٣
الاسلوب الثانى	٨٧٧
الفصل الرابع : الخصائص الفنية فى مدائحه النبوية	٨٨٧ـ٩٧٦
العاطفة	٨٨٧
وحدة الشخصية	٨٩٨
الافكار	٨٩٩
١ـ الفكر الصوفى	٩٠٠
٢ـ السيرة النبوية	٩٠٣
٣ـ ترتيب أفكاره	٩٠٨
الحكمة	٩١١
النوع الاول	٩١٢
النوع الثانى	٩١٤
الصور الشعرية	٩٢١
الانفعال	٩٢٢
النوع الاول	٩٢٣
النوع الثانى	٩٢٤
الحقيقة والمجاز	٩٢٧
الالوان النفسية	٩٢٩
الالوان الحسية	٩٣١
التورية	٩٣٢
الكناية	٩٣٤
الحركة المتلاحقة	٩٣٥

اللغـــة	٩٣٨
أ ـ الالفاظ والتراكيب	٩٣٨
ب ـ الجناس	٩٤٢
جـ ـ الطباق	٩٤٣
د ـ المذهب الكلامى	٩٤٤
هـ ـ حسن التعليل	٩٤٥
و ـ المبالغة	٩٤٧
ز ـ الترصيع	٩٥٧
بنـاء القصيـدة	٩٥٨
أ ـ وحدة الموضوع	٩٥٨
ب ـ مقدمة القصيدة	٩٦٢
جـ ـ حسن التخلص	٩٦٨
د ـ جودة المطلع	٩٧٢
هـ ـ ختام القصيدة	٩٧٧
و ـ القافية	٩٨٢
ز ـ التصريع	٩٨٤
الفصل الخامس : معارضاته ونقائضه فى المدائح النبوية	٩٨٧ـ١٠٢٢
قصائده المعارضة	٩٨٧
ملاحظات حول همزيتى النبهانى والبوصيرى	٩٩١
مقدمـــة	٩٩٣
الملاحظة الاولى	٩٩٣
الملاحظة الثانية	٩٩٣
الملاحظة الثالثة	٩٩٥
الملاحظة الرابعة	٩٩٧
الملاحظة الخامسة	٩٩٨
الملاحظة السادسة	٩٩٩
الملاحظة السابعة	١٠٠٠
الملاحظة الثامنة	١٠٠٤
الملاحظة التاسعة	١٠٠٦

المقدمة ١٠٠٧

الموضوع ١٠٠٩

الخاتمة ١٠١١

الملاحظة الاولى ١٠١٧

الملاحظة الثانية ١٠١٧

الملاحظة الثالثة ١٠١٨

الملاحظة الرابعة ١٠١٨

الملاحظة الخامسة ١٠١٨

الملاحظة السادسة ١٠١٨

الملاحظة السابعة ١٠١٨

الفصل السادس : رائد المدائح النبوية ١٠٢٣

ريادته للمدائح النبوية ١٠٢٣

أولا : قصره أدبه وشعره على شؤون الرسول صلى الله عليه وسلم ١٠٢٤

ثانيا : المجموعة النبهانية ١٠٢٩

ثالثا : تفوقه على أئمة المديح النبوى ١٠٣٩

أ ـ كثرة مدائحه النبوية ١٠٣٩

ب ـ طول النفس ١٠٤٥

جـ ـ تصويره حياة مجتمعه في مدائحه ١٠٤٩

رابعا : تشبهه بحسان بن ثابت رضى الله عنه ١٠٥٨

ريادة النبهانى لدى علماء عصره ١٠٦٤

آراء من قابلتهم فى النبهانى ١٠٧٥

١ ـ الاستاذ خير الدين الزركلى ١٠٧٥

٢ ـ الاستاذ أكرم زعيتر ١٠٧٦

٣ ـ الاستاذ محمد جميل بيهم ١٠٧٦

٤ـ الشيخ طه الولى	١٠٧٨
٥ـ الشيخ محمد نمر الخطيب	١٠٧٩
٦ـ الشيخ عبدالله العلايلى	١٠٨٠
٧ـ الشيخ مختار العلايلى	١٠٨٢
٨ـ الدكتور عبد الله كنون	١٠٨٣
٩ـ الاستاذ محمد عزة دروزة	١٠٨٨
خلاصة القول (مناقشة وتحليل)	١٠٩٠
الخاتمة	١٠٩٨
فهرس المصادر والمراجع	١١٤٦
الفهرس العام	١١٧٠